

ثلاثية
بكاء العريزة
علي عودة

الكتاب : بكاء العزيزة (ثلاثية)

المؤلف : د. علي عودة

الطبعة الثانية : القاهرة ٢٠٠٩

رقم الإيداع : ٢٠٠٩/٢١٠٠٠

الترقيم الدولي : 6 - 009 - 493 - 977 - 978 - I.S.B.N

الناشر

شمس للنشر والتوزيع

٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى- المقطم- القاهرة

ت/فاكس: ٢٧٢٧٠٠٠٤ (٠٠٢)- ٠١٨٨٨٩٠٠٦٥/٦٤ (٠٠٢)

www.shams-group.net

تصميم الغلاف : محمود ناجيه

حقوق الطبع والنشر محفوظة

لا يسمح بطبع أو نسخ أو تصوير أو تسجيل

أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة كانت

إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر

ثلاثية

بكاء العزيرة

علي عودة



إهداء

إلى..

التي بَعُدَتْ وَبَعُدَتْ

وما زالت عزيزة

علي

§ الجزء الأول

العين

(١)

إبراهيم الشّاهد

زخّات خفيفة من المطر بللت الإسفلت، وأثار جنازير الدبابات تبدو واضحة كأنّها عربون وداع.. مجموعة من الصبية ينسلون من أكواخ الصفيح التي جُهزت من غنائم المعسكرات البريطانية، يتجهون نحو الإسفلت متدثرين من لسعات البرد بملابس متنافرة مضحكة.. ملابس قذفتها وكالة الغوث إلى الأيدي المتعاركة المتدافعة، تلتقط الأيدي صرراً متنوعة الحظوظ، معاطف بأكمّام طويلة وسترات بقلنسوات غريبة وسراويل وجاكيتات مبرقعة فضفاضة.. وقلة محظوظة من الصبية تنتعل أحذية كبيرة، تضرب بها على الإسفلت! أحذية برقاب طويلة وأخرى بسيور جلدية! والرؤوس الصغيرة تتدثر بمناديل كالحة وملوّنة، تهلل وتملأ الكون نشاطاً وصخباً! شتاء كانوا لا يرحم لكن الأجسام الصغيرة المشاكسة لا تعباً بوصايا الأمهات وتحذيراتها، وتطلق إلى الإسفلت المختوم بآثار الدبابات..

في الليلة الماضية هطل المطر غزيراً مدراراً، وأنت الأكواخ الصغيرة
وبكت من ثقبها بما فيه الكفاية.. تجمعت المياه في أرضية الكوخ،
فنهضت أُمي مذعورة، تحاول إنقاذ الأغذية القديمة، وما تيسر من
الملابس، خاصة ملابس أبي النظيفة! كانت تصرخ وتطلب العون،
لكن أحداً لم يسمعها.. كلهم غارقون يصرخون ويستغيثون ويحاولون
إنقاذ حاجياتهم البسيطة..

خطفتنا أنا وأختي الصغيرة وقذفتنا فوق الأغذية التي حملتها على
صندوق خشبي، أظنه صندوق عرسها.. ارتفعت المياه وتحولت إلى
بركة صغيرة، أخذت تفتش عن حفنات الدقيق وعلبة السكر وقنينة
السيرج، تشبث بشقيقتي، صرخت وبكت، حاولت التماسك وتشبثت
بها أكثر، لكنني هويت معها إلى بركة الماء..

وهذا الصباح، تحولت زخات المطر إلى زذاذ جميل حنون، هذا صباح
للأطفال، وها هي الشمس تستجيب لصخبهم وضجيجهم وتشاكس
السحب الخفيفة الخجولة، تطل برأسها وتبتسم لهؤلاء العفاريت الذين
يملأون الدنيا جلبة وضجيجاً..

طريق غزة، أربعة كيلومترات شمال المدينة (عزبة أبو الخير) ثمانية
أكواخ من الصفيح، ثمانية فقط قذفت هذا الحشد من الشياطين
وأخرجته من جوفها البارد، وها هم يشاكسون مع الشمس هذا
السكون الشتوي الصارم..

رذاذ خفيف، رذاذ الذاكرة، أول الصحو وأول الأسئلة.. مطر وإسفلت وأكواخ صفيحية، وسياج من السنط العربي، الخيوط الأولى التي نسجت ثوب الحياة.. وثوب الاكتشاف.

- الهجّانة الهجّانة هيبه.. هيبه عبده عبده أسنانه بيضة يحب طبيخ البيصارة هيبه.

- امشي! عفريّة.. همارة.. امشي شيطانة.

ويزجر السوط مصدرًا فحيحًا مخيفًا، فيفر الصبية هلعين متعثرين في سراويلهم ومعافطهم، وأحذيتهم الكبيرة تنزّ الدماء من الأقدام الحافية الراكضة على تضاريس الإسفلت القاسية، لكن العفاريات يعاودون الكرّة، يتجمعون ويلحقون بأصحاب الوجوه السمراء المشققة، تغريهم العمامات الطويلة العجيبة، والأسنان البيضاء اللامعة.. يهرولون خلف الهجّانة وهم يتمايلون على تلك الجمال البيضاء الضخمة.

- هيبه.. هيبه.. عبده عبده أسنانه بيضة يحب طبيخ البيصارة.. هيبه.. هيبه..

- امشي يا كلبة يا عفريّة امشي يا بنت الهرام.. يا هرامية..

يضرب أحد الهجّانة بسوطه الطويل في الهواء فيصدر نفس الفحيح المخيف، ثم يلوئ الهجان الثاني عنق هجينه فجأة ويستدير إلى الوراء فيصدر الجمل الأبيض الضخم رغاء هادرًا، يزلزل كيان الصبية الصغار! يندفعون تجاه البيّارة، يحشرون أجسامهم في سياجها.. يعلقون في أشواك السنط العربي التي تدمي أطرافهم

ووجوههم، يتلهون بجروحهم عن متابعة المشاكسة ويجلسون
لإحصاء الخسائر في الأجسام المجرحة والملابس الممزقة.

تساءل أحد الصبية، ونحن نجلس بجوار السياج متعبين:

- الهجانة، مصريين ولا سودانيين؟

رد عليه صبي آخر:

- أبي يقول إنهم مصريين.

استكر صبي ثالث:

- المصريين وجوهم مش مشرحة يا شاطر!

عندها لكزني الصبي الجالس على يميني:

- أمك بتنادي عليك..

وعندما نهضت مغادراً سمعته يقول:

- المدرس بيقول أن ثورة قامت في مصر.. ثورة ضد الملك.

مطر خفيف، وإسفلت وآثار الدبابات، وصوت أمي ينادي وعندما
أصلها تُحضر السلّتين، كعادتها في كل يوم جمعة، سلة مخروطة
كبيرة وسلة صغيرة، تحمل السلة المخروطة على رأسها وقد ملأتها
بحاجيات عديدة، طحين.. ملابس أبي النظيفة، ثم تغطيها بمنديل
أبيض كبير، وأحمل أنا السلة الصغيرة وقد وضعت أمي فيها الأرز
والسكر والشاي وبقية ملابس أبي:

- أيش هذا اللي في وجهك؟ رحت على البيارة والسياج مرة ثانية!

- لا يمّه.. كنا بنلعب بس!

- أخ.. أخ.. مثك.. تعال أربط لك المنديل على رأسك، أيوه هيك..
يا الله احمل السلّة والحقتي.. يا الله يمّه تركت أختك عند الجيران يا
الله علشان نلحق نرجع.

نظرت إلى السلّة المخروطية، ثم نظرت إلى أمي فوجدتها قد حملت
سلّتها وتقاشرت على الإسفلت، متجهة إلى الشمال مثل الهجين،
تتهدد وحملت السلّة الصغيرة، ثم هرولت في إثرها..

كانت أمّي تغرز طرف ثوبها في حزامها العريض وقد لقت منديلها
حول رأسها ورقبتها ولاحظت أنها ارتدت تحت الثوب المطرّز تنورة
ملونة، يظهر طرفها بين الثوب والسروال الغامق الذي تحمى به
ساقها، وكان حذاؤها يخفي جزءاً هاماً من سروالها.

قال أبي وهو يخرج حذاءً غريباً من كيس الخيش:

- أحضرت لك كندرة يا هنيّة، كندرة محترمة انظري، أحضرها أحد
الذين يشتغلون في وكالة الغوث، كندرة مثل كنادر فرسان الخيل! مثل
كنادر يهوديّات المستعمرة انظري!

- الله يلعن المستعمرة واليهوديات وسيرتهن، لا تذكرني يا
عوض.. بدّيش الكندرة إذا بدها تخليني يهودية.

- هه.. هذه المرأة مجنونة ألبسيها يا شيخة جربّوها يا بنت جاد
الله.. وهل أرضى أن تصبّحي يهودية؟ أنا بمزح يا أم إبراهيم..

أنقل السلّة من يدي اليسرى إلى يدي اليمنى، ثم أرفعها وأضعها على
كتفي ويبدأ الطريق في الاتجاه نحو الشرق، ثم في الصعود لكن أمّي
لا تهدأ ولا تخفض من قفزها بذلك الحذاء العجيب.

سألتها وأنا أصعد الطريق لاهثاً:

- لماذا لا يأتي أبي إلينا؟

- زرع أبوك شوية قصب وخايف عليها من البدو والنواطير وأولاد الحرام.. زرع نصف الكرم قصب، والنصف الثاني مزروع خوخ وتين وعنب.. هانت الأمور؛ بعد جمعيتين أو ثلاث نبيع القصب، الحمد لله، القصب مليون، وإن شاء الله يجيب سعر.. هه يا لله يا سبع مد شوية هه..

- يمة متى اقرأ في مدرسة البلد؟

- إن شاء الله تقرأ الصف الثاني فيها، بيقول أبوك إن الوكالة خلّصت المدرسة في البلد.

- ومتى سنرجع إلى البلد؟

- عندما يروق الحال، تقول القبرصية إنها سترجع على الصيف، إنها جارتنا في الدار والكرم، إذا عاد الناس نعود معهم، الناس يستأنسون ببعضهم، لكن الدار تحتاج إلى ترميم! الحيطان والسطح والشبابيك والأبواب! مسكينة هذه البلد، الناس هاجرت مرّة وسكتت، وأهل بلدنا مشنتين حتى اليوم، مش عارفين حالهم مهاجرين ولا مواطنين؟!

وصلنا إلى الظهر، أعلى الطريق، وعندما نظرت إلى الغرب بدت خيام الهجانة بيضاء، تفتersh الكثبان الرملية القريبة من البحر، وثمة قوس من الأشجار الحرجية يحميها من الشمال، حيث الحدود، وإلى

شرق الطريق ظهرت شجيرات التين الشوكي طاغية على النباتات البرية الأخرى، وثمة زوايا حديدية مغروسة في الأرض وقد ظهرت أجزاء كبيرة منها، ولاحظت أن حجراً قد وضع مقابل كل زاوية، وفصلت بين الحجر والزاوية كومة مستطيلة من التراب! أحصيت الزوايا فإذا هي ثمانية مثل عدد أكواخ العزبة تماماً..

- أيش هذه الزوايا الحديدية؟

سألتها وأنا التفت تجاه الشرق

- هذه قبور الشهداء المصريين، اقرأ الفاتحة على أرواحهم.. استشهدوا في الحرب.

قرأت الفاتحة، ولحقت بأمي المتقافزة على الإسفلت وسمعتها تضيف:

- استشهدوا قرب المستعمرة "مستعمرة الغصين"، واستشهد معهم جماعة من بلدنا ومن البلدان المجاورة كان أبوك معهم، وكانت معه بارودة إنجليزية، أصيب في فخذه، ربنا نجاه من الموت.. إيه الله يرحم الشهداء..

رذاذ وإسفلت وخيام وزوايا حديدية.. وكنت أريد أن أسألها عن أشياء كثيرة: لماذا أقاموا المستوطنة؟ ومن هؤلاء الذين حاربوا وماتوا؟ ومن أين جاءوا؟ لكن الطريق كان قد أعياني والسلة قد أوجعت يدي..

وضعت السلة وجلست على يمين الطريق متعللاً بربط الحذاء الثقيل الذي أصرت أمي على أن أرتديه، تحسست وجهي وتفحصت آثار السياج الدامي، لكن المرأة التي تسابق الإسفلت صاحت هادرة:

- ليش قعدت؟ تعبت؟ يا خسارة على الرجال!!
أخبرتها أنها تطير ولا تمشى، وتوسلت إليها أن نستريح قليلاً لكنها هدرت مرة أخرى:

- انهض يا ولد انهض بلاش دلع، أبوك ينتظرنا وإذا تأخرنا يفضحنا، أعرف أنك جعان وتعبان، انهض يا سبع، اقتربنا هناك تأكل وتستريح، عمتك القبرصية تجدها حضّرت لك الطبخ اللذيذ الذي تحبه هيا يا بطل.

في الخريف، قالت القبرصية لأبي:

- أبو إبراهيم أن أوان الطابون.

أحضر أبي قوالب طينية جافة، وبعض ألواح الزينكو وساريتين من الخشب، شمّرت القبرصية وأمي، ثم خلطنا الطين ببعض القصل وشيدتا فرناً محدباً يشبه السلحفاة الكبيرة! بُني الفرن على مرحلتين: في المرحلة الأولى بُنيت القاعدة، وضمت الفتحة اليمنى، ثم بُني الجزء المحدب مع العرصة، وبعد أسبوع جف وركب على القاعدة ليكتمل الفرن المحدب.. طابون بثلاث فتحات واحدة كبيرة في واجهته، وأخرى متوسطة في خاصرته اليمنى، والثالثة صغيرة في أعلاه.. ثم غطاه أبي بألواح الزينكو والخشب ليصبح آمناً من المطر! رذاذ وإسفلت ودخان كثيف، وأجلس بالقرب من الطابون أراقب "القبرصية" وهي تحشو أعواد الحطب والأغصان الجافة في فتحة الطابون اليمنى.. يتصاعد الدخان كثيفاً لاهباً من فتحته العلوية، تدمع

عيناى لكنى لا ابتعد رغم توسلات أمى؁ وأصرُ على البقاء بجوار الطابون الدافئ اللذىذ.

تهمد النار وتتحول إلى جمر؁ فتسرع أمى وتقذف أقراص العجىن فى الفتحة الكبىرة وترصها على عرصة الطابون الملتهبة؁ تنهض "القبرصىة" وتحضر البوشة "قدرة صغىرة من الفخار"؁ تكون قد جهزتها بالفول والعدس والبصال وقليل من الأرز؁ وتضعها على فتحة الطابون العلوىة.. أئدفاً وأنعس؁ ثم أصحو وقد غمرتى نكهة الطبىخ الشهىة! استنشق الرائحة الفائحة وانشرها فى بدنى كله؁ يحضر أبى حبات البطاطا وبعض العصافىر التى اصطادها فى الصباح؁ يشوىها فى فتحة الطابون اليمنى؁ استنشق روائح الطبىخ والبطاطا والعصافىر المشوىة؁ وأستغرب كىف تخرج هذه الأشياء الشهىة من هذا الطابون العجىب!!

دخلنا فى طرىق يحفه سىاجان طوىلان من السنط؁ (الغىلان) بىارتان كبىرتان من اليمىن ومن الشمال؁ داخل السىاجىن أشجار كبىرة لمعت علىها ثمار البىرتقال؁ ثمار صفراء لامعة بعد مطر لىلة البارحة؁ احتفظت الأوراق بقطرات من المطر وتقافزت العصافىر داخل البىارة إلى اليمىن وأخرى داخل البىارة إلى الشمال؁ تقافزت وداعت أوراق الشجر وقطرات المطر العالقة؁ ثم هبطت أمامنا فى الطرىق ودخلت راكضة إلى السىاج!

كان أبى يعرف ألوان العصافىر وأسماءها:

- هذه حمّرية، تعرفها من رقبتها الصفراء، وهذا "اللامى"، تعرفه من رقبته السوداء، وذلك الدحلّ تعرفه من عينيه المكحولتين، وهذا الصرّج، تعرفه من صوته الصاخب ومنقاره المعقوف الحاد ورقبته المكحولة، أما ذلك الصغير بذيله الطويل الهزاز، والذي يملأ الدنيا قفزاً وحركة، فهو الفسفس، عصفور صغير لا يستحق الصيد..
رذاذ وسياج طويلان ويرتقال أصفر جميل وعصافير ملوّنة، ترفّزق وتنط داخل البيّارات، وتتقافز على أغصان الأشجار.

قالت أمى وهي تنتظرني لألحق بها:

- بيّارات كبيرة واسعة ويرتقال مثل الذهب خسارة فى أصحابها! انظر.. هذه بيّارة الأفندي، وتلك بيّارة شقيق الأفندي، وتلك بيّارة أخت الأفندي وهناك بيّارة بنت الأفندي.. بيّارات قاطعة أرض البلد من النصف، أحسن أرض فى البلد إلهم..

- همّه مش من البلد؟

- فشروا!

كان النواطير يروحون ويجيئون داخل البيّارات، بمحاذاة السياج، يسعلون، وينادون على بعضهم وكانت أمى تعرفهم فرداً فرداً، وسمعتها تردد أسماءهم، هذا صوت "الداشر" سلمان، وهذا صوت "القمرّجي" عدنان، وذلك صوت "السكرّجي" مهران وهذا صوت.. البرتقال الأصفر يلّمع فوق الأشجار التي انحنت أغصانها وناعت بثمارها.. ثمار قد تغري الصبية أو حتى الكبار الذين لا يدركون سوء

العاقبة، الأمر لا يخلو من طامع أو مجازف متهور، لكن النواطير لا يرحمون ولا يفرطون حتى فيما تساقط من هذه الثمار الصفراء.

- نواطير على الفرّاة أصحاب البيّارات يختارونهم من نوع معين، السكرجي والقمرّجي والشمحطي يضربون عصفورين بحجر واحد، يستكون هؤلاء المشبوهين وأصحاب السوابق من أهل البلد، يلقمون أفواههم ويملاؤن كروشهم ويكسرون عيونهم، يغدقون عليهم بالرواتب الكبيرة، التي لا يحلم بها الموظفون والمدرسون! وهكذا يضمّنون ولاءهم ومحافظةهم على أموالهم وأرزاقهم! وأهل البلد لا يقدمون على تخريب هذه البيّارات أو الاقتراب منها، مهما بلغ سوء الحال بهم! ليس خوفاً من الأفندية لكن النواطير من أبناء البلد، وهذا عيب في عرف القرية وتقاليدها، وإذا أقدم أحد على مثل هذا التجاوز قد يتحول الأمر إلى خلاف عائلي لا تحمد عقباه.

وسألت والدي:

- ليش اشتغلت ناطور في بيّارة الأفندي؟

- أنا مش ناطور أنا بيّرجي وأنا مكنتش مثلهم في يوم من الأيام ولما تكبر بقول لك السبب! كل ما أقوله لك اليوم هذه كانت أرضنا.

خرجنا من الطريق المحفوف بسياجي السنط، وغادرنا العصافير المتقافزة وأشجار البرتقال المثقلة بالثمار الصفراء الذهبية، ووصلنا إلى طريق بدت في نهايته أشجار التين والخوخ.. عندها قالت أمي فيما يشبه الصباح:

- سامع صوت "وادي العزيزة"؟ سامع يبهدر مثل الرعد.. انظر القصب اللي زرعه أبوك ما شاء الله! وهذا أبوك بقامته الطويلة ينتظرنا.. انظر تلك هي "القبرصية" بجواره.. هه المجنونة أحضرت العزيزة معها في هذا الطقس البارد، هل تراهم؟ ها هي عزيزة تشير بيدها نحونا انظر.

أنزل أبي السلّة من يدي، قبلني وأخذني في حضنه، ثم مسح قطرات الماء عن رأسي ووجهي! اقتربت العزيزة وقبلتني فضحكت، وضحكت "القبرصية" وأنزلت السلّة المخروطية من على رأس أمي، حملني والذي بين يديه واتجه نحو الوادي الهادر، أنزلني عند حافته ثم قال:

- انظر الخير.. هذا وادي الخير، السنة سنة خير.. في الصيف سنرجع إلى البلدة نعملّ الدار وتدخل المدرسة في البلد.

كان وادي العزيزة طافحاً حتى ضفتيه غمرت مياهه الأشجار المتناثرة في جانبيه وطفّت على سطحه أغصان وأعواد كثيرة.. اختفت القنطرة القديمة ولم يظهر إلا نتوء صغير من ذلك البرج المهدم الذي يعلوها اختفت عين العزيزة التي تنزّ في الصيف وتغدق على الناس ماءً عذباً رقيقاً، هذا هو الفيضان إذن..

- هذه المياه من شرق الوطن، من جبال الخليل.
قال أبي عندما دخل في الغرفة التي جهزت لتناول طعام الغداء.
تمتعت من جبال الخليل، ثم تأملت المياه المتدفقة فجاءني صوت القبرصية منادياً:

- تعال يا برهوم.. تعال لتأكل..

ووجدت العزيزة تجذبني من يدي وتسحبني، مشيرة إلى العصافير
والبطاطا المشوية والقدرة الفخارية العجيبة.. وعندما تنشقت رائحة
الطبخ الفاتحة أطلق والدي قهقهة مدوية ثم قال:

- اسحبيه يا عزيزة.. يا الله اسحبيه إلى البر، واحذري أن تسحبيه
إلى الماء..

عزيزة الخيال

الآن يتراءى لي كل شيء، وتستقر في رأسي أدق التفاصيل، أتذكر.. أتذكر الأشياء البعيدة المتناثرة.. الصور والأصوات حتى الزغاريذ ها هي تصل إلى أذني كأنها تنطلق الآن.. كان الوقت صيفًا، وكانت الرمال البيضاء الناعمة تغطي قاع الوادي، وفوق، عند ضفة الوادي كانت ثلاث شجرات من التوت.. تحتها مباشرة، تلك البقعة الصخرية، وفي وسطها العريضة.. العريضة وحولها جدار صخري مقوس.. جدار بناه أهل القرية بعد أن قطعوا حجارته من نفس المكان، حجارة كانت بيضاء وغيرت لونها السنون! هذه الكتلة الصخرية لا مثيل لها في الوادي بل لا مثيل لها في القرية كلها، مقطع صخري كبير يبدأ من ضفة الوادي وينتهي عند قاعه، عرضه يزيد على عشرة أمتار، وفي منتصفه تمامًا تكمن "العريضة".. والراغب في الوصول إلى هذه العين عليه أن يسلك أحد السبيلين: في الصيف حيث يتحول الوادي إلى طريق، عليه أن يصعد خمس درجات صخرية كبيرة، أما إذا أراد "العريضة" في الشتاء ولم تكن المياه قد غمرتها، فعليه أن يهبط خمس

درجات صخرية كبيرة أيضاً.. يصل العين فيزيح ذلك القرص الصخري المدور، ثم يجلب المياه ويسقى إبله وماشيته أو مزروعاته.. قرص كبير محفوف ليصبح غطاءً محكمًا، ثقيلًا لا يقدر على إزاحته إلا الأقوياء وأمي "القبرصية".. أما الماء العذب الذي يطفئ الظما ويرطب القلوب، فله صخرته.. صخرة يرشح منها ماء زلال، ينزّ من تحت الصخرة ثم يتجمع في حفرة صخرية صغيرة تشبه الحوض، تبدو فيها المياه رائقة صافية مثل الزجاج، مياه يصلها الكبار والصغار وفي الليل تشرب منها الزواحف والوحوش والظباء..

وفي هذا القيط، ها هو الوادي يتحول إلى طريق للنواطير والحصادين والرعاة، والصبية يحملون مخالي من الخيش يلتقطون سنابل القمح من الأرض ويتبعون الجمال، وها هي أشجار الكازورينا تنتشر على جانبي الوادي، كأنها مظلات للراحة يستظل الكادحون والمتعبون تحتها لفترة، ثم يواصلون سيرهم ذهابًا أو إيابًا، وعندما يصلون "العريزة" منتصف الطريق بين "أم الغزلان" التي أصبحت وراء الحدود والقرية يستريحون.

يطيلون قليلاً يسقون إبلهم ودوابهم وأغنامهم ثم يطلقونها لترعى في الوادي، تلتهم الجمال نباتات العاقول والحرفيش الشوكية، أما الدواب والأغنام فترعى في الأعشاب الطرية التي تنتشر في بطن الوادي.. يشربون من الماء العذب الذي تجود به الصخرة، يفتشون في شجرات التوت عن الثمار البيضاء، يعلق بعضهم بالأشجار، يهزها

لتنساقط ثمارها.. ثمار لذيدة تبل ريق الناس وتحلي حلوهم الجافة،
حلوهم الملتهبة بالقيظ وشقاء السنين..

قيظ ورمال بيضاء وثمار حلوة وأنا أضع السلة الصغيرة في يدي
وأصعد إلى شجرة التوت الوسطى، التقط الثمار البيضاء ألقم بعضها
وأضع بعضها الآخر في السلة ثم أنزل.. أهبط الدرجات الصخرية
الخمس، أنظر إلى الماء الرقراق، أزيحه أولاً- كما علمتني أمي-
أتركه حتى يصفو، ثم أغرف.. أغرف بيدي من الماء العذب.. أغرف
وأشرب.. أشرب ماءً حلواً مثل العسل، أشرب حتى أرتوي وأبلل
صدري وثيابي.. أحمل السلة وأعود أدراجي لأجد أمي مازالت
منهمكة في سقاية شتلات الخيار والبندورة والفلفل.. انظر إليها
فأجدها امرأة مشوقة القوام، تنتصب مثل الرمح، امرأة تحتفظ
بقسمات جميلة مريحة، رغم قسوة السنين.. تلبس ثوباً كالحا
وسروالاً غامقاً، وتلف على وسطها حزاماً جلدياً رجالياً، وتغرز في
وسطها "شبرية" خنجر مدبب يضمه جراب فضي منقوش.. خنجر
يشبه السيف الصغير، وتلف على رأسها "حطة" مرقطة، كوفية
يلبسها الرجال فقط، وقد دفنت تحتها ما تبقي من شعرها.. كانت
"القبرصية" تفرغ الماء من صفيحة كبيرة في إبريق من الصاج ثم
تسكبه تحت الشتلات الخضراء، لتبدو يانعة مشرقة بثمارها الخضراء
والصفراء..

لأمي "القبرصية" طريقة معروفة في جلب المياه! تجلبها في
صفيحتين.. دقت خشبة وسط كل فوهة صفيحة، ثم ربطتها في حبل،

تُعلق الصفيحتين في عصا قوية، ثم تثبتُ العصا على كتفها وتقبض عليها وتنزل إلى "العزيزة" تريخ القرص الصخري المدور، تملأ الصفيحتين ثم تحملهما وتصدد الدرجات الصخرية الخمس قوية خفيفة.. تعود إلى الكرم، تفرغهما ثم تعاود العمل حتى يَمْلُ منها النواطير والرعاة ويتخلّون عن مراقبتها.. امرأة قلبها من حديد وجسمها من فولاذ تخشاها الذئاب والوحوش، تعمل بلا كلل أو تعب مثل عوض الشّاهد الذي علمها كل شيء.. الاعتماد على النفس والشجاعة وعلمها صيد الثعابين! بالأمس وقفت متسمرة وأنا أراقبها من بعيد! كانت تصطاد ذلك الثعبان الطويل، كانت لها عصا خاصة بهذه المهمة الغريبة، عصا معقوفة ذات شعبتين صغيرتين تلاحق الثعبان ثم تغرز العصا على رقبته، بعد الرأس مباشرة، لا تقتله، لكنها تشل حركته فيتلوى مستسلمًا، تمسك به من نفس المكان الذي وضعت فيه الشعبتين وتضغط عليه ليفتح فمه، فتدس فيه العصا وتتركه يغرز أنيابه، تسحبها بقوة فتخرج أنيابه السامة، تفعلها مرتين أو ثلاث، تتأكد من خلو فم الثعبان من الأنياب والسم، تطمئن ثم تضعه في صدرها، وتنتظر زبائنهما من الرعاة والنواطير وبنات البدو، أولئك الطامعين في ثمارها وفي أرصفة التين الشوكي التي تتغذي بها الجمال الكثيرة المنتشرة في الجوار.. تداعبهم وتخيفهم فيهربون مذعورين، ومبتعدين عن أحوازا وحماها!

سألتها وأنا أناولها سلة التوت الصغيرة عن هذه الأشياء الغريبة التي تلبسها..

- مات أبوك فجأة وتركني لأواجه الدنيا والذئاب بمفردي كنت بين يدي قطعة لحم صغيرة.. قطعة عمرها خمسة أشهر، بعد موته جاءت الذئاب تعوي.. أقاربه وأقاربي، والأندال من أهل البلدة.. أنهيت حدادي عليه وخرجت لهم وقلت: عابد لم يمّت، وأنا "قبرصية" العابد، ولن أكون فرساً لغيره! ثم جززت صفائري ولبست حطته ولففت بها رأسي، ثم تمنطقت بحزامه وغرزت شبريته في وسطي!

- كيف مات أبي؟

- قتله اليهود، بعد الهجرة بسنة.. كان الناس يعودون إلى البلاد يجلبون بقية أمتعتهم أو أموالهم وأبقارهم وأشياء يجدونها في طريقهم.. وكان "وادي العزيزة" طريقهم المفضل عند العودة خاصة في الصيف.. وفي إحدى الليالي الصيفية، كان أبوك في الكرم ولم أكن معه، كان عمك عوض في كرمه، واتفق مع والدك في تلك الليلة على أخذ الحيلة والاختباء.. في منتصف الليل سمع أبوك صوت إطلاق نار داخل الحدود.. توقف إطلاق النار بعد قليل ثم ساد الهدوء، فاطمأن العابد! بعد ساعة سمع صوت استغاثة وأنيأ قرب "العزيزة" اتجه إليها فوجد اثنين من الجرحى يطلبان المساعدة هرع إلى عمك عوض يبحث عنه، كان يعرف أنه يختبئ هناك، عند السياج في بيارة الأفندي، هناك عند الحوض الكبير، مكان آمن لا يشك فيه اليهود.. ذهب إليه، وقبل أن يصله فاجأه اليهود! كانوا قد تعقبوا الجماعة الذين نهبوا المستعمرة وخطفوا أبقارها! أطلقوا النار فأردوه قتيلاً، ثم واصلوا سيرهم حتى وجدوا الجرحين عند "العزيزة" قتلوهما

وعادوا بعد أن ينسوا من اللحاق باثنين آخرين فرًا بالمتاع والأبقار..
مات أبوك مظلوماً وقد أوجعني موته المفاجئ.. بعد أن طردت الذئاب
ولبست هذه الملابس، جاعني عوض الشَّاهد وقال: أنا أخوك يا
قبرصية وأنت وابنتك في عيني وزادك من هذا الكتف وهذا الكتف،
كرمك مثل كرمي، أيدي على أيدك، على الزمن والذئاب.. ومن يومها
لم يقصّر الرجل..

- يا أم العزيزة

صاحت البدوية من خلف السياج.. عرفت أمي وأذنت لها أن تدخل
الحمى، وتوجهت سالمة إلى الجنوب، حيث الفتحة القريبة من
القطرة القديمة ثم دخلت من السياج، حاملة ربطة من خبز الصاج
وأنية فخارية مخروطية صغيرة (محلبة) مملوءة باللبن.. جلست
تحت شجرة الخوخ الكبيرة، وقالت:

- اليوم هدية بهدية يا أم العزيزة

- بسيطة يا سالمة الخضرة موجودة

وناولتها حفنة من التوت الأبيض، أخذتها ولقمت حباتها:

- لا! لا توت ولا خيار اليوم..

- أيش بدك يعني؟

- تنفذين وعدك؟

- وعدي! أي وعد؟

- تحكي لي حكاية العزيزة.. العاشقة!

- إيه القلب مهموم يا سالمة وهذا مش وقته.

- كل مرة بتقولِي نفس الكلام.. وحياة رحمة عمِّي العابد ما أروح اليوم إلا وتحكي الحكاية.

- إيه يا سالمة حلقتي بالغالي! فتحتي عليّ المواجه.. طيب نبدأ من وين من وين؟ الحكاية قديمة.. قديمة أيام كانت الأرض كلها لأهل البلد، قبل الأفندية، قبل ظلمهم ونهبهم لأرض الفلاحين وعباد الله المساكين.. قبل، قبل بكثير.. كانت عزيزة أحلى بنت في البلد، جداول طويلة، وعيون كحيلة، ورموش مثل السيوف ذبّاحة.. خصر ميس مثل عود الرمان، وجسم ناعم رقيق تجرحه النملة إذا مشت عليه، يعني حلوة، زينة مثل الحوريات.. خطبها الخطاب وطلبها الشباب، لكنها تدللت وتمنعت!! وفي يوم وصل القرية شاب مزيون طويل راكب على فرس شهباء قوية، مطرود من الأتراك، مطرود من عسكر التركية، كانوا يسموهم "الفراري".. قالوا ببلاده جهة الخليل، ولحظ "العزيزة" على العين، عشقها، وعشقتة شرب من أيديها ميه وأعطته محرمة معطرة.. طلبها من مختار البلد، وعرف بأصله وفصله.. أبوها رفض وأولاد عمها رفضوا ما بنعطي الغريب!! حاول معهم.. طلبوا منه الرحيل وترك القرية! وفي الليلة الثانية خطف "العزيزة" وهرب على حصاته.. خطفها وطار ولكنهم لحقوه تكاثروا عليه وأمسكوه ربطوه وعلقوه في شجرة الجميز، وشنقوه.. "العزيزة" هربت منهم اختفت ليلتين، وفي الليلة الثالثة وجدوها عند العين وذبحوها.. ذبحها أخوها وهي تشرب من العين، واختلط دمها بماء العين! ومن يومها تطلع وتشرب من العين في موعدها منتصف

الليل في منتصف شهر آب، والقمر طالع مضيء تبكي وتصرخ على حبيبها، تناديه ليأتي إليها ويطفئ شوقها.. ومن يومها كل بنت من البلد تولد في مثل تلك الليلة تصاب بالجنون، ومن يومها صار اسم العين "العزيزة" واسم الوادي "العزيزة" وبعض الناس يسمي العين "المجنونة".. وهذه هي الحكاية يا سالمة، وطار الطير الله يمسينا ويمسيكوا بالخير..

نهضت أمي وذهبت إلى الغرفة الطينية، أحضرت بعض الأشياء في منديلها ومدّت يدها للبدوية.. قفزت البدوية فجأة، ثم قالت مرتعشة:

- خضرة ولا حنش يا أم العزيزة؟

- لا.. لا يا سالمة.. شوفي.. شوية خضرة وأربعة أرغفة من خبز الطابون.. هه.. بعدين أنت بدوية والبدو لا يخافون الثعابين! اطمأنت البدوية، تقدّمت وتناولت الخضروات والخبز، ثم التفتت إليّ فجأة:

- الليلة سامر يا "عزيزة" تعالي اتفرّجي..

- مرة ثانية يا سالمة اليوم بدها تتفرّج على الزفة في البلد..

ثم أضافت بعد أن وصلت البدوية إلى السياج.

- قومي.. روعي نادي برهوم، بيحب فته اللّبن بخبز الصاج..

قومي وأنا أحضر الفتة على رجعتكم.

نهضت وتساءلت في نفسي (طول النهار تعارك البدو تسبّهم وتلعن جدودهم، لكنها تصادقهم، تهديهم الخضار والفاكهة وخبز الطابون، ويهدونها اللّبن والجبن وخبز الصاج.. تذهب إلى خيامهم وتسهر

معهم، ويأتون إلى كرمها ويسهرون معها، امرأة عجيبة مثل عمي
عوض هل يحبون البدو أم يكرهونهم؟)..

بين العريضة: والقرية هذا الوادي الكبير، مشينا فيه أنا وبرهوم حتى
وصلنا مشارف القرية، وعندما خرجنا منه كانت الزغاريد تُعلن أن
الزفة قد انطلقت من بيت العريس..

- أنظري! هذا جميل حب الرمان.. دائماً ييزف العرسان..

كان العريس يركب على فرس بيضاء ويرتدي عباءة بيضاء ويلبس
على رأسه عقلاً مقصباً مذهباً.. كان يضع ابن أخته أمامه على
الفرس، فاليوم عرس الكبير وطهور الصغير.. كان يضحك فيشرق
وجهه الأبيض المستدير، حفّ به رجلان.. شقيقه عن يمينه وابن
عمه عن يساره، يسيران معه ويمسكان بالفرس، وأمامه رقصة
امراتان أمه وشقيقته.. تناوبت معهما امرأتان عمته وخالته، وبدلت
معهما امرأتان ابنة عمه وابنة خاله.. كانت النسوة ترقص وتمسك
عروق الرياحان والتمرحنة والليمون، ثلّوح بالأغصان الخضراء
والصفراء وتغني:

واجب علينا.. واجب.. يا هالحبايب واجب..

ارقص وغني.. واجب.. عرس ابن عمي واجب..

واجب علينا.. واجب.. عرس ابن خالي.. واجب

تناوبت النسوة في الرقص ورش الملح والأرز على العريس، لتتناثر
الحبوب على رؤوس الرجال الذين ساروا مصطفين أمامهن.

كان الرجال يتمايلون ويتحركون ببطء، واجههم جميل حب الرمان
وأخذ يضرب على كفيه بقوة، يميل إلى الخلف ثم يضرب على كفيه
وينحني حتى يقترب من الأرض، والرجال يقلدونه ويرددون وراءه:

شَمَّوْا لَمَّوْا هالريحان	سأطه مَّته هالريحان
كَلَّك ريحة يا ريحان	للمليحة يا ريحان
الحنا الحنا يا بنات	اشترن مَّتا يا بنات
أنا الحتاوي يا بنات	أجرح وأداوي يا بنات
وتعالوا نغَّتي ع السمرة	كَلَّه عليها.. هالسمرة
والطول عليها هالسمرة	يا عود الزَّان.. هالسمرة
والوجه عليها هالسمرة	قمر نيسان.. هالسمرة
والصدر عليها هالسمرة	بلاط حمام.. هالسمرة
والعين عليها هالسمرة	فتحة فنجان.. هالسمرة
والفم عليها هالسمرة	ختم سليمان.. هالسمرة

وصلت الزفة إلى دار العدناتي، فخرج حاملاً دورقا كبيراً من
الألومنيوم، وعندما رآه الشباب صاحوا:

- عشان العريس ويا الله.. هيه.. هيه.. هيه
- يعطيكوا العافية يا شباب.. عقبال عندكم جميعاً.. يا الله بلوا
ريقتكم..

صبّ الشراب الأحمر في أكواب من الألومنيوم، ووزع على الرجال،
ثم ناول العريس كوباً، وناول ابن أخته الجالس أمامه كوباً آخر..
صبّت زوجته الشراب للنسوة، وباركت لأم العريس وأخته وقبلتهما،
ودعت بالعاقبة السعيدة لجميع الفتيات، ثم وخزت واحدة منهن في
صدرها، فشرعت في الغناء:

يا هويدلي يا هويدلي	الله معاك والتّبي
يا ويلي ويلي يا ربيع	يا صاحب الخصر الرفيع
إن كان جلابك ببيع	هوّا دوانا ونش تري
يا ويلي ويلي متّها	وأكبر بلايا متّها
ضحكت وبين سنّها	بين الشباب الهملّي

لم يكن "الجرن" بعيداً عن دار العدناني.. وفي "الجرن" لابد أن تقف
الزفة.. مساحة كبيرة ملك للبلدة كلها، مثل العريزة والساقية، هذه
الأشياء الثلاثة ملك لأهل البلدة كلهم!

قبل أسبوعين انتهى موسم البيادر ولم يبق منها سوى اثنين.. هناك
عند طرف الجرن.. في هذا الجرن مكان لكل عائلة تضع فيه بيئرها،
ولا تتجاوزه إلا باذن!

عندما حصد عمي عوض القمح من الجهة الشرقية في كرمه، أحضر
أحد البدو المنتشرين في المنطقة جملاً ضخماً، ووضع عليه كومة
كبيرة من القمح، ربط تلك الحبال المتشابكة ثم صعدنا أنا وإبراهيم

على كومة القمح التي استقرت على ظهر الجمل.. جاء عمي عوض، وعلمنا كيف نميل إلى الأمام عندما يصعد الجمل أو ينهض، وكيف نرجع إلى الخلف عندما ينزل الجمل أو يبرخ.. نهض الجمل وكنت خائفة لأنها المرة الأولى، أما إبراهيم فكان متماسكًا، لأنه يمارس هذه الهواية منذ سنوات! منذ سنوات وهو يقوم بهذه الهواية الممتعة والمخيفة.. يدسُ رغيفًا من خبز الطابون في يد البدوي ثم يصعد إلى الكومة قبل أن ينهض ذلك الحيوان العالي وينطلق تجاه الوادي..

قطع الجمل وادي العزيزة وعندما وصلنا إلى "الجرن" قام البدوي بإصدار أصوات أمرة ثم ضرب على أرجل الجمل.. "برخ" الحيوان الكبير وفك البدوي تلك الشبكة الحبلية فانقسم الحمل على الأرض إلى نصفين.. بعد يومين بادر عمي عوض إلى "الدقران" نبوت طويل رُكِبَ في طرفه أربعة أصابع حديدية، أسياخ طويلة مدببة، غرز الأسياخ الطويلة في كومة القش، ثم قلبها إلى الجهة اليمنى، ثم عاد وقلبها إلى مكانها، ثم كرر ذلك مرة ثانية وثالثة.. أحضر البغل وصعد به إلى الكومة الكبيرة ودار.. دار به فوق الكومة، ثم أمرنا أن نصعد ونفعل مثله، ونهبط في القش وندور لساعة أو ساعتين ثم نتعب.. في اليوم التالي أحضر النورج - كتلة خشبية مستطيلة تشبه الباب صُنعت من جذوع الأشجار وسويت من سطحها، أما في بطنها فقد رُكِبَ مناجل حديدية مسننة - .. ربط النورج في البغل ثم دار على الكومة الكبيرة، ينهر البغل ويدور فيهبط القمح وتهرس المناجل المسننة السنابل والعيدان الجافة فتهبط الكومة أكثر.. وفي اليوم

الثالث يوافق عمي عوض على أن أركب على النورج الخشبي يدور بي النورج وأضحك، أضحك وأتخيله آلة عجيبة تطوف بي الدنيا وتخترق البحار والجبال.. بعدها بثلاثة أيام أحضر عمي عوض "المذراة" نبوت ينتهي بخمسة أصابع خشبية متقاربة ملساء، أعطي ظهره لاتجاه الريح، وغرف من الكومة الناعمة المختلطة ثم قذف بمهارة وخفة في الهواء.. يتطاير التبن ثم يهبط بعيداً وقبله بقليل يهبط القصل، أما حبات القمح فتبهط قريباً وتشكل كومة صغيرة.. يقذف في الهواء فتزداد كومة القمح، وكومة القصل ويتناثر التبن مُشكلاً كومة تالئة كبيرة.. بعدها أحضروا زكائب كبيرة، من الخيش ذات خطوط حمراء وزرقاء ثم أرسلت إلى الدار لتفرغ هناك في "الخابية"، تلك الصومعة الطينية الكبيرة..

نسمات منعشة، وزغاريد وغناء وفرس بيضاء وعريس يرتدي عباءة بيضاء.. وقفت الزقة في الجرن وأطالت وتحلق الرجال حول اثنين منهما يلعبان "الحكم".. أمسك كل من الرجلين نبوتاً طويلاً ودار حول صاحبه.. دار الأول ثم هوى على صاحبه بقوة، فتلقاها الثاني على نبوته ثم دار حول صاحبه بدوره وهوى عليه بقوة، تلقاها الأول مثله تماماً، دار الاثنان وتضاربا وقفزا وسط تهليل وتشجيع المتفرجين، ثم تعانقا واندسا في وسط المصطفين.. بعدها تسابق اثنان على فرسين سريعين، وصلا إلى طرف الجرن، هناك حيث البديرين المتبقيين، ثم عادا مسرعين متجاورين وسط زغاريد النسوة وتصفيق المتفرجين.. وجاء دور الدبكة تحلق الرجال ونزل "الدبيكة"

إلى الوسط.. أخرج أحد الرجال من عب قمبازه شبّابة حديدية وأخذ
ينفخ فيها ثم أخذ الرجال يدبون على الأرض بحركات خفيفة.. ناول
العريس ابن أخته إلى إحدى النسوة، ثم قفز عن ظهر الفرس شبك
يده في يد أول المصطفين وأشار إلى صاحب الشبّابة، فأصدر الرجل
أنغامه الشجيّة العذبة، وأخذ يدبّ مع الأنغام:

يا ظريف الطول والله أنك ظريف	عذبت قلبي يابو الخصر النحيف
يا ظريف الطول وقف تا أقولك	رايح ع الغربية وبلادك أحسن لك
خايف يا ظريف تروح وتثملك	تستحطي بالغير وتنساني أنا
لأبعث سلامي مع طير الكركز	على ملثمة والعين بتغمز
يا طير يا طائر يا طير يا طائر	سلم ع الحلوّة أم الضفاير
لأبعث سلامي مع صحن نحاسي	على شكت البكل في الراسي

كان أحد الديبّة يضع في جيب قمبازه قطعاً نقدية معدنية.. يقفز
فتصطك القطع وتصدر خشخشة متناغمة مع قفزاته وكلما انفعّل
الرجل وازدادت حماسته، ازدادت الخشخشة وتقافزت القطع النقدية
داخل جيبه.

عند بيت العروس كان هناك جمل أيضاً، جمل وضع على ظهره
صندوق كبير، صندوق عليه مظلة تشبه العريشة، وأحيطت جوانبه
بوسائد حريرية وعُلقت حوله شراشف بشراشيب ملونة.

- يا سلام ما أحلى "الهودج" عقبال عندنا يا رب!

قالت إحدى الفتيات وتلفتت حولها، ثم اندست في دار العروس مع النسوة المتزاحمات المزغردات..

دخل العريس، فبدأت همهمة ثم ارتفعت الأصوات، ثم مشاجرة واشتباك وشيك.. وتدخل أحد الرجال:

- هذه عادتنا يا ناس خمسة جنيهاً "خلعة" لخال العروس قبل خروجها.. عندهم حق.. بسيطة أنا بأدفعها من جيبى اعتبروها نقوطا..

خرجت العروس يصحبها والدها وشقيقها.. كانت مغطاة من رأسها حتى قدميها وقد وضع والدها عباءته على ظهرها وأمسكت بسيف، ألصقته بوجهها وظل مرتفعاً عن رأسها قليلاً.. تعثرت العروس في ثيابها فزغردت النسوة وأعلنت تحيتها لوالد العروس.. في مهااة طويلة:

يا أبو قاسم يا ذياب بن غانم يا صاحب النخوات يا بو الغنايم
في فيتك تبقي البلاد محيقة وفي حظرتك هبت علينا النسايم

تبعتها مهااة ثانية ثم زغرودة.. صعدت العروس إلى الهودج ثم نهض الجمل وتحرك الشباب:

يا عريس عليك اسم الله جبنالك غزال محنا
يا عريس ويا منصور وبسيفك هديننا السور
واحننا أولاد الحمايل بالسيف نربي الهمايل

يا ويل اللي نحاربه	بالسيف نُقطع شاربِه
دير الميّه ع السريّس	مبارك فرحك يا عريس
دير الميّه ع الليمون	مبارك فرحك يا مزيون
دير الميّه ع الصقّاف	احنا سبوعة ما بنخاف
دير الميّه ع النعّاع	احنا سبوعة ما ننباع

وصلت الزفة إلى "الجرن" مرة أخرى فوجدت إبراهيم ممسكاً بيدي:

- تأخرنا يا عزيزة.. يا الله نرجع للعزيزة..

انطلقنا إلى الجنوب، وعندما وصلنا إلى الوادي أضاف:

- قللي لأمك تبحث عن شهادة ميلادك.. أكملوا بناء مدرسة البنات، بجوار مدرستنا تماماً.. إذا لم تجدوها، والذي بروح على "بندر الصحة" في غزة وبيستخرج واحدة جديدة.. لابد أن تتعلمي يا عزيزة..

نسّمات لذيذة منعشة، ورمال بيضاء ناعمة تغطي قاع الوادي، وثلاث شجرات كبيرة وأصوات الزغاريد تبتعد رويداً رويداً.. والعزيزة هناك أسفل الشجرات، والوادي يتحول إلى طريق للنواطير والحصّادين والرعاة.. والصبية يحملون المخالي ويلتقطون سنابل القمح المتساقطة من الجمال.. وأنا أجمع التفاصيل والصور، والزغاريد وأحاول تركيبها من جديد..

خالد الربيع

شأئت الأقدار أن يقع بيتنا في مواجهة مخزن التموين.. مخزن كبير يمدُّ المخيم بالحياة والبقاء! كان المخيم هبة ذلك المخزن العجيب.. من جوفه تخرج أشياء كثيرة.. أشياء تستمر بها حياة الناس والبشر.. أكياس كبيرة بيضاء، مملوءة بالدقيق، وأكياس صغيرة غامقة، مملوءة بالسكر والعدس والفول والأرز.. صُرر متنوعة.. ملابس وأحذية غريبة، وعلب اللحم المحفوظ وعلب جبنة القشقوان، وقناني السيرج، وأشهى ما يخرج المخزن ذلك النوع اللذيذ من السمك "المدخن" الذي أحبه!! وإذا تجرأ أحد وأنكر فضل ذلك المخزن عليه، ولم يعترف أنه نعمة من نعم الله على عباده، وأنه سبب استمراره وبقائه في الحياة، فأنا وأبي وأمي وأخوتي لا نستطيع أن ننكر أن حياتنا وبقاؤنا منة من ذلك المخزن، بعد الله عز وجل!! كيف لا؟ وأنا لا أستطيع أن أتذكر حياتي بدونه! نعم لا أستطيع أن أتذكر حياتي الأولى إلا معه.. بدأت حياتي مع أصوات المتزاحمين في طوابيره، نداءات الباعة وشتائم الحمّالين وسبابهم، نهيق الحمير

المربوطة، والتي تجر العربات.. بدأت مع خبط الصفائح والتكتكات في الرؤوس والأيدي والأكتاف عند بابه.. صراخ الأطفال واستغاثات النساء وعويلهن خارجه وداخله.. بدأت حياتي معه، ومع أربعة أشياء أخرى: برميل من الخشب، وصفحة من الزنك، وبابور من نوع بريموس، وبراد كبير لإعداد الشاي، أربعة أشياء تعيش معنا في الغرفة القرميدية التي أنام فيها مع جميع أخوتي الذكور والإناث!

كنت أصحو على أُمي، أراها تزيل الماء من البرميل وتسكب ماءً جديداً.. وبعد أيام تصب الملح وتُحرك "الترمس"، تغرف تلك الحبوب الصفراء وتكومها على صينية كبيرة، ثم تغرف الفول النابت من الصفحة، تُقلّيه، ثم تكومهُ بجوار "الترمس" على الصينية، بعد أن تجهز معه مخلوط الملح بالفلفل الأحمر المطحون وتضع عليه البقدونس وشرائح الليمون.. تُعدُّ أُمي الصينية ثم تبادر إلى ذلك البابور، تدقه في خاصرته ثلاث دقائق سريعة، يصعد الكاز إلى عينه، فتفرغه من الهواء وتشعله، ثم تدقه ثلاث دقائق خفيفة ثم تضع فوق طربوشه براداً كبيراً مملوءاً بالماء.. تصبُّ فيه السكر وتتركه ليغلي، ثم تُلقمهُ بالشاي، بعدها تقترب مني ترفع الغطاء عن وجهي بحنان:

- اسم الله عليك يمه.. صبحنا وصبح الملك لله.. قوم يا خالد.. البراد جاهز يمه.. يا الله يا حبيبي.. أبوك جهز الصينية يا الله.. استغفر ربك وأتوكل على الله..

وتحمل أُمي الصينية على رأسها وفي يدها اليمنى تحمل سطلاً مملوءاً بالترمس، وفي يدها اليسرى سطلاً مملوءاً بالماء، ويحمل

أبي الحمالة ذات الأرجل الثلاثة في يد وسلّة مملوءة بالأقماع الورقية في اليد الأخرى، يسير أمامها ويسعل.. أسير وراءه، وأنظر إليه وهو يعرج على ساقه اليمني، أسير متثاقلاً حاملاً براد الشاي الكبير وأربعة أكواب من الصاج وفي مواجهة المخزن مباشرة، يقف أبي ويضع الحمالة وبجوارها سلّة الأقماع الورقية "القرطيس".. تضع أُمي الصينية الكبيرة على الحمالة وسطلي الترمس والماء على الأرض، ثم تعود إلى البيت لتحضر كيس الحلوى.. يسعل أبي ويبدأ يومه باستغفار الباري وطلب الرزق الحلال.. يرشّ الماء على الترمس ثم ينادي:

- الترمس.. اللوز.. الترمس.. الفستق.. النابت.. اللوز..
وانطلق أنا حاملاً براد الشاي الكبير وأكواب الألومنيوم.. أتشّاء وأنادي:

- الشاي.. الساخن.. الشاي الحلو.. الشاي.. اللذيذ..
أنادي وأطوف بين الباعة والحمّالين وأصحاب البسطات والمنتظرين على أبواب المخزن.. أنادي وأدخل في زحام البشر والعربات والدراجات والدواب!! عند الظهر، يكون أبي قد باع كل ما حوته الصينية والسلّ من الحبوب الصفراء اللذيذة وأكون أنا قد أفرغت ثلاثة من تلك البرّادات الكبيرة.. نعود إلى البيت أناول أبي كيساً صغيراً من القماش، مملوءاً بالتعريفات والقروش المعدنية.. يحصى غلّة اليوم المبارك، يحمد الله ويشكره على نعمته ثم نتغذى بأقراص الفلافل واثنين من السمك المدخن اللذيذ، ثم يصلى أبي ويذهب في

قيلولة طويلة.. وأذهب أنا إلى كومة من الكتب والمجلات القديمة،
أنزع أوراقها، وأقرأ ما فيها كلمة كلمة ثم ألفها بشكل مخروطي،
وأصنع الأقماع الورقية التي نبيع فيها الترمس والفول النابت!
كيف لي أن أنكر فضل هذا المخزن بعد ذلك؟ لولا هذا المخزن
"الكريم" لما توافدت هذه الجموع الغفيرة من البشر، راجلين وراكبين!
لما تراحم هؤلاء الناس وتكدسوا أمام الأبواب وحولها.. لولاه لما
باع أبي الترمس والفول النابت والحلوى لهؤلاء المتزاحمين
ولأطفالهم المتصايحين، ولما باعت أنا أكواب الشاي للباعة وأصحاب
البسّطات والحمالين وأصحاب العربات والحمير، ولما جمعت هذه
التعريفات والقروش الكثيرة! لولا هذا المخزن الفاضل لما تمكنا نحن
عائلة سالم الربيع، المكونة من تسعة أفراد، من مواصلة الحياة في
هذا المخيم، بعد أن فقدنا مواسم الخير في القرية.. وبعد أن استقر
بنا المقام هنا.. هنا في غرفتين من القرميد، في مخيم يتلف سكانه
على حاجيات وكالة الغوث وينتظرون خروجها من أبوابه بفارغ
الصبر.. بل ينتظرون خروجها بالعراك والصراخ ولعن هذه الحياة
والأيام السوداء التي أحوجتهم إليها!

في أحد أيام الصيف حضر رجل مديد القامة إلى بيتنا وجلس بجوار
أبي، أمام مخزن التموين.. أذكر أن ذلك حدث قبل دخول اليهود إلى
المخيم، قبل العدوان الثلاثي بشهور قليلة.. أعتقد أنه كان في شهر
آب.. جاء الرجل على عربة يجرها بغل رمادي قوي.. وجاءت معه
امراة ذات ملامح مريحة ترتدي ثوبًا مظرّرًا جميلًا.. وجاء معهما

صبي يرتدي سروالاً - يبدو جديداً - وحذاءً لامعاً.. كان الصبي في مثل عمري تماماً كنا في العاشرة.. أذكر أنني كنت أنهيت الصف الرابع الابتدائي وكان هو كذلك.. نزل الرجل وزوجته وولده.. ربطوا البغل في جدار المخزن وحملا سلتيين كبيرتين مغطاتين بمنديلين أبيضين، ثم تقدموا نحونا مباشرة هس والذي للقاءهم وعانق الرجل بحرارة.. سلمت المرأة على أبي ثم دخلت إلى بيتنا.. أحضر أبي كرسيين صغيرين وأجلس الرجل وابنه:

- أهلاً.. أهلاً أبو إبراهيم.. أهلاً وسهلاً بالحبايب.. أهلاً بريحة البلاد يا مرحباً..

- والله اشتقتلك يا أبو خالد.. والله زمان..

- شايف يا أبو إبراهيم.. شايف الناس وحالهم، شايف الزحام والدعك ساق الله على أيام زمان.. ساق الله على أيام "أم الغزلان".. آه.. كيف حالك وحال الأسرة؟..

- مستورة.. مستورة يابو خالد.. الحمد لله.. الكرم ساترنا.. شوية فواكه وشوية خضرة وماشي الحال..

كان ذلك الرجل هو عوض الشاهد، وكان الطفل هو ولده إبراهيم.. وأذكر أنني أكلت يومها من تلك الثمار البيضاء والحمراء اللذيذة خاصة ذلك الخوخ المعطر. ومن خبز الطابون المنفوخ، الذي حوته تلك السلة المغطاة بالمنديل الأبيض.. وأذكر أننا ذهبنَا -أنا وإبراهيم- إلى دكان الرجل البدين مصطفى البطش، محل تأجير

الدراجات - كان مصطفى البطش صديقًا لوالدي - واكثرنا درّاجتين بلون وسط..

- بسكليتات اللون ما بتغرز في الرمل.. هذه ما بتطلع إلا للحبابب وأولاد الحبابب.

وخرجنا من المخيم.. ووصلنا إلى ذلك الطريق المظلل الطويل.. طريق "بيارة القرم".. ثم عرجنا إلى الجنوب ووصلنا إلى "تلة المنطار" استرحنا هناك.. حدثته عن المخيم وحدثني عن القرية، ثم عدنا من طريق "الشجاعة" إلى "بئر الصفا".. وهبطنا إلى المخيم.. وعندما وصلنا كانوا في انتظارنا لتناول الغداء.. بعد الغداء سمعت حديثًا شجيًا عن أيام زمان، أيام الحصاد والغلال والموارس والبيادر و"أم الغزلان":

- ما أم الغزلان هذه؟

سألت عندما تكرر الاسم أكثر من مرة..

- آه.. أم الغزلان اسم المنطقة التي فيها أرضنا وأرض عمك عوض. كانت أرضنا مجاورة لأرض عمك عوض ولا يفصل بينهما سوى طريق ترابي ضيق.. طريق يفصل بين أحواز القريتين.. كانت الموارس كبيرة.. قمح وذرة وشعير.. وكنا نسقي الدواب ونشرب من "العزيزة"، العين الواقعة في أحواز قرية عمك عوض.. العزيزة مش بعيدة عن أم الغزلان.. قديش المسافة يا أبو إبراهيم؟

- نصف ساعة مشي على الأقدام! ثلاث قرى كانت تشرب من "العزيزة" أبوك يا خالد له بطولات في أم "الغزلان" خجلان يحكي عنها..

- بطولات! كيف يعني؟

- بعد ما بنى اليهود المستعمرة في أرض الغصين المجاورة لأم الغزلان، تحولت حياتنا إلى جحيم.. لا زرع ولا قلع ولا مواسم ولا بيادر.. بعدين بدأت الثورة وحملنا البواريد.. كان أبوك من النشامى المعدودين.. ما زلت أذكر رشاشه الجديد.. آه لو رأيته بذلك الرشاش وصف الفشك على وسطه.. المهم.. بعد كر وفر دخلت الجيوش العربية.. هجمنا على المستعمرة وحاصرناها.. شردوا وتركوها، وسيطرنا عليها.. قعدنا فيها ثلاثة أيام.. انتظرنا المدد والعون.. لكن المدد والعون والعتاد وصل لليهود.. واحنا جيوشنا انسحبت وتركتنا، حاصرونا.. صمدنا ودافعنا.. لكن الذخيرة خلصت.. آه.. أبوك بطل يا خالد.. حمى النشامى حتى آخر واحد.. من كثرة رصاصه حسبوه مجموعة كبيرة من المجاهدين.. قذفوه بالرشاشات الثقيلة.. جرحوه في ظهره وفي ساقه اليمنى.. هجمت على المستعمرة أنا وعابد الخيال الله يرحمه.. وسحبناه من وسط الرصاص والدخان.. كان بين الحياة والموت.. حملته على ظهري وكانت ساقه مثل البسكويت مهشمة والدم ينزف. وأنا أخذت رصاصة في فخذي من غير ما أحسن..

تقطع صوت عمي عوض، فناولته إبريق الماء.. شرب واستغفر
الله.. وعندما نظرت إلى عيني أبي، وجدتهما مغرورقتين بالدموع..
وخزنتي أمي ثم قدمت الشاي:

- اتفضل يا أبو إبراهيم.. هذه السيرة بتجيب النكد.. الله يفرجها
علينا..

وعلق أبي وهو يمسح دموعه:

- الحمد لله.. الحمد لله.. إحنا عايشين بالحظ وإرادة الله سبحانه
وتعالى.. إن شاء الله بتهون..

وسحبت إبراهيم من يده وخرجنا لنجلس أمام مخزن التموين، نراقب
الناس والدواب والعربات والأطفال المتصايحين..

أحب إبراهيم الشاهد المخيم.. وبدا في فترة من الفترات أنه عاشق
له.. كان يحب اكتراء الدراجات من دكان البطش، وأكل العوامة من
دكان الكحلوت، والفلافل من مطعم البدرساوي.. وكان يحب - مثلي -
ذلك السمك "المدخن".. أمّا الشيء الذي يحبه ذلك القروي أكثر من
غيره، فهو الجلوس بجوار والدي، والتفرج على تلك الحشود
البشرية المتصايحة المتعاركة.. ويضحك أبي عندما يسمعه يتفلسف:

- هذه هي الحياة يا أبو خالد.. هذا هو الإصرار على البقاء..
هؤلاء الناس يشبتون قدرة الإنسان على التكيف والتأقلم مع الظروف
الصعبة!!

كان فيلسوف الشئلة!.. الشئلة التي تكونت أثناء وجوده في المخيم..
عندما دخل اليهود إلى القطاع سنة ١٩٥٦، هجرت أسرة عوض

الشَّاهد قريتها الحدودية وجاءت إلى المخيم.. عاشوا معنا، في بيتنا الصغير الضيق شهراً كاملاً.. كانت أمي وأمه وشقيقتي وشقيقاته، هذه الأنفس العشر تنام في غرفة.. وأنا وإبراهيم وثلاثة من أشقائي وثلاثة من أشقائه الذكور، ننام في غرفة.. أما والدي، فقد كان ينزوي في ذلك الركن القريب من باب المنزل، يتدثر ويتكوّم بجوار برميل كبير مملوء بالماء.. وكان عمي عوض الشَّاهد - كعاداته - يعيش مختفياً في القرية متنقلاً بين الحواكير والبيارات والوديان.. يأتي من وقت لآخر، يطمئن على أسرته، ثم يعود إلى مريضه مرة أخرى!

خلال ذلك الشهر، اكتشف إبراهيم عيوب المخيم.. اكتشف رائحة المراحيض المشتركة، وقنوات المجاري التي تنساب في أزقة المخيم براحتها الكريهة.. أسراب الذباب المجتمعة على أكوام القمامة، النوافذ الواطئة القريبة والجدران المتلاحمة، والعراك الدائم، المسموع في الليل والنهار!!

- على الأقل، ما بتزاحموا في قريتنا على حنفيات المياه والمراحيض.. في القرية ساقية، تملأ النسوة والفتيات جرارهن منها وهناك بوابير في البيارات، وحنفيات سبيل.. ومعظمنا يقضي حاجته في مراحيض متواضعة خلف البيوت، وبعضهم يقضيها في الحواكير أو الكروم.. في القرية مش محتاجين هذه المراحيض المشتركة ولا القنوات ذات الرائحة الكريهة.. بيوتنا واسعة ولا يوجد فيها هذا الالتحام المقيت.. في المخيم تشعر وكأنك تعيش في العراء، كل شيء

مكشوف ومسموع ومفصوح.. صحيح بيوتنا متواضعة وتكاد تكون أكثر تواضعًا من بيوتكم، لأنها مبنية بطوب اللبن ومسقوفة بالقش والطين مش بالقرميد، وصحيح البراغيث بتخرج من شقوق تلك الجدران وتداهمنا في الصيف وتنغص حياتنا، والأمطار تداهمنا في الشتاء وتذيب الجدران والبيوت الطينية الضعيفة، نستغيث ونطلب العون، نكابد ونُعد سواتر الطين والقصل، ونرصّها أمام البيوت لمنع تدفق المياه إلى الداخل.. كل هذا صحيح، لكن يظل حالنا أفضل وتظل القرية أرحم!!

توثقت علاقتي بإبراهيم وتكوّنت "رابطة الجوالين الصغار" كُنّا أربعة من الصبية، إبراهيم الشّاهد، وعصام الفايز وعبد الله الشريف وأنا، كانت أعمارنا بين العاشرة والثانية عشرة.. نلتقي في كل يوم جمعة، أمام دكان مصطفى البطش، نكتري الدراجات، نخرج من المخيم ونتجه إلى الشرق، حتى نصل إلى "تلة المنطار"، ثم نعود ونتجه إلى الشمال.. نسير وسط البيّارات حتى نصل إلى "العريزة".. يجلب لنا إبراهيم ما تيسّر من الفواكه أو الحمضيات ثم نعود أدرجنا إلى المخيم..

بعد انسحاب إسرائيل من القطاع تطورت أهداف الرابطة وتغيّر خط سيرها، صرنا نتجه إلى الحدود.. نتحاور مع أفراد قوات الطوارئ الدولية.. نقدّف في وجوههم ما تعلمناه من مفردات اللغة الانجليزية، نشير إلى الشرق أو الشمال، حيث يبدو العلم الإسرائيلي، نشير لهم بعلامة × ونبرز خريطة فلسطين وقد كتبنا عليها Palestine، نشير

بأصابعنا إلى الخريطة ونقول هذه فلسطين وليست إسرائيل..
بيتسمون ويقدمون لنا اللبان والشيكولاته، نشكرهم ونُصِرُ على إبراز
الخريطة والاسم، ثم نعود إلى درّاجاتنا التي وضعناها تحت ظلال
الأشجار..

في أيام المباريات، كنا نذهب على الأقدام.. نصل إلى ذلك الملعب
الكبير، وهناك نجد فرق قوات الطوارئ من السويد ومن كندا ومن
الدنمارك ومن النرويج، وأيضًا نجد فرقتين من الهند ويوغسلافيا
وكنا دائمًا نشجع ونهتف للفريق اليوغسلافي أو الهندي!
- هؤلاء أصدقائنا.. هؤلاء من دول عدم الانحياز، أصدقاء جمال
عبد الناصر..

كنا مقتنعين بما يقوله إبراهيم الشّاهد! لكن النتائج كانت أوروبية
غربية في معظم الأحيان.. كانت فرق السويد والدنمارك والنرويج
هي أقوى الفرق وأكثرها مهارة وفوزًا.. كنا نهتف طوال المباراة
للفريق اليوغسلافي (تيتو.. تيتو.. تيتو) ونهتف للفريق الهندي
(نهرو.. نهرو.. نهرو).. كان الفريق اليوغسلافي يُشفي غليلنا
ويفوز في بعض المباريات.. أما الفريق الهندي فلم يشف غليلنا
يومًا.. بعد انتهاء المباراة يتجمّع أعضاء الفريق اليوغسلافي
ويصعدون إلى سيّاراتهم المتجهة إلى الجنوب، ويتجمع أعضاء
الفريق الهندي المتجهون إلى غزة، ويصعدون إلى سيّاراتهم، ونبقى
نحن فريسة للنرويجيين والدانمركيين وكلابهم الكبيرة المخيفة..
كانوا ينتظرون انتهاء المباراة بفارغ الصبر، ليثأروا من تشجيعنا

لأصدقائنا بإطلاق تلك الكلاب الكبيرة الشرسة وراعنا.. تلحق بنا
وئمزق ملابسنا المتواضعة وترعبنا!!

ومع الأيام تعلمت "رابطة الجوالين الصغار" كيف تتقي شر هذه
الذئاب المفترسة.. كنا نغادر الملعب، فور انتهاء المباراة وقبل أن
يصعد الحلفاء إلى سياراتهم!! لم نعد ننتظر الأصدقاء للنلوح لهم وهم
يصعدون إلى السيارات البيضاء الكبيرة..

في أحد أيام الربيع، قرر أبي أن يلبي دعوة صديقه عوض الشاهد..
انتهاز فرصة إغلاق مخزن التموين وإجازة المدارس لأسبوع، فذهبا
أنا وأبي وأمي وجميع إخوتي وأخواتي إليهم في القرية..

وجدنا عمتي هنية "أم إبراهيم"، تغلي كمية كبيرة من البيض البلدي..
وضعت معها أوراق اللوز والمشمش والخوخ، وكذلك قشر البصل
الجاف بعد ذلك أخرجت البيض الأصفر وأعطينا ست بيضات.. ثلاث
بيضات لي وثلاثاً مثلها لإبراهيم.. أذكر أنها أعطت بيضة لكل طفل
من الباقين! ذهبنا -أنا وإبراهيم- إلى الجرن، تلك الساحة الكبيرة،
ووجدنا حشدًا من الصبية والفتيان والشباب.. كانوا يدقون البيض
على أسنانهم، ثم يضربون رأس البيضة في الأخرى.. وكان بعض
الشباب، ذوي الزنود القوية، يمسك أعواد قصب السكر بيد واحدة
ويكسرونها بطريقة غريبة، عقلة عقلة..

فجأة صرخ الأطفال وتسابقوا نحو مصدر دق الطبول.. واقتربت "زفة
الشيخ محمود".. كانت الرايات ترفرف وقد حملها رجال أقوياء
وطوّحوا بها يمينًا ويسارًا.. وحمل رجال آخرون طبولاً كبيرة،

وأخذوا يضربون عليها بقوة فتخرج أصواتًا هادرة.. ورجال آخرون يضربون على أقراص نحاسية مدوّرة فتخرج أصواتًا رنانة قوية.. لوّح الشيخ أحمد الطاسي وصاح "الله حي.. الله حي" ثم طعن خدّه الأيمن بحربته الطويلة، فانبثق الدم منها، وسارع الشيخ محمود وصفعه على خدّه عدة مرات ثم بصق في فمه "مدد يا سيدي المنطار.. مدد يا أسيادي الكبار" ثم لعق الدم النازف من خد الشيخ أحمد الطاسي.. كان الشيخ محمود يلف حول رأسه عمامة خضراء كبيرة، ويُعلّقُ في رقبتِه مسابح ذات حَبّات كبيرة.. تمايل الشيخ أحمد الطاسي وتعرّق بدنه، فسحبوه وأخذوه إلى دار قريبة.. ولم يظهر بعدها في الزفة.. طافت الزفة أركان الجرن، وكلما تحركت تزايد الناس، وتزاحمت النسوة لتمسح وجوه الأطفال بالرايات الخضراء والسوداء والصفراء.. وبين الفينة والأخرى كان الشيوخ والدراويش يطلقون صيحات مرعبة مخيفة تهز الأبدان وتزلزل القلوب.. ويذكرون عددًا من الأولياء بأسمائهم وألقابهم.. وعندما عدنا إلى الدار، علمت من إبراهيم أن الزفة ستجّه غدًا إلى "المنطار".. وهناك تلقتني بفرق الدراويش من جميع أنحاء القطاع.. وأذكر أننا تغذينا يومها بوليمة كبيرة.. ذكر من البط وثلاث دجاجات كبيرة.. لقد أعدت عمتي هنية تلك الوليمة احتفاءً بزيارتنا، وبيوم الموسم..

كانت دار عمي عوض كبيرة واسعة.. دار تتوسطها جميزة كبيرة، ترقّزق عليها عصافير الدوري في النهار وتهمد على أغصانها في الليل.. وتحتها تنتشر الأرانب والصيصان، وفراخ البط التي تنقر

الذباب وتلتقطه من على الأشياء، حتى من سيقان البشر أو خودهم.. كان الصبية يقذفون العصافير "بالشديدة" من الشارع فتتساقط الأوراق والأغصان الصغيرة، وأحيانًا العصافير، عندها يدخل الصبية من الباب المفتوح ويخطفون العصفور الصغير الهامد بدون استئذان.. كان للدار باب كبير من الخشب، في الليل يغلق الباب بضبة خشبية كبيرة ولا تفتح إلا بذلك المفتاح الخشبي الذي يشبه المسدس، مفتاح تنبت فيه ثلاثة أسنان (خشبية أيضًا) تلتقط في الضبة ويسحب المفتاح فتتزاح الضبة معه ويفتح الباب.. أيام الغزلان كنا ندخل منه الجمال المحملة بزكائب القمح والشعير والذرة والتبن.. بعد دخولك من الباب تواجهك العريشة الكبيرة. عريشة تأتيها النسيمات الباردة من جميع الاتجاهات، وقد تمددت عليها أوراق الدوالي وظللتها.. يحيط بالعريشة جدار طيني قصير، وفي زوايا الجدار هناك ثلاثة "مقاعد" تجلس فيها الأباريق الفخارية المملوءة بالمياه.. وفي العريشة يجثم دائمًا موقد طيني كبير يتوسطه (بكرج) القهوة السادة.. وجوار الموقد وضعت عدة القهوة: هاون نحاسي وفرشة ذات شعيرات رقيقة وملقاط وصينية عليها خمسة فناجين مزخرفة.. إلى اليمين، بعد العريشة، تصطف ثلاث غرف واسعة: "بيت المعيشة" وتوجد فيه أدوات الطبخ والغسيل وبعض الفراش القديم.. "وبيت النوم"، وترتفع بعد مدخله مصطبة، وفي زاويته اليسرى ترتفع مصطبة طينية أخرى (حامل) توضع عليه الأحففة والأغطية والحصائر، وتحتة توضع الملابس وبعض الأواني.. وفي

حيطان "البيت" دُفَت بعض المسامير لتعلق فيها الملابس وبعض الأشياء مثل السلال.. وفي الزاوية اليمنى من الغرفة يوجد صندوق خشبي مزركش.. أما الغرفة الثالثة فهي "بيت الضيوف" وقد وضع فيه بعض الأغذية والحصائر.. وفي الجهة اليسرى من الدار توجد غرفة مستطيلة كبيرة (بايكة)، مقسمة إلى ثلاثة أقسام في القسم الأول توجد صومعتان (خوابي الغلال) يخزن فيها عمي عوض القمح والشعير في القسم الثاني يبيت البغل وأمامه (مدواد) حوض طيني، يخلط فيه الشعير والتبن.. أما القسم الثالث من (البايكة) فهو خاص بالأغنام والمواشي.. وفيه ترقد نعجة بجوارها حملان بصوفهما الأبيض النظيف، وماعز، ينط حولها ثلاثة من الجديان العفاريات.. كانت أسطح الغرف والبايكة (مليسة) بالطين المخلوط بالقصل، وكانت نباتات الخبيزة نامية عليها، تتخللها بعض (خصلات) الشعير، وراحت اثنتان من القطط تتمرغان وتمارسان لهوهما عليها.. بين (البايكة) والغرف الثلاث يكمن باب يؤدي إلى (الحاكورة).. تدخل من باب الحاكورة لتجد إلى اليمين عربة عُلِقَتْ فيها مخلّة، بعدها تجد المرحاض المسقوف بالزينكو وقد وضع في زاويته إبريق من الصاج ومكنسة محلية مصنوعة من جريد النخيل.. وبجوار المرحاض حظيرة، تنطلق منها في النهار جميع أنواع الدواجن..

إذا دخلت الحاكورة، وجدت ثلاثة أنواع من الأشجار المثمرة: أربع شجرات تين وثلاث شجرات من المشمش وثلاث شجرات من الزيتون.. وتحيط بالحاكورة ثلاثة أرصفة من التين الشوكي

(الصبر).. عند الفجر، تقف عمي هنية على برميل وتمسك بيدها (طواله) عصا طويلة ركبت في آخرها علبة مفتوحة من الجهتين، علبة بحجم حبة الصبر، تمد (الطواله) ثم (تقصع) الحبة، وتسقطها على الرمل، تنقل البرميل وتطوف الأرصفة، ثم تعود إلى حبات الصبر تدعكها في الرمل، ثم تأخذها في السلة لتضعها في الماء حتى العصر..

عند العصر جاء رجل يحمل صندوقا عجيبا.. صندوق بثلاث عيون زجاجية كبيرة.. أسرع إبراهيم إلى الخابية، غرف منها صحنًا من القمح، ثم جذبني من يدي وقال هامسًا:
- تعال نتفرج على صندوق العجب..

وسمعتنا عزيزة الخيال فلحقت بنا.. ناول إبراهيم صحن القمح للرجل، فصبّه في كيسه، ثم أنزل الصندوق عن ظهره وأجلسه على حمالة بثلاثة أرجل.. حمالة تشبه تلك التي يضع عليها والدي صينية الترمس.. طلب منا أن ننظر في العيون الزجاجية، وبدأ يحرك بكرة في يمين الصندوق.. ولأن عزيزة كانت أقصر منا، فقد وضع الرجل كرسيًا خشبيًا صغيرًا، وقفت عليه ثم نظرت في العين الوسطى، فبدأ الرجل أهزجته:

تعالى اتفرج يا سلام ..	على عجايب الأيام
تعالى اتفرج معنا وشوف ..	في الأزمان تعالى طوف
انظر عنتر شایل سيفه ..	نازع من قلبه خوفه
وانظر ببيرس ع الكفار ..	نازل يضرب هالمغوار

انظر هذا صلاح الدين .. صاحب همة وتقوى ودين
اتفرج وانظر هالأسلاك .. وراها أرضك تستناك
واتفرج وانظر يا إنسان .. شعبك مذلول ومنهان
اتفرج وانظر يا حبوب .. وحدة عربية مطلوب
ناصر قايدها المغوار .. ع اليهود يهد الدار
تعالى اتفرج يا سلام .. على عجائب الأيام

كان الرجل يحرك البكرة، فتدور أمامنا الصور والرسومات.. رجال
بشوارب كبيرة وسيوف طويلة وأجسام ضخمة وزنود بارزة، ورجال
بعمامات ولحى وسيوف مشرّعة.. يحرك البكرة فتدور صور الأسلاك
الشائكة الكثيفة، وصورة لجنود بوجوه غليظة وبنادق ورشاشات..
ووراءها تبدو هضاب وسهول خضراء.. بعدها تأتي المخيمات
والخيام، وصور لأتاس يتكومون ويتكدسون وقد غمر البؤس
وجوهم.. ثم تأتي خريطة الوطن العربي، وصورة لجمال عبد
الناصر، يستعرض مجموعة من الجنود والدبابات ويؤدي لهم
التحية!!

احتفى عمي عوض الشّاهد بنا بطريقته الخاصة.. كان يأخذنا في
الصباح على عربته التي يجرها ذلك البغل الرمادي القوي، إلى
"العزيزة".. وهناك ينطلق كل فريق إلى وجهته.. يذهب هو وأبي إلى
بيّارة الأفندي، ويتفرج أبي على البابور الضخم، وعلى أشجار
الحمضيات المتنوعة.. ثم يقفان عند الحدود طويلاً يتحدثان ويتذكران

"أم الغزلان" .. وتذهب أُمي وعمتي هنية إلى القبرصية، وهناك يتجولن في الكروم ثم يبدأن في جمع الحطب وتجهيزن العجين استعدادًا لإعداد ذلك الخبز المنفوخ في الطابون .. أما بقية الصغار فينطلقون إلى وادي العريزة .. يتراشقون بمياه العين ويتقافزون في الوادي ويتعلقون في أشجار التوت والكازورينا .. ونذهب، وأنا وإبراهيم، إلى البركة نجلس على حافة حوض الورد، ثم ندخل إلى "حديقة الأفندية" يُعرَفني إبراهيم بأسماء الأشجار واحدة واحدة .. يلتقط ما يعثر عليه في جوفها ويناولني .. ثم نذهب إلى وادي العريزة ونصطاد بعض العصافير .. وعند الظهر، نعود إلى كرم القبرصية، نتناول طعام الغداء، طعامًا شهياً أعدّ في الطابون، وعصافير وبطاطا مشوية .. نعود عمي عوض الشّاهد بعد الغداء إلى بيارة الأفندي، يوقف "البابور" الهادر، ثم يضرب بقضيب الحديد على ماسورة مُعلّقة في جدار "بيت البابور"، ويعلن انتهاء العمل .. بعد قليل تبدأ مجموعات العُمال في الخروج من أرباع البيّارة، يحملون فؤوسهم وصررهم، ويضعون الفؤوس في المخزن، ثم يغتسلون من حنفية صغيرة نابتة في جدار البركة .. بعدها، يتحركون ويسيروا منهكين عائدين إلى بيوتهم في القرى والمخيمات القريبة .. وفي الليل نجلس أمام الدار، نسهر وقد تحلق حولنا الجيران .. يلعب الأطفال في الأترقة الضيقة المظلمة يقفزون ويصرخون .. كان الصبية يلعبون "بيت ربعي" يحزرون الأسماء، ويهللون، ثم يركبون على ظهور بعضهم .. أما الفتيات فيجلسن منكشّات، ملتصقات، يستمعن إلى حكايات

الشاطر حسن والغولة، من عمتي هنية والقبرصية.. وفجأة تقفز الصغيرات منهن وتطارد (سراج الغولة) يتعقبنها وهي تطير وسط الزقاق المحفوف بأرصفة التين الشوكي، يمسن بها "دودة صغيرة" ثم يعدن لمواصلة الاستماع إلى الحكايات والخراريف.. سألته بعد أن انصرف الجيران ونام الأطفال الصغار منهكين من اللعب:

- أيش حكاية "العزيزة" صحيح كانت جميلة؟
- نعم كانت جميلة! جميلة جداً.. بدر البدور، وزينة البنات.. عليها جدايل مثل موج البحر وعيون مثل عيون الغزلان.. وخصر مثل عود البان.. كانت العزيز بنت مختار القرية.. طلبها الشباب، ولكن المختار رفض.. لم يجد من يستحقها.. كان ذلك أيام الأتراك.. كانت حروب الأتراك كثيرة وكانوا يأخذون الشباب إلى حروبهم، يغيب الشباب ثم يرجع من يرجع ويموت من يموت.. بعد سنة رجع ابن عمها من الحرب وطلبها من عمه، فوافق وحددوا موعد الزواج واستعدت القرية كلها للاحتفال بهذه المناسبة العظيمة.. وفجأة اختفت العزيزة "خُطفت".. قالوا راحت خطيفة مع واحد من جهة نابلس.. وقالوا خطفها واحد من جهة الخليل.. وقالوا خطفها واحد من يافا.. طار عقل البلد.. طار عقل المختار والعريس وأهل البلد كلهم.. وركبوا الخيل وطاروا.. طافوا السهول والوديان والجبال، ورجعوا، وفي طريقهم وجدوا رجلاً غريباً عند الجميزة، شكّوا فيه وعلّقوه في الجميزة وشنقوه.. وبعد ليلتين وجدوا فتاة غريبة عند العين.. قتلوها

وقالوا العزيزة.. ذبحوها عند العين!! والصحيح أن البلد غطت على فضيحتها وقالت عليهم الخاطف والخطيفة.. الناس اللي راحوا على يافا شافوها.. بعد سنة شافوا العزيزة في يافا، لابسة لبس فضّاح ودائرة في الشوارع.. شافوها وعرفوها.. ومن يومها صار اسم العين "العزيزة"، وصار اسم الوادي وادي العزيزة.. ولا أحد يذكر الاسم الأول للعين أو الوادي.. ومن يومها كل بنت تولد في مثل تلك الليلة "ليلة ذبح الغريبة" تسقط في الرذيلة وتجلب العار والفضيحة لأهلها..

وعندما أنزل عمي عوض الفانوس المعلق، ودخلنا إلى الدّار، همس إبراهيم:

- هذه رواية الرجال للحكاية..

(٤)

إبراهيم الشَّاهد

في شهر كانون، تنقلب الدنيا وتتغير طقوس كثيرة.. إنه موسم قطف الحمضيات وعلى القرية أن تستعد، وتنتظر ما يدُرُّ عليها الموسم من رزق أو ما يجلبه لها من متاعب!! في بداية كانون، تهدر سيارات النقل الكبيرة مزدحمة بالرجال والنساء والصبايا وتقف في وسط الجرن.. ينزل الشغيلة، يشترون طعامهم وحاجياتهم ثم يصعدون إلى السيارات، التي تتحرك إلى الشرق حيث البيّارات الصغيرة التي يملكها أهل القرية..

في كل موسم، يقف أبو محمود كرّاز يجهز عدة الفلافل أمام منزله، وإلى جواره تقف زوجته وضحة، تُقَطِّع أرغفة الخبز وشرائح البندورة والفلفل الأخضر والبصل وتُعِدُّ قارورة مملوءة بالفلفل الأحمر المخروط، استعداداً لبيع السندوتشات..

وعلى مقربة منهما يقف الزغندي وأبو كرش، يشمران وينهمكان في غسل وتشحيم سيارتهما الكبيرة التي يجلبان بها الشغيلة ويعيدانهم إلى مخيماتهم وقراهم، ولينظر الأجرة في آخر الموسم.. وجوارهما،

ينشغل الحاج خليل سمارة في ترتيب بضاعته وملء دكانه بالخيرات،
يُعلق آية الكرسي وسورة الإخلاص، ويدعو الله بالرزق الحلال
والستر، وكف شر أبناء الحرام عنه وعن أولاده.. ويطلب الستر لأمة
المسلمين كافة..

أما خليل بصبوص، فكان لا يهدأ لعشرة أيام كاملة، يذهب إلى سوق
غزة الكبير، يجلب البضاعة ويكدسها في دكانه، وتستعد زوجته
الجنوبية سماهر لاستقطاب الزبائن ومناقسة الحاج خليل الهادئ
الوقور.. وكان عامر الفرّجي، يكس أكبر عدد من أكياس الطحين،
وينظف فرنه مستعداً، لخبز كيسين أو ثلاثة من الطحين تعجنها
زوجته وأخته يومياً.. وفي كل موسم، يستعين بذلك الطويل الضخم
"القرّام".. ينتع القرّام أكياس الطحين على ظهره، وينقل الكتل
العجينية ويضعها على البلاطة الكبيرة ثم "يُقرّصها" وينزل بيده
الغليظة القوية عليها، يدكها عدة مرات ثم يلقفها بكفيه يميناً ويساراً
ويحولها إلى دوائر رفيقة من العجين، ثم يدقها في وسطها بتلك
الأسورة المثلمة، لتطبع نقشاً دائرياً جميلاً.. بعدها، يشرع في قذفها
إلى عامر واحدة واحدة، ليقوم بدوره برصها على "المطرحه" تلك
القطعة الخشبية الملساء، ويدخلها بمهارة إلى أتون الفرن المتهب،
يمسك قطعة قماش يغلق بوابة الفرن، ثم ينتظر، يشعل سيجارة
ويعطي واحدة "للقرّام"، يفتح البوابة ينظر إلى داخل الفرن، يحرك
الأرغفة ويغير مكانها.. وبعد قليل يجذبها باللقاطة، تلك اليد المنتهية
بقطعة من الصاج الرقيق، يقذفها ويعيدها للقرّام، أرغفة شبيهة

منقوشة.. يبيع عامر الخبز للوافدين، ويتوقف عن "الخبيز بالشهرية" لأهل القرية، ولا يعبأ بلعنات وشتائم النساء، مادامت النقود ستملاً "جزدانه" في آخر الموسم..

وكانت أم سارة السحّار تنظف بيتها وترشّه بالماء، ومثلها تفعل عائلات السمرّي ودراج وكرّاز واشتيوي، تنظف بيوتها وتستعد لتأجير غرفة أو غرفتين للعائلات القادمة من الجنوب، والتي تفضل قضاء الموسم في القرية، على الذهاب والعودة من قرى الجنوب ومخيماته يومياً..

أما الشباب فيستعدون للقصدرة والتمشي في ليالي الشتاء الباردة!! يملأون جيوبهم بالبرز وملبس "بيض الحمام" المحشو باللوز ويقطعون الأزقة المظلمة جيئة وذهاباً عسى أن يعثروا على صبية أو امرأة غريبة، عائدة من دكان أو ساقية، يناولونها بيض الحمام والبرز، وتناولهم بدورها قبلة مخطوفة في ظلام الشتاء الدامس..

ويتحلق الشيوخ والعجائز والنساء - كعادتهم - حول كوانين النار، يحركون الجمر بأصابعهم، ويستغفرون الله ويدعونه أن يستر البلد من هؤلاء الوافدين الذين يرخون الحبل لنسائهم وبناتهم، ويسمحون لهن بالتسكع في أزقة القرية في أوقات متأخرة من الليل!!

وفي هذا الموسم، كانت فرحة طلاب المدارس كبيرة!! جاءت عطلة نصف العام مع بداية موسم الحمضيات.. وها هما أسبوعان كاملان،

يعمل خلالهما الصغار ليدخروا مبلغًا من المال، يساعدون به أهلهم، ويشترون ما يحتاجونه من دفاتر وسراويل وأحذية..

في الصيف الماضي، همس عمي سالم الربيع لوالدي:

— أبو إبراهيم، خالد كبير يا صاحبي، ولم يعد يعجبه الطواف ببرّاد الشاي وسط الناس، لقد سلّم المهمة لواحد من إخوته.. أرجوك يا صاحبي دبر له عملاً عندك، ليعينني في المصاريف والمعيشة.. أنت عارف الحال..

وجاء خالد إلى بيّارة الأفندي، لكنه أحضر معه عصام الفايز وعبد الله الشريف.. نظر والدي إليهم ثم إليّ، ابتسم وقال:

— أبو خالد كلّمني على واحد، وأنتم ما شاء الله ثلاثة!! طيّب بسيطة، الله يرزق الجميع، أنا بدبرّكم.. خذهم يا برهوم، وتوزعوا اثنين اثنين، كل جماعة على مية.. اسقوا البطيخ في ربع الليمون..

- انت بتعرف كل شيء ياأبا.. السدّات والقنوتات والتحويلات وكمية المية علمهم، علّم أصحابك ياأبا، بدّي تديروا بالكم، وترفعوا رأسي.. وإن شاء الله تشتغلوا طول الإجازة، الله يرزقكم..

واشتغلت "رابطة الجوّالين الصغار" طول العطلة الصيفية، وكنا نقضي أوقاتًا ممتعة.. كان ربع الليمون عامرًا بثمار البطيخ المرقطة من نوع "شيلين"، كانت ثمارًا كبيرة مغرية، وكنت بالنسبة للرابطة خبيرًا في معرفة الناضج من كرات البطيخ الكبيرة.. أنظر إلى تلك الوريقة عند التقاء البطيخة مع اللبش، ثم أقطف البطيخة إذا كانت الوريقة جافة، يرفعها عصام ويكسرها على حافة القناة الإسمنتية، ثم ننقض

عليها نحن الأربعة، نضع أقدامنا الحافية في المياه الجارية، نلتهم البطيخة طرية حلوة، ثم نغسل أيدينا في الفتاة، ونتراشق بالمياه المنعشة اللذيذة صابحين..

في اليوم الثالث، جاء والدي وهمس في أذني:

— أصواتكم عالية، تصلني عند البابور، قول لأصحابك أن يهدأوا، وألا يكثرُوا من "فجم" البطيخ على الفاضي والمليان، بلاش فضايح.. ولما تأكلوا البطيخة أخفوا قشرها، احفروا في الأرض وادفنوه،..

وفي هذا الموسم الشتوي، ها هي "رابطة الجوالين الصغار" تعمل مع "مشغل" المعلم "دوأس"، في بيّارة الأفندي.. وبعد ثلاثة أيام من العمل في ربع الليمون، انتقل الشغيلة إلى ربع البنسسية.. دخل الرجال حاملين "السيبات الكبيرة"، ونصبوها حول الأشجار المثقلة بالثمار الصفراء.. توزعت الصبايا ووقفن على مقربة من "القصيصة"؛ صبية تحت يد كل قصيص.... صعد الرجال على السيبات وتحلقوا حول الأشجار ثم بدأت الطقطقة بتلك المقصات المعقوفة التي تتوسطها دودة قوية.. قطف الرجال الحبات الصفراء بمهارة، وشرعوا في إلقائها في السلال التي رفعتها الصبايا قريبة من الأيدي.. كانت غالبية "القصيصة" من أهل القرية، وكان المعلم "دوأس" يعرفهم واحداً واحداً وكان في كل موسم يجرب قصيصة جدداً، وإذا اكتشف بطء أحدهم أو عدم مهارته أو أنّه "يجرح الحبة"، ينزله عن السبيبة ويكلفه بعمل آخر.. وكان من حق الصبيّة أن تختار "القصييص" الذي تعمل تحت يده.. في منتصف النهار يكبر ذلك الكوم الأصفر عند

نهاية الربع، ويهدأ الشغيلة وتبدأ حبات البرتقال في التوجه إلى صدور الصبايا، بدلاً من السلال.. تضحك الصبايا المستريحات تحت الأشجار ويغمزن للقصيصة بخبث، ثم يجمعن الحبات التي أخطأت طريقها ويضعنها في السلال. لكن بعضهن لا تعجبه هذه المداعبات، فيسرع إلى المعلم "دواس" ويطلب منه تغيير القصيص الخبيث.. عندها تكون فرصتي، يأتي المعلم "دواس" ويطلب مني أن أريح أحد "القصيصة".. منذ عامين وأنا أقوم بهذه المهمة، دربني المعلم "دواس" - بناء على رغبة والدي - على مسك المقص و"خطف" حبة البرتقال دون أن أجرحها، وحققت تقدماً كبيراً، وها هو يثق في مهارتي ويطلب مني الصعود إلى السببية.. سألني خالد عندما رأيته أصعد إلى الشجرة وأشرع في الطقطقة دون وجل:

— كيف تتمكن من التحكم في هذا المقص المعقوف القاسي دون أن تجرح حبات البرتقال أو تجرح نفسك؟..

— تدربت على ذلك، تألمت في البداية، وشعرت أن يدي ستتمزق، ولكن بعد فترة أصبحت معتاداً، أنظر! تمسك المقص بقوة، هكذا، وبرأسه المعقوف - تقص الحبة بحذر، لا تقترب من حبة البرتقال، يجب أن تترك مسافة حتى لا تجرحها.. كذلك تخطف القص خطفاً.. هكذا..

عند الكوم الأصفر الكبير، جلست ثلاثة صفوف متتالية.. جلست ثلاث نساء أولاً.. حيث يقمن بفرز حبات البرتقال وتصنيفها إلى ثلاث درجات.. حبة مئة، وحبة خمسين، والحبة الثالثة الصغيرة "البرارة"

لا تُعبأ في الصناديق، ولا تصلح للتصدير.. أمام الكومتين المفروزتين للتصدير، جلس "الليفة"، عُمال مهرة يضعون بجوارهم لفائف من الورق الخاص، وبخفة يلفون حبات البرتقال ويقذفونها إلى الخلف، حيث يجلس معلمو التعبئة.. يقوم المعلم برص حبات البرتقال بطريقة خاصة في صناديق تنبت في ظهرها مطارق ثلاثة.. وعندما يمتلئ الصندوق يضرب المعلم بيده على الصندوق "إرفع"، ليتقدم شاب يرفع الصندوق ويضعه على "السقالة" عند "المعلم النجار".. يجذبه "المعلم النجار" ويغلقه بلوح خشبي، ثم يثني المطارق الثلاثة واحداً واحداً، و"يطوّق" الصندوق بالمسامير، يضرب على الصندوق بيده أيضاً "إرفع"، ليأتي شاب آخر، يرفعه فوق الصناديق المترصة في انتظار السيارات الكبيرة، التي ستحمل الناتج الوفير إلى الميناء أو محطة السكة الحديد..

وكان عملنا - أنا وخالد - تقديم الصناديق إلى معلم التعبئة، وكان عملاً مريحاً بالنسبة لغيرنا.. أما عصام الفايز وعبد الله الشريف، فكان عملهما أن يرفعا الصناديق المعبأة من "السقالة" إلى الصفوف المترصة في انتظار السيارات.. كان عملاً متعباً وشاقاً بالنسبة لشابين في سن الخامسة عشرة، لكن البنية الجسمية لكليهما، وكذلك طولهما الفارع قد أوقعهما في هذا العمل الشاق.. تردد عبد الله الشريف، عندما رأى الصناديق ذات الحواف الجارحة، لكن عصام الفايز، أغراه وأقنعه بالعمل، بعد أن علم أن الأجرة ستزيد عشرة قروش، عن أجرتنا نحن.. كانت أجرتنا عشرين قرشاً في اليوم، أما

حمل الصناديق الثقيلة ونقلها إلى الكتل المتراسة في انتظار السيارات، فأجرتها ثلاثون قرشاً وافية.. وهذه زيادة "تستحق الصبر والتحمل" في رأي عصام الفايز.. خلال استراحة الإفطار اشتكى عبد الله الشريف وتذمر، ولكن عصام ظل يحثه على التحمل ويغريه بالفارق المالي الكبير، حتى استسلم لقضاء الله وللصناديق الثقيلة الجارحة!!

عند العصر، جاء ابن الأفندي سعدي وجاءت معه شقيقته الجميلة الممشوقة سوزان.. كانت سوزان فتاة بيضاء مستديرة الوجه مليحة التقاطيع، تملك عينين زرقاوين، وشعرًا ناعمًا مسترسلًا، كانت ترتدي سروالاً من "الشمواي" الأسود وبلوزة بيضاء، تلمع عليها سلسلة ذهبية جميلة، وفوق البلوزة البيضاء كانت ترتدي معطفاً أسود قصيراً له ياقة من الفرو، وكان شعرها الناعم ينزل على ظهرها ملامساً الفرو الرمادي.. كانت تفضل أن تضع يدها في جيوب معطفها، ولا تلمس الأشياء إلا بأطراف أصابعها، تجولا في البيارة ووفقا عند بعض الأشجار المحملة بالثمار الصفراء، ثم عادا ليقفا عند كوم البرتقال الكبير.. أمسكا حبات البرتقال اللامعة، ثم تحدثا مع والدي ومع المعلم "دوأس"، أصدرنا بعض التوجيهات ثم انصرفا إلى سيارتهما الجيب متجهين إلى الحديقة العامرة المجاورة لبيت البابور.. وهناك يكون أبي قد جهز لهما أربع صناديق محترمة.. صندوقا من اليوسفي وآخر من برتقال "أبو صرة" والصندوق الثالث من ليمون البنزهير. أما الصندوق الرابع فهو من برتقال "دم الزغول" هدية إلى

الحاجة عطا ف زوجة الأفندي الكبير.. يضع والدي الصناديق في سيارة الجيب، وينطلق ابنا الأفندي عائدين إلى غزة، وفي طريقهما يمران على محطة السكة الحديد، يتفقدان الصناديق المختومة بعلامات التصدير، ويطمئنان أنها ستغادر القطاع في اليوم التالي..

اقترب عصام الفايز منّي ثم قال هامساً:

— هل رأيت ابنة الأفندي؟

— نعم رأيتها!

— يا بختك! بتشوفها دائماً..

— أيش قصدك؟

— قصدي أنها جميلة؟

— بعرف أنها جميلة!

— أيش اسمها؟ وكم عمرها؟

— اسمها سوزان، أما عمرها فلا أعرفه، أنا لم أسألها عنه!

— أظن أنها في مثل عمري!!!

— بل تبدو أكبر منك! ماذا تريد بالضبط يا عصام؟

— لا شيء، أسكت! المعلم دواس قادم.. سأعود إلى الشقاء، إلى

الصناديق الثقيلة الجارحة، التي تمزق الكتف واليدين..

هدرت السيارات الكبيرة، ووقفت بجوار الصناديق المتراسة، أشار المعلم دواس للعمال، فشرعوا في رفع الصناديق ورصّها في السيارات.. وعندما امتلأت سيارتان، دخل إلى البيّارة أربعة من أصحاب القبعات الزرقاء وسلّموا على والدي بحرارة:

— أوه أوض.. دبير فرند، فان تاستك.. فان تاستك..

كان أفراد قوات الطوارئ الدولية يُعلقون آلات التصوير في رقابهم، راحوا يوزعون شرائح اللبان وقطع الشيكولاته فرحين ويلتقطون الصور.. كانوا مأخوذين بمنظر البرتقال الأصفر الجميل، وتتبعوا عملية القطف من أولها حتى آخرها.. أمسكوا حبات البرتقال والتقطوا الصور.. أمسكوا المقصات المعقوفة والتقطوا الصور.. وقفوا وسط الأشجار المثمرة والتقطوا الصور.. وجلسوا بجوار الكوم الأصفر الكبير والتقطوا الصور.. جلسوا وسط الصناديق الفارغة وأمسكوا الشواكيش والمسامير والتقطوا الصور.. صعدوا إلى السيارات وجلسوا على الصناديق المعبأة والتقطوا الصور..

فجأة اكتشف قائدهم أن المعلم "دواس" يتحدث الإنجليزية.. سأله أين تعلمها فأخبره أنه تعلم الإنجليزية أثناء عمله في المعسكرات البريطانية قبل الهجرة.. ورد دواس على أسئلة الضابط النرويجي كلها.. عرّفه بأنواع البرتقال، ومواعيد القطف، وطريقة القطف، ومسارها حتى تصل الحمضيات إلى الميناء أو محطة السكة الحديد.. كانوا مبهورين ويلتقطون الصور لكل ما تقع عليه عيونهم.. الناس والأشجار والصناديق والسيارات حتى "علبة دخان الهيشة"، التي أخرجها أبو زكي من عبّه وراح يلف منها، قارصاً "ورقة البفرة" ولاعقاً إيّاها بلسانه باستمتاع.. وكان الضابط يردد عبارة واحدة "فان تاستك.. فان تاستك.. أخيراً، انسحب أصحاب القبعات الزرقاء

مودعين وملوحين بأيديهم، وتابعتهم العيون حتى خرجوا من فتحة السياج، كما جاءوا..

نظر المعلم دوّاس في السماء، ونظر في ساعته ثم قال:
— يعطيكم العافية جميعاً.. يا الله يا شباب المطر جاي.. الجهة القبليّة مسكّرة تسكير.. يا الله يا شباب هاتوا النايلون وحطوه على الكوم وعلى الصناديق الباقية، وبعدين على السيارات.. يا الله يا أبو زكي الدّامر صورك رايحة تصل النرويج، مين قدك!! يا الله يا جماعة.. يعطيكو العافية اليوم..

عملنا لأسبوعين في قطف الحمضيات، ثم عدنا إلى المدرسة، وانتظرنا "يوم القبضة".. وفي نهاية شهر آذار وقفنا وسط الحشد الكبير عند دكان خليل بصبوص.. أحضر المعلم دوّاس حقيبة جلدية مملوءة بالنقود، جلس على الكرسي وبجواره على الأرض جلس أبو زكي الدّامر وأخذ ينادي على الأسماء بصوته الجهور المدوّي.. وحول دوّاس، تحلق خليل بصبوص والحاج خليل سمارة، وأم سارة السحّار، والزغندي وأبو كرش، وأبو محمود كراّز وعامر الفرّنجي، وأفراد من عائلة السمرّي ودراّج واشتيوي.. كلّهم كانوا ينتظرون سماع صوت "أبوزكي" منادياً على زبائنهم، لينقضوا عليهم ويأخذوا نقودهم التي انتظروها ثلاثة أشهر كاملة..

وفي يوم الجمعة، التقى أعضاء "رابطة الجوالين الصغار" عند دكان مصطفى البطش مرة أخرى.. سحب كل منا "دراّجة بلّون" مستعملة.. ثم أنقذنا الرجل السمين المبلغ الذي كنا قد اتفقنا عليه.. لقد ادخرنا

من حر مالنا، ومن حقنا أن نمتلك دراجات خاصة.. الآن، أصبح بإمكاننا التجول في الوقت الذي نريد وفي المكان الذي نريد ولن نخشى التأخير وغرامات الرجل السمين الباهظة!!

عندما عدت إلى القرية، تحلق حولي حشد كبير من الأطفال، تخلصت منهم ودخلت إلى الدار ثم أقفلت الباب.. تهللت أختي فاطمة وركبت على الدراجة فوراً، ثم طلبت مني الدوران بها في الدار.. أطعتها ودرت دورتين ثم أنزلتها بحنان فقالت أمي:

— البسكليت مش للمدرسة! بدناش مشاكل مع العالم!! لما تروح السنة الجاية على المدرسة الثانوية في غزة معلش!!.

عندها دخلت عزيزة الخيال، اقتربت مني، وقالت هامسة:

— بذك تعلمني ركوب الدراجة.. في "العزيزة"..

عزيزة الخيال

كانت مدرستنا ملاصقة لمدرسة البنين ولا يفصل بينهما سوى جدار.. جدار توجد في منتصفه حفرة صنعتها إحدى فذائف العدوان الثلاثي، ثم وسّعها الطلاب لينفذوا منها إلينا كلما سنحت الفرصة.. أما المزرعة الصغيرة التي تطبق فيها دروس الأشغال، فكانت مشتركة بين المدرستين، وكذلك كان مختبر العلوم.. عندما نذهب إلى المختبر في دروس العلوم، كان الطلبة يتقافزون حولنا متعللين بالشرب من الحنفيات القريبة.. يتجرأ بعضهم ويقترب من نوافذ المختبر، يلقي نظرات حائرة، ثم يعود مسرعاً.. بعدها بقليل، نسمع صوت الخيزرانة على ظهره ومؤخرته ويديه.. أما عندما نذهب إلى المزرعة لتطبيق الأشغال والزراعة (لم يكن هناك فرق في دروس الأشغال، كنا نزرع ونمهد الأرض بالفؤوس الصغيرة والنكاشات، مثل الأولاد تماماً).. كانت عيون الطلاب تتحول عن سبورات الفصول وتنسمر علينا وكان المدرسون يأمرهم بإقفال النوافذ، رغم القيظ، ثم يزجرون الطلاب ويطلبون منهم الانتباه إلى السبورة والشرح فقط..

لم يكن إبراهيم مَمَّن يحبون تلك العادة، فقط عندما أذهب إلى المزرعة وأقوم بري شتلات الفول الخضراء أو أمهد الأرض لزراعة البطاطا كان يراقبني بحذر ويبتسم.. وعندما نلتقي عند باب المدرسة بعد انتهاء اليوم الدراسي أسأله عن سر ابتسامته:

— أنت الوحيدة اللي بتأخذ الأمور بجد.. بقية الطالبات يقفن ضاحكات متغامزات وأنت بتشتغلي كَأَنَّك في كرم القبرصية..

في هذا العام لم يعد إبراهيم ينتظرني.. انتقل إلى المدرسة الثانوية بالمدينة، وبقيت أنا في هذه المدرسة، فقط انتقلت إلى الصف السادس، وإلى الفصل الذي تطل نوافذه على الشارع العام..

في الحصة الرابعة — كانت حصة الجغرافيا - كان المدرس يرسم خريطة لفلسطين.. لوَّن الخريطة بالطباشير ولم يضع حدودًا للضفة أو القطاع.. وضع أسماء المدن والقرى على الخريطة بجوار دوائر ملونة، كتب أسفل الخريطة عبارة بالطباشير الأبيض "تبلغ مساحة فلسطين سبعة وعشرين ألف كيلومترًا مربعًا" ثم رسم دوائر صغيرة ملونة، وكتب مقابل كل منها ملاحظة وأخذ يشرح:

— الدوائر الحمراء تشير إلى مدن يزيد عدد سكانها على مئة ألف نسمة.. والدوائر البرتقالية تشير إلى المدن التي يزيد عدد سكانها على خمسين ألف نسمة.. والدوائر الصفراء تشير إلى القرى الكبيرة التي يزيد عدد سكانها على عشرة آلاف نسمة.. أما الدوائر الخضراء الصغيرة فتشير إلى القرى التي يزيد عدد سكانها على خمسة آلاف نسمة.

ولاحظت أن المدرس لم يذكر اسم قريتنا، ولم يضعها على الخريطة ففهمت أن سكان القرية لم يبلغوا خمسة آلاف نسمة بعد.. سرت همهمة في الفصل، وخرجت من الفتيات ضحكات مكتومة.. أشارت إحدى الطالبات إلى النافذة الجنوبية، وعندما نظرت وجدت رأساً يطل من النافذة ثم يختفي.. كانت امرأة. امرأة تضع على رأسها منديلاً أبيض اللون.. تنتهز فرصة توجه المدرس إلى السبورة فتعلق بالنافذة وتطل في وجوهنا فاحصة مدققة.. عاودت التعلق والنظر مرتين، ثم تسمرت على وجهي تماماً.. حدقت النظر وأطالت، حتى اكتشفها المدرس:

- أيوه يا خالة، فيه حاجة، هل تبحثين عن أحد؟
- لا.. لا يا أستاذ.. أنا بتفرج بس.. خلص أنا مروحة..
- تضاحكت الطالبات.. هز الأستاذ رأسه، عاد إلى السبورة.. وبعد انتهاء اليوم الدراسي وجدت تلك المرأة في انتظاري عند باب المدرسة، في نفس المكان الذي كان ينتظرني فيه إبراهيم:
- تعالي يا حبيبتي.. كيف حالك؟
- الحمد لله.. الله يسلمك يا خالتي..
- انتي أيش اسمك يا حبيبتي؟
- اسمي عزيزة..
- عزيزة مين يا حبيبتي؟
- عزيزة عابد الخيال..

— آه.. إنتي بنت "القبرصية".. ما شاء الله.. ما شاء الله.. طيب يا حبيبتي.. سلمى على أمك وقولي لها خالتي محظية العبد الله بتسلم عليكى، وبدها تزورك اليوم بعد صلاة المغرب..
أخبرت أمى بما حدث، فهزت رأسها، ونظرت إليّ متفحصة ثم ضحكت وتمتت ببعض الكلمات:

— لماذا تضحكين يا قبرصية؟

كنت أنادي أمى بهذا الاسم كلما أردت استفزازها أو إخراج معلومة منها.. أما إذا أردت تدليلها، أو رغبت في الحصول على طلب منها، فأناديها "أم العزيزة" وأقبل يدها:

— تنادينى يا قبرصية؟

— لأنى بخاف من هذه الضحكة وهذه التمتمة!

— المرة بدها إياكى لإبنها..

— زوجة؟.. أنا؟ أنا فى الصف السادس.. عمري..!

— وأيش يعنى كثيرات بتزوجن فى سنك، ليش مستغربة؟ شوفى نفسك.. مفيش حد مصدق إنه عمرك اتعشر سنة بس بكرة باشتري لك جرّة.. بتلبسى الثوب وبتنزلى على الساقية مثل البنات الكبيرات..
هيك عملنا لما كبرنا.. وهيك بتعمل بناتنا.. هذه عادات البلد..

— فى العطلة بلبس الثوب وبحمل الجرّة وبنزل على الساقية.. لكن بدّي أكمل تعليمي..

— بدك تتعلمي ولا بدك تنتظريه؟

— مين بتقصدي يا قبرصية؟

— حبيب القلب.. برهوم!

....—

— على كل حال يا ريت.. هذه أمنيّتي.. لكني خائفة.. خائفةً يكونش هو.. اسمعي أنا مش رايحة أعصب عليكِ .. الليلة بصرف محظية العبد الله بطريقيّتي..

بعد يومين حضرت إلى بيتنا ثلاث نساء.. دخلن الغرفة وأغلقت أُمي الباب.. أحضرت لفائف من القطن ومنديلاً وحفنة من الرماد وصندوقاً خشبياً.. نزعت تنورتني ثم شمّرت قميصي الداخلي حتى صدري.. ثم ناولتني المنديل وطلبت مني أن أعضُ عليه بأسناني.. أمسكت امرأتان يدي وقبضتا عليهما بقوة، ثم أخرجت الثالثة شفرة حلقة.. دفعتني أُمي من ظهري إلى الأمام ففتحت المرأة فخذي بقوة ثم قربت الصندوق الخشبي وأمسكت بأصابع كالماقط شيئاً بين فخذي.. تألمتُ، فحزّت المرأة بقسوة وقطعت ما تمسكه.. صرّختُ.. دفعتُ أُمي الرماد إلى مكان القطع ثم غمرته بالقطن.. أجلسنتني النسوة، فرأيت الدماء وهي تسيل على فخذي وساقِي.. مسحت أُمي الدماء ثم أنزلت قميصي وألبستني تنورتني ودفترتني ببطانية قديمة.. كانت النار تكويني وكتلة القطن تتكور بين فخذي، وأصرخ.. أحضرت أُمي كوباً من عصير البرتقال.. شربته دون وعي وشربت النسوة عصير البرتقال ثم انصرفن.. وذهبت أُمي لإعداد دجاجة احتفاء بهذه المناسبة.. لم أُنم تلك الليلة، ولم أتذوق طعم الدجاج أو غيره.. غيرت أُمي لفائف القطن عدة مرات.. شعرت بقشعريرة، ثم تعرّق

بدني وارتعشت أطرافي.. في الليلة التالية كنت أهذي، ولم أعد قادرة على رؤية الأشياء ولا سماع الأصوات بوضوح.. هرعت أمي إلى دار عمي عوض، أحضرت العربة، دثرتني جيداً ثم أصعدتني إلى العربة وانطلقنا عبر الزقاق إلى طريق غزة..

كنت بين اليقظة والغيوبة، لكنني اذكر أننا وصلنا إلى منزل مكون من طابقين.. أوقفت أمي العربة وكانت هناك لافتة، لافتة كتب عليها اسم طبيبة.. أنزلتني من العربة ودخلنا إلى ممر طويل وفي نهايته نظرت الممرضة إلينا بارتباك ثم صاحت:

— أيش هذا الدم؟ أيش عملتوا فيها؟

— عملنا زي ما بيعملوا الناس مع بناتهم لما يكبرن..

— آه .. فهمت، الختان .. أدخلتها بسرعة..

دخلنا إلى الطبيبة، فسارعت إلى حقنة وغرزتها في ذراعي، ثم تناولت حقنة أخرى، وغرزتها في إيتي.. وعندما بدأت الممرضة في تنظيف ساقي، ذهبت في غفوة طويلة..

وعندما استيقظت في الغرفة المجاورة، شعرت أن الألم قد زال ولاحظت أن الدماء قد توقفت ولم تعد تسيل على فخذي وساقي.. دثرتني أمي وعندما هممنا بمغادرة العيادة قالت الطبيبة:

— النزيف كان سيودي بحياتها.. الحمد لله.. هذه الفتاة محظوظة..

لكن كيف هانت عليك بنتك؟.. إنت مش أمها؟

ولأول مرة رأيت أمي باكية.. لكنني كنت متعبة، لدرجة أنني لم أستطع مسح دموعها..

ظل ما حدث سرّاً بيني وبين أمي.. وعندما جاء إبراهيم لزيارتي أخبرته أمي أن ألماً شديداً اضطرها إلى أن تأخذني إلى الطيبة.. وأخبرته أن الألم قد زال والحمد لله.. وعندما سألتني عمي عوض رددت نفس الكلام على مسامعه، وفي المساء جاءت عمتي هنية، جلست مع أمي، وسمعت حديثاً بينهما:

— محظية العبد الله، طلبت عريزة لابنها..

— بلا محظية بلا بطيخ أصفر.. مين محظية هذه؟

— إيش قصدك؟

— قصدي؟.. مش عارفة قصدي؟

— لأ مش عارفة..

— يعني هذه عروستنا!! عريزة عروسة إبراهيم، متعمليش حالك مش فاهمة..

— على كل حال الحرمة أعطتني مهلة أفكر.. وانتِ عارفة يا أم إبراهيم الزواج سترة للبنات..

— بلاش هبل، البنت صغيرة والولد صغير..

— طيب نقرا الفاتحة على الأقل..

— عوض بيقول قراية الفاتحة وتعليق البنت مش كويس، عقد قران على طول.. لما يكبروا يفرجها ربنا.. بعدين الولد متعلق فيها..

— والبنت كمان..

— وإيش باقي لك يا مستورة؟

— باقي خوفي! خوفي من الدنيا، من الزمن، أنا خائفة يا أم إبراهيم..

— حرام عليكى!! إنت بس علشان وحدانية، إحنا أهلك وعزوتك يا حُرمة.. عزيزة بنتنا وعروستنا وانتھينا..

في الصيف نزلت إلى الساقية.. جابية كبيرة تقع وسط بيارّة وتطل من الناحية الشرقية على ساحة واسعة.. يسميها أهل القرية "الساقية" وبعضهم يقول "الجابية".. ويقولون إنها تسقي القرية منذ مائة عام.. وهي مثل "الجرن" ملك لأهل القرية كلهم.. تتدفق المياه إلى الجابية من "بابور البلد" المجاور لها.. يقوم أبو اسماعيل - ناطور الساقية - بتنظيفها وغسلها كل يوم خميس، يغطيها بباب من الصاج ثم يغلقها بقل كبير، من جدار الجابية تنبثق ست حنفيات كبيرة، تحنو بأفواهاها على حوض مستطيل، تسيل المياه من طرفه الشمالي متجهة إلى داخل "بيارة الساقية" لتروي أشجار الليمون وشتلات الباذنجان والفلفل.. وإلى اليمين حوض آخر تشرب منه الدواب والحمير الواردة بجرارها على "الساقية"، حوض يملؤه "أبو اسماعيل" كلما نفذت مياهه من حنفية تغلق وتفتح بمفتاح يحضره معه..

إلى "الساقية"، ترد صغيرات السن من النساء، والصبايا والعرائس.. يملأن الجرار، ويتراشقن المياه بدلال ومرح.. تتباهى العرائس بجرارهن المزركشة الجميلة، ينشلن الجرار بخفة ورشاقة، يملن برؤوسهن ويرشقن دفقة خفيفة من المياه بأيديهن المزينة بحناء

العرس ثم يتلثمن بالماناديل المطرزة، وبالعين التي تبدو من المنديل، يغمزن إلى الصبايا الواردات حديثًا على الساقية، ثم يعدن إلى العرسان متبخرات مثل الطباء.. ويتركن الصبايا للتهيئات والهمسات الخبيثة والتمنيات بالوصول إلى يوم الجرار المزركشة..

كل شيء كان جميلًا عند "الساقية" عدا أمرين: أحدهما تلك المرأة الشمطاء زينب الدودة.. امرأة نَمّامة مفسدة.. يملؤها حقد غريب لا تعرف القرية سببًا له.. كانت زينب مصدرًا للأقاويل والشائعات، تلدغ الصبايا بلسانها وتنفت سمومها وتلوك سيرتهن في كل مكان! وقعت العائلات في بعضها أكثر من مرة بسببها، وقع ابنها المسكين صالح في مشاكل عديدة من وراء لسانها، طافت كنتها الوديعة وردة على البيوت تعتذر عن سلوكها وتصرفاتها، لكنها لم تتوقف.. ضربها ابنها ذات مرة وبكى.. بكى غيظًا وعجزًا وندمًا.. لكنها لم تلتن.. توسلت إليها كنتها أن "تقعد" في الدار ولا تذهب إلى الساقية لكنها رفضت وأبت.. كانت زينب الدودة تجد متعة في الذهاب إلى الساقية! تردد الشائعات وتنغص على الصبايا وتتدخل في شؤون العباد:

- سمعت أنه محظية العبد الله خطبتك لابنها لكنك رفضتي!
- بدّي أكمل تعليمي..
- بدّك تكلمي تعليمك ولا بدكيش ابن محظية؟!
- قلت لك بدّي أكمل تعليمي..
- مصيرك للزواج يا حبيبتي وابن محظية أحسن من غيره.. إيش يعني بدّك تصيري دكتورة؟!

- إيش يعني لو صارت وحدة من البلد دكتورة.. عجبية.. ولا حرام؟! حرام!
- لكن الزواج أحسن! ولا بتفكري في واحد غير ابن محظية؟ حاطة عينك على مين يا عزيزة؟
- أيش هذا الكلام الفارغ؟..
- كلامي فارغ يا أم عين فارغة.. إنت بنت قليلة الحيا..
- أنا قليلة الحيا!!! طيب الليلة أمي بترد عليكي!!
- وفي المساء ذهبت أمي إلى زينب الدودة.. أمسكتها من "قبتها" وأقعدتها على الأرض بقوة ثم وضعت الشبرية أمام عينها:
- اسمعي يا زينب يا سوسة البلد.. بنات الناس وسيرتهن مش لعبة.. لو سمعتك حكيتي عن بنتي كلمة واحدة مرة ثانية بخلي هادي الشبرية تنفذ من ظهرك.. أنا بقول هذا الكلام قدام ابنك وكنتك لتفهموا معنى كلامي.. وأنتو بتعرفوني..
- طيب.. طيب يا أم العزيزة طيب يا خالتي.. حقك علينا.. أمي غلطانة.. غلطانة والحق راكبها ومنك السماح..
- خالص.. حقك علينا يا عمتي، امسحها في دقن صالح هادي المرة..
- طيب!! المرة هذه سماح.. على شرط
- اشروطي يا أم العزيزة
- زينب الدودة لا تروح على الساقية ولا تقرب ناحيتها..

- ماشي.. والله لو أربطها لأمنعها.. شرطك مقبول يا أم العريزة..
وحقك علينا..

وبقيت حمير البدويات.. ظلت تنغص على الصبايا صفوهن، بل صارت تنغص على البلد كلها.. تأتي البدويات من أطراف البلدة، حيث يقيم البدو خيامهم، يضعن الجرار على ظهور الحمير في خراج من السلك.. وعندما تتقابل الحمير عند الساقية تحدث المصائب وتقلب البلد.. تنهق الحمير وتضطرب وتضرب بأرجلها في الهواء، تحاول البدويات الإمساك بها دون جدوى، تنفلت الحمير الهائجة خلف الإتان، وتسقط الجرار مهشمة.. تنطلق البدويات في إثرها يبحثن عنها في أزقة القرية وبعد جهد يعثرن عليها بعد أن تنغص على القرية عيشتها وتدوس في طريقها فراخ البط والصيصان وترعب الأطفال.. طلبت النساء من رجال القرية أن يضعوا حدًا لهذه المشكلة، أن يمنعوا البدويات من "ورود الساقية".. لكنهم أجابوا في حزم:

- هذه ساقية، يعني سبيل ماء.. كيف نمنع الناس من الشرب؟
- لكن حميرهم تنغص علينا حياتنا وتعكر صفونا..
- نمنع أنفسنا ولا نمنعهم.. ماذا يقول الناس عنا.. منعنا الناس من الشرب يا حيف عليكن!

بعد شهر فوجئت القرية بوجود ثلاث خيام في "الجرن".. ودُهِشُوا من جرأة البدو على نصب خيامهم وسط البلدة وقرروا مواجهتهم بالعنف هذه المرة.. لكن البلدة سرعان ما اكتشفت أن الخيام لم تكن للبدو،

بل لضيوف آخرين هم "الثور" .. جلس الثور أمام خيامهم، ووضعوا عدة الحدادة، كوراً وسندياناً ومطرقة كبيرة وكيساً من الفحم .. ثم راحوا يدقون وينفخون ويصنعون الملاقط والمواقد وبعض الأواني البسيطة .. أشفقت القرية عليهم وتركتهم يلتقطون رزقهم ..

بعد أسبوع سمعت القرية غناءً وطبلاً وزمراً، وبدأ الغناء في جذب الشباب والرجال، فتقاطروا إلى خيام النور .. تزايدت حلقات السمر فتوقف الثور عن صنع الأشياء البسيطة وأخفوا أدواتهم .. ثم تحول السمر البريء إلى سهرات رقص .. ثم ضحكات وغنج داخل الخيام .. هجر الرجال نساءهم وجذبتهم "النوريات"، وسمعت أصوات المشاجرات في البيوت المستورة .. امرأة تسأل زوجها عن النقود التي ادخرتها للأيام السوداء .. وثانية تلطم على وجهها لأن زوجها أدمن الخمر وباع مصاغها، وثالثة تشتكي للمختار من زوجها الذي أهمل أولاده ولا يعود إلى البيت إلا مع أذان الفجر، ولم يعد يذهب إلى العمل .. ورجل يطرد ابنه من البيت لأنه سرق نقوده وأنفقها على النوريات ..

وجلس أهل العقد والحل .. ولكنهم قالوا في "الثور" مثلما قالوا في البدو:

- هؤلاء ضيوف .. ما بنقدر نطردهم، علينا أن نعاملهم بالحسنى ونطلب منهم أن يحترموا تقاليد القرية ..

لكن الحسنى لم تنفع مع "الثور"، لقد تمكنوا من شباب القرية وأوجدوا فتنة بينهم .. انقسم الشباب إلى فريقين: فريق يدافع عن

"النور" ولا يجد فيهم ضرراً على القرية، بل يجد فيهم الفائدة.. ويتزعم هذا الفريق خليل بصبوص الذي وجد فيهم مصدراً جديداً لكسب المال.. يبيع الدخان، والبسكويت والحلقوم والبزر، وزجاجات غالية الثمن ملفوفة بأكياس صفراء.. وفريق آخر (منهم الأستاذ زاهر وإبراهيم) يرفض وجود "النور" في القرية ويعتبرهم شرّاً يهدد القرية ويطالب بطردهم بالقوة.. وانقسمت القرية، وكاد الأمر أن يتحول إلى مشاجرات عائلية.. وعانى الناس شهراً كاملاً من خطر "النور" الجديد..

وفجأة! استيقظت القرية في صباح أحد الأيام ولم تجد خيام النور! وتبعثرت التساؤلات حول سبب رحيل النور، ولكن أحداً لم يجب أو يتكلم..

أعاد المخاتير النساء إلى أزواجهن، وعاد الشباب إلى أهلهم تائبين.. أما إبراهيم، فكان في اليوم التالي يجلس في "العزيزة".. يبتسم ويسر لي بحكاية "الجوالين الأربعة" الذين أعدوا خطة إشعال النار في خيام "النور" وأجبروهم على مغادرة القرية عند الفجر..

(٦)

إبراهيم الشاهد

أخيراً، غطّ والدي في نومه وتكوّمت أُمّي بجواره مجهدة بعد عمل شاقّ طول النهار.. كان الموسم وفيراً ميسوراً، وكانت أشجار الخوخ والبرقوق سخية دانية.. وها هي الصناديق المملوءة مغطاة بأوراق الدوالي تنتظر الخميس وسوق فراس، وهناك على مقربة من الصناديق بغل وعربة ينتظران حتى بزوغ الفجر.. بعنا اليوم كميات وافرة للزائرين المصريين، وحملت الوفود الخوخ والبرقوق في السيارات. ثمار لذيذة ذات رائحة عطرة.. فاكهة حمراء داكنة وصفراء زاهية تقلها السيارات في كل موسم وتصل بأكياسها المغلفة إلى مصر.. وبقيت هذه الصناديق متراصة تنتظرني حتى الصباح لأنزل بها إلى سوق غرة الكبير.. اختلط الشخير بنقيق الضفادع وأزير الحشرات. هبّت نسيمات آب منعشة لذيذة، فندت عنى دندنة لأغنية شعبية عن الليل والسهر والعشاق.. نظرت في الساعة فإذا الليل يقترب من نصفه، وإلى الشمال - حيث القنطرة - بدت "العريزة" ساحرة جذابة..

سألتها قبل أن تسقط سلة الفاكهة من يدها وتتبعثر ثمارها:

- لماذا سموك العزيزة؟

- كان أبي من عشاق العزيزة

- العين أم العاشقة؟

- كليهما! كان متيمًا بالعين التي أطفأت ظمًا الحصادين والحرّاثين في أوقات القبط والشدّة.. وكان مغرمًا بقصة تلك العاشقة، التي ذبحها شقيقها عند العين، وظل أبي يروي قصتها حتى وفاته..

كنا نقطف ثمار الخوخ، بدأنا بكرمهم كعادتنا، ولم أكن قد التحقت بالجامعة.. كانت نتيجة الثانوية العامة قد أعلنت، وبدأت الاستعداد للسفر.. دخلت تحت شجرة الخوخ الكبيرة، سألتني عن يوم السفر وناولتني حبة من البرقوق المعطر.. قضمتها ثم سألتها عن سر العزيزة، أجابتني ثم رفعت يدها لتقطف الثمار الصفراء الزاهية.. اشتعل جسми بلهيب جسمها، اقتربتُ، فلامستُ يدي نهدا الفائز، ارتعشتُ مثل السمكة العالقة في شبكة الصياد وتعرق بدنها ووجهها. همّت بالانسحاب فجذبتها نحوي وخطفت قبلة ساخنة وضممتها إلى صدري بقوة. سقطت سلتها وتبعثرت ثمارها. خطفتُ قبلة شهية ثانية.. استسلمتُ لرعدة لذيذة فهمت لها أن تتماسك، لكنها جثمت على ركبتيها منهارة. انسحبت من تحت الشجرة لاهثًا، وثمة رعشة لذيذة مازالت تهزّ بدني.. سمعت أمها تناديهَا وتسأل عن مكانها، عندها لعل صوت جميل حب الرمان:

- سن السّعثش وارد على الميه.. مسكته من نهوده سخسخ يأييه

- أسكت يا جميل اشتغل وأنت ساكت..
- حتى الغناء يا قبرصية خلينا نففض شوية.
- هذا غناء ولا قلة حيا؟
- الله يسامحك يا أم العزيرة.
- ثم عاد يصدح بصوته الجميل:
- ثلاث غزلان ناحي العين ماضن عليهن سيوف وحراب ماضن
- كشف جرح الطبيب وقال ما ظن ما ظن يطيب مجروح الهوااا
- أوووف.. أوووف.. أوووف..
- على بير الصفا ورَدَتْ حليلة جدايلها شقر وارختهن حليلة
- روحن ياسمر ما انتتش غنيلة حليلة القمر ونجوم الضحّااا
- فردد أبي وراءه "ونجوم الضحى.. قلبك مقطّع يا "أبو سامر"..
- منذ عامين ظل أبي يمر على جميل حب الرمان ويطلب منه أن
- "يسرح" للعمل معنا في موسم الفواكه.. كان يقول: غناؤه يخفف عن
- النفس وصوته جميل..
- لاحظت اليوم أنها تتحاشى الاقتراب مني.. طوال النهار تهرب مني
- وتتحاشى محادثتي أو النظر إليّ. لكنها فعلت ذلك عند العصر
- بطريقتها..
- قالت السيدة المصرية عندما وضعت البرقوق في سيارتها:
- سمعتك تتحدث باللهجة المصرية!
- أنا طالب في الجامعة هناك.

- أي جامعة؟
- جامعة عين شمس، في كلية الآداب
- أي سنة؟
- في السنة الثانية، قسم اللغة العربية وآدابها..
- أدرت ظهري عائداً فوجدتها في مواجهتي تماماً، حملت صندوقاً من الخوخ وداهمتني مباشرة ثم ضربتني بالصندوق في بطني.. وعندما تأوهت قالت فيما يشبه الفحيح:
- لم تشبع منهن هناك! وتريد أن تكمل هنا..
- أنت مخطئة أنا لم..
- ألقت أكياس الفاكهة في صندوق السيارة بعنف وعادت مغتاضة حانقة، تهذي بكلمات غامضة.. كانت تتعثر في مشيتها. اصطدمت بأختي فاطمة التي فاجأتها مبتسمة.. ضربتها هي الأخرى بالصندوق في بطنها واختفت وسط الأشجار..
- قالت السيدة المصرية التي انتبهت إلى ما حدث:
- إنها جميلة وممشوقة القوام.. لماذا لا تتزوجها؟
- إنها عنيفة كما ترين.
- وعلقت أختي التي وصلت بصندوق الفاكهة:
- لكنها طيبة..
- ما الذي يجعلني أفكر في هذه القروية العنيفة ذات الكفين الخشنيين؟ لماذا أعلق بهذه المتوحشة؟.. في الجامعة تتبخر الفتيات بشعورهن المسترسلة الناعمة أو المعقوصة إلى أعلي.. يتبخترن ببِلُوزاتهن

الشفافة المفتوحة.. ويتمايلن بأجسامهن البيضاء وينطلوناتهن المحزنة.. يضحكن بدلال فتبدو أسنانهن البيضاء اللؤلؤية وتشرق ملامحهن الجذابة المترفة وينتشر عطرهن في المكان.. وفي الشوارع فتيات أنيقات مرحات.. وفي الشرفات فتيات ناهدات.. في الحدائق صدور وأجسام بيضاء مغرية وفي الحافلات والميادين ودور السينما فتيات، والخير ميسور في كل مكان.. لماذا إذن هذه العريضة؟.. ها أنا أعود إلى بنت القبرصية المتشبهة بالرجال، لأجدها كما هي.. تضع رغيف الطابون في يد وحبتين من البندورة في اليد الأخرى، تفغم من الرغيف ومن حبة البندورة، وتدبّ على الأرض مثل الحصان.. تطارد الغربان والطيور، تبعدها عن شتلات القثاء والخيار والفول المزروعة حديثاً، تصيح عليها ثم تميل على الرعاية البدو تلعن أباهم وأيامهم السوداء وتحذرهم من الاقتراب من سياج الكرم ومن أرصفة التين الشوكي التي تحيط به.. يتخابثون عليها ويتعذرون بالعطش وعندما تسقيهم يسرقون من كرمها حبّات التين والخوخ ويقتربون بجمالهم من أرصفة التين الشوكي، فتنهرهم وتطردهم وتطرد الطيور الطامعة.. تفغم من الرغيف والبندورة وتصيح فتخشخش الزواحف الفائرة على الأوراق والأغصان الجافة وتندس هاربة في السياج..

أيها المعتوه! لماذا تتعلق بهذه المجنونة التي لا تعرف إلا العمل والقبرصية والصياح على الرعاية والغربان والنواطير؟! غضبت منك وظلّت نافرة حنة.. لم تهذبها قصص إحسان عبد القدوس التي

جلبتها لها في العام الماضي! ولم تذب جليد غضبها أغاني الحب والشوق التي أهديتها لها!!... مازحتها في الإجازة الماضية ودعوتها إلى السينما (إذا رأنا أحدهم حرقونا في ساحة القرية أو قتلوني مثل المجنونة وشنقوك مثل العاشق) وشدّت رسن البغل ووجهت العربية نحو البلدة وقالت وهي تنهر البغل (ابحث عن رفيقة غيري تأخذها معك)..

أيقظتني سيارة الجيب من أفكاري، نظرتُ إلى مصدر الصوت الآتي من الجنوب وعرفت أنها سيارة دورية قوات الطوارئ (هذه حامية الحدود، تجثم على صدورنا منذ عام ١٩٥٧م بعد انسحاب إسرائيل من القطاع).. راقبت السيّارة وهي تتجه إلى الشمال وعدت ينظري حيث القنطرة وكرم القبرصية..
قال أبي قبل أن يغطّ في نومه:

- موعد الجماعة بعد منتصف الليل، بعد الدورية مباشرة عند البركة.. سلاحهم تعرف مكانه، خذ لهم شويّة فواكه..
أبي ناطور بيّارة الأفندي، بيّارة مساحتها مائتا دونم بطولها وعرضها وفي خاصرتها الغربية يقع كرمنا، كما يقع كرم القبرصية في خاصرتها الشرقية.. وبين الكرمين بقايا هذه القنطرة العتيقة، التي تشهد على أيام الانتداب البريطاني ومعسكرات الإيجليز. قنطرة بثلاثة أقواس كبيرة.. بقايا أقواس كانت تتدفق منها المياه في فصل الشتاء حيث ينساب وادي العريضة. الوادي العريض الآتي من الشرق.. من هناك، من جبال الخليل.. يهبط إلى الغرب، يخترق النقب ويصل إلى

حدود قطاع غزة.. يخرق القرية ثم يلوى إلى الشمال مخترقا الحدود.. فجأة يهبط إلى الغرب ليصب في البحر الأبيض المتوسط.. هذا الوادي العجيب يجمع تضاريس الوطن كأنه ينظمها في عقد جميل.. الجبال والصحراء والسهل، يبت في الأرض النماء، يمنحها الخير، ثم يلتحم بالبحر..
سألته ذات مرة:

- صحيح هذه الأرض كانت لنا؟
- صحيح! ورفع جدك قضية على الأفندي في المحكمة بالقدس.. لكنهم زيفوا ختم جدك وبعد سنتين خسر جدك القضية.. لم يستطع توفير مصاريف المحامي والسفر إلى القدس لمتابعة القضية.. بعد ذلك سُويت القضية ومنَّ علينا الأفندي بهذا الكرم.. عشر دونمات فقط من مائة دونم.. وكذلك فعل مع والد العابد، زوج القبرصية..
- كذلك زيّفوا ختمه وأخذوا أرضه؟
- لا! كان والد العابد يسمى "الخيّال" كان عاشقًا للخيل، وكان يحب فرسًا له مثل زوجته.. ويقال إن أحدهم دسّ لها السم.. وفجأة ماتت الفرس.. فبحث الخيَّال عن شبيهة لها، وطاف البلدان باحثًا عن البديلة وعثر عليها في حظائر خيول الأفندي، التي كانت في قرية هوج.. وعندما رأوا تعلّق بها قايضوه على الأرض. مائة دونم من أفخم أراضي البلدة.. وهكذا بصم على البيع واحتفظ فقط بعشرة دونمات يتيمة..
- طيب ليش بتشتغل عندهم؟

- علشان بأحس إنها لسه أرضي! أنا مكنتش مولود لما خسر جدك القضية ورضي بهذا الكرم.. حدثتني جدتك بكل التفاصيل وأخبرتني أنني ولدت هنا على هذه الأرض بعد ذلك بشهور.. كانوا في موسم الحصاد عندما جاءها المخاض ونقلوها إلي "المنطرة" وظللت النسوة عليها وحجبت عيون الحصادين.. وعندما صرختُ باكياً قال جدك: هذا عوضنا.. هذا عوض الشاهد.. ثم مات بعدها بعام واحد!! مازلت أشعر أنني صاحب الأرض.. أتفهم الآن لماذا أقبل هذه المهنة؟ (بيبرجي) أدير البابور وأملا البركة وأراقب العمال والسقاة وأخدم على أسرة الأفندي، وأحرس البيارة من اللصوص والطامعين والبدو.

- لكنها مش أرضنا وأرض الخيال فقط!

- صحيح!! ثلاثة أرباع أرض البلد لهم! اسمع إذا أردت تفاصيل هذه الأشياء إذهب إلى الشركسي نجاتي السبروت، إنه يعرف كل شيء ويحتفظ بكل الأشياء. الأسماء والأوراق والأرقام.. ويعرف أنساب البلد كلها.. أصلهم وفصلهم ومن أين جاءوا، كل هذه الأشياء يعرفها. أنا كل ما أعرفه أنه كان لجدك ثلاثة قراريط من الأرض، قيراط ونصف هنا، وقيراط ونصف في أم الغزلان.. هناك إلى الشرق.. أيه.. هيا هيا هذا موضوع طويل.. هيا انهض إلى دروسك. نهضت وسرت بمحاذاة السياج نحو البركة التي ملأها أبي بالماء منذ العصر. بركة كبيرة، حمام سباحة جميل ينتظرني في كل صيف لأستمع به في منتصف الليل. بركة مربعة عشرة أمتار في عشرة أمتار وعمقها متران ونصف تحيط بها نباتات عباد الشمس

والياقطين.. بجوارها غرفتان.. واحدة كبيرة تسمى "بيت البابور"..
ويقع فيها "البابور" محرك ماركة ستين حصانًا يشبه البغل الأسود..
رُكِبَتْ على يمينه عجلة كبيرة تتوسطها عجلة صغيرة يلتف حولها
سير جلدي عريض، يمتد حتى "الظلمبة" مضخة رُكِبَتْ على فوهة بئر
قطرها ثلاثة أمتار.. في النصف الشرقي من البئر يهبط سُلَّم حديدي،
يستخدمه العمال للنزول إلى البئر لإصلاح الأعطال.. وفي النصف
الغربي من البئر هناك ثلاثة تروس متصلة ببكرة يلتف حولها السير
الجلدي العريض، الآتي من المحرك. اتصلت بالتروس ثلاثة صَبَابَات.
أعمدة حديدية تهبط إلى قاع البئر لتسحب المياه، وتضخها في
ماسورة كبيرة، تصعد حتى تخرج من "بيت البابور" متجهة إلى
البركة، وقبل أن تصل إلى البركة تتفرع منها ماسورة بجوارها
مَحْبَسٌ يُستخدم في تحويل المياه.. تتجه الماسورة إلى الشرق حيث
أعلى بقعة في البيارة وهناك تنتهي على حوض كبير تتفرع من
أسفله أربعة جداول إسمنتية، يتجه كل منها إلى ربع من البيارة.. إلى
الشمال، ربع الكيرفوت، وإلى الجنوب، ربع البنسية، وإلى الغرب
ربع الليمون، أما في الشرق فيتجه الجدول الإسمنتي إلى ربع
البرتقال البلدي.. يدير والدي العجلة الكبيرة ببطء، ثم يسرع أكثر
وينزل عتلة في وسط "البابور" فينطلق هادرًا مدويًا.. بعد قليل يزيح
أبي السير الجلدي العريض بعتلة حديدية إلى البكرة المتصلة
بالتروس، فتدور التروس الثلاثة وتعمل الصبابات كالعفاريت، هابطة
صاعدة ثم تندفق من الماسورة مياه قوية، وتنظم ضربات "البابور"

بصوت مألوف، فيقول النواطير والرعاة "اشتغل بابور الأفندي" .. منذ أربعة أعوام وأنا أقوم بهذه المهمة بدلاً من والدي .. أدير العجلة الكبيرة يتفحص والدي زيت البابور، ثم يسقط العتلة لينطلق الهدير .. والغرفة الثانية، تُخزن فيها براميل الوقود وأكياس السماد وبعض الحاجيات والأدوات .. وعلى مقربة من البركة، حديقة عامرة، خاصة بعائلة الأفندي .. تحتوى أربعة أصناف من الحمضيات، .. ثلاث أشجار من "دم الزغلول" الذي يحبه الأفندي، وثلاث أشجار من اليوسفي، الثمار التي تحبها زوجة الأفندي، وثلاث أشجار من "أبو صرة" الذي تحبه ابنة الأفندي، وثلاث أشجار من ليمون "البنزهير" الذي يحبه ابن الأفندي .. بجوارها ثلاثة أحواض من الورد وثلاث شجرات من الرمان، جلبها الأفندي من بلاد الترك .. وهذه الثمار اللذيذة أتذوقها أنا ابن "البيرجي" قبل الأفندية .. كأن هذه البركة قد أعدت لتحقيق هدفين: ري هذه الحديقة "الأفندية" الخاصة ولأستمع بها أنا العبد الفقير ابن الفقير في أيام الصيف القانضة ..

خشخشة في سياج كرم القبرصية، ثم ثلاثة رجال يعبرون القنطرة القديمة، في اتجاه كرمنا .. يسيرون بمحاذاة السياج نحو البركة .. وعندما التقينا تعانقنا ثم جلسنا بين حوض الورد ونباتات عبّاد الشمس التي حجبت عنا الحدود .. قلت بعد أن وضعت سلة الخوخ بينهم:

- رحم الله الكتري كان يحب الخوخ المعطر ..

- الله يرحمه.. بعد الاشتباك جرح منا عند مستعمرة الغصين، كنا قد اقتربنا من الوادي، حملناه حتى هذه البركة، ولفظ أنفاسه الأخيرة هنا، في هذه البقعة.
وسألني أبو الكاس:

- كيف حال حبيبنا عبد الناصر؟
- بخير..

وعلق أبو ثابت:

- بخير لولا حرب اليمن، لقد جروه إلى ورطة، مستنقع؟
وأردف أبو شاويش:

- والجنهات الذهبية السعودية تعمل عملها هناك..

- كيف حال الوطن في الداخل؟

- بخير، هناك حشودات على الحدود مع سوريا، إسرائيل مذعورة من قصة تحويل نهر الأردن وبناء السد هناك..

رَبَّتْ أبو الكاس على كتفي، شعرت بيده حاتية ودودة، ابتسم ثم قال:

- شكرًا على هذه الفاكهة اللذيذة، وعندما نعود سنحكي لك عن كل ما ترغب في سماعه، وإن شاء الله نحضر لك هدية جديدة.. كالعادة هنا بعد ثلاث ليال وفي نفس الموعد - إن شاء الله - والآن نستودعك الله.. نريد أن نقطع قبل موعد الدورية الثانية..

أخرجت أسلحتهم وعتادهم والذخيرة وحقائبهم الخاكية التي تحوي زوادة الطريق من داخل نباتات الياقطين.. وسلّمت عليهم ثم راقبتهم حتى نزلوا إلى الوادي وانسلوا إلى قلب الوطن..

استلقت على ظهري وقد ملأني النشوة وراودتني الرغبة في الغناء.. طردت الفكرة من رأسي، فالحدود قريبة والليل ساكن فضاء والمنطقة تغط في سبات بعد ضجيج أصوات "البوابير" المختلطة بأصوات النواطير والرعاة.. وعندما هممت بخلع ملابسي خشخش سياج القبرصية مرة أخرى! يا إلهي! من يجرؤ على اختراق هذا السياج غيرهم؟ البدو الذين ينصبون خيامهم بالجوار لا يجرؤون.. ولا النواطير قد فقدوا عقولهم ليفعلوها! حتى العفاريت لا تجرؤ على الاقتراب من سياج القبرصية! خاصة في هذه الأيام الحافلة بالفاكهة والصناديق المملوءة بالخيرات! كيف يجرؤون على الاقتراب من القبرصية والعريضة معها؟.. هل تكون العاشقة المجنونة؟ ما هذا الهراء؟ لا أؤمن بالخرافات ولا بقصص المقتولين الذين يعودون ويظهرون في أماكن موتهم.. سيكون ويصرخون ويتجولون في المكان باحثين عن أحببتهم المغدورين.. من خرج من السياج لأبد وأن يكون إنسيًا، من لحم ودم.. تواريت خلف البركة وراقبت القادم وقد عبر القنطرة واتجه حيث البركة تمامًا.. اقتربت ودنت وتبينتُ هيئتها ومشيتها.. إنها العريضة! يا إله الكون هل أصدق عيني؟.. اختفيتُ خلف نباتات اليقطين والتصقت بجوار البركة ثم كتمت أنفاسي.. وفكرتُ: ما هذا الجنون؟ فتاة في السابعة عشرة، ناضجة طافحة بالأوثنة، في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل هنا؟ في هذا المكان القصي البعيد عن العالم، على بعد أمتار من الحدود؟ ماذا لو خرجت عليها الذئاب؟ أو داهمها البدو أو اللصوص أو النواطير

الطامعون؟ فتاة تأتي بمفردها إلى البركة مثل الجنيات؟ لو قرأت هذا في قصة لما صدقت؟ أو لاعتبرت ذلك جنوحاً إلى الخيال أو تصويراً غريباً انبثق عنه ذهن الكاتب. فتاة قروية هي العزيزة بنت القبرصية تجازف وتدخل بيارة الأفندي بعد منتصف الليل وتصل إلى البركة! لا.. لا.. هذا غير معقول!! وعندما اقتربت خطواتها ووصلت إلى حافة حوض الورد، كان التساؤل قد استقر في رأسي: هل رأيتني وجاءت من أجلي؟!

دخلت بين نباتات عبّاد الشمس ونظرت إلى الياقطين، دارت حول البركة ثم عادت لتقول بصوت خافت مرتعش:

- برهوم أخرج.. أنا عارفة أنك موجود.. خلص.. أنا خائفة ومش قادرة أتحمّل..

خرجت من بين نباتات الياقطين فارتمت في حضني وضمتني إليها بقوة. قبضت على عنقها وقلت:

- مجنونة.. أنت مجنونة! أيش اللي جابك هان؟

- برهوم بحبك..

- ليش جيتي هان.. ردّي؟

وقذفها بعيداً عني.. تحسّست رقبتها وجلست على حافة حوض الورد ثم قالت بصوت متقطع:

- مش حتصدقني لو قلت لك مش عارفة كيف وصلت هان! صحيت ونظرت إلى القمر فوجدته مكتملاً باهراً.. أذهلني المكان والهدوء والجو والعزيزة.. خطرت ببالي، شعرت أنك لابد في هذا المكان،

أعرف مواعيدك وشغفك بالسباحة في البركة في مثل هذا الوقت..
صدقني لم أقصد المجئ إلى هذا المكان، لكن قدميَّ قاداني إليه..
اقتربت منها ومسدت شعرها وتحسست رقبتها وخديها ثم نفضت يدي
بسرعة.. قلت وأنا أحاول الابتعاد عنها:

- عجيب! تصدّيني عقابًا لنزوة عابرة أغرتني بها حبة برق فوق
معطرة! مازحتك ودعوتك لمشاهدة فيلم سينمائي، قلت سيحرقوننا
ويفتكون بنا وهربت!! تتحاشين النظر إليَّ وتهربين مني ومن
محادثتي.. تخشين أن تلامس يدي جسمك!! أسعي إليك وأهديك
القصص والكتب وزجاجة من العطر، وتبقيين جامدة نافرة حنة..
أدخلتيني في حيرة عامين كاملين.. والآن، الآن في هذا المكان وفي
هذه الساعة بمفردك وحدك، تأتين راغبة واهبة، تقامرين بكل
شيء.. لماذا؟

- هكذا فعلت بطلة القصة!!

- أية بطلة؟! وأية قصة؟!

- القصة اللي أهديتني إياها! كانت تستيقظ عند منتصف الليل بعد
أن تسمع نداء حبيبها الذي يسكن الطاحونة المهجورة. تعبر الجسر
وتسير عبر الطريق المليئة بالأشواك لتصل إلى الطاحونة.. وهناك
تلتقي حبيبها وتسهر معه حتى الفجر. يتناجيان ويتعانقان ويرشفان
من الشهد حتى يشبعا ويرتويا، ثم تعود أدراجها وتندس في فراشها
راضية مرتوية..

- هذا جنون، تلك قصة خيالية، وحبيبها كان جنياً! أنا مش جنني!
أنا إبراهيم بن عوض الشاهد، "ببرجي" بيارة الأفندي، وأنت عزيزة
أمك القبرصية، وأبوك عابد الخيال.. إحنا من طين هذه البلدة مش
من الجن.. هذا جنون أنا مش مصدق اللي شايفه أنت فعلاً عزيزة
بنت عابد الخيال؟ ولا واحدة ثانية بتشبهها؟ وهل ما أنا فيه حقيقة أم
خيال؟

- أنا هي بلحمها وشحمها يا برهوم.. أتعتب منذ وصولك من
مصر.. عندما ضربتك اليوم بالصندوق في خاصرتك بعد أن رأيتك
تتحدث مع المرأة المصرية أصبت بالغثيان، وانبتقت كل الشياطين من
داخلي.. هربتُ إلى آخر الكرم حيث شجرة التين الكبيرة، بكيت،
وبكيت وأفرغت كل الدموع التي حجبتها سنتين كاملتين، وعندما
لحقت بي أختك فاطمة لتخفف عني بكيت أكثر.. بكيت مثل
المجنونة.. بكيت حتى أنني لم أسمع صوت أمي تنادينني وتلعن كل
بنات هذا الجيل.. وعندما كنت قد جففت دموعي ورددت عليها،
تأكدت أنك لم تعشق سواي ولم يذهب قلبك إلي غيري فقررت أن
أنهي صدي لك، قررت أن ألوذ بك منك، أن أروي ظمأك وأن أرتوي
منك، أسقيك من شهدي وأرشف شهديك، لن أحرملك مني بعد اليوم
أنت قدرتي وسأتركك تفعل بي ما تشاء!!

كانت تقترب مني وتحاول الالتصاق بي، أبعدتها عني وقلت:

- يا إلهي!! أنت حافظة كلمات بطلة القصة تماماً، وكمان
بترتعشي، مثلها!!.. أيتها القروية الساذجة، أيتها العزيزة "المسكينة"

من أين جئت بهذا العشق والهيام؟ من أين جئت بهذا الشيق مرة واحدة؟ تبًا لك ولهذه الليلة ملعونة؟؟

وأزحتها بعيدًا، ثم مشيت إلى نباتات عباد الشمس وأنا لا أكاد أسيطر على نفسي، ولا أصدق ما يحدث!!..

- أنت لا تحبني إذن!

عدت إليها، وأمسكتها وهزرت كتفيها:

- بحبك، بحبك يا مجنونة، لكن مش بهذه الطريقة هيا.. هيا عودي إلى أمك.. إذا استيقظت ولم تجدك ستفضح الدنيا.. أما إذا استيقظ عمك عوض الشاهد فستكون الليلة أسود من غراب البين.. حتى هذا القمر سيصبح مثل القطران..

ودفعتها بيدي في كتفها فسارت بطيئة منكسة الرأس، ولم تدب بقدميها على الأرض وعندما خرجت من حوض الورد التفتت إليّ قائلة:

- سامع؟

- سامع أيش؟

- بكاء العزيزة!.. بتنادي حبيبها وتصيح باحثة عنه، تريده أن يطفئ شوقها.

- بلاش تخريف وهذيان.. هذا نباح كلب البدو في الجوار، روحي.. روحي قبل أن تفقدي بقية عقلك..

راقبتها حتى وصلت إلى القنطرة القديمة ودخلت السياج.. خلعت ملابسها وتعلقت بالماسورة، ثم قفزت إلى بركة الماء..

عزيزة الخيال

أكاد أنكر أنني فعلتُ ما فعلتُ .. عليَّ الآن أن استعيد ما حدث في تلك الليلة المشنومة .. استعيده وأرتبه، ثم أحاول استيعابه!! لماذا فعلت ذلك؟ هل كنت واعية مدركة لما قمت بفعله؟ تختلط الأمور في رأسي لدرجة أنني لم أعد قادرة على تفسير الأشياء والتصرفات .. أتعرف أن جزءاً كبيراً مما فعلته أقرب إلى تصرفات المجانين .. والغريب أنني لم أخبر أحداً!.. منذ أن سقطت سلة الفاكهة مني، في ذلك اليوم القانظ، وبرهوم يدغدغ جسمي الطري، ويعصر نهدي الفائز .. منذ أن قبلني تلك القبلات الساخنة الملتهبة .. لم تكونا قبلتين؟ بل أربع قبلات ساخنة شهية جعلتني أجنم على ركبتي وأسقط السلة من يدي ..

- لم تعودى صغيرة .. حافظي على نفسك ..

قالت أُمي ذلك، بعد أن لاحظت انتفاضة الأنثى في جسدي .. ومنذ ذلك اليوم وأنا مطاردة، ملاحقة، مستهدفة .. ملاحقة بنظرات وغمزات وخبث ذلك المتصابي جميل حب الرمان .. اسم مضحك .. هذا الذي تسمي على اسم أمه "الجنكية" يلاحقني مثل الكابوس .. يغمز بعينه ..

ثم يتجراً أكثر، ويمدُّ يده، يلامس نهدي.. رجل مدور الوجه.. ينتف كل شعرة في وجهه.. فيبدو وجهه نساءياً.. وجه امرأة تهيأت لزوجها.. بل مثل وجوه الراقصات والجنكيات.. لعله يشبه وجه أمه "الجنكية" يضحك فتبدو سنّة الذهبية.. يتثنى فتتضحك النساء وينهره الشيوخ ويلكزونه بعكاكيزهم ويضربونه على مؤخرته.. ماذا أفعل؟ كيف أتدبر هذه المصيبة؟ إني حائرة!.. أخبر أمي؟ فتغرز تلك "الشبرية" في صدره.. يموت وأصبح أنا نذير الشؤم وأصير لبانة في أفواه أهل البلدة كلهم!! أخبر عمي عوض؟ فيشق رأسه بذلك النبوت الطويل، وينتهي الأمر بموته، أو بعاهة مستديمة تقعده.. وتحدث نفس النتيجة: الشؤم والسيرة الحلوة التي تلوّكها الألسن!! أخبر إبراهيم وأضع كل همومي بين يديه؟.. يقتل الرجل أو يظن بي الظنون! أو يحسب أنني اخترع حيلة لأجعله يسرع في خطبتي!.. لماذا لم يخطبني هذا المجنون، ويخلصني من هذا العذاب؟ لماذا لم يفعلها حتى الآن؟.. حتى الفاتحة! لم يقرأوها لانتظره مطمئنة طوال عمري! لو فعلها لأسكت ذلك المخنث وألجم تصرفاته.. كان جميل حب الرمان يكمن لي عند دكان صديقه خليل بصبوص الذي يقع في طريق الساقية.. أملاً الجرة وأعود فيستقبلني حب الرمان بعباراته وتأوهات.. "لك مستقبل يا غزال".."أحضنك ليلة وأموت".."أنا خيالك يا فرس".."لأركبك لو آخر يوم في عمري".."حتى زوجة صديقه!، تلك اللعوب سماهر، التي أحضرها خليل من الجنوب وأجلسها معه في الحانوت.. تلوّك اللبان وتتقصع للشباب.. تغمز وتتطرر، "تتبودر"

وتقف بجواره، وقد نتفت وجهها ومشطت شعرها؟ ووضعت على رأسها منديلاً ملوناً.. تسقطه إلى الوراء لتظهر شعرها المسترسل المدهون بالزيت.. تتقصع وتتثني وتغنج، ويبيع خليل بصبوص الدخان والسكر والشاي وأشياء أخرى.. يصر عمي عوض على أن يسميه "أبو سامر" وليس هناك سامر ولا سامرة. لم ينجب من ثلاث نساء.. ولم تُعمر معه امرأة واحدة.. تقرصني سماهر في صدري:

- "والله احلويتني يا عزيزة.. وجسمك تدور (تضحك وتغنج): أبو سامر نفسه فيكي يا بنت.. "أستوى الرمان يا عزيزة وطلب الأكل...".

- استحي يا سماهر.. وبلاش قلة حيا.. أما صحيح مرة ناقصة.. والله لأقول لأمي ولعمي عوض..

وأنصرف غاضبة مرتبكة.. لكنني لا أخبر أُمي ولا عمي عوض، فتعود سماهر إلى قلة الحياء، ويعود جميل حب الرمان إلى التأوه وإلى العبارات التي تزلزل كياني وتزرع الرعب في جسمي.. ماذا أفعل؟ من يشعر بي وينقذني من هذه المصيبة؟

قلت لفاطمة أخت إبراهيم، التي تصغرنى بثلاث سنوات، لمحي لأمك عن خطبتنا أنا وإبراهيم قبل سفره إلى مصر.. لكنها عادت بإجابة فاترة مقلقة:

- أبي ما بيفكر في هذا الموضوع الآن!.. قال عندما يتخرج إبراهيم من الجامعة يفرجها الله، إن شاء الله تكوني من نصيبه.

قبل أن أتهور وأطلق العنان لشيطان غضبي على إبراهيم، بعد حديثه مع المرأة المصرية، عصرتني جميل حب الرمان تحت شجرة الخوخ، ومدّ يده إليّ.. إلى صدري وهمّ بتقبيلي.. بصقت في وجهه وأفلت من بين يديه بصعوبة، ثم بكيت.. كان يوماً للبكاء.. ماذا أفعل غير البصق في وجه هذا المتصابي، ونعته بأقذر الصفات والبكاء.. عبرت أمني عن عدم ترحابها به في أكثر من مناسبة.. وعمتني هنية، أم إبراهيم، لا تقبل حتى سماع سيرته "مركب سن ذهب مثل النوريات، ويتقصّع مثلهن".. لكن عمي عوض لا يستمع لأحد ويصر على إحضاره في كل موسم ليعمل معنا.. نهرب منه في القرية، فيحضره عمي عوض إلى العريضة!.. "صوته جميل، يخفف عنا التعب" آه يا عمي عوض! أنت لا تعرف هذا النذل.. لا تعرف هذا الشيطان الحقيق!.. عليّ أن أرتب الأشياء مرة أخرى، أرتب الأشياء الغريبة التي حدثت.. لماذا تشددت أمني معي وبالغت في حذرهما وحيطتهما؟ لماذا تصر على تضيق الخناق عليّ ولا تسمح لي بأبسط الأشياء التي تقوم بها الفتيات مثلي؟.. لا تسمح إلا بملء الجرة وقضاء الحاجات الضرورية فقط! حتى الأفراح وليالي الحنة، لا تسمح لي بحضورها!.. هل ما تقوم به مجرد حرص من أم، لها بنت واحدة، بنت يافعة فائرة بالأنوثة مثلي، مجرد أم تخشى على ابنتها من أولاد الحرام؟!

لماذا يصبر عمي عوض على تأجيل الحديث عن الزواج والخطبة، أو حتى قراءة الفاتحة؟.. ولماذا لم يبادر إبراهيم بفعل أي شيء، وهو

الذي يحبني ويشتاق لي دائماً؟ لماذا لا يأخذني معه، أكون برفقته،
خادمة له، بل حبيبته وصديقه؟

ولماذا يصبر هذا الحقير جميل حب الرمان على ملاحقتي وتنغيص
عيشتي؟ لماذا اختارني أنا من بين بنات وصبايا هذه البلدة كلها؟..

لماذا سخر نفسه لمطاردتي ورشقي بسهامه السامة الشريرة؟..

ثم لماذا ذهبتُ إلى البركة في تلك الليلة الملعونة؟ لماذا ذهبتُ إليه
في ذلك الوقت بالذات؟ عليَّ أن أرتب الأشياء.. ها أنا أرتبها.. أذكر

أنني نهضت من نومي مذعورة.. نهضت على صوت، بل بكاء..

العزيزة.. أدرك وأعلم أن العزيزة لم تعد كما كانت!.. غارت العين

منذ سنين.. نضبت المياه وتهدم الجدار الصخري المقوس.. لم يعد

الوادي حافلاً بالرعاة والحصادين والحراثين والصبية الذين يلتقطون

السنابل وراء الجمال.. لم يعد هناك سوى المياه الضحلة والدبابير

والحشرات والسحالي.. تحولت الكروم المحيطة إلى بيّارات صغيرة

وهدرت أصوات البوابير وتدفقت المياه في كل مكان.. لم تعد العزيزة

استراحة الحصادين والرعاة ومطفنة عطشهم وقبظهم! لم يعد هناك

من يبكي ويصرخ ويطلب الحبيب ويستدعيه ليطفئ شوقه.. تهدمت

"العزيزة" وتهدم جدارها.. أعرف ذلك.. لكنني سمعت صوتها

وبكاءها!! هل كان ذلك خيالاً؟ وهماً؟ أذكر أنني سمعته وسرت على

القطرة، بقايا القطرة القديمة الهابطة في الوادي.. دخلت السياج،

سياج بيّارة الافندي.. هل سرتُ نحو البركة، لا أذكر بالضبط؛ لكنني

أذكر أحواض الورد!! أذكر نبات الياقطين!! أذكر إبراهيم يخرج منه

ويقبض على عنقي.. اذكر أنني ارتيمت في حضنه ودست رأسي في صدره، وأذكر أنه قذفني بعيداً عنه.. كيف حدث ذلك، كيف أنسي ذلك، وهل فعلاً حدث ما حدث كما أرويه؟ من يُصبرني، من ينقذني من هذا الهذيان!.. نعم هذيان؟ هذا ما قاله بالضبط! "هذا تخريف وهذيان". وطلب مني أن أعود إلى أمي.. وعدت إليها منكسة الرأس، مثل صبية غرة أسقطت جرّتها الصغيرة.. "عسليتها" كسرتها ولم تستطع المحافظة عليها!..

عندما قرأت قصة العاشقة التي أهداني إياها شعرت بالراحة، بل بالنشوة.. هل كانت القصة سبباً في ذهابي إلى تلك البركة في تلك الليلة؟ هل سحرتني البطة وأخذتني إلى البركة؟.. لماذا لا أبحث في هذا الاحتمال؟ أذكر أنني قلت ذلك عند البركة.. لكن هل هي الحقيقة؟.. هل سيرتني القصة وبطلتها ودخلت في السياج وذهبت إلى البركة تحت تأثيرهما؟ لا أجزم بذلك!! بل لا أصدق ذلك البتة!.. قرأت القصة قبل تلك الليلة المشؤمة بأسبوع.. وقرأت قصصاً عديدة بعدها.. لم تكن تلك القصة في ذهني، ولم تكن بطلتها ساحرتي.. لا.. أنا أحاول أن أجد المعاذير وأبحث عن التبريرات!!.. إذن لماذا ذهبت إليه في تلك الليلة؟.. لأتخلص من شيء ما! نعم، بالضبط كنت أريد التخلص من عبء ما، عبء ثقيل يجثم على صدري! عبء ثقيل ألقيه في حجره، أسقطه بين يديه! "أنوثة طافحة وعاشق محروم" يا إلهي! ها أنا أعود إلى تلك القصة، وأكرر عباراتها ماذا لو أطاعني إبراهيم؟! لو استسلم ورضخ لنزوتي، لشبقي المفاجئ؟!.. ماذا لو

استسلم إبراهيم لشهوتي المحمومة المكبوتة؟ ماذا لو استسلم
لأشواقه التي لمستها في يديه وصوته وارتعاشة بدنه؟ ماذا لو تم لي
ما أريد؟ لكن ما الذي كنت أريده بالضبط؟ أن يجردني من ثيابي!..
ينهل عليّ، ويلثم نهدي في ضوء القمر! يتمرغ في شعري وجسدي
ويقطف كل ثماري!.. أن أرتوي وأن يفعل هو ذلك!! أهذا ما كنت
أريده؟ ماذا لو تحقق ذلك؟ هل كنت سأستريح؟ أستريح وأعود لأندس
في الفراش مطمئنة؟ أعود مرتاحة لأنني تخلصت من "عبء الأثوثة
الثقيل" مثل بطلة القصة؟! أم أنني كنت سأعود وأفعل ما تفعله
القرويات الساذجات الساقطات في الخطيئة؟.. القرويات البائسات
المخدوعات المنزلاقات في الوحل؟ أعود وأسكب على جسمي صفيحة
الكَاز، ثم أشعل عود الثقاب في شعري وصدري، وأترك النار تأكل
جسدي، تأكله وتحرق خطيئتي ونجاستي، وتطهرني حتى الموت!!
هل أنقذني إبراهيم من هذا؟ هل أنقذني من جنوني؟ هل كنت مجنونة
وكان هو عاقلاً؟ من كان منا على صواب و من كان على خطأ؟ لم
أعد أعرف! ولم أعد قادرة على ترتيب الأشياء واستيعابها!!..

بعد عودته من السوق ذهبتُ إليه.. لكنه صدّني بقسوة وهرب من
مواجهتي:

- بدي أحكي معك..
- لم يعد بيننا حديث!
- إبراهيم لابد أن تسمعي.. بدي أشرح لك بعض الأمور..

- بديش اسمع مجانيين.. لما يرجع لك عقلك يفرجها الله..
وعند العصر، جاءت فاطمة.
 - الليلة سامر البدو.. هل تذهبين نتفرج؟
 - أستاذن أمي، وإذا وافقت نذهب..
 - ما بك يا عزيزة؟ تبدين غير طبيعية!.. يا شيخة لا تتأثري من كلام عمك عوض.. غداً يروق الحال.. ويعود إبراهيم بشهادته وتزوجان وتجبان الصبيان والبنات، وتعيشان في تبات ونبات..
 - أحلام!!
 - لا تكوني متشائمة.. هه.. ما هذه "الشبرية"؟.. أليست هذه "شبرية القبرصية"؟..
 - نعم هذه شبرية أمي..
 - لم تحملها من قبل!!
 - مجرد صدفة.. كنت أقطع بها بعض الخضراوات..
- أمام الخيمة البدوية الكبيرة عُلّق فانوسان.. جلس الرجال على فراش أرضي مخطط، يتوسطهم رجل يحتضن ربابة.. دارت فجاجين القهوة السادة ورحب البدو بعمي عوض وابنه الجامعي إبراهيم.. وجلست أنا وفاطمة وسط الصبايا البدويات؟ نتفرج، وقد أنزلنا ذلك الساتر الذي يحجبنا عن الرجال.. تناول الرجل ربابته "حن" عليها فأصدرت صوتاً يشبه البكاء، ثم أخذ ينشد:
- الصلاة ع النبي روى فداه ألفين صلاة على ذاك النساب

يا إله العرش يا حامي الحمى تفرّج الشدّات عثّا والصعاب
تسقط الرحمات، رحمة برضاه يا إله العرش ترفع هالْعذاب
عندما فرغ الشاعر من قصيدته، دارت فناجين القهوة من جديد..
وأثنى الحاضرون على قصيدته المؤثرة.. وبعد قليل نهض بعض
الرجال وبدأوا يصطفون، مصدرين هممة تشبه الفحيح فهمست
صبيّة من البدويات إنها الدحية:

دحية.. دحية.. دحية

ع الألف وألفته يا خوي.. ع الحروف الألفية

دحية.. دحية.. دحية

ع الباء إبتليت بحبه .. أبو العيون العسلية

ع التاء تهتهتوا عقلي .. يا رباعي ردّوا عليه

..... ..

ع الذال ذلّي يا نفسي .. وصيري للزين مطية

ع الصاد ضلّت دروبي .. والخلو ما وصل ليّه

ع الهاء هالت دموعي .. زادت همومي عليه

ودخلت امرأة ملفوفة بالسواد، مثل الشبح.. وأخذت تطوّح بسيف
أمام المصطفين.. فازدادت الهممة وضرب الرجال على أكفهم
بقوة..

نهضت في هدوء وتسللت من خلف الخيمة الكبيرة. اتجهت نحو
الوادي حتى وصلت "العريزة".. أخذت كيساً من الخيش وضعت فيه
حبلاً ثم تقافرت طائرة نحو القرية..

كان ضوء القمر خافتًا وسيطر الهدوء على المكان، هدوء لا يقطعه سوى نباح كلب، أو خشخشة سحلية، أو أزيز حشرة.. ها هي أشجار الكازورينا تنتشر على ضفتي الوادي مثل الأشباح الكبيرة.. أحفظ هذا الوادي شبرًا شبرًا.. هذه بقايا القنطرة.. وهناك إلى اليمين، العريضة بجدارها المتآكل.. بعدها هناك المنحنى الواطئ الصغير، بقايا كهف كنا نختبئ فيه صغارًا.. وهناك كروم الجعديّة، لم يحولوها إلى بيّارات.. وتلك بيّارة الصوالح.. وإلى اليسار هناك.. أرض حمدان التي زرعها من جديد بالحمضيات.. وذلك هناك بيت البابور. وهناك يتحول الوادي إلى الشمال.. أعرف كل شبر في هذا الوادي وأحفظ تضاريسه عن ظهر قلب؟ ويمكنني أن أسير فيه مغمضة العينين.. لماذا تلازمني هذه الرعشة إذن؟ لماذا هذا الخوف؟ هل أنا خائفة حقًا؟ نعم! أنا خائفة، وأخشى شيئًا واحدًا فقط، أخشى شيئًا مرعبًا فظيعة!! أن تكتشف "القبرصة" أمري! أن تعلم أمي أنني ذهبت في هذه الليلة إلى القرية بمفردي.. ماذا ستقول؟ ماذا ستفعل؟ قد تقتلني وتتخلص مني؟

عندما وصلت إلى المنعرج خُيل إليّ أنني سمعتُ صوتًا، صوت أقدام تقريبًا.. هل يسير أحدهم في إثري؟ هل يتعقبني شخص ما؟.. وقفت.. التفتت.. لم أر أحدًا.. ولم أسمع صوتًا.. سرت.. صعدت من الوادي واتجهت إلى القرية.. عندما وصلت إلى دكان خليل بصبوص كان جميل حب الرمان هناك ضاحكًا مشرقًا كعاته.. مررت من أمامه وابتسمت ثم أومأت برأسها.. ترك الحانوت وتبعني.. سرت أمامه في

الزقاق واتجهت إلى شجرة الجميز الكبيرة.. وعندها وقفت وانتظرتة.
ابتسمت، فهشّ منتعشاً.. تظاهرت بالليونة وبسرعة ألصقته إلى جذع
الجميزة وغرزت "الشبرية" في رقبته.. وأمرته ألا يتنفس.. وقبضت
على عنقه، ثم أخرجت الحبل، وبسرعة درت حوله أربطه وأشدّ
وثاقه إلى جذع الجميزة.. حاول التخلص من الحبل فطعنته في ذراعه
مرتين، تأوه وهمد فعدت إلى لف الحبل، وأحكمت وثاقه:

- والآن أيها الخنزير الحقيق.. تفه.. أيها النذل.. إياك أن تلاحقتي
أو تنظر في وجهي مرة أخرى.. إياك أن تتفوه بعبارتك القذرة أو
تتجرأ وتلمسني مرة ثانية.. هه تفه.. فاهم يا كلب؟
- فاهم.. فاهم..

كنت أبصق في وجهه وأرتعش.. ألفت الحبل حوله وأرتعش.. وأكيل
له الشتائم وأرتعش.. وفجأة وجدت من يمسك يدي من الخلف وينزع
الشبرية مني.. انتفضت ونظرت، فإذا هو إبراهيم!! ربّت على كتفي..
بصق في وجه حب الرمان المتأوه.. أحكم الحبل على وسطه وأوثق
يديه.. ثم جذبني من يدي وأنصرفنا..

سرنا في الوادي صامتين.. لم أتكلّم كلمة واحدة.. كنت أبكي.. بل
كنت أنتحب وأذرف الدموع في صمت، وعندما وصلنا "العريزة"
وقف، مسح دموعي.. تشجّعت وقلت:

- برهوم عدني أن تظل على حبك لي..

- وأنت عديني أن تظلي مجنونة

وقبلني ثم صعد الدرجات الصخرية قفزاً..

خالد الربيع

تقاطر الشباب على نادي المخيم، وخلال ساعة كانت القاعة قد اكتظت، ووقف صفان طويلان على الجانبين.. صدحت الأناشيد الوطنية وانتشرت اللافتات والملصقات على الجدران، وبهذوء، اندسّ رجال المباحث يتفحصون الوجوه ويتابعون التفاصيل.. جلسنا، أنا وعبد الله الشريف وإبراهيم الشاهد متجاورين.. تبادلنا التعليقات على الشعارات والأشخاص، وبعد لحظات قدّم عريف الحفل الأستاذ القومي المعروف.. كانت خطابات الأستاذ رافقت شعبان تبدأ دائماً بالهجوم على "الأنظمة الرجعية العميلة للاستعمار".. لكنه فاجأ الناس هذه المرة، وحولّ الدفة إلى "الأنظمة الدكتاتورية الفاشية العميلة للاستعمار".. وصقّ الحاضرون وهتفوا ورفعوا الزنود.. في المرحلة الثانوية، كنا نصفق ونهتف بجنون، كنا نصفق للجميع، ونهتف ونردد وراء الجميع.. التهبت حناجرنا وبُحّت أصواتنا وكلت زنودنا.. واجهنا الرصاص بصدورنا، وتسلقنا الجدران والأبنية والأعمدة.. وأنزلنا أعلاماً وصوراً، وأحرقنا أعلاماً وصوراً، ورفعنا وثبتنا أعلاماً

وصوراً.. فعلنا ذلك في كل المظاهرات.. مظاهرات التأييد ومظاهرات الغضب والرفض.. هتفنا بحياة الثوّار والمناضلين والأبطال.. وهتفنا بسقوط الخونة والعملاء والجبناء.. هتفنا لثورة الجزائر وثورة اليمن، وهتفنا ضد الانفصال ومشاريع التقسيم.. هتفنا لفيتنام وكوبا والصين، وهتفنا ضد الفاشية والإمبريالية والاستعمار!! وكان الأستاذ رأفت يزودنا دائماً بالأهازيج والهتافات، وبالأفكار الجريئة.. "علينا أن نفصح الدور المشبوه للرجعيات العربية، علينا أن نكشف تحالفها التاريخي والمصري مع الاستعمار".. كان يردد ذلك في دروس التاريخ وخارج الفصول.. وها هو اليوم، على المنصة، يغير نبرته ويبدل أفكاره..! "علينا أن نفصح الأنظمة الدكتاتورية الفاشية ونكشف دورها في مشاريع التقسيم" رجعيات ودكتاتوريات، وتبدلات.. والمحتشدون يصفقون ويهتفون ويرفعون الزنود.. وسألت إبراهيم الشّاهد، وسط التصفيق والهتاف:

- لا أراك متحمساً! أليس هذا هو الأستاذ رأفت شعبان الذي كنت مبهوراً بأفكاره؟

- الشخص هو الشخص! لكن المبادئ تغيرت.. أنا لا أحترم من يبدل أفكاره كما يبدل حذاءه.. أنا أحترم المخلصين لمبادئهم حتى إذا اختلفت معهم!!

- ماذا تعني؟

وبادر عبد الله الشريف بالإجابة:

- يعني أن الاستاذ المبجل غير لونه وأصبح من المخلصين لفكر جديد، بل من المخلصين لنظام مشبوّه، نظام تآمر على قضيتنا وشعبنا منذ نشأته.. وها هي البشائر أمامك! الأستاذ الذي صدّع رؤوسنا بالحديث عن الارتباط الجذري والتاريخي بين الأنظمة الرجعية والاستعمار، تحول فجأة، وأصبح بوقاً لترديد أكاذيب وتلفيقات الدوائر الرجعية والاستعمار، لم يعد القومي العتيد منزعجاً من تحالف الرجعيّات مع الاستعمار.. لم يعد يرى في تلك الأنظمة ما يريب أو يخيف!!! وها هو يتلقف ما تبثّه تلك الدوائر، ويشنف آذاننا به..

وأضاف إبراهيم:

- أخبرني أحد الأصدقاء أن مجموعة حزبية جديدة تشكلت في القطاع لتحقيق هدف واحد.. "مناهضة الفكر الناصري وحشد المؤيدين لذلك النظام العميل".. وقال الصديق أن أموالاً وصلت للقطاع لإنجاز ذلك الهدف وأن الأستاذ رأفت شعبان من مؤسسي هذه المجموعة.. في الحقيقة أنا مندهش! كيف يبدل الأشخاص مبادئهم بهذه السهولة؟

وخزني عبد الله الشريف، فخرجنا من القاعة، وجلسنا في زاوية الحديقة على مقاعد حديدية قديمة نظر إبراهيم الشّاهد إلى باب القاعة، وقال عندما رأي القمصاني يخرج ويبحث بنظراته عنا:

- يبدو أن خروجنا لم يعجب المباحث!!
فسألته:

- كيف عرفته، وهو ابن المخيم؟
- أعرفه، وأعرف اثنين آخرين في القاعة.. أبو حجر والسلول..
وسأله عبد الله الشريف:
- هل تعرضت لابتزازهم؟
- لست أنا بل والدي!.. منذ خمس سنوات، كان ذلك بعد مظاهرتنا
ضد الانفصال بأسبوع، طلبوا منه البندقية!! "البارودة اللي عندك
مطلوبة يا عوض.." أنكر والدي وجود بندقية لديه، لكنهم أصروا،
وهددوه بالاعتقال.. عندها قال والدي "البارودة أخذها، الكتري،
خذوها منه.."، الكتري فدائي، وكان صديقاً لوالدي.. جاء في اليوم
التالي، فأخبره والدي بما حدث، ضحك ثم قال: "أولاد الحرام!! بدهم
منك مصاري يا أبو إبراهيم، اسمع حضرّ أكلة زغاليل، واترك الباقي
علي.."..
- وجاءوا يوم الجمعة، وجلسوا في الكرم.. وعند الظهر أعدت أمي
"باطية" محترمة عليها خمسة أزواج من الزغاليل.. وتحلّق حولها
خمسة رجال، هؤلاء الثلاثة المتلصصين والكتري ووالدي.. أذكر
ذلك، وأذكر عندما ذهب الثلاثة ليملأوا حقائبهم بالفواكه، همس
الكتري لي ودسّ في يدي تلك الهدية الثمينة، هدية ما زلت أحتفظ
بها في مكان ما..
- مكان ما! لعله في ديوان المتنبّي!!
- وخزني إبراهيم في خاصرتي، فضحك عبد الله الشريف، ثم قال:

- على كل حال، لم يكن والدك ضحيتهم الأولى ولن يكون ضحيتهم الأخيرة!! عندكم، انتهت القضية "بأكلة حمام وشوية فواكه"، لكنها لم تكن كذلك عند عصام الفايز وأمه.. عندما قبل عصام في الكلية الحربية ذهبوا إلى مختارنا، تعرفون أن عصام من قريتنا، وقالوا "ابن بلدكم موقفه صعب يا مختار، إنه ينتمي لأحد الأحزاب، وإذا كتبنا ذلك في التقرير لن يدخل الكلية الحربية، وأنت عزيز علينا يا مختار..". ثم أفصحوا عن طلبهم "ستون جنيهاً مصرياً.. عشرون لكل مثلاً.. وطافت أم عصام، على أقاربها وبناتها في مخيمات القطاع، وبعد معاناة كبيرة تمكنت من جمع المبلغ، والتحق عصام بالكلية الحربية..

- وهل كان عصام منضماً لأحد الأحزاب فعلاً؟
- لا! لم تكن له علاقة بهذه الأمور، مجرد ابتزاز، إنهم يرتزقون من هذه القضايا! يبتزون الناس ويعيشون على مصائبهم!!

انتهى الحفل، وخرج الشباب من القاعة الكبيرة وتفرقوا في أزقة المخيم، متحاورين بأصوات مرتفعة.. سلّمنا على بعض الأصدقاء، ودسّ أحدهم نسخة من مجلة "الحرية" في صدري.. تجاهلنا الأستاذ رافت، الذي خرج محاطاً بحشد من المتحمسين، ثم انصرفنا.. وفي الطريق تساءل عبد الله الشريف:

- هل حددتم موعد السفر؟ ما رأيكم في يوم الجمعة القادم؟
- أضفت مازحاً:

- في القطار! أليس كذلك؟ في القطار بناء على رغبة الفيلسوف الجماهيري الذي يؤمن بالتفاعل وقدرة الإنسان على التكيف!!
- ووخرني إبراهيم في خاصرتي مرة أخرى، ثم قال:
- طبعًا في القطار أيها البرجوازي الكبير! في القطار يا ابن سالم الربيع.. في القطار يا ابن بائع الثر..
- كفى.. كفى أوافق وأعلن الاستسلام.. أنقذني من لسانك.. أعرف ما ستقوله!.. في القطار، يوم الجمعة القادم.. وسأنهض مبكرًا، في الثانية صباحًا.. لاستقبال الضربات والكدمات والخططات والسلال والصناديق.. اللهم لا اعتراض على حكمك..
- وصلنا إلى الزقاق المؤدي إلى بيتنا، فاستأذن عبد الله الشريف، مؤكدًا على لقائنا في محطة القطار..
- قبل أن نذهب إلى النادي، كان إبراهيم الشّاهد قد وضع في بيتنا سلة مغطاة بمنديل أبيض، هدية سيأخذها إلى السيد نجاتي السبروت.. ناديت على شقيقي الأصغر، وطلبت منه أن يحضر الدراجة، وتلك السلة المغطاة، فأحضرهما بسرعة:
- بتعرف دار السبروت؟.. هناك عند الظهر في آخر المخيم؟!
- بعرفها.. فيها ثلاث شجرات رمان وتكعيبة عنب وأشجار كثيرة من التفاح..
- آه.. تتسللون إليها، وتسرقون منها أيها العفاريات! على العموم، تأخذ هذه السلة، ويتسبقنا، وتنتظرنا هناك عند البوابة..

وضع شقيقي السلة أمامه على الدراجة، ثم انطلق إلى دار السبوت عبر الطريق العريض، في حين دخلنا، أنا وإبراهيم، في أزقة المخيم وقد شمرنا سروالينا، حفاظاً عليهما من الأوساخ ومياه المجاري التي "تكرع" بين البيوت القرميدية..

كان بيت نجاتي السبوت من البيوت النادرة المبنية بالأسمنت.. بيت من طابقين تحيط به حديقة عامرة بأشجار التفاح.. دخلنا من البوابة، فاستقبلنا رجل مديد القامة، وأجلسنا تحت تكعيبية العنب على كراسي من الخيزران.. وعلى مقربة من التكهيبية، كان هناك ثلاث شجرات من الرمان.. حضر رجل يقارب السبعين من عمره، وظهرت أصوله الشركسية في احمرار وجهه وضيق عينيه وقصر قامته.. كان السيد السبوت يتكئ على عصا مطعمة بالأبنوس ويضع على رأسه طربوشاً أحمر، ويلبس سروالاً أسود وقمبازاً مقلماً، ويمسك في يده مسبحة ذات حبات من الكهرمان.. أوصله حفيده، فسلمنا عليه وأجلسناه، وعاد الطفل ليحضر نظارة سمكية ويدسّها في يد جده..

- هذا الولد شاطر، يعرف أنني سأحتاج النظارة!

تحسس سلة الفواكه، ثم أضاف:

- هذا خوخ معطر! هذا النوع لا يوجد إلا في كرم الشّاهد وكرم الخيال! جربت زراعته هنا ولم ينجح.. فقط نجحت هذه الأشجار الثلاث من الرمان.. هذه من بيّارة الأفندي، - جلبوها من تركيا.. والآن أيكما ابن عوض الشّاهد؟!

- أنا ابن عوض الشّاهد، إبراهيم.. وهذا صديقي خالد بن سالم الربيع، يمكن بتعرف والده!!

- بعرفه.. إنه صديق والدك منذ سنين طويلة.. منذ أيام أم الغزلان، وحارباً معاً في معركة مستمرة الغصين الشهيرة. أحضر مديد القامة أكواب عصير الليمون، ووضعها أماناً على طاولة الخيزران.. أشار إليه السيد السبروت فانحنى الرجل ودنا من سيده بأدب، همس السبروت ببضع كلمات، لينصرف الرجل ثم يعود متأبطاً ثلاثة مجلدات مهترنة، وضعها ثم حمل سلة الفواكه وانصرف، فقال السيد السبروت:

- والآن، ماذا تريد أن تعرف يا أستاذ إبراهيم؟
- أولاً، كيف استولى.. عفوًا كيف تمكن الأفندية من إمتلاك هذه الأراضي الشاسعة؟

- لا داعي، للاعتذار يا ولدي! صحيح أنا عملت في خدمة الأفندية، لكنني لست منهم.. أنا كنت موظفًا عندهم.. موظف لا يملك من أمره شيئاً.. وكما ترى! أنا لم أخرج من الدنيا إلا بهذا البيت.. لم يرزقي الله الأولاد الذكور، رزقي ببنت واحدة، تزوجت، لكن زوجها تركها وعاد ليعيش في لبنان، لم تعجبه الحياة هنا، وظلت هي وابنها معي.. وقاطعته بلطف:

- سيد نجاتي، أنت رجل فاضل وجننا للاستفادة من خبرتك..
- أشكرك، ولنعد إلى سؤال إبراهيم!! كان هناك نظام عثماني يسمى نظام "الالتزام الضريبي" أو "المالكانة".. وبموجب هذا النظام

تفوض الدولة أمور جباية الأموال الأميرية إلى أشخاص من الإقطاعيين عن طريق المزايدة.. وتقوم الحكومة بتزويدهم بالقوة اللازمة لجباية أعظم مقدار من الأموال والأرزاق.. طبعاً لجأ هؤلاء الملتزمون إلى ضروب عديدة من التسلط والقمع لتحقيق ذلك.. وتمكنوا من الحصول على مساحات واسعة من الأراضي.. ورغم أن النظام قد ألغى في عهد الانتداب البريطاني، إلا أن الملتزمين الإقطاعيين تمكنوا من السيطرة على مزيد من الأراضي عن طريق موظفي الحكومة أنفسهم.. كان "الملتزم" ينصب خيمته في قرىكم وسط الساقية.. وعلى الفلاحين أن يقوموا بخدمته وخدمة حاشيته وإطعامهم طوال فترة الجباية، وفي ختام الموسم عليهم أن يجلبوا المكوس والأعشار التي فرضها عليهم.. أول ملتزم في قرىكم كان الوديدي، وقد عامل أهل القرية بقسوة وغلظة، لقد ضرب أحد الأهالي بالكرباج، لأنه تجرأ وحمل غليوناً مثله.. فاشتكاها اشتيوي إلى والي العثماني، الذي حرمه من "الالتزام" في السنوات التالية.. "الملتزم" الثاني كان أبو خضرة، وكان رجلاً طيباً قريباً من الفلاحين.. لكنه خسر في الالتزام ولم يعد إليه مرة أخرى.

ثم جاء الأفندي، واستقر له الأمر، وسخر الفلاحين لأطماعه وجشعه، وبدأ في امتلاك الأراضي، أجود الأراضي! واستولى عليها بأساليب متعددة قانونية، وغير قانونية.. ركوب حصان، عباءة، شربة لبن، تزييف ختم، شهود زور، وغيرها..

وفتح أحد المجلدات، قلب صفحاته، ثم أضاف:

- في عام ١٩٢٥ جرى مسح للأراضي، في عهد الانتداب البريطاني.. وفي هذا المسح بلغت مساحة القرية وأحواضها ثمانية عشر ألف دونماً.. وثبت أن ممتلكات عائلة الأفندي من أراضي القرية قد بلغت اثني عشر ألف دونماً.. أي أن ما تبقى لأهالي القرية ستة آلاف دونم فقط.. ثلثا الأرض للأفندية والثلث فقط لأهل القرية، هذا عدا عن ما استولوا عليه عن طريق الموظفين بعد ذلك.. وها هي أسماء الملاك الأصليين للأراضي وأرقام القطع والقسائم.. هه.. إنها هنا..

وتناول مجلداً ثانياً قلب صفحاته، ثم أضاف:

- قطعة رقم ٢١ - قسيمة رقم ٤ - أرض البطاح - المالك الأصلي: أحمد سعيد خيرات - مساحة القطعة قيراطان (قيراطان يعني مئة وثلاثون دونماً) - بيعت للأفندي سنة ١٩٢٠ - باعها خيرات بشرية لبن (الزلمة نفسه في اللبن)!!..

قطعة رقم ٥٤ - قسيمة رقم ٦ - منطقة أم الغزلان - المالك الأصلي: صبري محمود السمري - مساحة القطعة قيراط واحد - بيعت مقابل عباءة - سنة ١٩٢١ - وقيل إن الأفندي استولى عليها، لأنها كانت باسم شقيق صبري، الذي مات في حروب الأتراك.. (الفلاحون يموتون، والأفندية يستولون على الأرض)..
قطعة رقم ٤٣ - قسيمة رقم ١٢ - منطقة السلطان الأحمر - المالك الأصلي: سعدون إبراهيم الحسني، مساحة القطعة ثلاثة قراريط (ثلاثة قراريط يعني حوالي مائتي دونم) بيعت سنة ١٩٣٢ - (هذه الأرض

سَمَسَر عليها الموظفون، لم يستطع سعدون دفع المكوس والضرائب، فبصمّوه على البيع وتفضلوا عليه بصاعين من الشعير (الأرض للأفندية والشعير للفلاحين!!)..

وهنا، هذه أراضي "وادي العزيزة" - وهذه أرضكم - قطعة رقم ٤ - - قسيمة رقم ١ - منطقة العزيزة - المالك الأصلي - الشاهد إبراهيم الشاهد (النجدي).. المساحة قيراط ونصف - (قيراط ونصف يعني مائة دونم) - بيعت سنة ١٩٢٧ - لعلك تعرف قصتها - من سوء حظكم أن أرضكم جاءت مجاورة لأرض اشتراها الأفندي، ولم يعجبه وجودكم بجواره.. في الحقيقة جدك لم يسلم بسهولة، رفع قضية وراح إلى القدس والمحاكم، لكن النقود خذلتها والشهود خانوه.. زيّقوا الختم وشهدوا على جدك.. وانتهت القضية بمصالحة على عشرة دونمات.. الكرم!!..

قطعة رقم ٣ - القسيمة رقم ١ - أيضاً منطقة العزيزة، بجوار الوادي.. المالك الأصلي: الخيال عبد الله الخيال - مساحة القطعة قيراط ونصف هذه الأرض استبدلت بفرس.. الحقيقة فرس من نوع ممتاز (كان الخيال رجلاً مهووساً بالخيال).. على فكرة في قريّكم يا خالد نفس الشئ ولها دفتر خاص بها.. وسألت السيّد نجاتي:

- طيّب! ما هي حقيقة الغصين؟ القرويون البسطاء ضحك عليهم الأفندية الإقطاعيون وتمكنوا من الاستيلاء على أرضهم، وهم لم يبيعوها لليهود على كل حال! لكن الغصين! كما سمعت رجل عاقل

وشبعان! كيف يبيع أرضه لليهود؟ هذه الأراضي الشاسعة! كيف امتلكوها وبنوا عليها تلك المستعمرة؟

- الغصين لم يبيع أرضه لليهود! في الحقيقة كان الغصين رجلاً وطنياً شريفاً، لم يكن جشعاً أنانياً مثل الأفندية.. كان فلاحاً ثرياً وكان يشتري السلاح للمجاهدين.. كانت له علاقات بالثوار في نابلس والخليل والقدس والغور.. في أم الغزلان امتلك الغصين حوالي عشرة آلاف دونم.. بريطانيا هي التي تأمرت على الغصين وحطمته.. اقترض الغصين من البنوك البريطانية لتوسيع تجارته، وأغرته بريطانيا وشجّعته على ذلك.. نجح في التجارة وبدأ في تصدير الحبوب والحمضيات، عبر البحر إلى أوروبا، ويبدو أن بريطانيا ومن وراءها اليهود فطنوا إلى خطورة نجاحه وتنامي تجارته، فقامت بريطانيا بإغراق سفنه في البحر! قصمت ظهره وأهلكت تجارته كلها.. وهكذا اضطر إلى بيع أراضيه إلى البنوك البريطانية التي اقترض منها.. عشرة آلاف دونم من أجود الأراضي، بعدها قامت بريطانيا ببيع نفس الأراضي للوكالة اليهودية، التي أنشأت عليها تلك المستعمرة الكبيرة!!

وسأله إبراهيم:

- هل صحيح أن الأفندية من أصول تركية، عثمانية؟
- بل هم عرب أقحاح! أنتم عائلة الشاهد تعود أصولكم إلى منطقة "جد" في الجزيرة العربية.. جاء جدكم إلى القرية منذ مئة سنة فقط! وجلب معه العبيد والأرزاق والإبل، وظلت كنيته "النجدي" حتى فشلت

ثورة الشريف حسين، بعدها تحول إلى "الشاهد" .. والأفندية ينتسبون إلى بني هرّماس، من ثعلبة .. إنهم عرب جنوبيون - مثلكم .
عاد مديد القامة بالسلة، مغطاة بنفس المنديل الأبيض .. فشكرنا السيد نجاتي السبروت على المعلومات القيمة، واعتذرنا له عن الإجهاد الذي بدا عليه، ثم استأذنا للإصراف .. وعندما نهض متكئاً على مديد القامة، قال :

- الهدية لسالم الربيع! أعرف أن عوض الشّاهد لديه فواكه ..
سلموا على الجميع - عوض وسالم والأولاد وسلموا على القبرصية،
زوجة الخيال، أه .. كان عندها بنت، ما اسمها؟
وبادر إبراهيم :

- اسمها عزيزة .. وهي الآن في المرحلة الثانوية ..
خرجنا من البوابة، نظرت حولي، وجدت الشارع خالياً من الناس،
فقلت مازحاً مشاكساً :

- هل ما زلت تعلمها ركوب الدراجة يا برهووووم؟!
انقض على السلة بغیظ، أزاح غطاءها، ثم أخرج ثلاث حبات من التفاح .. تركت السلة وركضت .. وراح إبراهيم يقذفني بالحببات الصفراء، وأنا ألتقطها واحدة واحدة وأدسها في عبي .. ألتقط حبات التفاح وأركض مقهقهاً، مستجيباً لنوبة من المزاح، ومنتعشاً بالنمسات التي بدأت تهب باردة لذیذة من الشمال ..

عزيزة الخيال

المصائب.. آه من المصائب! إنها تهبط علينا دون مقدمات.. هكذا، تسقط من السماء فجأة، وتُجسد لنا التعاسة والبؤس والحزن دفعة واحدة.. تسقيننا إياها بلا شفقة أو رحمة.. تجرعها بدون إرادة، نشرب الكأس المرّة، ونستسلم لأقدارنا، ونتركها تلهو بنا كيفما تشاء.. عندما تعتدل الدنيا، عندما نظن أنها اعتدلت واستقامت، ونتوهم أن حظوظنا تغيّرت وأن سعادتنا قريبة، عندها تهبط المصائب، بلا مقدمات، بلا رحمة، تهبط كالصواعق وتقتلعنا، ومعنا كل أوهامنا وبراءتنا..

هيه يا سامعين الصوت هيه.. هيه يا أشجار يا طيور يا وديان هيه.. ماتت القبرصية!! ماتت صائدة الثعابين! انكسر رمح العزيزة ولن ينتصب مرة أخرى!! ماتت القبرصية بلا مقدمات وبدون استئذان!! آه يا أمي، لماذا الآن؟ لماذا الآن يا "قبرصية" همومي و.. وأحلامي؟..

كنت عائدة إليك.. عائدة بذلك الزي العسكري الجميل!! الزي الذي ارتديته في الاستعراض.. كنت عائدة من غزة، من ميدان اليرموك، وكنت مزهوة فخورة بعد أن حازت مدرستنا (وحزت) على إعجاب المشرفين على الاحتفالات! عائدة إليك لترى ابنتك! ابنتك الممشوفة الواثقة!! كنت مزهوة وأردتك أن تكوني مثلي! لماذا حرمتني من تلك الفرحة؟ لماذا تموتين الآن؟ تموتين وأبقى أنا وحيدة حزينة، حائرة!!..

قالت عمتي هنية إنك كنت في قيلولة الظهر.. وعندما ذهبت لتوقظك وجدتك ميتة!! وكانت ثمة قطرات من الدم قد نزت من فمك. وبجوارك كانت هناك عصا معقوفة ذات شعبتين صغيرتين وكانت هناك آثار لثعبان!! ثعبان في الربيع يا صائدة الثعابين؟!.. لم يكن الجو قائظاً فائراً! في القيط والحر اللاسع، تفور الثعابين وتخرج من مخابنها لامعة هائجة.. لكنه الربيع، والجو المعتدل! بل كان الجو رطباً بارداً.. يا إلهي! صائدة الثعابين تموت بلدغة ثعبان! كيف حدث ذلك؟ كيف غافلك ذلك الثعبان وتمكن منك؟ انتظر غفوتك، ثم تسال هادئاً واثقاً سخر من تلك العصا المشعّبة وأفرغ سمّه في فمك!! كيف أقدم على ذلك، وقتلك؟..

"لعلها اصطادت أمّه وقتلتها.. الثعابين تتأثر لنفسها".. لم أكن مستعدة لمجادلة البدوية، ولم أكن مهياة لسماع تفسيرات في سبب الموت "كفنوها وادفنها.. المهم أنها ماتت.. ماتت وانتهى الأمر.." ماتت فرس الخيال، التي تحمل شبريته وتتمنطق بحزامه وتلف حول رأسها

كوفيته.. من يعيدها؟ من يوقظها لساعة واحدة؟.. ساعة أراها وتراني! أودعها وتوصيني! وتحذرنى.. وتهدني!!

آه يا إبراهيم ليتك معي! أسند رأسي على كتفك.. أرتاح على صدرك! أنوح، أذرف الدموع سخية وأبكي أُمي! أبكيها، وأبكي أيامي القادمة! آه يا إبراهيم ليتك تسمعني، تهدهدني وتعيدني إلى عقلي..

لم يتركني عمي عوض بمفردي، ولم تفارقني عمتي هنية لشهر كامل.. أما فاطمة فقد لازمتني وظلت معي، تبيت معي وتخفف عني آلامي.. وبعد شهر من موت أُمي، تمكنت من الاقتراب من ذلك الصندوق.. صندوق عرسها الذي احتفظت بمفتاحه في صدرها، بالقرب من قلبها.. كنت أراها، تستيقظ في ساعات متأخرة من الليل، تفتح الصندوق بحذر، تخرج بعض الأشياء، أظنها ملابس، فتتنشقها وتمسح وجهها بها، ثم تنظر في صورة، تقبلها، وبسرعة وحذر تعيد الأشياء إلى مكانها وتقل الصندوق بنفس الحذر الذي فتحته به.. كنت أتصنع النوم، ولم أقرب من ذلك الصندوق ولم أسألها عنه يوماً.. احترمت طقوسها القاسية وتركت لها الصندوق بأسرارته وحاجياته التي تستنشقها كأنها أكسير يمدّها بالحياة والبقاء!!

لكنه اليوم لي.. لن تنهض أُمي ثانية، تفتنص دقائق ليلية متأخرة، تفتحه خلسة، ثم تغلقه وتضع المفتاح في صدرها..

- هذا مفتاح أمك.. وجدته في صدرها.. إنه لك الآن!!

وها أنا أفعل مثل أُمي.. اختلس الليل في ساعاته المتأخرة، انتهز فرصة نوم فاطمة، وأحاول الاقتراب من الصندوق، أحاول فتحه

وهتك تلك القداسة التي لازمتها لأكثر من سبعة عشر عاماً.. ترددت، وأصابني الوجل.. لماذا تفتحين الصندوق يا عزيزة؟.. "لماذا لا تفتحي الصندوق يا عزيزة؟.."، "هيا افتحي الصندوق الآن هيا افتحيه وتفحصيه واكتشفي أسرار.."، أدت المفتاح الصغير بهدوء، وعلى ضوء المصباح الصغير بدأت في إخراج الأشياء وتفحصها واحدة واحدة..

هذه هي الملابس، ملابس أبي، هذه التي كانت أمي تستشققها وتعيدها مطوية برائحتها المميزة.. وهذه الصورة، صورة أبي، إنه يرتدي كوفية وعقالاً ويتمنطق بحزام من "الفشك" ويضع في كتفه "بارودة ألمانية".. وهذه! ما هذه؟ لفّة من الأوراق! هذا "كوشان" الأرض.. طابو قضاء غزة - اسم المالك: عابد خيال عبد الله الخيال - القطعة رقم ٤ - القسيمة رقم ١ - المكان أرض وادي العزيزة - المساحة عشرة دونمات فقط.. وهذا! كوشان آخر أيضاً - طابو قضاء غزة - اسم المالك - خيال سريع عبد الله الخيال - القطعة رقم ٣٢ - القسيمة رقم ١٥ - المكان: أم الغزلان - المساحة قيراط ونصف - وهذه ما هذه؟.. وثيقة زواج باهتة الحروف.. (رفعت ضوء المصباح وقرأت)، اسم الزوج: عابد الخيال عبد الله الخيال - السن تسعة عشر عاماً.. اسم الزوجة: تماضر محمود سالم الراعي - السن أربعة عشر عاماً.. مكان وتاريخ ميلاد الزوج: العزيزة في ١٦/٤/١٩٢٧ - مكان وتاريخ ميلاد الزوجة: الخليل في ١٥/٧/١٩٣٢ - وقبل أن تذهب ظنوني إلى امرأة أخرى، تذكرت حديثاً لعمتي هنية:

- القبرصية ليس اسم أمك الحقيقي إنه اسم جدتك.. وهي القبرصية الحقيقية.. لكن أمك تسمت باسمها.. الناس سموها باسم أمها.. جدك الراعي "جداك لأمك" جلب زوجته (القبرصية) من بلاد الترك.. ذهب في أحد حروب الأتراك، وعاد برفقة القبرصية.. امرأة طويلة عريضة واسعة العينين طويلة الشعر.. أمك تشبهها في أشياء كثيرة لكنها أخذت من جدك الراعي أيضاً.. من جدتك القبرصية، أخذت الطول والعرض والشعر والأسنان البيضاء الجميلة.. ومن جدك الراعي، أخذت وسع العينين وسمرة الوجه وحدة الطبع.. كان جدك (الخيال) صديقاً لجداك (الراعي) منذ تجارة الحبوب بين غزة والخليل، فتوجا هذه الصداقة بالمصاهرة.."

وهذه ما هذه الورقة؟ علبة قديمة تحوي ثلاث أساور فضية منقوشة، أساور تشبه المقابض "وكردان" من الفضة أيضاً، كردان جميل يحوي أهلة وسلاسل وعقود.. هذا مصاغ أمي، ثروتها الوحيدة التي ورثتني إياها.. وهذه، ما هذه؟ شهادة ميلاد.. الاسم: عزيزة.. النوع: أنثى.. اسم الوالد: عابد الخيال عبد الله الخيال.. اسم الأم تماضر.. تاريخ الميلاد: الخامس عشر من شهر آب (أغسطس).. ساعة الولادة: الواحدة صباحاً.. يا إلهي! الواحدة صباحاً.. الخامس عشر من شهر آب (أغسطس).. الآن أستطيع ترتيب بعض الأشياء مرة أخرى.. "ذبوها في ليلة منتصف آب (أغسطس).. والقمر مضئ مكتمل.. ومن يومها، كل بنت تولد في مثل ذلك اليوم وذلك الوقت تصاب بالجنون".. وكدت أغيب عن الوعي.. إذن لم تكن تصرفاتي بعيدة عن

الجنون! وتذكرت تلك الليلة المشنومة، وتذكرت البركة، وإبراهيم يقبض على عنقي ويدفعني بعيداً.. آه.. لقد أخفت أُمي الشهادة الأصلية، واستخرجت شهادة (حلف يمين.. إدّعت أن الشهادة الأصلية فُقدت، وسجّلت تاريخاً مزيفاً..)(العشرين من شهر أيلول)، وهكذا، أخفت تاريخ ميلادي الحقيقي! الآن أستطيع تفسير كثير من الأشياء.. الآن أستطيع تفسير تصرفات أُمي، خوفها، حذرها، وقبضتها الحديدية!! ترى من يعرف الحقيقة غيرها؟ عمي عوض! لا بد أنه يعرف! نعم أنا أجزم إنه يعرف! كل تصرفاته تؤكد ذلك!.. كل تصرفاته تدل على أنه يعرف ذلك التاريخ المشنوم!! رفض عقد القران! ورفض قراءة الفاتحة.. رفض حتى الحديث في أمر زواجي من إبراهيم.. الآن أستطيع ترتيب بعض الأمور.. لا.. لا أستطيع شيئاً.. وأجهشت بالبكاء وارتيمت على صندوق أُمي.. استيقظت فاطمة مذعورة باكياً، وأخذت تمسح دموعي وتهدهدي.. وفي غمرة البكاء والدموع، أقفلت الصندوق ودست مفتاحه في صدري.. مثل أُمي!!.. واحتفظت بأسراره وقداسته وجنونه بجوار قلبي..

بعد شهرين، من موت أُمي، انشقت الأرض وخرج عنها عمٌ لي.. جاء عمي عوض ومعه رجل نحيف، أصفر الوجه، كان الرجل مسنّاً متعثراً في مشيته، وكان يرتدي ملابس رثة مهلهلة..

- هذا عمك شعبان.. ابن عم والدك، يعني عمك.. هاجر إلى مصر منذ سنين.. علم بموت والدك، وجاء ليطمئن عليك ويكون بجانبك، الدم ما يبصير ميّه.. وهو ولي أمرك الآن!!

كانت كلمات عمي عوض غريبة.. وكانت الزيارة غريبة.. لقد بالغ عمي شعبان في مواساتي والتودد إليّ وذكر محاسن أمي.. لكن أغرب ما في تلك الزيارة، ظهور ذلك المتاصبي الحقيق مرة أخرى.. كان جميل حب الرمان ملازمًا لعمي الجديد، كان ملتصقًا به مثل الغراء، يناوله السجائر واحدة تلو الأخرى ويسرع إلى مساعدته في قيامه وعوده.. وأخيرًا، أعدّ له وليمة كبيرة واشترى له ملابس جديدة.. ثم علمت أن عودة عمي شعبان لم تكن بريئة، ولم تكن تصرفات حب الرمان عفوية لوجه الله.. ولدهشتي وعذابي وتعاستي، علمت أن عمي عوض الشاهد، لم يكن بعيدًا عن هذه المفاجآت الغريبة.. لقد قرر عمي عوض التخلص مني.. فقررت الكتابة لإبراهيم! الكتابة له ووضع الأمور بين يديه، بل واتخذت قرارًا قاطعًا سأبلغه به:

(عزيزي وحبيبي ومنقذي برهوم..

قررت أن أكتب لك، لأعبر لك عما في صدري من حب وشوق، ولأعرفك كذلك بكل التطورات والمفاجآت التي حدثت بعد سفرك. ماتت أمي يا إبراهيم! ماتت القبرصية يوم الرابع عشر من مارس.. بعد انتهاء الاحتفالات.. كنت مرتدية الزي العسكري وعائدة إليها بفرحتي وزهوي.. ولكنها ماتت.. شعرت بعدها بالحزن والوحدة

والدمار.. تعرف علاقتي الحميمة بأمي، وتعرف أنني بدونها مقطوعة
الجنور.. في الحقيقة لم يُقصر أهلك معي.. كانوا أهلي وعزوتي ولم
يفارقوني.. لكن أمورًا حدثت لابد أن أطلعك عليها.. مفاجآت غريبة..
لقد ظهر فجأة عم لي.. وهو رجل مسن فقير.. وعلمت أن والدك هو
الذي أرسل في طلبه وأخبره بوفاة أمي.. اعتقدتُ في البداية أن
الرجل جاء بدافع القرابة الحقّة ورابطة الدم.. جاء ليقدّم واجب
العزاء ويواسيني في محنتي.. لكنني اكتشفت أن الرجل جاء من أجل
هدف آخر.. "بالاتفاق مع والدك".. وتيقنت من ذلك، بعدما رأيت
جميل حب الرمان يدخل الدار دون وجل أو خشية.. ذلك الخنزير يأتي
إلى الدار، يأتي به والدك ويلزم عمي الجديد ويسلب عقله، بالنقود
والمصاريف.. وعلمت من فاطمة أنهم تحدثوا في أمر زواجي..
زواجي ممّن؟.. من جميل حبّ الرمان! مصيبة أخرى! لم يكتفوا
بموت أمي.. هل تذكر يا إبراهيم؟ يوم الجميزة؟ عندما لحقت بي في
تلك الليلة، تبعت آثارني في وادي العزيزة لتعرف وجهتي وهدفي..
وتذكر أنني شددت وثاق ذلك الخنزير وطعنته وبصقت في وجهه..
وأنت الذي خلّصه وأنقذه من جنوني.. واليوم، ها هو يعود من جديد،
يأتي به والدك يريد أن يزوجني إياه.. في الحقيقة أنا مندهشة من
موقف والدك، عمي عوض، الذي لا عم لي سواه، لماذا يكرهني إلى
هذا الحد؟ لماذا يريد أن يحرمني منك؟ أنا أجزم إنه يعلم بحبنا وتعلقنا
ببعض.. يعلم أنني لا أستطيع الحياة بدونك، ورغم ذلك يفعل ما
يفعل!! على فكرة، هناك سر أود أن أطلعك عليه.. سر قد يفسر لك

بعض الأمور.. عندما بحثت في صندوق أُمي وجدت بعض الأشياء والأوراق.. ومن هذه الأوراق شهادة ميلاد باسمي.. كانت شهادة ميلاد أصلية.. وفيها تاريخ ميلادي هو الخامس عشر من آب (أغسطس).. لا أدري ماذا يعني لك هذا التاريخ؟ هل يعني أن مصيري إلى الجنون؟ إذن فلن أجن إلا بك.. وسأكون مجنونة فعلاً إذا فرطتُ فيك واستكنت لما يريدون ويخططون.. على العموم لقد اتخذت قراراً قطعياً لابد أن تستعد له.. سأستخرج وثيقة سفر وأحضر إليك.. نعم سأتي إليك تاركة كل شيء.. ولن يمنعي أحد من ذلك، لن استسلم للتعاسة، وسأحضر لك يا حبيبي.. يا برهوم.. أخيراً، أودعك إلى لقاء قريب..

ملاحظة: هذه الرسالة سأسلمها مغلقة لابن السمري، الذي سيسافر إلى طرفكم يوم الجمعة القادم.. انتظرنني بعد عشرة أيام.. وإلى الملتقى.

المخلصة إلى الأبد

عزيزة الخيال

١٩٦٧/٥/١٥

لكن الرسالة لم تصل، وظلّت مغلقة!! أعادها ابن السمري بعد إعلان حالة الطوارئ، ولم يسافر.. ولم تخرج وثيقة سفري من الأدرج الرسمية.. ووضعت الرسالة مع الأشياء والأوراق السرية، المجنونة، في الصندوق! وضعتها ثم أغلقت الصندوق ووضعت مفتاحه في صدري بهدوء وحذر، بجوار قلبي.. كما كانت تفعل أُمي..

إبراهيم الشاهد

دوّت صافرة القطار فنظر موظف المحطة في ساعته ثم قرع الجرس معلناً تحرك القطار.. تراكض الناس للصعود قبل أن يسرع القطار تاركاً محطة "باب الحديد" متجهاً إلى الشرق.. كنا قد وضعنا حقيبتنا في مقصورة شاغرة بالدرجة الثانية، وعلينا أن نسرع لأخذ مكاننا.. دفعت خالد الربيع أمامي وتمايلنا مع اهتزاز القطار، وعندما وصلنا المقصورة، اكتشفنا أن رجلاً بدينًا يرتدي جلباباً داكنًا قد احتل المقعد المجاور للنافذة.. وضع الرجل سلته بجواره ثم أسند ذراعه عليها وراح في معزوفة شخير مبكرة.. نظر كل منا إلى الآخر، ثم انفجرنا في قهقهة مدوية..

لم تكن تلك المرة الأولى! في العام الماضي حدث نفس الشيء، وكاد اثنان من الصعيد أن يحرمانا من متعة مرجوة وجلسة بجوار النافذة.. كنا في طريقنا إلى أسوان لزيارة السد العالي، وكنا قد حجزنا مقعدين متقابلين مجاورين للنافذة، جلسة تمتعنا بنهر النيل الذي يبث الحياة في كل شئ حوله، مزارع القطن وقصب السكر

والذرة والأرز والبرسيم. وسواقي بعجلات كبيرة مثلمة تربض على ضفاف الترعرع المتفرعة من النهر، تغرف المياه ثم تصبها في قنوات وتروي المزارع و"الغيطان" الخضراء.. وجواميس كبيرة بظهور محدبة معصوبة العينين.. تدور الجواميس، فتدور السواقي وتجري المياه في الأراضي الخضراء الواسعة.. وعلى سطح النهر الكبير، تتحرك المراكب والعبّارات و(المعدّيات)، تجوب النهر وتقطع الترعرع، لتصل بين القرى والبلدات والمدن.. عبّارات ومراكب مزدحمة بالبضائع، والناس الذين يغادرونها إلى بيوت مبنية بالطوب الأحمر، بيوت فقيرة تعلن عن تواضع الحياة وبساطة العيش وكفاح لا ينقطع..

كانت أمّنتنا أن نظفر بمقعدين ونافذة تمتعنا بهذه اللوحة الفنية الجميلة، لكن الرجلين أحبطا المحاولة الأولى واستقرّا في المقعدين بعناد:

- القطرده مفهوش حجزيا بهوات!! إنتو شايفين الزحمة.. كمان إحنا دافعين فلوس، مش راكبين ببلاش!!

يومها، جلس خالد مغتاضاً، غمزت له وبدأت الحديث مع الرجلين ودوداً هادئاً، وتعمّدت إظهار لهجتنا الفلسطينية.. بعد دقيقة واحدة، نهض الرجلان وتنازلا طوعاً عن المقعدين، وحلفا بالطلاق أن نجلس بجوار النافذة، وقدّما لنا السجائر والمرطبات:

- أنتم ضيوفنا.. إحنا بنتشرّف بكم.. إنتم حبايبنا وحبايب الرّيس!!

لكن هذا المتكوّم النائم، كيف لنا أن نقتعه بالتنازل عن المقعد، أو حتى التحرك قليلاً؟ ومن يجروُ على إبقاظه من هذه المعزوفة المبكرة؟ نظرت إلى بطن الرجل وهي تتناغم مع سيمفونيته، ثم نظرت في وجه خالد فوجدته ممتنعاً:

- نفسي أعرف سر عشقك للقطارات؟ دائماً تصر على ركوب القطار! في غرة تترك سيارات المرسيدس السريعة المريحة، وتصر على الحجز في القطار، لنصحو في الثانية صباحاً، نزاحم البشر بأكياسهم وصناديقهم وحقائبهم، نترنح أمام دفعات الأذرع القوية، تدوسنا الأقدام العمياء وتسقط الحاجيات والصناديق فوق رؤوسنا.. ويستقر بنا المقام على مقعد خشبي متعب بالدرجة الثالثة، وسط حشد بشري يتمايل مع قرقرعات العجلات، في قطار بطئ يكابد بحمولته من الناس والمتاع.. وهنا، في قاهرة المعز، تترك سيارات الأجرة والحافلات وتسحبنا إلى "محطة باب الحديد"، إلى القطار!.. لماذا أيها القروي العنيد؟..

- القطار هو الوسيلة المثلى لاكتشاف الناس والحياة، لمعرفة اللوحة من جميع جوانبها.. أنظر أيها المهندس المحترم إلى هذه الوجوه! تمنع في هذه اللوحة البشرية!.. الجنود، الموظفين، الطلاب، العمال، النساء، الأطفال، العجائز، المرضى، الشحاذين، والمجاذيب!! أنظر، هذه مصر كلها! لوحة بشرية متكاملة.. أما رأيت أولئك الذين يهرولون على سطح القطار، وكأنهم يهرولون على الطريق؟!.. هؤلاء الهاربين من ثمن التذكرة؟ رأيت كيف يجازفون بحياتهم

هروباً من قروش قليلة؟ هؤلاء يكملون هذه اللوحة البشرية، لابد من وجودهم، لتكتمل اللوحة وتصبح واقعية صادقة!! خالد، أتذكر مخزن التموين؟ هناك، حيث تتعارك الحشود البشرية وتنتزع حقها في الحياة والبقاء!! هنا في هذا القطار أشعر أن الأمر نفسه يتكرر، إصرار على البقاء وديمومة الحياة!!

- لكن اللوحة ناقصة أيها الفيلسوف الفنان! يغيب عن اللوحة المترفون والإقطاعيون، أنظر هناك.. أولئك أصحاب السيّارات الفاخرة وربطات العنق الأنيقة.. أنظر إلى الإسفلت، ها هم يطيطرون ولا ينتظرون قطارك التعس هذا!

- لا ينتظرون هذا القطار، ولن ينتظروه!! إنهم خارج هذه اللوحة، كما أن أمثالهم خارج اللوحة في بلادنا.. لوحة مخزن التموين والمظاهرات والعمل في البيّارات والورش، لوحة مكابدة الحياة والدعك - كما يقول والدك - أمام مخزن التموين!! هؤلاء مكانهم في لوحة أخرى يا صديقي، لوحة غير واقعية، سوريالية! تحتاج إلى من يفك طلاسمها.. أنا أحدثك عن اللوحة البشرية الواقعية الصادقة، ولا أحدثك عن تنوعات الواقع وجوانبه الداكنة السوداء..

- المهم! ماذا لو رافقتنا هذا المتكوم حتى المحطة الأخيرة، حتى الزقازيق؟..

- انتهى الأمر! علينا أن نتأقلم مع الوضع، أن نتكيّف مع الواقع.. حاول أن تنسى وجوده.. من يدري؟ لعل وراء هذا المسكين همّاً أغرقه في هذا الشخير والسبات العميق.. على العموم، إذا كنت

متضايقا وراغبًا في العودة، فلا بأس! لم نبتعد كثيرًا، نهبط في المحطة القادمة ونعود أدرأنا!!

- ها أنت تتخابث أيها القروي! تعلم أننا مدعوان من الحاج صادق العرابي وولده إسماعيل، زميلنا..

- ومن كوثر العرابي! أيها العاشق المسكين! يا لعجائب الدنيا! هذا الفلسطيني الفقير، ابن المخيم، ابن بائع الترمس، الطالب في كلية الهندسة، والذي يتعلم بمنحة تفضلت بها وكالة الغوث، لأنه من المتفوقين، هذا المهندس، الذي لا يؤمن بالمعلقات وقصائد الحب العذري، يسقط على أنفه، ويعلق من النظرة الأولى، في حب كوثر العرابي! الشرقاوية الثرية الفاتنة.. زميلته في كلية الهندسة، حفيدة أشهر الثائرين على الظلم والاستبداد في تاريخ مصر الحديث.. كوثر ذات العيون الحوراء..

إن العيون التي في طرفها حور قتلتنا ثم لم يحيين قتلاتنا ما أروعك يا جرير! يا صاحب أم عمرو! هنا قتل مثلك، ومن نفس الطعنة، لكنها ليست أموية، بل شرقاوية نجلاء.. وضع خالد يده على فمي وتوسل أن أصمت وأتوقف عن الحديث، لكنني واصلت في عناد:

- من منا الخبيث أيها العاشق أنا أفهم ألاعيبك؟ خططت لهذه الزيارة واتفقت مع كوثر، ثم أوقعتما شقيقها إسماعيل في الفخ، زميلي المسكين إسماعيل، مساكين طلبة الآداب، يقعون في شرك طلبة

الهندسة بسهولة!! "الحاج يهديكما السلام، ويدعوكما لقضاء يومين أو ثلاثة طرفنا، وهو لا يقبل أي عذر، هذه أوامره" ..

- ليش مش مصدق إنه لا توجد حيلة ولا يحزنون! لماذا لا تريد أن تصدق يا صاحب "العزيزة"؟

- أه.. بدك تغير الحديث! أعرف نواياك الخبيثة!

- أسأل جاداً، ما هي أخبارك معها؟ أين وصلت؟

- في الحقيقة الموضوع يحيرني يا خالد! والدي يعرف تعلقي بها، ووالدتي لمحت له أكثر من مرة وطلبت منه أن يخطبها لي، أو حتى يقرأ الفاتحة! لكنه رفض! رفض بعناد.. في الإجازة القادمة سأنهي الأمر، سأطلب منه أن يخطبها لي وسأعترف له أنني أحبها ولا أستطيع الاستغناء عنها.. أتعرف ماذا قال لي وهو يودعني في الصيف الماضي؟ "إذا أعجبتك واحدة من بنات مصر، أخبرني! لأحضر وأخطبها لك" .. وعندما لاحظ غضبي قال "أنا بمزح يا ولد" .. مسكينة عزيزة، قلبها يتلظى بالنار مثلي، ووالدي يتعامل مع الموضوع بأعصاب باردة، بل بغرابة تحيرني ..

- يمكن بتبالغ شوية! والدك بدوش يشغلك عن الدراسة.. تعرف عقليتهم! وما دام يعرف تعلقك بها، كما تقول، فلا يوجد ما يدعو لهذا القلق! بدّه إياك تتخرج أولاً، ثم يربطك عنده بالزواج، كلهم هيك ..

طرق المفتش بقلمه على باب المقصورة، ثم دسّ جسمه إلى الداخل:
- ورق.. تذاكر.. أنت يا بلديات، تذكرتك.. إصح يا أخينا تذكرتك..

ناولہ خالد تذکرتین من الورق المقوّی، نظر فیہما وعلم علیہما
بالقلم، ثم عاد مخاطبًا الرجل البدين ناقرأ علی رأسہ بالقلم:

- إنت یا بلديات تذکرتک..

تململ الرجل، ثم اعتدل متثائبًا فسقطت سلّته مفرغة من جوفها
حاجيات كثيرة.. قطع صابون، زجاجات عصير، علب حلقوم، علب
حلاوة ولفائف أخرى.. دسّ يده فی جيوب جلبابه، وبعد بحث طويل
أخرج للمفتش تذکرتہ.. نظر المفتش فیها، وعلم علیها:

- استعد یا بلديات، المحطة الجاية.. القطر داخل علی قلوب.. إنت
قاطع درجة الثالثة، بلاش ندفعك غرامة.. یا الله لم حاجتك المبعثرة..

- قلوب، وصلنا! معلش یا حضرة المفتش، أصلي منمتش بقي لي
يومين، معلش یا أفندية يمكن شخيري ضايقكم شوية..

لمّم الرجل حاجياته المبعثرة، وأضاف:

- أصل مراتي بعافية شوية، ربنا يكفيكوا شر المرض.. سابيهما فی
المستشفى ورايح أشق علی العيال وأرجع لها تاني..

أظهر الرجل مودة كبيرة، وفجأة أخرج من السلّة علبه من الحلقوم
وأقسم أن نأخذها.. أخذ كل منا قطعة من الحلقوم، ثم شكرناه، ووقفنا
للسلام علیہ ومساعدته.. وعندما خرج من المقصورة قال خالد:

- ظلمنا الرجل! صحیح الناس أسرار..

صرّت عجلات القطار، ثم أطلقت الصافرات محذرة جموع المحتشدين
عند المحطة.. تدافعت الحشود البشرية، فتلاحمت الجماهير الصاعدة
والهابطة.. وفي لحظات، انتشر الباعة منادين علی بضاعتهم، وكانوا

يحملونها ويرصّونها بطرق عجيبة وينسلون من زحام الناس بمهارة فائقة..

"اللب، السوداني، الصاقع، كازوزه، الفلايات، الإبر، المشط بتعريفه،
العسلية، معنا سكر نبات، السميط، السميط والبيض"..
أشار خالد إلى بائع الكعك، وأقنطه قرشين وتناولت كعكتين
وببضتين..

- فاكّر البيض المثلون والموسم والدرأویش وصندوق العجب؟

وأجابني خالد وهو يقضم الكعكة ويشرع في تقشير البيضة:

- فاكِر.. فاكِر كل شيء، خاصة صندوق العجب! وتلك الخابية التي كنت تغرف منها القمح، وتقدمه إلى ذلك الجوّال، كان الرجل يضحك على عقولنا، يلصق الصور، ثم يديرها ويغني! كان يخدع عقولنا الصغيرة!

- بتعرف! لقد اكتشفت أن ذلك الرجل كان يقوم بدور هام.

- ذلك الجوّال المحتال، كان يقوم بدور هام! كيف؟

- ليس المهم تلك الصور والرسومات.. أتذكر أزوجته التي كان يرددناها؟ عن الشجاعة والبطولة، صلاح الدين، وبيبرس والوحدة العربية وجمال عبد الناصر.. والأرض المستتبة المهانة.. كان الرجل يؤدي رسالة ويزرع فينا المعاني الوطنية! أنا لا أجزم أنه كان مدركاً لدوره لكنه كان يقوم بذلك!! هل تعلم أن ذلك الجوال المتكسب كان يطور أزوجته حسب المراحل! كان يضيف إلى أزوجته ما يناسب المرحلة.. قبل العدوان الثلاثي كان يقول شيئاً.. وبعده قال شيئاً

آخر.. وعندما أعلنت الوحدة بين مصر وسوريا أضاف شيئاً جديداً..
وبعد الانفصال عدّل ما قاله، وهكذا..

- ما الفائدة؟ الصور والرسوم لا تعيد الوطن! المهم الفعل، القوة..
- الفعل! صحيح! لكن الوعي بهذا الفعل هام أيضاً.. وهذا دور
الفنون.. إعداد الناس وإقناعهم بالفعل الذي نريد.. خذ مثلاً صلاح
جاهين.. هذا الفنان العبقرى! أنظر إلى رسوماته الساخرة، أغانيه،
أناشيده، تعليقاته! سيمفونية رائعة، تحرك الإنسان وتدفعه للفعل،
الفعل الواعي الصحيح..

وضحك خالد:

- كيف تقارن هذا الفنان العبقرى بذلك الجوّال المحتال؟ هذا ظلم
كبير!!..

- هناك فرق صحيح، لكن أهزوجة ذلك الجوّال وأهازيجنا في
المظاهرات حتى أغانينا صغاراً التي أخذناها من أفواه آبائنا.. "بابور
محمل مرتين.. هدية للحج أمين" هي نوع من الفنون شئت أم أبيت..
الناس تمارس الفنون منطلقاً من ظروفها وحسب إمكانياتها..

كان تمثال أحمد عرابي أول شئ لفت انتباهنا بعد خروجنا من محطة
القطار في مدينة الزقازيق.. انطلقت بنا السيارة وبعد أن قطعنا
حوالي أربعة كيلو مترات، واجهتنا لافتة كتب عليها "هريّة رزنة"..
عندها، قال إسماعيل:

- هذه قريتنا، قرية أحمد عرابي، ودارنا هناك، إلى اليمين.. جميعهم في انتظاركم.. الحاج وخالي وأعيان القرية وبعض المدرسين والمتقنين.. كلهم سيتناولون الغذاء على شرفكم..

كانت الوليمة عامرة، دجاج وبط وحمام، يتوسطها خروف مشوي.. وكان أربعة من الفلاحين يحيطون بنا، مستعدين لإشارة من الحاج أو ابنه إسماعيل، ليُحضروا في سرعة البرق ما يحتاجه الضيوف، أو يضيفوا أصنافا جديدة من الطعام.. شمر الحاج صادق وقطع اللحم بيده وكوّمه أمامنا.. أكلنا من الطعام بنهم شديد، وكانت نسمات "العصاري" تضيف إلى متعة الطعام متعة أخرى..

قلت لخالد، بعد أن غسلنا أيدينا وتوجهنا إلى شجرات الصفاف الحانية على الماء، المنساب هادئاً رقراقاً:

- أين تضع الحاج صادق؟ في لوحة القطار، أم في اللوحة الثانية؟ في الحقيقة لا أجد له مكاناً في اللوحة الثانية؟.. هل نعد له، ولأمثاله، لوحة ثالثة. وماذا نسميها؟

- حيرتك لها ما يبررها! البرجوازية العربية محيرة فعلاً.. عواطفها ومشاعرها ومواقفها وطنية وقومية عالية!! لكن سلوكياتها وحياتها متعالية، وتنم عن رغبة في التميز.. خذ مثلاً الحاج صادق هذا.. رغم أن ثورة يوليو أخذت منه أكثر من مائة فدان ووزعتها على الفلاحين، فإنه يحب عبد الناصر جداً، ولا يتأخر في أية مبادرة وطنية أو اجتماعية.. ورغم هذا، يحافظ على مكانته ويصر على

وجود "درجة" بينه وبين الفلاحين، مع أنه يشاركهم في جميع أفراحهم وأتراحهم..

- هذه ليست البرجوازية التي عناها ماركس، هنا تختلف! هذه برجوازية وطنية.. طبقة الفلاحين الأثرياء لها دورها في حياتنا وتطورنا.. وهي تساهم في النضوج الوطني والقومي ولا تعيقه! مثلما حدث في روسيا وغيرها من الدول الاشتراكية..

أحضر الفلاحون عددًا من الكراسي، فجلسنا تحت أشجار الصفصاف، وجلس معنا إسماعيل وخاله الأستاذ نجيب ومدرس آخر نحيف.. كان خالد قد حدثني عن خاله نجيب العرابي "الناصري العتيد وعضو الاتحاد الاشتراكي" وحدثني عن الشبه بيننا في أمور كثيرة.. "أنت تشبهه في أمور كثيرة.. حبه الشديد لعبد الناصر، عشقه لصالح جاهين، إيمانه القوي بالوحدة العربية.. حتى الأغاني.. يحب القصائد المغناة، ويعشق المواويل المصرية والشامية.."

وسألت الأستاذ نجيب الذي كان يرتدي جلبابًا زاهيًا ويمسك بيده منشة محلية مصنوعة من سعف النخيل:

- هل ترى أننا مقبلون على حرب؟ الأمور تتصاعد وإسرائيل تهدد بضرب سوريا إذا مضت في بناء السد؟..

- هذه فرصتنا.. أتمنى أن تقدم إسرائيل على هذه الحماقة لنضربها ونحطمها.. هذه المرة سنضربها ضربة قاضية.. بعدها، نعيد فلسطين ونقذف هذه الشرذمة إلى الجحيم، نعيدهم إلى حيث جاءوا، إلى بلدان أوروبا التي قذفت بهم إلينا.. المعركة محسومة هذه المرة..

- لا تتفاعل كثيرًا يا أستاذ نجيب.. قواتنا منهكة من حرب اليمن، وصاحبك "بتاع كلام".. والحرب يلزمها الاستعداد والإعداد.. هؤلاء الجنود المساكين، لم يرتاحوا من حرب اليمن بعد.. لا أعتقد أننا جاهزون لحرب كبيرة مصيرية مثل هذه.. هذه حرب تحتاج إلى كل الطاقات العربية، علينا أن نحشد الطاقات أولاً..

كان مدرس الفيزياء النحيف يرد على الأستاذ نجيب ويُفند كل نقطة يطرحها! "حزبي مسيس" نزل ضيقًا على المعتقلات لأكثر من سبع سنوات، يكتب في الصحف والمجلات ويُعبر عن أفكاره اليسارية دون تردد أو وجل:

- الاستهانة بالعدو أمر خطير.. علينا أن نحسب حساب إسرائيل ومن وراء إسرائيل، بالفعل وليس بالكلام.. الصهيونية العالمية، أمريكا، أوروبا الغربية، ثم علينا أن نتأكد من حشد جميع الإمكانيات في المعركة، العسكرية والمالية والاقتصادية.. والبترول أيضًا بالفعل وليس بالكلام.. ثم ما هي حكاية "تقذفهم إلى الجحيم" هذه؟.. هذا كلام يؤلب علينا العالم ويدفعه إلى التعاطف مع إسرائيل "المسكينة المحاصرة".. يا سيدي فلسطين أرضنا، طردنا منها، نحن معادي علينا ونحارب من أجل استعادة حقوقنا وإقامة الدولة الديمقراطية.. لن نقذف أحدًا إلى الجحيم.. فقط سنقذف المؤسسة الصهيونية العسكرية، ونبني دولة الكادحين.. الدولة الديمقراطية الواحدة..

- الله.. الله يا أستاذ محسن، أنتم الشيوعيون هكذا دائمًا! ترددون هذه المقولات والشعارات الفارغة.. القضية قضية وجود يا صديقي،

إما نحن أو هم.. لا خيار ثالث هناك.. لابد أن نقذفهم خارج وطننا العربي.. كما قذفوا أبناء جلدتنا، أبناء شعبنا، هؤلاء، وحولهم إلى لاجئين!

- هؤلاء يعدون إلى بيوتهم وأراضيهم، إلى وطنهم..
- أين بيوتهم؟ أين هي أراضيهم؟ اغتصبها هؤلاء الخنازير الذين تدافع عنهم وسكنوا فيها!! احتلوا أيها الثوري..
- أنا لا أدافع عنهم يا أستاذ نجيب، فقط، استخدم العقل في تحليل الأمور وفهم أبعاد الصراع.. لابد أن نتحالف مع الكادحين والثوريين في العالم.. لابد من بناء جبهة قوية لتعرية المؤسسة الصهيونية العسكرية.. يجب أن نُعد للمعركة إعدادًا جيدًا..
- ننتظر الشيوعيين ليحرروا لنا فلسطين! وقيموا عليها "الدولة الشيوعية الديمقراطية!!" الله أكبر.. ما أسخف هذا الكلام! لن ننتظركم يا أستاذ محسن.. بل سنقضم ظهر إسرائيل بالزنود العربية المخلصة، وننشئ الدولة العربية الفلسطينية، وأظن أننا على وشك تحقيق ذلك..

كانت مباراة حادة، بين ناصري عنيد وماركسي لا يلين.. تابعتها - أنا وخالد وإسماعيل - ولم نتدخل في الحوار إلا في حالات نادرة، لكن إيماءات الرؤوس كانت البوصلة التي تحدد المواقف.. كان إسماعيل يهز رأسه دائماً موافقة وإعجاباً بما يقوله خاله نجيب العربي.. في حين كانت رأس خالد لا تتردد في تسجيل الإعجاب والموافقة على أفكار وتحليلات ذلك المدرس النحيف محسن.. أما رأسي، فكانت

متأرجحة (بوصلة) متقلبة بين هذا وذاك.. كنت معجباً بحديث المدرس النحيف عن حشد جميع الطاقات العربية، والتأكد من متانة الجبهة الداخلية والعربية.. لكنني لم أكن متحمساً لحديثه عن "دولة الكادحين الديمقراطية".." وجبهة الكادحين العالمية".." ولم تعجبني تلك العبارة الاستفزازية التي كررها أكثر من مرة.." "صاحبك بتاع كلام".." كانت صورة الزعيم تملأ رأسي، ولا تترك مكاناً لمثل هذه التلميحات المحبطة..

وضحك الأستاذ محسن، ثم أشعل سيجارة، وتنهّد:

- على كل حال، للحديث بقية أيها الناصري المخدوع، ستبدي لك الأيام ما لم تعلم.. دعنا نرحب بضيوفنا..

- معك حق.. لقد انشغلنا عنهما.. أهلاً وسهلاً يا مرحباً..

في اليوم الثاني، تمكّن خالد من رؤية كوثر.. أحضر إسماعيل عربية الحنطور العائلية، وأشار لي أن أصعد بجواره، وصعد خالد وجلس بجوار كوثر، في المقعد الخلفي.. كانت جميلة جذابة، ارتدت ثوباً ريفياً أسود، بأكمام واسعة وثنايا وكرانش.. وعلى رأسها وضعت منديلاً أسود مزيناً بالدانتيل اللامعة.. ووسط هذا البهاء الأسود كانت كوثر تزدد سحراً وفتنة.. وبادرها خالد:

- ما هذه الثياب الجميلة؟

- هذه ثيابنا الريفية.. ألبسها هنا، ولا أخرج بغيرها.. أليست جميلة؟

- بل رائعة.. تبدين ساحرة.. فاتنة..!!

كان إسماعيل يبتسم وينظر لي.. كان يعرف أن أخته هائمة في هذا الفلسطيني الوسيم.. لكنه لم يجرؤ حتى الآن على إعلان ذلك للأسرة.. طلب ترك الموضوع للفرصة المناسبة.. وها هو اليوم يتخذ خطوة، ويحاول تقريب خالد من قلب الحاج صادق.. خطوة أولى..

تجولنا في مزارع القطن والذرة، ومشينا في "الغيطان" والأراضي الخضراء، وسألت إسماعيل، عندما رأيت الدخان:

- لماذا تحرقون جذور الأرز؟

- نحرقها ونغمرها بالماء، ونتركها، لتتحول إلى سماد يفيد الأرض..

كما أن الدخان يساعد في طرد البعوض بعيداً عن بيوت الفلاحين..

انفرد خالد بكوثر، واختفيا عن ناظرينا.. وجلسنا أنا وإسماعيل تحت ظلال الصفصاف.. دائماً تسترسل أغصان الصفصاف هابطة حتى تلامس الماء.. تحدثنا في أمور كثيرة.. في الأدب، قرأ على مسامعي نماذج من شعره، وفي السياسة والزراعة والتربة والسماد..

ثم عدنا إلى الدار عند الظهر، وعندما وصلنا، علمنا أن الرئيس عبد الناصر قد أعلن إغلاق خليج العقبة وطلب سحب قوات الطوارئ الدولية.. سيطرت علينا حالة من الحيرة، ولم نتحدث في شيء ولم يستطع خالد التقرب من الحاج صادق..

في صباح اليوم التالي، غادرنا "هريّة رزنة" مبكرين، لم ننتبه إلى تمثال عربي، كانت الشوارع تعج بالسيارات العسكرية، سيارات تنقل الجنود وأخرى تجر المدافع، وثلاثة كبيرة تحمل الدبابات، وكلها كانت متجهة نحو الشرق.. وعندما وصلنا إلى القاهرة وجدنا عصام الفايز

في انتظارنا.. كان عصام قد سبقنا إلى القاهرة مع عبد الله الشريف،
التحق عصام بالكلية الحربية والتحق عبد الله الشريف بكلية العلوم
بالإسكندرية.. وفي كل خميس يأتي عصام ليقضي إجازته الأسبوعية
معنا.. لكن اليوم لم يكن خميساً:

- جئت لأودعكما.. أنا مسافر إلى غزّة الليلة!

- غزّة! الليلة!! لماذا؟

- تخرجت! تخرجت الدفعة كلها بسبب الطوارئ وحالة الاستنفار..
وسألتحق بجيش التحرير في غزّة..

- غزّة!

طوال ثلاثة أسابيع، بعد سفر عصام، لم نذق طعم الراحة!! انتابتنا
حالة من الوجوم الممزوج بفقدان التوازن.. تارة نتفاعل، ونشعر
بالنشوة، لأن يوم العودة بات قريباً، ونمني أنفسنا بخلاص طال
انتظاره! وتارة نغرق في خوف غريب! خوف من شئ مجهول.. كنا
نحرق في الوجوه ولا نتكلم.. كان الجميع يتكلمون ويثرثرون..
الطلبة والمدرسون والجيران والباعة والمعلقون في الحافلات.. كلهم
كانوا يلغطون بأحاديث عن النصر وتدمير إسرائيل وعودة فلسطين..
ونحن - خالد وأنا وعبد الله الشريف، الذي حضر من الإسكندرية
وأقام معنا - ننصت ونسمع، ونغطس في دوامة من الهواجس
المكتومة.. كانت جميع أفكارنا وقناعاتنا وآمالنا مستسلمة لعاصفة
عاتية، تتقاذفها وتلهو بها كيفما تشاء..

في ليلة الخامس من حزيران (يونيو)، رأيت العزيزة!! كانت تصرخ
وتبكي.. رأيتها تغرف من ماء العين وتبكي.. استيقظت، وقلت "اللهم
اجعله خيراً، البكاء في الأحلام خير". لكنه لم يكن كذلك هذه المرة!
في ظهيرة اليوم التالي كنت أنا الباكي! بكينا جميعاً!! صرخت،
صرخنا جميعاً.. حطمت صورة الزعيم وبكيت حتى مرضت..
وبعدت غزة هاشم، وبعد عوض الشاهد، وبعدت هنية جاد الله، وبعدت
العزيزة.. آه.. آآآآه أيتها العزيزة!! هوت مطرقة الهزيمة على رأسي
ودكت كل قناعاتي.. وأحلامي..

§ الجزء الثاني

الدعوة

(١)

إبراهيم الشاهد

وجاء الخريف.. وتساقطت أوراق الأشجار وهبت الرياح فبعثرتها على رصيف الكورنيش وعلق بعضها على حواف المقاعد الخشبية المنتشرة في المكان.. ثمة أضواء سقطت في الماء.. هناك، حيث ينتصب الفندق الكبير شاهقًا على الضفة الأخرى.. أضواء صفراء وحمراء وزرقاء.. وهنا في الجوار تنبعث من الكازينو (الذي كان عوامة) أصوات الغناء والرقص والضحكات!! وعلى سطح النهر، هناك، قريبًا من المياه الملونة ثمة (مراكبي) يحاول موازنة شراعه مع اتجاه الريح.. ولا يعني!! إنه الخريف.. والليل يمضي وعقارب الساعة تستعد للعناق على الثانية عشرة والكورنيش يكاد يخلو من المتنزهين وبين الفينة والأخرى تقف سيارات فاخرة يهبط منها رجال ببذلات وآخرون بكوفيات ومساح مضيئة!! إنه الخريف وأنا وخالد الربيع نقطع الليل حتى منتصفه، ونمتص السجائر والتنهيدات ونعائد عودة حتمية إلى مدينة الطلبة.. هذا خريف السقوط! خريف الخسائر! سقطت غزة في براثن الاحتلال.. وسقطنا في براثن

التدخين ومدينة الطلبة التي حشرتنا فيها الهزيمة.. نفدت النقود واختفت أيام الشقق المفروشة الواسعة والدراسة في أجواء مريحة.. حشرتنا الجنيهاات العشرة التي تفضلت بها الجامعة العربية في معسكر مكتظ بالطلاب والصخب وروائح الطعام وقرقعة الأطباق ومناظر الملابس المنشورة في النوافذ وعلى الجدران، والحبال المتقاطعة بالممرات.. هذه آثار العدوان! وها هي الجامعة العربية تصد العدوان عنا بعشرة جنيهاات، ومعسكر مكتظ لا ينقصه سوى الخيام والأسلاك! يا لسخاء الأمة وعلو همتها!!!..

- لا بد أن تترك مدينة الطلبة لا بد أن تترك ذلك المكان التّيس.. لم يجيني خالد! لم ينظر إليّ.. جذب نفساً عميقاً من سيجارته وظلّ متشبّثاً بالنظر إلى نفس الاتجاه.. هناك، حيث المراكبي مازال يجاهد الشراع والريح.. هل ينجح المراكبي في مهمته؟ أظنّ خالدًا يفكر مثلي الآن!! أن ينجح المراكبي في السيطرة على الشراع، يوائمه مع الريح المفاجئة، بعدّها ينظر إلى الشراع منتشيًا ثم ينطلق صاوحًا بالغناء الشجيّ العذب:

يا بهيّه وخبريني يا بؤيه عليّ قتل ياسين

قتلوه السُّود عينيّه يا بؤيه من فوق ظهر الهجين

من قتل ياسين؟ من تركه هائمًا في الصحراء دون زادٍ أو عتادٍ أو حماية جوية؟ ساعة! ساعة واحدة فقط ثم صمتت كل الطائرات! همدت في مرابضها بلا حراك.. دُمّرت المدرجات فتعطّلت لغة الطيران وظلّ ياسين مكشوقًا في العراء لتفتك به الطائرات والدبابات..

والإنهاك! مَنْ قتل ياسين؟ سؤال يمور في الصدر ملتاعًا يا بهية! مَنْ خانة؟ لم تكن عيونك يا بهية! بل عيون الذين سهرُوا حتَّى الفجر صاخبين مترنحين، رغم حالة الاستعداد القصوى! عيون الذين منحوهم الثقة، واكتفوا بتقاريرهم الكاذبة "كله تمام يا أفندم" مَنْ قتل ياسين؟ الثقة الزائدة؟ أم الخيانة؟ أم الجهل؟..

في شهر آب هربنا من القاهرة المهزومة الساخرة (كانت تسخر من نفسها بمرارة وقسوة) عدنا مع عبد الله الشريف إلى الإسكندرية، هربنا.. هربنا من النيل إلى البحر!.. قبل أن تصل الحافلة إلى الإسكندرية بقليل حدث شيء غريب

- اللي نازل المطار السري يستعد.. بعده اللي نازل محطة الرادار الجديدة، يستعد!

تبادلنا النظرات وزفر عبد الله الشريف ثم قال:

- عندما أسمع هذه الكلمات من (الكمساري) أشعر بغصة مريرة.. هذه الكلمات تلخص لي سبب الهزيمة..
- الجماهير تسخر مما حدث بطريقتها..
- هذه طريقة لجلد الذات أيضًا..

عندها، حدثنا خالد عن ذلك (الدكتور) الحزين:

- بعد مراجعة الإدارة بخصوص المنحة، جذبني الدكتور فتحي فودة من يدي وسار معي بضع خطوات ثم قال:
- أنا حزين اليوم حزين جدًا..
- سألته عن سبب حزنه الشديد فقال:

- قرأتُ في إحدى الصحف أن باخرةً محمّلةً بالحمضيات قد غرقت في البحر بعد مغادرتها ميناء يافا..

ضحكتُ (قال خالد) وسألتَه عما يدعو للحزن في هذا فأجابني بكلمات صدمتني وعمّقت الجروح في داخلي:

- هيه مش برضه يافا مدينة فلسطينية دي أموال الفلسطينيين دي أموالكم ولازم نزعل علسانها!

وتساءلتُ: فيمَ يختلف هذا الأستاذ الأكاديمي المتعلم عن بيومي الجزار المعلم؟! كنتُ أشتري نصف كيلو من اللحم وأوصي على واحدة من (الكوارع) لعمل الشورية، قطع المعلم بيومي اللحم وكسّر الساق الكبيرة ولقّها ثم توجّه إليّ بالسؤال في جدية واضحة:

- هيه غزّة قبل الإسماعيلية ولا بعدها يا أستاذ إبراهيم؟

- لأ بعدها بشوية يا معلّم!

- آه.. يعني قريّة من السويس!

- أيوه بالظبط يا معلّم.. هات اللحمه وخذ الفلوس..

ولم يفعلها المراكبي لم يفلح في السيطرة على الشراع ولم يصدح بالغناء الشجي! استسلم أخيراً وأنزل شراع مركبه.. لملمه وطواه، ثم جدّف بطيئاً بطيئاً حيث المرسى الخشبيّ الصغير.. ربط المركب، رفع (قلّة) الماء وأفرغها في جوفه ثم تدثّر في أسمال بالية ونام..

نام المراكبي، فقذف خالد سيجارته في النيل بغيظ.. وظلّت أضواء الفندق الكبير متألّنة باهرة على صفحة الماء ولم تخفتْ أصوات الغناء والرقص والضحكات ومن جديد، توقفتْ أمام الكازينو سيّارات

فاخرة، وهبط منها رجال ببذلات أنيقة وكوفيّات ومساح مضيئة..
وعقارب الساعة تفك عناقها لتشكل عمودًا مائلًا.. والليل يمضي
وأوراق الأشجار تتساقط والرياح تداعبها وتقدفها وتبعثرها على
رصيف الكورنيش وحواف المقاعد الخشبية..

- ما اسم هذه الأشجار يا إبراهيم؟ وهل لها مثيل في بلادنا؟
سألني خالد فجأة، وكأنني لم أطرح عليه قضية، أو أتحدث معه في
أي موضوع!!

- لا أعرف بالضبط! لكن أوراقها تشبه أوراق اللوز.. أنظر، إنها
تشبه أوراق اللوز كثيرًا، لكن الشجرة نفسها لا تشبه شجرة اللوز،
بل هي أقرب إلى نوع قصير من الكازورينا ينتشر في بلادنا.. لعلها
نوع من الأشجار غير المثمرة!! (وأمسكت ذراعه بقوة).. اسمع!
الهروب من المشكلة لا يحلها.. لابد أن تترك مدينة الطلبة، ذلك
المعسكر المقيت.. لا يمكن أن تستمر على هذا الحال أنت بالذات لن
تستطيع الدراسة والتركيز أنا أعرفك، ستفقد المنحة إذا بقيت في ذلك
المكان.. لابد من المحافظة على تقديرك اسمع كلامي يا صديقي..

- إذن لم يبقَ أمامنا إلا "الباطنية" سنترك مدينة الطلبة معًا.. هذا هو
شرطي!!..

يبدأ حي الباطنية من حيث ينتهي جامع الأزهر.. بعد رواق المغاربة
يبدأ الزقاق المؤدي إلى الباطنية.. عندما دخلنا الزقاق تقافز الصبية
من حولنا، وتطايروا مصدريّن الصقير وصائحين بعباراتٍ مبهمة!!
- لماذا يتقافز الصبية هكذا يا معلم؟

سأل خالد السمسار الذي يرافقنا إلى الشقة المنتظرة:

- دول "الناضورية" أصلهم بيحسبوننا مباحث مكافحة المخدرات وجايين نعمل "كبسة".. الناضورية بيبلغوا التجار علشان يلموا البضاعة ويخبوها، البضاعة يعني الحشيش..

أطلت النسوة من شرفات البيوت ونوافذها ووقف أصحاب الحوانيت والمحلات في انتظار "الكبسة" وكانت عيونهم المترقبة تُنبئ عن استعدادهم لتحمل المصيبة الجديدة.. سرنا في الزقاق وخذلنا العيون المحمرة الذابلة وأحبطنا الملامح المحشورة في النوافذ والشرفات.. لم نقتحم المحلات والبيوت! لم نخطف الرجال والنساء عنوة! لم نلطم وجوههم وننهال عليهم بالضرب ثم ندفعهم بقسوة إلى داخل سيّارات مكافحة المخدرات! لم "تحرّر" على لفائف و"بواكي" الحشيش المضبوطة معهم! ولم ننه الكبسة - كما توقعوا- بخراب البيوت وأحكام طويلة من السجن لأحببتهم وأخوتهم وجيرانهم! لم نفعلها! ووصلنا إلى آخر الزقاق ثم صعدنا في طريق عريض، ففتّرت نظرات الترقب والغضب المكبوت، واسترخى أصحاب المحلات من تشبّجهم. لكنني شعرت بشيء من الخوف، وفكرت "كيف لنا أن نعيش في هذا الجو المتوتر؟.. كيف سنتمكن من الدراسة والذهاب إلى الجامعة وسط هذه النظرات الخائفة المتشككة؟"

اتجهنا إلى اليسار وعند "كشك" مكافحة المخدرات القابع في الساحة الصغيرة توقف السمسار ثم أشار بيده إلى شرفة في الدور الثاني من العمارة المقابلة:

- هيَّ دي الشقة.. والسـت عزيزة في انتظارنا آهه..

يا إلهي عزيزة هنا أيضًا؟! تَبَّا لك أيُّها السـمَسار التَّعَس، لماذا لم تنطق الاسم من قبل؟

ووجدتُ نفسي أترجع خطوتين إلى الوراء وتخيلتُ العزيزة! ممشوقة فائرة شهية.. رأيتهـا تلمـم الأوراق الجافة المتناثرة (لا بد أنها تفعل ذلك الآن) تفرك الأوراق الصفراء ثم تُطيرها مع رياح الخريف، تلهو بها قليلًا ثم تدب في أخاديد الكرم تطوف به بمحاذاة السياج وتصيح على النواطير والرعاة وتهش بعصاها وصوتها البشر والزواحف والطيور.. آه أيتها العزيزة اشتقتُ إليك! اشتقتُ إلى عنادكِ وحرنكِ، إلى دَباتِ قديمكِ في أخاديد الأرض، اشتقتُ إلى بـنيانكِ الأثـنـويّ الشهيّ، اشتقتُ إلى الخوخ المعطر متناثرًا مبعثرًا من سلتكِ.. أشتـهي قـضـمة من الخوخ اللذيذ أشتـهي شفتيك الشـهـيتـين ونهدك الفائـر ورعشتك اللذيذة بين يدي.. آه يا عزيزة! خطفتكِ الهزيمة مني! خطقت أبي وأمي وأهلي خطفتكم جميعًا! ما أوجع الهزيمة! نعم هزيمة ولا شيء غير ذلك! أعجبُ من أولئك الذين يجمّلونها ويطلقون عليها أسماء مستعارة "النكسة" وهل تُغيّر الأسماء المستعارة من حقيقة ما حدث؟! هل تمحو ملامح الكارثة؟!!

ترجع خالد نحوي وجذبني من يدي، ثم دفعني إلى مدخل العمارة.. وعندما صعدنا درجات السلم قال مداعبًا هامسًا:

- إصـح يا برهـوم.. إحنا في مصر.. إحنا مش في العزيزة!!

لكن، ماذا لو ذكر السمسمار هذا الاسم أمامي من قبل؟! كنت سأطلب من خالد أن نبحث عن شقة أخرى! كنت سأعذر بأي شيء.. أعود إلى كلام إسماعيل العربي - مثلاً!..

جاء إسماعيل العربي منذ أسبوع، دسّ في خزانة خالد لقة تحوي منتي جنيه: "أرسل الحاج هذا المبلغ ويقول لا تُقصّروا في أنفسكم.. لكم أهل هنا أيضاً" وقبل أن يغادر غرفتنا غاضباً مستهجنًا قال:
- الباطنية؟! بتقولوا الباطنية؟! ده وكر للمخدرات! الفلوس معكم أهه خدوا أحسن شقة في أحسن مكان!..

لكن خالدًا - باتفاق بيننا - أعاد له المبلغ بعد يومين شاكرًا ممتنًا، وأخبره أن نقودًا وصلتنا من أحد الأقارب في الخليج.. ثم تغلبنا على عقدة "وكر المخدرات"، ما دخلنا نحن في ما يفعله هؤلاء الناس، مادمنًا سنظل في حالنا وسنحترم البلد الذي يستضيفنا ولن نخالف القوانين وندخل في متهات غير محمودة؟ سنحترم الجيران ونحافظ على حرّمتهم وأعراضهم وأسرارهم.. لكن هذه العريضة الجديدة لم تكن في الحسبان!!

كانت الست عريضة في الثلاثين من عمرها تقريبًا يميل جسمها إلى البدانة وكانت ترتدي قميصًا لوزيًا جميلًا كشف عن ذراعين أبيضين وصدر مرمرٍ عريض وكانت عيناها عسليتين جميلتين جذابتين وشعرها كان معقوصًا منسقًا ببُنساتٍ جميلة ملونة ومع كل حركة من يديها كانت تسمع خشخشة الأساور الذهبية.. ومن حين لآخر كانت تداعب السلسلة الذهبية الثمينة المعلقة على صدرها الأبيض الجميل

وتهبط بيدها حتى تصل إلى القطعة الذهبية المستديرة عند بطنها..
كانت ودودة مرنة.. اتفقنا على الأجرة بسرعة وعندما قدّمت لنا
المرطبات قالت:

- إحنا اتفقنا، بس أنا ليّيه شرط واحد..

- شرط؟! شرط إيه يا ست عزيزة؟! إحنا متفقتاش على شروط! دول
جماعة مش محتاجين شروط!.. دول أولاد ناس، أولاد أصول يا ست
عزيزة مش زيّ اللي في بالك.. الله!!

- معلش يا معلم! الأساتذة على عيني وراسي بس شرطي مفيش
شغالات! الشغالات ميدخلوش العمارة!..

تبادلنا النظرات، أنا وخالد، ثم ضحكنا معاً.. وردّ خالد:

- شرطك مقبول يا ست عزيزة.. إحنا أصلاً مش محتاجين شغالة..
إحنا بنعمل حاجتنا بأنفسنا.. اطمئني وهذا مقدّم شهرين.. خمستعشر
جنيه، زي ما اتفقنا مع المعلم..

- يا سلام.. شوفي الناس الكمل إزاي.. والله لو لقيتي مصر كلّها ما
تلاقي أحسن من الناس دي، أنا عارفهم بقالي مدة..

بعد شهر من وصولنا إلى الباطنية جاعني المعلم حسنين وقال:

- بكره نطلع للدراسة لازم تشوف كل حاجة على الطبيعة.. السوق
والنظام..

كان المعلم حسنين أكبر تجّار الحشيش في الباطنية.. توطدت علاقتنا
به من خلال صدفة غريبة!.. في الليلة التي وصلنا فيها إلى الباطنية،
وضعت زوجته مولوداً ذكراً "ولد على خمس بنات" جاء الولد من

زوجته الجديدة التي أحضرها من المنصورة.. قابلني بفرحة في صباح اليوم التالي كنتُ في طريقي إلى الجامعة، استوقفتني متهللاً سعيداً:

- إنتم وشكم وش السعد.. وقدمكم قدم خير.. وأنا سميت الولد إبراهيم، على اسمك يا أستاذ.. ولد على خمس بنات! عارف يعني إيه ولد على خمس بنات؟! أنا فرحان.. فرحان يا أستاذ إبراهيم.. الدنيا كلها مش سيعاتي!

وأصدر المعلم حسنين تعليماته الصارمة إلى حيّ الباطنية كله.. "الجماعة الفلسطينية تحت حمايتي واللي بيدوس لهم على طرف أمه تترحم عليه"، وانهالت علينا صواني المكرونة وطواجن البامية وصحون الملوخية ووقف الجميع لتحيتنا في ذهابنا وإيابنا وشعرنا بالأمان والمودة، وزالت نظرات التوجس والريبة.. كان المعلم حسنين رجلاً غريباً متناقضاً.. يتاجر في الحشيش ولا يتعاطاه، يصلي الفجر حاضراً في سيدنا الحسين القريب، وكانت له زبينة في جبهته تدل على سجوده الطويل! وكان يصوم رمضان ويساعد المحتاجين وعائلات المسجونين، لكنه لا يرحم من يعصي أوامره ويبطش بكل من ينافسه من التجار! وكان يحمي الحي من كل طامع ويردع كل امرأة تحاول اللعب بذيلها ويحاسب كل رجل يتهرب من مسؤولية بيته!! كانت كلمة المعلم حسنين لا تُرد، وكان الحاكم الفعلي لحي الباطنية بأكمله! وكان يحمل تفسيراً عجيباً للدّين! سألته:

- كيف تجمع بين الصلاة والحشيش وبين التقوى والبطش؟

- دي حاجة ودي حاجة!! بعدين المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف وأنا بحبش الظلم أنا شديد على الظلّمة بس!!..

كان للمعلم حسنين (وكالة) كبيرة يبيع فيها الفواكه والخضراوات بالجملة ووراء هذه المهنة كان صبيّانه وشركاؤه يجلبون الحشيش من السويس والصعيد ومرسى مطروح.. لا يتعامل بنفسه مع التجّار ولا يُخزّن البضاعة في مخازنه، دائماً هو بعيد عن الأمور ولا تمسّه الشبهات لكن بأوامره تُوزّع الحقوق والأرزاق للتجّار والصبيان والمحتاجين وأسر المساجين.. كان المعلم حسنين غريباً لم يستوعبه عقلي في البداية لكنني تعودتُ عليه واكتشفتُ في شخصيته ما يجذبني ويغريني بالغوص في عالمه المتناقض الغريب.. قبل أن نصعد إلى الدّراسة، همس المعلم حسنين في أذن أحد الصبية، فأسرع الصبي النحيف إلى كشك مكافحة المخدرات ودسّ في يد كلّ من الشرطيّين القابعيّين فيه ورقة نقدية من فئة خمسين قرشاً ومعها ورقة فضيّة تحوي قطعة من الحشيش وعرفت أنها المئونة اليومية التي يُضمّن بها سكوت شرطة مكافحة وعدم زج أنوفهم فيما لا يعينهم، وكذلك إبلاغهم بالكبسات في حال علمهم بها.. كان السوق منظماً سالّكاً كل صبي يقف وأمامه طاولة عليها قطعة كبيرة من الحشيش وبجوارها سكين حادة.. يتقدم الزبون فينظر الصبي في المبلغ ثم يقطع القطعة المناسبة لنقود الزبون، يضعها على ميزان يشبه ميزان الذهب ثمن، ربع، نص، قرش ثم يلفها في ورقة فضيّة ويسلمها للزبون.. ونادراً ما يخطئ الصبي في قطع الوزن المناسب..

وخلف الصَّبِيَّة، من بعيد كان التَّجَّار يراقبون بضاعتهم وصبيانهم وزبائنهم في هدوء.. كانت الأمور تسير في نظام عجيب تشعر كأنك في سوق للفاكهة أو السمك! كل له مكانه وزبائنه و"رزقه"! وعند مدخل الدَّرَاسَة، من الشرق، وقف "الناضورجية" يراقبون كل شيء، ويتفحصون بعيونهم الحادة الزبائن ولا يُدْخِلون إلى "حِمَى" السوق إلا مَنْ يذكر كلمة السر ويبلغ بالأمان أو يعطي إشارة من صديق أو تاجر! وفي بعض الحالات كان الناضورجية يلجأون إلى التَّجَّار يهمسون في آذانهم فيعطي التَّجَّار الإشارة بالموافقة على الدخول أو المنع!! وهمس المعلم حسنين في أذني:

- معظم الزباين اليومين دول من العساكر اللي رجعوا من الجبهة وفيهم ظبَّاط ورتب كبيرة!!

كان سوق الدَّرَاسَة عالمًا جديدًا مثيرًا، عاريًا من الرتوش أو الأقنعة!! لم أتخيل وجوده في الواقع! كيف أتخيله، وأنا القادم من قرية تتبرأ فيها العائلات من أبنائها الذين تدور حولهم الشبهات بأنهم يتعاطون الحشيش أو الأفيون؟!

كان سوقًا موجدًا، متفردًا في نهوضه المفاجئ أمامي.. أذهلني! وصدمني بجراته في إعلانه عن نفسه في ذلك الظرف بالذات!! لكنني سرعان ما اكتشفتُ من خلاله حاجتي لأن أعرف أشياءً أخرى غير الجامعة والمحاضرات والرحلات والنزهات البريئة! أن أعرف حياة جديدة ونماذج جديدة.. وأسبابًا جديدة! وها قد عرفت! وكان للمعلم حسنين الفضل في ذلك!

لم أذهب في اليوم التالي إلى الجامعة، وعندما عاد خالد سلمني رسالة زرقاء موسومة بختم الصليب الأحمر.. أخيراً ها هي رسالة تصلني من الوطن وها هو خط أختي فاطمة "المنمنم" الجميل يزِين غلافها.. تركتُ خالدًا لرسالته وأسرعتُ إلى غرفتي فضضتُ المظروف بلهفة وعندما أخرجتُ الرسالة سقطتُ تلك الصورة!! يا للصورة الفاجعة!! عزيزة الخيال في ثوب الزفاف الأبيض! ومعها مَنْ؟ جميل حب الرمان!! يا إلهي! يلتصق بها ويضمّها! هل أصدق ما أرى؟! وقرأتُ الرسالة: "سلام سليم أرقّ من النسيم من والدك المشتاق ووالدتك التي تدعو لك ليل نهار ومن أخوتك فردًا فردًا.. وقفزتُ عن التحيّات والسلامات بسرعة ووصلتُ إلى الكلمات الدامية في آخر الرسالة ملاحظة: نود أن نخبرك أن القبرصية قد ماتت بعد سفرك في شهر آذار.. وتزوجتُ ابنتها عزيزة بعد الحرب في شهر تموز من جميل حب الرمان ومُرفق مع الرسالة صورة للعروسين وعقبال عندك".. هذه ليست ملاحظة يا فاطمة! ليست ملاحظة يا عوض الشّاهد! ليست ملاحظة يا هنيّة جاد الله! تعلمون أنها ليست ملاحظة عابرة بالنسبة لي بل هي قذيفة! قذيفة موجعة بعثرتني وهشّمتْ ما تبقى من كياني! بهذه السهولة؟! هكذا! تتزوج العزيزة وتتخلّى عني لم تصمد ولم تنتظرنني كما وعدتْ! هذا خريف السقوط!! خريف الخسائر! سقطتُ عزيزة الخيال في أحضان جميل حب الرمان وسقطتُ أنا في أحزاني وجثمتُ عليّ الهزيمة ثقيلة فبلّلتُ الرسالة بدموعي.. وعندما علا نحيبي دخل خالد مرتبكًا ملهوفًا:

- ما بك؟ تكلم يا إبراهيم!!

- تزوّجت يا خالد! خانت عهدنا! تزوجت من أحقر عباد الله! من جميل حب الرّمّان..

ودفعت الرسالة إليه..

ومكثتُ في الشقة، ولم أخرج منها ثلاثة أيام متتالية! كنتُ أدخّن السجائر وأرتشفُ فناجين القهوة واحدًا تلو الآخر، ولا أتناول الطعام إلا نادرًا! وكلّما عاد خالد من الجامعة، كان يتوسل إليّ أن أرحم نفسي!!.. وكانت تسليتي الوحيدة ذلك البيك آب واسطواناته العشر!! كان ذلك البيك آب هديّة تركها أحد أقارب خالد، استخدمه لشهرين كاملين، أقامهما معنا في شقتنا، وعندما انتهت إجازته وحان موعد عودته إلى السعودية، تركه "مُحرّجًا" وقدمه هدية لنا.. كانت معه اسطوانات لعبد الوهاب وعبد الحليم حافظ وفايزة أحمد ونجاة، وكانت هناك اسطوانة أحببتها أكثر من غيرها في تلك الأيام العصيبة!

غريب الدّار عليّا جـار زماني قاسي وظلمني

مشيت سواح مسا وصباح بدور عليّ راح متي

غريب.. غريب.. غريب الدّار

أنا اللّي الدهر عاداني وباعني و اشتري فيه

وخذ أحبائي وادّاني بدالهم هجر وقسيّة

ومين شاف اللّي أنا شفته ومين قاسي اللّي قاسيته

غريب.. غريب.. غريب الدّار

كان المطرب ينوح بصوته الشجي وأخرج أنا الزفرات ساخنة
ممزوجة بدخان السجائر..

وسمعتُ نقرأ على الباب!! كان الوقت ظهراً، وكانت حركة العمارة
هادئة.. فتحتُ الباب فوجدتها أمامي! دخلتُ وأقفلتُ الباب وراءها!
كانت الست عزيزة بكامل أنوثتها! كانت ترتدي قميصاً شفافاً مفتوحاً
يبرز صدرها المرمرى الأبيض! وشعرها تركته غجراً منثوراً! آه يا
امراًة جاءت لتنبش ضعفي وهزيمتي! وتستفز بقايا رجولتي!..
تراجعتُ دون أن أتكلم.. وقعت على السرير! تقدّمتُ ثم جثمتُ على
ركبتيها قبالي تماماً! وكان هناك صدرها وعيناها وشعرها! كانت
كلها في مواجهتي، تحاصرني بعطرها! كان عطرها يغمرنى، وينفذ
إلى شراييني! وأذكر أنني استنشقتُه ونشرته في بدني! غمرتي
الأنوثة والشهوة.. و.. صهلتُ "العزيزة"! ركضتُ في مروج جسدي،
ومعها، كنتُ أطوف السهول والوديان والهضاب! وكنتُ أفرغ هزيمتي
وإحباطي ومخزون عمري المكبوت!.. وانتفضتُ فجأة! فإذا أنا
بكامل ملابسي مُستلق على السرير!! و"البيك أب" يدور على حافة
الاسطوانة دون غناء! ولم تكن هناك امرأة! وليس ثمة أثر لعطر
نسائي في الغرفة! ولم تكن هناك آثار على مروج جسدي! ما الذي
حدث بالضبط هل جاءت "الست عزيزة" واحتوتني بأنوثتها وشبقها؟!
هل هربت "العزيزة" من جميل حب الرمان، والمسافات وارتمت بين
أحضائي؟!.. هل ما رأيته (ولمسته واستنشقتُه) كان مجرد خيال؟!..
أذكر أن "الست عزيزة" حدثتني في المرات السابقة عن نفسها! (كانت

تأتي دائماً حاملةً صحن الطعام والحلوى).. واكتشفتُ أنها تعرف
مواعيد محاضراتنا ومواعيد عودتنا! وتعرف الأغاني التي نسمعها
والوان قمصاننا وسراويلنا!! حدّثتني عن زوجها الذي أحضرها من
المنصورة بعد زواج فاشل في المرة الأولى (بعد ذلك أحضرتُ هي
واحدة من مدينتها للمعلم حسنين) بعد الطلاق، مكثتُ عند أهلي
خمس سنوات (قالت) ثم جاءني مصطفى (زوجي المسجون)
واكتشفتُ بعد وصولي أنه تاجر مخدرات!! وأنجبتُ منه طفلين ثم
تركني وأودع السجن، ليقضي فيه عشر سنوات! عشر سنوات طويلة
قاسية!! قضى منها ثلاثاً فقط!.. كانت تلمح في طيات حديثها إلى
الحرمان الذي تعانيه! وإلى حاجتها إلى رجل مخلص حنون يشعر
بها! رجل نظيف! "أنا نفسي في واحد نضيف! واحد متعلّم يفهم
ويقدّر وكنتُ أصدّها! كنتُ أكسر موجات شبقتها بالمعاذير واقتعال
مواعيد طارئة للمحاضرات! كنتُ أحافظ على عهدي مع خالد، ومع
الآخرين! "صيانة العرض والحُرّمات".. هل هُزمتُ اليوم مرة أخرى؟!
هل خنتُ العهد - مثل العزيرة؟ هل من كانت بين أحضاني امرأة من
لحم ودم؟ أم أنها هزائم التي صوّرت لي امرأة وهمية؟!

أقحمني خالد في المحاضرات والنزهات البريئة! ظلّ يلزمني حتى
همدتُ آثار سوق الباطنية، وآثار رسالة عوض الشّاهد، وهلوسات
تلك الظهيرة الغريبة.. وساهم الشتاء، بصقيعه وأمطاره الخفيفة، في
كُمون جسدي وأوجاعي.. وجاء الربيع وجاءت معه النقود وصلتُ
عن طريق أحد أقاربي.. وصلتُ بعد أن نسيْتُ تلك العبارة التي وردت

في رسالة أبي: "ستصلك نقود قريباً عن طريق ابن سلمان العبد الله في الخليج.. اتفقتُ مع أبيه على أن يرسل لك النقود اللازمة، وأقوم أنا بسدادها هنا"

وذهبنا إلى شارع اللواء القريب من ميدان العتبة، حيث يوجد مطعم صغير مقابل سوق الطيور تماماً.. ويوجد على مقربة منه فندق يحمل اسم الشارع.. كان الفندق مقراً مفضلاً لأبناء قطاع غزّة خاصة التجّار وسائقي سيّارات المرسيدس.. توجد في المطعم طاولتان فقط وحول كل منها ثلاثة كراسي.. كنا نزور ذلك المطعم مرّات قليلة حسب الظروف! كان صاحب المطعم "السيد" يُعدّ الكباب والحمام بطريقة فريدة.. يفرد قطع اللحم ويدكّه.. يشقّ الحمام إلى نصفين ثم يُتبّل "الطلب" بالبصل والثوم والبهارات يتركه بضع دقائق ثم يفرده على شبكة من السلك ويدخله إلى الفرن لينضج الشواء على الفحم.. عندما دخلنا المطعم استقبلنا السيد بالترحاب وذكرنا أننا غبنا عنه هذه المرّة أكثر من تسعة أشهر! وخمّن أننا نريد حماماً مشويّاً! وعندما وافقنا على "فراسته" وطلبنا زوجين من الحمام مع السلّطة ذهب لإعداد "الطلب".. وأمر أحد صبياناه أن "يُشغّل" المذياع.. كانت أغنية لعبد الحليم حافظ:

ابنك يقول لك يا بطل هات لي انتصار

ابنك يقول لك يا بطل هات لي النّهار

وتوقفت الأغنية.. وجاء صوت المذيع حاملاً أخبار الكرامة انتفض خالد عندما سمع الأخبار السّارة:

- إنها الكرامة!ها نحن نصعد مرة أخرى! ها نحن نمسك بمصيرنا..
نواجه العدو ونقاتله!!...
- وقلتُ بعد أن احتضنته وأمطرته بالقبلات:
- أشعر أنني ألتئم من جديد.. أتوحد مع نفسي! إنها الكرامة! الحياة!
ها قد عدنا إلى الحياة!!
وانتفض خالد مرة أخرى:
- اسمع! سأقلع عن التدخين!!
- ونقلع من الباطنية!!...
- ونقلع عن الإحباط والسلبية وجلد الذات!!.
- ونبدأ حياة جديدة.. حياة فاعلة..
عندها، تقدّم "السيد" نحونا حمله فينا للحظات، ثم صاح بصوته
الهادر:
- عليّ الطلاق ما انتو دافعين فلوس.. غداكم النهارده على حسابي..

عزيزة الخيال

آه يا وادي العزيزة! آه يا وادي الغرائب والعجائب! حتى أنت تتغير!
تتبدل مع الأيام والسنين! تتقلب مثل الناس وقلوبهم ها أنت تفقد
ملاحك وأشياءك الجميلة!! أين عصافيرك المرحلة الملونة المتقافزة؟
ها هي تختفي تاركة المكان للبوم والغربان. أين أعشابك الطرية
الخضراء المنبسطة في بطنك؟ أين تلك الحملان والجديان تنط وتتشيطان"
عليها؟ أين هي تشاكس العصافير وتطيرها وأين رمالك البيضاء
الناعمة، رمالك الأليفة الودودة، لنبي عليها بيوتنا الصغيرة وأحلامنا
الكبيرة؟! اختفت.. واختفت معها تلك الشعاب والشقوق المتعرجة
الآمنة!! وها هي شجرات التوت الثلاث تقف ضامرة عجفاء حزينة!
لم تعد نضرة مورقة، محملة بالثمار البيضاء اللذيذة.. كأنها شاة
جفت ضروعها، أو امرأة هدها الحزن وفقدان الأحبة مثلي.. كانت
أمي تعتني بشجرات التوت كما تعتني بأشجار كرمها.. كانت
"تقشبرها"، تنزع أغصانها الجافة اليابسة في كل عام!.. وكانت
تنظف تربتها من النباتات الشائكة المتطفلة.. وتنقل إليها الماء على

كتفها الصلب القوي، تسكبه بحنان حول جذوعها وتمهّد الأرض
بيديها لينساب الماء رفقاً راقصاً وكانت ترشق جذع الشجرة بالماء
لتبلله!! ترشق الجذع بالماء وتداعبه، كما كانت تفعل معي عندما
أغتسل بين يديها!! تبلل جسمي الطري الصغير وتداعبني قبل أن
تدعكني بالليفة والصابون اللاسع في العينين!! آه يا وادي العزيزة!
لم تعدّ كما كنت حنوناً أليفاً مبهجاً! اختفت أشجارك الظليلة! قطعوها!
قطعوا أشجار الكازورينا الضخمة وحملوها أخشاباً هامدة على
العربات والجرّارات الشرسة!! ولم تعدّ هناك ضفتان! ها هي أطرافك
تتآكل ببطء وملامحك تندثر رويداً رويداً.. وأمام عينيّ انهالت إلى
قاعك أكوام الأتربة وبقايا الطمي والطين ها هم أصحاب البيّارات
والكروم - جيرانك الذين أعطيتهم بلا حدود - يردّمونك! ينتهكون
تضاريسك بالجرّارات وسيّارات النقل! ثم يصلون إلى قلبك! ها هم
ينزعون الأسلاك والحواجز، يطمعون في حماك، ويظفرون بك، ولم
تعدّ وادياً!! تحوّلت إلى تضاريس ومسطّحات غريبة منقّرة! تحوّلت
إلى شيء مشوّه! شيء يُذكر بأن وادياً جميلاً كان هنا في يوم من
الأيام.. حتى القنطرة! القنطرة التي صمدتْ لأعوام طويلة! صمدتْ
منذ الانتداب البريطاني ها هم يقتربون منها ويحاولون تطويعها
والسيطرة عليها! زحفوا عليك يا وادي الخير، وألحقوك ببيّاراتهم
وكرومهم وأراضيهم.. واغتصبوك!.. اغتصب اليهود الأرض، ثم
اغتصبوا المياه الآتية من الخليل، اغتصبوا مياه الأمطار.. بنوا
السدود والخزّانات وحجبوا عنا ما يوجد به الباري! منعوه عنا،

منعوه عنك يا وادي الخير فجقت ضروعك، وتيبست حشائشك
الطرية، وتحولت إلى هشيم أصفر جاف!.. أسرع الطامعون
وتسابقوا!! نسوا كل عطايك وخيراتك! انهالوا بلا شفقة على قلبك،
"تهشوك" يا وادي الذكريات! ومعك نهشوا وشوهوا أجمل أيام عمري..
ورائحة أمي.. وهواجس أمي.. كانت أمي تعبر دائماً عن خشيتها من
الزمن!.. كانت تشكو إلى الوادي - إليك - همومها! كنت أسمعها
"تحنّ" في محرابك، كانت تترنم بذلك الغناء الملتاع الحزين.. كانت
تودع أحبّتها الذين تركوها.. كنت أقرب منها بحذر، استمع إلى
تحنينها!! وأذرف الدموع بصمت:

قوموا نودع إن نويتو الوداع قوموا نودع
خذوني معاكو إن نويتو الوداع خذوني معاكو
ما بصبر بلاكو وما بطيق الفراق ما بصبر بلاكو
سقوني كاس مر وكاس كيريت وعلينا قدر الباري تفريق
يا يوم فراقهم عجة ونشاف ريق سموم وريح وما حدا ودع حدا
مع السلامة يا جملة حبايبنا لا يوم اشتكيننا ولا في حقكو عينا
وانتو سافرتو واحنا الله يصبرنا

وها هو الزمن يُصادق على خوفها!! ها هو الزمن يحرمني من
أحبابي ويسقيني من الكأس المرة!! ها هو يقذفني في أتون اللهب!
يرميني في أحضان من أكره! ومن يكرهه إبراهيم! كنت أريد التخلص
من نفسي! فكرت في شئ نفسي! أن أصعد فوق البرميل الموجود
تحت شجرة التين الكبيرة! أعلق رقبتني في الحبل ثم أربطه في غصن

قوي من أغصان الشجرة، بعدها أركل البرميل بقدمي.. وأموت!!
وفكرتُ أن أحرق نفسي، وأطهرها من العذاب! وفكرتُ أن أغافل
عوض الشّاهد "القاسي الظالم" وأقذف نفسي في بئر الأفندي!
لتهرسني الصّبايات والتروس المثّمة الحادة وتفتّنتي!.. ثم فكرت في
الهروب.. وجهّزتُ زوّادتي وصرّة ملابسي!!.. كان أبو الكاس ومعه
أربعة رجال، أربعة فدائيين! كانوا ينتظرون الغروب بين نباتات
الياقطين عند البركة! بركة بيارة الأفندي التي أحبّها إبراهيم، وكان
يُسلم نفسه إلى أحضانها بعد منتصف الليل.. كانوا يستعدون
للرحيل.. اقتربتُ منهم وقلتُ بصوتٍ مرتجف:

- عمّي أبو الكاس، خذوني معكم.. بدّي أرحل معكم..

- نأخذك معنا!! إلى أين؟ أنتِ مجنونة! نحن ذاهبون إلى الموت!!
سنسير ليلتين ونختبئ نهاراً كاملاً.. وقد نصل أو لا نصل!! ثم، ماذا
سيقول الناس ماذا تقول القرية عنا؟ القرية التي أحببتنا وأحبيناها؟!
خطفوا البنت!! بلاش قلة عقل! اسمعي! أنتِ مكانك هنا!.. دورك
هنا! كوني مثل أمك! مثل عوض الشّاهد ومثل إبراهيم الشّاهد! كانت
القبرصيّة تساعدنا وتكتم أسرارنا وتراقب لنا كلّ شيء! كانت تخبئ
السلّاح تحت القنطرة.. والآن دورك! نظفي القنطرة يا عزيزة!
نظفيها، وإذا لم نعد نحن فسيأتي غيرنا! دورك هنا يا بنت القبرصيّة!
يا بنت الشّهيد عابد الخيال! مكانك هنا..

وبقيت!! وعدلتُ عن فكرة الموت، فكرة الانتحار.. وتزوّجني جميل
حب الرّمّان!.. وفي الليلة الأولى رأيتُ النّديتين! آثار طعنات خنجري،

خنجر أمي القبرصية!!.. كانت آثار الطعنات بائنة في ذراعه الأيمن!..
لكنه سدّد طعناته هذه المرة بقسوة أكبر! انتقم مني! أخذ بثأره
مضاعفاً.. امتلك جسدي وتمرّع فيه! لكنه لم يمتك قلبي! لم يمتك
روحي ومشاعري!

بعد أسبوع من زواجنا، جاءت أخبار "أبو الكاس" وجماعته!! ردّدتُ
القرية أخبارهم.. كانت القرية كلها تحبهم. استشهد أربعة منهم وكان
أبو الكاس أحدهم. وأرسل النّاجي الوحيد أخباره الموحجة "فاجأنا
اليهود قرب الخليل.. كنا على وشك دخول الخليل.. اشتبكنا معهم، ثم
تمكنوا منا!! وبأعجوبة نجوتُ من موتٍ محقّق".."آه يا وادي
العريضة.. استشهد أبو الكاس وبقيت كلماته تنقر في رأسي وتشكّل
دوائر الحيرة في صدري! "دورك هنا يا بنت القبرصية.. يا بنت
الشهيد عابد الخيال! كوني مثل أمك، مثل عوض الشّاهد وإبراهيم
الشّاهد. نظّفي القنطرة يا عريضة!.. وإذا لم نعد نحن، فسيأتي غيرنا!"
وتساءلتُ: هل أستطيع القيام بما كانت تقوم به أمي الصابرة الكتوم؟!
بما كان يقوم به عوض الشّاهد القويّ الشجاع؟! بما كان يقوم به
إبراهيم الجامعي الوثاق؟! ووجدتُ نفسي أبدأ في تنظيف القنطرة..
كم هي الأيام التي أمضيها في تنظيف القنطرة وتهيتها؟.. كم هي
الأيام التي قضيتها في إعداد الأخدود الموازي لها ليصبح آمناً نافذاً
من الجهة الأخرى؟! كم هي الأيام التي جلبتُ خلالها ألواح الزينكو
والأغصان الجافة لأغطي بها الأخدود! لأستره! لأوهم الرّائي أنها
مجموعة من أكوام الحطب أكوام من الأغصان الجافة اليابسة التي

يستخدمها القرويون في الخبز والطبخ وتسخين الماء.. أغصان من أشجار الليمون والتين والخوخ توفر الكاز وتؤدي الغرض، رغم دخانها الكثيف المدّمع.. ومرّ عامان.. بل عامان وعشرون يومًا.. سبعمائة وخمسون يومًا هي إذن! جاء بعدها ذلك الأسمر الممشوق.. كان الوقت عصرًا (لم نعد نبيت في الكرّم بعد دخول الإسرائيليين).. دخل من السباح ووجدته فوق رأسي فجأة:

- ها أنتِ تنفذين الوصية!!

- أية وصية؟

- وصية "أبو الكاس"..

- وهل تعرفه؟

- نحن تلاميذه وأبنائه ونحن ننفذ وصيته مثلك!

- وما هي وصيته لكم؟

- أن نقاوم!! ألا نستسلم!! وهذه وصية الكتري من قبله..

في أم "القرّيص" أقامت قوات الاحتلال مركز قيادتها! ربوة في شمال البلدة قريبة من الحدود كانت تلة "أم القرّيص" معسكرًا دائمًا للجيش! أقام الجيش البريطاني - كما روت أمي - عليها قيادته في المنطقة وعمل في هذا "الكمب" الكبير كثير من أهالي القرية خليل بصبوص ودوّاس وزاهي السّمري وأبو محمود كراّز والزعندي وآخرون وبعد الهجرة والانسحاب من الفالوجة، أقامت القوات المصرية عليها نقطة عسكرية متقدمة وحذت حذوها قوات جيش التحرير الفلسطيني بعد إنشائها أما قوات الاحتلال الإسرائيلي، فهي

هي تعود إلى بريطانيا وتقيم على الربوة مركزاً للقيادة.. سألت أمي ذات مرة:

- ليش سمّوها "أم القرّيص"؟

- هذه التلة أعلى مكان في القرية تربتها مالحة مليئة بالحجارة والحصى ولا تنبت فيها سوى نباتات القرّيص وبعض النباتات الشوكية الأخرى، لذلك سمّاها الناس "أم القرّيص"..

وأذكر أنها روت لي طرفة عن تلك الربوة - كان ذلك في لحظات مرحها النادرة- قالت: بعد الهجرة بثلاث أو أربع سنوات، أظنّها أربع سنوات، بعد ثورة مصر بشهور.. هطلت أمطار غزيرة، وتدفقت السيول في الوديان والشعاب والأخاديد كان الجنود المصريون ينصبون خيامهم فوق تلك الربوة.. وكانوا يقضون حاجتهم في خنادق خاصة بهذا الغرض.. خنادق مغطاة بألواح الزينكو.. تدفقت السيول إلى الخنادق وغمرتها بالمياه وشعر أحد الجنود برغبته في قضاء الحاجة! يبدو أن البرد قد أثر عليه وأن معدته قد "مشت!!" ذهب إلى الخلاء وقضى حاجته واستراح.. وأراد أن ينظف.. نظر حوله فلم يجد سوى نباتات القراص، تناولها وذهب بيده إلى المكان المطلوب.. وفجأة قفز ملسوعاً صارخاً: "يخرب بيتك يا فلسطين مش كفاية سماكي مخروقة وكمان عشبك مسموم"..

من مركز القيادة الإسرائيلية، تخرج الدورية المحمّولة ثلاث مرّات في اليوم.. المرّة الأولى في الساعة السابعة صباحاً.. والثانية في الساعة الواحدة ظهراً أما المرّة الثالثة فتكون في الساعة السابعة

مساءً.. وتطوف الدورية البلدة من خارجها! تبدأ من الشمال ثم تتجه إلى الغرب، ثم إلى الشرق، لتدخل الحدود القديمة، إلى المستعمرة.. لم تكن قوات الاحتلال تجرؤ على دخول البيارات والكروم!! وأما القرية نفسها فلا تدخلها الدورية إلا بعد سريان منع التجول، بعد العاشرة مساءً!!

وجاءني الأسمر الممشوق مرة أخرى.. وطلب جمع المعلومات الدقيقة! عدد ناقلات الجنود، والجيبات، عدد الجنود إذا أمكن! نوع السلاح والعتاد.. كل ما يتعلق بالدورية وعتادها وأفرادها وحالتهم النفسية كذلك! متى يشعر الجنود بالأمان؟ متى يسترخون ويعتقدون أنهم أصبحوا في مأمن؟..

وبدأت في رصد الدورية ومراقبتها كانت الدورية مكونة - غالباً - من ثلاث ناقلات للجنود يتقدمها جيب واحد وأحياناً اثنان من الجيبات العسكرية وكانت تسير ببطء! وراقبت الجنود وتمعت في السلاح والعتاد وخمنت أن عدد الجنود من عشرة إلى اثني عشر جندياً ووصفت الأسلحة..

- إذن سيكون الصيد ثميناً! لا بد من عملية نوعية، عملية في وضح النهار!!!

ذهب إلى القنطرة.. اطمأن على السلاح، ثم عاد وقال:

- غداً تحضرين القنابل من الأفضل أن تحضرها ليلاً.. لا بد من أخذ الحيلة والحذر..

في مساء اليوم التالي، أعددتُ لجميل حب الرمان زوجًا من الحمام ثم تهيأتُ له.. كان عليَّ أن أسترضيه، وأن أمهد لتلك المهمة الليلية السرية!!

منذ يومين كنتُ قد دسستُ القنابل في الحاكورة الملحقة ببيتنا.. هناك تحت "ركبة" التين الشوكي الغربية.. كان الأسمر الممشوق قد أحضرها، توقف أمام البيت، ثم وضع كيس الخيش -كان بائعًا جوالاً!! وضعتُ في يده بعض النقود، همس ببعض الكلمات، ثم مرّ سريعًا قبل أن يكتشفه أحد..

عندما دخل جميل حب الرمان، بعد سهرته عند خليل بصبوص وزوجته سماهر، استنشقتُ رائحة "الزغاليل"، ثم شهق من النشوة.. ضحكْتُ له وتدللتُ عليه! فتح عينيه غير مصدّق:

- معقول! أهذه أنت؟! ترتدين ثوبًا جميلًا!! حمام وثياب جميلة وكحل وعطر لا أصدق!.. ما الذي حدث في الدنيا?..

- ألسنت زوجي؟

- طبعًا! زوجك وحبيبك، لكن..

- لكن ماذا؟ جميل، لا تُفسد الليلة..

أسلمتُ نفسي لجميل في تلك الليلة، وأظهرتُ له مودة مفتعلة، وبعد آذان العشاء همد في الفراش وعلا شخيرته كأنه لم ينام منذ شهور.. اغتسلتُ ثم دخلتُ إلى الحاكورة بحذر، أخرجتُ كيس الخيش ثم أفرغتُ القنابل في السلّة ووضعتُ فوق القنابل ستة أرغفة من الطابون وعشر بيضات مسلوقة وكمية من حبات البندورة وصرة

صغيرة من الزيتون (وضعتُ فتائل القنابل وأذرع التفجير في صرة منفصلة - كما علّمني الأسمر الممشوق) وتقاشرت طائرة نحو الشرق، نحو العزيزة، كانت القرية ساكنة ولا توجد حركة للناس، إنه الاحتلال، ولا يتحرك في هذا الليل إلا مريض أو صاحب ضرورة.. سرتُ في الطريق المسيح وعندما هممتُ بالتحوّل إلى اليسار فوجئت بصوت الهدير والأضواء وتوقفتُ! إنها دورية! يا إلهي هذا ليس موعدها! وفكرتُ في دخول البيّارة! لكنني تماسكتُ "إذا أقدمتُ الآن على أية حركة سيطلقون النار! عليّ التوقف إذن مهما كانت النتيجة وصاح أحد الجنود:

- إنتَ وين بروخ؟
- أنا رايحة أودّي العشاء للبابا!
- إنتَ وين البابا بتاعك؟
- في البيّارة! هناك لم يأكل منذ الصباح.. جوعان، همّ!!..
- تعالَ قَرّب أشوف إيش معك؟
- "يا إلهي! هذه نهايتك يا عزيزة! ماذا لو قلب السلة وأفرغها على الأرض لماذا تنتفضين يا عزيزة؟ لا بد أن تتماسكي وإلا حدثت مصيبة! تماسكي يا بنت القبرصية"..
- وتقدّمتُ نحو الجندي:
- شوف! هه.. خبز وبيض وبندورة وزيتون.. تفضّل!

أضاء الكشاف وسلطه على السلة، ثم مدَّ يده - فانخلع قلبي! تناول بيضة مسلوقة وأعطاهما لزميله ثم تناول بيضة أخرى وأخذ معها رغيفًا من الخبز:

- إنت مش عارف ممنوع تجول في الليل!!

- ممنوع تجول على الساعة عشرة..

- إنت عارف ساعة كم هسّه؟

- لأ مش عارف ساعة كم هسّه!

- طيب امشي.. امشي بسرعة ياالله روح بلاش كلام كثير..

وجاء يوم جديد.. يوم مشرق بهيج.. بدأته بنشاط، جمعت الأغصان الجافة من أطراف الكرم ومن بيّارة الأفندي.. وطقت حول السياج متفقدة الثغرات والسدات، جلبت المياه من بئر الأفندي وسقيت شتلات الباذنجان والفلفل والبندورة.. كان جميل حب الرمان يجلس مع عوض الشاهد عند البركة، بجوار حديقة الأفندية وكنا يتهامسان! بعد آذان الظهر صعدت إلى شجرة التين الكبيرة موعد الدورية يقترب وحال وصولها عليّ أن أصدر الصّغير إيذانًا ببدء العملية! كانت أمي قد علّمتني طريقة خاصة للصّغير أضع أصابعي في فمي بطريقة معيّنة وأكور لساني، ثم أصدر ذلك الصّغير المميّز في العزيزة كلها. كنت أصدر الصّغير في حالات محددة.. حالات التحذير! أو النداء.. كنت أحذر الرعاة البدو وأمرهم أن يبتعدوا!! وكان هناك دائمًا من يُجيبني كان هناك من يعرف ما أعنيه بهذا الصّغير! الزّجر أو النداء، كانت سالمة البدوية تُجيبني بنفس الصّغير

ثم تهشّ أغنامها مبتعدة عن سياج الكرم.. قبل أن أتعلّم الصّفير من أمي كان عوض الشّاهد يُجيب أمي بصفير مشابه.. أمّا وقد تعلّمته أنا، فلم يكن يُجيبني سوى شخص واحد "إبراهيم"! كان يفعلها قبل دخوله الجامعة وبعد الجامعة عندما يقضي إجازته الصّيفية.. كان يجلس بجوار البركة في معظم الأحيان وعندما أصدر ذلك الصّفير يُجيبني ثم يحضر إلى الكرم.. ها هو الكرم خاليًا منه! وبيارة الأفندي لم تعد تُجيب صفيّري!! حتى سالمة البدوية لم تعد تُجيب! تزوجت، تركتُ العزيرة وذهبتُ مع زوجها إلى الجنوب! وجميل حب الرّمان لا يُجيد الصّفير وعوض الشّاهد لا يرد على صفيّري بعد أن فعل فعلته وزوجني كرمًا من جميل حب الرّمان! كنتُ أرى العزيرة منبسطة أمامي كانت شجرة التين الكبيرة تكشف معظم بيّارات المنطقة، خاصة ذلك الطريق المسيّج الطويل! ونظرتُ إلى القنطرة "لأبد أنهم جاهزون الآن" مسحتُ المنطقة بعينيّ وركّزتُ على آخر الطريق المسيّج وعندما ترنّمتُ بأغنية شعبية ظهرتُ الدورية.. جاءت الدورية في موعدها!! وها هي تقترب.. تقترب.. ها هي تصل الآن إلى العزيرة تُحاذي القنطرة تمامًا وها هم الجنود مسترخون متصاحكون! إنهم يقتربون من المستعمرة، من عرينهم الآمن! فلماذا لا يطمئنون؟! وأصدرتُ الصّفير ثلاث مرات "لأبد" من ثلاث مراتٍ للتأكيد" وانطلق النشامى في مجموعتين.. ثلاثة شباب لكل مجموعة من أمام الدورية ومن خلفها خرجوا من السياج فجأة وقذفوا القنابل واحدة اثنتان، ثلاث عشرة وأطلقوا صليات الرشاشات السريعة.. طافوا بناقلات

الجنود والجيبات وقذفوها بالقنابل وصلّيات الرصاص مشطوها ثم
انسلّوا في سرعة البرق إلى داخل الكرم!..
ونزلتُ عن شجرة التين.. وعندما وصلتُ إلى باب الكرم، دوتُ
سيّارات الإسعاف وحلّقتُ طائرتان مروحيّتان في المكان.. ثم هبطتا
على الأرض المنبسطة القريبة.. أرض عامر الفرتّجي التي "بورّها"
وتركها للبدو يرتعون فيها! وطوّق المكان , طوّقتُ العريضة! وافتحم
الجنود البيّارات والكروم لأوّل مرّة.. واعتقلوا كل من وجده في
طريقهم.. اعتقلوا عوض الشّاهد وجميل حب الرّمان وأربعة من
العمّال وثلاثة من البدو واثنين من الرّعاة الآخرين.. واعتقلوني!
وعندما دفعوني إلى داخل "الجيب" العسكري، همستُ: "الله يستر
الشّباب".

خالد الربيع

"انهضوا.. انهضوا.. انهضوا.. ضمدوا جراحكم وانهضوا.. تغلبوا على أوجاعكم وانهضوا.. اجعلوا من أرواح شهدائكم القناديل التي تضيء لكم الدرب.. لا تجعلوها قيوداً، سلاسل، تشدكم إلى جدران اليأس والثبور والعجز.. أنتم! يا أحفاد بناء الحضارات.. يا أحفاد الفاتحين الذين نشروا النور والعلم والعدل، انهضوا.. كان أجدادكم دائماً يتغلبون على الهزائم. كانوا دائماً ينهضون من عثراتهم.. كانوا دائماً يهزمون الغزاة.. كانوا دائماً يواصلون الدرب، ويصلون.. انهضوا.. انهضوا.. انهضوا.. دوت قاعة مسرح كلية الآداب بالتصفيق ووقف المشاهدون لتحية أعضاء فرقة المسرح الجامعي.. كانت المسرحية من تأليف الدكتور فاضل عزت، أستاذ الأدب العربي.. راقبت إبراهيم الشاهد وهو يصعد إلى المسرح لتهنئة الدكتور فاضل وزملائه.. ولاحظت أنه يغالب دموعه.. وكان الدكتور فاضل متوتراً من شدة التأثر.. كان يمسح دموعه من تحت نظارته.. ونظرت حولي فإذا كثير من المشاهدين يفعل الشيء نفسه.. كان

بعض أولياء الأمور يمسح الدموع ويمسح النظارات أيضاً.. كان المقطع المسرحي مؤثراً.. شعر كل فرد أنه المقصود وأن الدعوة إلى النهوض ومواصلة درب موجّهة إليه.. وشعرتُ أن شيئاً جديداً يحدث، شيئاً ما ينمو في رحم الزمن، رغم الملامح المحبطة والسخرية المريرة والنكات الموجهة!

كانت حرب الاستنزاف قد بدأت منذ عام.. وجرّت عمليات جريئة داخل العمق في سيناء، وتم تهجير ثلاث مدن.. السويس والإسماعيلية وبورسعيد.. المدن الواقعة على قناة السويس.. وكانت الأخبار تتسرب عن محاولاتٍ حثيثة لبناء قواعد الصواريخ من جديد.. "جلبوا نوعاً جديداً من الأسمنت، والسوفييت يحاولون ابتكار طريقة لبناء المنصّات ليلاً، قبل أن تتمكن إسرائيل من تدميرها.. حياً أعضاء فرقة المسرح الجامعي الجمهور، ثم انسحبوا وسط التصفيق.. طلب عريف الحفل الهدوء من الجمهور.. ثم بدأ في قراءة الأشعار الوطنية.. قرأ أشعاراً للأبنودي وصلاح جاهين وأحمد فؤاد نجم، ثم أعلن عن الفقرة التالية.. دخلتُ فرقة الجامعة للرقص الشعبي، فنهضتُ وتوجّهتُ إلى غرفة الملابس.. تقابلتُ مع إبراهيم الشّاهد وسميرة صالح وأمنة سرور وهدى سالم وثلاثة شبّان فلسطينيين آخرين.. كانوا من كلياتٍ مختلفة بل كان أحدهم من طلبة جامعة القاهرة تبادلنا كلمات مقتضبة - كنا واقعين تحت تأثير المشهد المسرحي - ثم شرعنا في تبديل ملابسنا.. ارتدى الشباب القمباز المقلمّ والسروال الغامق والحزام الجلدي العريض ثم لففنا

رؤوسنا بالكوفيات المرقطة أما الصبايا، سميرة صالح وآمنة سرور
وهدى سالم فذهبن إلى جناح ملحق، ليَعْدُنْ بعد قليل بثيابهن
الفلسطينية المطرزة الجميلة.. وأمانا وضعن حول رقابهن الكوفية
المرقطة نفسها.. أمسكتُ سميرة صالح منديلها الأبيض من طرفيه،
جدلته ثم اقتربتُ من إبراهيم الشاهد:

- اليوم يومك يا برهوم

نظر إليها، كان يسمعها تدلله لأول مرة، تأملها للحظات ثم قال في
صوت جاد:

- اسمعي! خليكي ع الإشارة، ظريف الطول ودلعونا والشّمالية
والطيّارة مترديش على حدا (ووجه حديثه إلى الشاب الأسمر الذي
يمسك بالشّبابية) بدّي القاعة تولّع، اليوم يومنا يا شباب والناس
نفسها مفتوحة..

وبدأنا بضرب أقدامنا على الأرض.. ثم تشابكتُ أيدينا استعداداً لدخول
المسرح.. قابلنا الجمهور الحاشد بالتصفيق.. وحنَّ الشاب الأسمر
على الشّبابية فأخرج من حنجرتي، بل من صدري، غناءً، حنيئاً،
حُبس لفترةٍ طويلة:

على دلّعونا على دلّعونا	هوا الشمالي غير اللّونا
هوا الشمالي غيرلي حالي	وينه حبيبي اسمر اللّونا
ويلي عليهم ويلي عليهم	طالت الغربة واشتقتنا ليهم
يارب السما ترضى عليهم	هادول أحبابي كانوا يعزّونا

ودبكنّا حتى هدرت القاعة بالهتاف "فلسطين عربية".. وفجأة خرجت من وسط الحشد الهادر.. خرجت مرتدية ثوباً فلسطينياً مطرّراً! وكانت تضع حول رقبتها كوفيّة مرقطة! صعدت إلى المسرح بخطواتٍ ثابتة.. اندست بيني وبين هدى سالم، شبكت يدها في يدي وابتسمت.. كانت كوثر العرابي بجسمها الممشوق ووجها المشرق الجميل وعينيها الحوراويتين الفتاكيتين! قفزت، تطايرت من النشوة! إنها هنا! بجانبى! معى! تدبك معى! أعطيت الإشارة لإبراهيم فدخل حلقة الدبكة ودخلت معه سميرة صالح، وخرجت أنا وخرجت معى كوثر ودبكنّا متقابلين وكانت عيناها تزودانى بطاقة عجيبة شحنة لانهاية من النشوة.. من الجنون، وشعرت أنى أحلق في السماء.. عزلت نفسى عن الآخرين وأظنها فعلت ذلك! ورقصت لعينيها، لحبنا، للوطن، للمخيم، ولكل من أفقدهم..

وعندما انتهت وصلة الدبكة، تساءلت: متى تعلمت كوثر هذه الرقصة العذبة؟ متى تعلمت هذه المصرية الفاتنة الدبكة الفلسطينية؟ أذكر أنها تعلمت منى بعض الحركات، مبادئ أولية، لكنها اليوم ترقص وتدبك مثلهن مثل سميرة صالح وأمنة سرور وهدى سالم، مثل الفلسطينيات! لابد أنها سميرة، صديقتها سميرة صالح لاحظت أنها تبتسم لها، تغمز لها بعينها وتبتسم! إذن هي أنت يا سميرة! أنت من علم كوثر رقصة الحياة! هذه رقصة أفديها بدمى، أفديها بعمرى كله.. سأموت من أجلك أيتها الحوراء الشهية! ها أنت اليوم تبعثيننى من جديد! تعودين بعد أن تركتني لعذابى عاماً كاملاً..

كانت كوثر قد بعثت رسالتها الواعدة منذ أسبوع! أرسلتها مع سميرة صالح.. كتبتها باللغة الإنجليزية! لماذا تكتب هذه المرة باللغة الإنجليزية؟ كيف تهرب من لغتنا الجميلة؟ لغتنا التي تعبر عن اللوعة والشوق والحنين بأكثر من مرادف؟ هل تخشى أن تتغلب عليها أحزائها، فتخرج عباراتها يائسة محبطة؟ أم أنها تخشاه؟ والدها، صادق العرابي؟! تخشى أن يكتشفها الحاج صادق العرابي الذي تحبه أيضاً! هذا الرجل يحيرني! هذا الرجل الشهم الودود، الرجل الذي يُشعرك أنك في منزلة ابنه، أنك بين أهلك، أنك في بيتك.. هذا الرجل الذي يبادر في كل محنة ويغمرك برعايته وكرمه، مثل أب حنون!! صادق العرابي هذا، لم يقبلني زوجاً لابنته! تقدمتُ وطلبتُ يدها، يد كوثر، لكنه رفض! رفض وطلب عدم الحديث في الموضوع مرة أخرى! وأمرها أن تبتعد عني! هدّدها بحبسها في البيت وحرمانها من الجامعة! وابتعدتُ كوثر! وعذبتني عاماً كاملاً! ويقترّب مني إسماعيل العرابي، وفي أدب جم يطلب مني أن أبتعد عن شقيقته!! أن أتركها في حالها! أن أنساها! إسماعيل العرابي الذي يعرف، أكثر من غيره، تعلقي الشديد بها ويعرف أنها تحبني، إسماعيل هذا، يطلب مني أن أبتعد عن كوثر! أن أنساها! آه يا كوثر الحياة، كوثر العمر! هل تذهب خمس سنوات من الحب هباء؟ هل أنسى أجمل سنوات عمري، هل أفرط فيها بهذه السهولة؟ خمس سنوات عزفنا خلالها لحناً ملائكياً صافياً، لحناً لم تتخلله نغمة نشاز واحدة.. ها هي مدرجات الجامعة، فصولها، الكافتيريا، الحديقة،

الشوارع، الحافلات، النزهات المرحية البريئة، كلها، شاهدة على حبا الطاهر العفيف! لماذا القسوة إذن؟ لماذا يحرمني صادق العربي وابنه من حياتي؟ نعم كوثر هي حياتي! كتبت كوثر في رسالتها "حبيبي خالد هل تظن أنني نسيته لحظة واحدة؟ إذن تكون شخصاً آخر غير خالد الذي أعرفه! كيف أنساك وحبك في دمي! في شراييني يمد قلبي بالنبض يمدني بالحياة! لا معنى لحياتي بدونك أظنك تفهم معنى هذا! أنا متأكدة أنك تعرف مدى تعلقي بك! عشقي لك هل تكفي هذه الكلمات للتعبير عن علاقتنا؟ أظنها قاصرة عن ذلك، إنها لا تمدني بالروحانية بالسحر بالقداسة التي أريدها! هل أقول بكلمات تقليدية أنك أنا وأنا أنت؟ هل اقتربت من المعنى المناسب؟ لا أدري! لكننا في ورطة يا خالد أنا حائرة ، واقعة بين سيفين! بين نارين! نار حبك! ونار حبي لأبي! أبي المريض، أبي الذي لم يحرمني من شيء في يوم من الأيام.. أثرت أن أطيعه وأن أبتعد عنك حتى لا أكون سبباً في تدهور صحته! أعرف أنني أفسو عليك، وأفسو على نفسي.. قدرنا أن نقبل هذه الحالة إلى حين، علينا أن ننحني لهذه العاصفة الشديدة وأعدك ألا أنساك لحظة أعدك أن أرفض كل رجال الدنيا من أجلك وأعدك أن أكون لك مهما حدث وأينما تكون!! تذكر سأكون لك أينما تكون، فقط عليك أن تنتظرني أن ترتدي أجمل ثيابك وتكون في استقبالي أيها الوسيم المهيّب!!

ولك مني مفاجأة قريباً (ك. ع)

إذن! كانت الدبّكة هي المفاجأة التي وعدت بها كوثر! كانت رقصة الحياة هي المفاجأة! أعترف أنها لم تخطر ببالي! وأعترف أنها كانت أطرف وأعذب مفاجآت حياتي..

بعد أسبوع من حفل التخرج البهيج، جاءت سميرة صالح حاملة في يدها مجموعة من البطاقات، وعندما دخلت همس إبراهيم:
- جاءت سميرة تونج، هذه دعوات من السفارة الصينية..
وضعت البطاقات على الطاولة ثم قالت:

- هل تذهبون إلى عرس الزعيم ماو العظيم؟! إنهم يحتفلون غدًا
بوحدة من بطولاته التي لا تحصى..

كانت سميرة فتاة غير عادية، متمردة، تلبس الجينز، وتترك شعرها منثورًا، تقفز في الشوارع وتدخل وسط السيارات وتنط في الحافلات، وكانت تدخن أحيانًا.. كانت دائمة الابتسام، مرحة، تداعب الشباب، وتشاكسهم وتخطف أشياءهم.. طالبة في قسم الاجتماع، جاءت من مخيم الوحدات في عمان.. أحد تجمعات البؤس والجوع والثورة.. استشهد والدها في حرب ١٩٦٧، كان جنديًا في الجيش الأردني واستشهد في القدس.. استشهد دفاعًا عن جبل المكبر، الجبل الذي يبعد عن قريته عشرة كيلومترات فقط.. بعده، تولت جدتها رعايتها.. تزوجت أمها من رجل آخر وتركها.. كانت سميرة صالح كتلة من النشاط والتفاؤل رغم ظروف نشأتها وحياتها!.. وكانت عاشقة لماوتسي تونج! مؤمنة بأفكاره وعاشقة لتجربته إلى درجة الوله!! كنا نسميها نداعبها "سميرة تونج" ذهبنا بصحبته عدة مرات إلى

السفارة الصينية إلى أصدقائها تعرّفنا عليهم وأصبحوا أصدقاءنا.. كانوا يدعوننا في كل مناسباتهم، وكنا ندعوهم أحياناً إلى شقتنا في العباسية وعندما نتناول وجبة الغداء معاً كنا نضحك.. كنا نفاجأ من كمية الطعام القليلة التي يكتفون بها وعندما نلح عليهم كان أحدهم - المستشار الثقافي - يقول بعربيته الفصحى الصينية "شبتت كثيراً.. شبعنا كثيراً هذا كثير طعام.. هذا أسبوع بعد أكل.. أسبوع طعام بعد" ونضحك ويضحكون اعتذرنا هذه المرة عن تلبية دعوة الأصدقاء.. كانت الأجواء مشحونة، متوترة.. قبلَ عبد الناصر مشروع روجرز، وخرجت في عمّان مظاهرات وهدفتُ ضده وضد المشروع، وقام بعضهم بسلوكيات طفولية كانت فيها إهانات جارحة. غضب عبد الناصر فغضبتُ علينا أجهزة الأمن والمخابرات!! شددت علينا كانوا يراقبوننا ويرصدون حركاتنا وطردَ إبراهيم الشّاهد من المدرسة الخاصة التي عمل فيها بعد تخرّجه.. اعتذر له ناظر المدرسة وطلب منه عدم العودة حرصاً على سلامته.. مسكين إبراهيم! كان لديه عرض للعمل في ليبيا في مجال التدريس لكنه رفض الذهاب إلى ليبيا وعمل في مدرسة خاصة وانتظر تخرجي لنقرر معاً ونتفق على بلد واحد نذهب إليه.. في اليوم التالي جاء عصام الفايز جاء بلباسه العسكري مغبراً حاملاً حقيبة صغيرة جاء من منطقة "فايد" قرب الإسماعيلية.. بعد هزيمة ١٩٦٧ تجمّعت قوات جيش التحرير الفلسطيني في العامرية - قرب الإسكندرية ثم أرسلت بعد ذلك إلى الجبهة مثل القوات الكويتية والليبية.. اغتسل عصام وبدّل ملابسه ثم

جلس على الأريكة.. تناول طعامه ثم أخرج علبة سجائره وقَدَّاحة فضية على شكل سفينة.. نظر إبراهيم إلى القَدَّاحة، تناولها، تمعَّن فيها، عندها، قال عصام:

- هذه القَدَّاحة هدية.. هدية من شخص عزيز..

وتذكَّرتُ القَدَّاحة رأيتها مع إبراهيم قبل أن نفلح عن التدخين لقد أشعلتُ سيجارتي منها أكثر من مرَّة.. ارتبك إبراهيم، كتم غيظه ثم نهض وتوجَّه إلى الشرفة.. لحقتُ به فوجدته ممتنع الوجه:

- قَدَّاحتك!

- نعم! أهدتها له ال.. ألحَّت لأترك لها ذكرى وعندما أقلعنا عن التدخين تركتُ لها القَدَّاحة وها هي تعطيها له..

- ما معنى هذا؟

- معناه أنها..! تدكُّر زيارة المعلم حسنين منذ شهر؟

- أدكُّرها وأدكُّر أنه..

- طردها وقال يومها: مش كل الناس بتحافظ على العيش والملح زيكم.. فيه ناس من جماعتكم خاتوا العيش والملح.. ناس كانوا بيطلعوا وينزلوا عليكم.. والله والله لولا معزَّتكم وسيرتكم اللي زي البفتة البيضاء لخلت الرجالة بتوعي يودوه ورا الشمس وأنتو عارفين أنا بقدر أعمل أيه!

وعندما سأئلناه عن الشخص الذي خان العيش والملح قال: بلاش بلاش خلي الطابق مستور خلاص الموضوع انتهى وكل حيّ راح لحاله..

وتعكّرت الأجواء من جديد، تسارعت الأحداث وأربكت الجميع..
توترت العلاقات بين النظام الأردني والثورة.. خُطفت الطائرات
وتحرّش الجيش الأردني بقوات الثورة.. وبدأت تهديدات الملك
ففجّرت الطائرات على الأرض الأردنية نفسها وبدأ الحشد للمواجهة!!
تعلّلت أصوات التعقل والخوف من الكارثة وكان عبد الناصر أكثرهم
وعياً بخطورة ما يحدث.. وفي غمرة هذا التوتر تمّ اعتقال العديد من
الطلبة الفلسطينيين.. في القاهرة والإسكندرية وأسيوط.. واختفينا
عن الأنظار.. ذهبنا إلى بني سويف - جنوب القاهرة وأول الصعيد..
ذهبنا إلى بيت أحد الأصدقاء المدرسين.. وذهبت سميرة صالح إلى
الشرقية، إلى كوثر العرابي.. ومن بيت الصديق الفلسطيني تابعنا
دماعنا المهدورة، تابعنا مجازر أيلول (سبتمبر) بقلوبنا النازفة تابعنا
لجان المصالحة برئاسة النميري ثم الاستعدادات لمؤتمر القمة.
وفجأة، وصل ياسر عرفات إلى القاهرة! ثم وصل بعده الملك! وعُقد
مؤتمر القمة وتمكّن عبد الناصر، أخيراً، وبعد جهدٍ كبير، من فرض
اتفاق!.. ثم مات عبد الناصر.. فعدنا إلى القاهرة!

في الشرفة، جلس إبراهيم الشّاهد مسكوناً بحزن عميق.. حزن لا
تعبر عنه أعظم لوحة سوداوية.. شعرتُ به! لكنني لم أستطع
مواساته!! كيف أواسيه وأنا حزين مثله؟ كان إبراهيم عاشقاً كبيراً
لعبد الناصر، رغم أنه دأب في السنتين الأخيرتين على نقده!! كان
يوجه النقد إلى علاقته ببعض من منحهم الثقة وإلى بعض خطواته
الاقتصادية والعسكرية (المتعجلة) كان يصل أحياناً إلى درجة التهكم

وردد بعض العبارات الجارحة! لكنه اليوم يبكي بمرارة! يبكي مثل طفل صغير! طفل فقد أباه فجأة، كلنا فقدناه فجأة! لم يستأذن في الرحيل! لم يودعنا كان منهكاً وذهب في غفوة طويلة! تركنا ونحن في أمس الحاجة إليه!.. بعد أسبوع من وفاة عبد الناصر عاد إبراهيم حاملاً صورته.. كانت صورة الزعيم موشحة بالسواد.. وكان عليها توقيع الفنان الفلسطيني إسماعيل شموط.. وفي حركات تشبه الطقوس، علّق الصورة، ثم تأملها وأطال ثم نطق بصوت ضعيف:

- علينا أن نفكر في مستقبلنا.. ما رأيك في ليبيا؟
- لكن العام الدراسي هناك قد بدأ.. ولا أظن أنك ستجد فرصة في التعليم الآن!!
- قد أجد فرصة في مجال آخر - الصحافة مثلاً.. سأعرض بعض المقالات والقصص التي نشرتها..
- إذن هي فرصتك! اذهب أنت، أما أنا فسأنتظر ردود أقاربي في الخليج.. فرصة المهندسين هناك أفضل..

- أنت لن تذهب إلى الخليج! إنك تفكر في مكان آخر!
وحملتُ فيه، لكنني هربتُ من عينيه اللواتقتين!! إذن، عرف إبراهيم أنني لا أنتظر ردوداً من أقاربي! عرف أنني أكذب عليه وأخفي نواياي الحقيقية! أريده أن يسافر لأطمئن عليه فقط! وهو الذي انتظرني وضحي من أجلي! إذن عرف إبراهيم أنني انضمتُ إلى الجبهة وأنوي السفر إلى لبنان..

لكنهم جرونا معاً!! زوار الفجر! جاعوا بعد أن نسيناهم! انشغلوا عنا لبضع شهور، ثم جاعوا، جاعوا بعد خروج الثورة إلى جرش! إلى مصيدة جرش وعجلون!! جاعوا قبل أن يحزب إبراهيم أمره! قبل أن أطمئن عليه وأوصله إلى الحافلة المتجهة إلى طرابلس الغرب بنفسى.. جاعوا في صقيع كانون (يناير) القارص.. كان ذلك بعد وفاة عبد الناصر بشهور في منتصف كانون (يناير) ١٩٧١ أذكر أن إبراهيم قال قبلها بثلاثة أيام "ذكرى ميلاد الزعيم ستكون بعد خمسة أيام".. كنت قد أسكتُ ديوان المتنبي وكان إبراهيم "يُبَيِّضُ" خاطرة كتبها بعد رحيل الزعيم.. طلب أن أستمع إلى ما كتبه فوضعتُ الديوان على السرير وأنصتُ:

كيف لي أن أصف القاهرة في الأيام الأخيرة من شهر أيلول (سبتمبر) ١٩٧٠؟ هل تسعفني الكلمات؟ هل تعينني مفردات اللغة وعباراتها؟ هل تعينني لأصف الشوارع وأسطح البنايات والشرفات والحدائق والساحات والحافلات والقطارات، المكتظة بالبشر والأحزان؟ هل تسعفني لأصف الوجوه والملامح والدموع والتهديدات والحشرجات؟ كيف أصف الساعات التي حُمِل خلالها الجثمان الطاهر منطلقاً من مسجد عمر مكرم على عربة عسكرية مخترقاً بصعوبة طوفان الجماهير؟ هل تعينني اللغة في وصف بكاء الرجال ونحيبهم، الذي اختلط بعيول النساء وصراخهن؟ هل تعينني في وصف العجائز وكبار السن المتعثرين المتساقطين المصيرين على تأدية طقوس الوداع الأخير؟ هل أستطيع وصف أصوات المذيعين وحشرجاتهم ونحيبهم وهم

يتابعون الحدث العظيم، وينقلوه عبر الأثير وشاشات التلفاز، ليوجعوا الدنيا كلها؟ هل أستطيع وصف هذا كله يمر من أمامي، في طريقه إلى منشية البكري، حيث مثوى الزعيم الأخير؟.. لا! لا أظن أن الكلمات ستسعفني!! ها هي عاجزة عن وصف هذه الحالة المتفردة! حالة الوجد الممزوج بالحزن والشعور بفقدان الدليل والأب! لن تُجدي بلاغة اللغة وصورها فهذه حالة خاصة، خاصة جدًا، لا توصف بالكلمات ولا ترسم بالألوان.

وارتجَّ باب الشقة فظننتُ أنها الريح، لكن الخبط ازداد.. نظرتُ في ساعة الحائط بجوار الصورة فوجدتها تُشير إلى الثالثة صباحًا.. كنتُ متدثرًا ببطانية ولحاف قطنيّ وكان إبراهيم جالسًا على الطاولة وقد ارتدى معطفًا ثقيلًا ولفَّ رأسه ورقبته بكوفية، خرجنا معًا لنفتح الباب فوجدناهم أمانًا.. ثلاثة من ذوي المعاطف المميزة.. رجال المخابرات!! دفع أحدهم الباب ودخلوا.. وتفرَّق اثنان لنبش الشقة.. توقف الضابط عند سريري تناول ديوان المتنبي وعندما تصقحه سقط شيء منه فتناوله:

- أيه دي؟

اقتربتُ منه أتفحص ما في يده، لكن إبراهيم أجابه بسرعة:

- هذه هويّة، بطاقة.. إنها هدية من أحد الفدائيين.. جماعة مصطفى حافظ هل تعرفه؟

- آه.. هدية.. مصطفى حافظ مين؟! جنسيته أيه يعني؟ وأيّه دي كمان؟

- خاطرة كتبثها وأعدّها للنشر..
- وبتكتب خواطر يا أستاذ إبراهيم!
- وتوجّه نحوي:
- وأنت يا أستاذ خالد بتكتب ايه بقى.. شعر؟!..
- ايه الحكاية يا حضرة الضابط؟
- بعدين.. بعدين حتعرفوا..
- اقترب الاثنان المكلفان بنبش الشقة وفحصها، ضربا أقدامهما على الأرض، وقدم أحدهما مجموعة من الأوراق التي وجدها:
- تمام يا أفندم.. لقينا المنشورات والمجلات دي..
- وجرونا إلى المعتقل..
- وبعد عشرة أيام قاسية مهينة توسطت لنا منظمة التحرير فقذفونا في جنح الظلام إلى جوف الطائرة، ثم فكوا قيودنا.. وعند الفجر اخترقنا السحب الكثيفة وشرعت الطائرة في الهبوط فجاءت دمشق رويداً رويداً..

(٤)

عصام الفايز

كان إبراهيم الشّاهد ينتصر دائماً! كان يتفوّق عليّ، رغم أنه يصغرنى بعامين.. منذ أن تعرّفت عليه وأنا أشعر أنه الأفضل، وكنت دائماً أحاول أن أثبت العكس! عندما كنا نكتري الدراجات ونذهب في جولة "رابطة الجوالين الصغار"، كنت دائماً أحاول أن أتفوّق عليه وأثبت له أنني الأفضل والأقوى كنت أقطع الطريق بدرّاجتي، وأعاكسه حتى أسقطه وأقلب الدراجة به.. كان ينفض ملابسه ثم ينهض لينطلق بالدراجة ويلحق بنا.. وفي نهاية الجولة كان يحضر لنا الفواكه واللبن والماء البارد، يبتسم ويقول:

- أنت تشرب أول واحد لأنك استطعت أن تقلبني بالدراجة!!

كان إبراهيم الشّاهد ينتصر بابتسامته!!

وعندما احتجت إلى العمل، هو الذي دبره لي، هناك في بيّارة الأفندي التي يعمل فيها والده.. وعندما رأيت سوزان الأفندي وحملت بها، كان إبراهيم هو الذي يقربني منها ويمكنني من التمتع برويتها!!..

عندما أنهينا الثانوية العامة دخل ثلاثتهم الجامعة وتخلقت أنا عنهم!!
كان الفقر واليتم قد أخراني سنتين عن الدراسة وأنهيت الثانوية
العامة مع من يصغرني ومن هم أقصر مني! قبل إبراهيم الشّاهد في
كلية الآداب وتعهّد والده بتوفير المصاريف.. وقبل خالد الربيع في
كلية الهندسة ووهبته وكالة الغوث منحة تقديرًا لتفوقه.. وقبل عبد
الله الشريف في كلية العلوم وتكفل خاله الموظف في الخليج بنفقات
دراسته.. وبقيت أنا! أنا الفقير، اليتيم الذي توفي والده بالذبحه
الصدرية.. أهلكه "دخان الهيشة" الذي كان يتعاطاه فمات بعد أن
بصق قطرات الدم من فمه.. وواصلت أُمي بيع الحليب من بعده..
كانت تدب في أزقة المخيم، مع آذان الفجر، تحمل "قسطل" الحليب
على رأسها وتنادي "الحليب الطازة.. الحليب العسل.. الحليب
البلدي".. وطفّت معها الأزقة والبيوت القرميدية! كانت أُمي تعرف
زبائننا من الموظفين الذين لا يحبون حليب الوكالة الأصفر.. وفي
البرد القارص كنت أنادي معها على الحليب واحمل "القسطل" على
كتفي.. وكان إبراهيم هائنًا هناك، مرتاحًا في قريته العامرة
بالخيرات!! الفواكه والخضروات وخبز الطابون و.. الحليب! كان
إبراهيم يشرب الحليب البلدي ولا يبيعه.. وكنت أنا أبيع الحليب ولا
أشربه!! كنت "أسري" مع آذان الفجر لأبيعه وأدّخر القروش القليلة
لأعطي مصاريف المدرسة.. كيف لي إذن أن ألتحق بالجامعة؟! لا
عوض الشّاهد أبي.. ولا خال في الخليج يتكفل بمصاريفي وتعليمي!!
ولا أنا تفوقت فتمنحني الوكالة هبة دراسية! لم يكن أمامي سوى

الالتحاق بالكلية الحربية.. حباني الله بطول فارغ وبنيان قوي وفي نادي المخيم اختارني أحد المدربين وشجعني على الالتحاق بفريق كمال الأجسام.. واستطعت بصعوبة أن أخطف من اليوم ساعة، لأتدرب فيها وأقوى هذه الهبة الجسمانية التي منحني الله إياها.. قالت أُمِّي ذات مرة "أنت طالع لخالك.. هذا الجسم كان جسمه".. لكن خالي كان قد غرق في الشراب ولعب القمار ولم يعد يدرى بالدنيا ولا بأسرته وأولاده.. أصبح هزيلًا محنًا لا يقوى على حمل كرسي صغير في المقهى، بعد أن كان أحد لاعبي حمل الأثقال في المخيم، بل كان أشهرهم على الإطلاق..

كان إبراهيم الشاهد يتفوق دائمًا، لكنني شعرت بالتوازن والثقة، عندما دخلت الكلية الحربية.. "إذا كانوا قد دخلوا الجامعة فسأخرج أنا ضابطًا محترمًا.. لن يكونوا أكثر من موظفين أو مدرسين يجيدون الثرثرة والكلام المنمق".. وتعمدت في زيارتي لهم أن أرثي الزي العسكري، زي الكلية الحربية.. في القاهرة، كنت أذهب إلى إبراهيم الشَّاهد وخالد الربيع في الجامعة مرتديًا ذلك الزي الذي يشعُرني بقيمتي ويعوضني عن حرمانِي من الجامعة! كانت النظرات وهمسات الإعجاب والابتسامات تدغدغ غروري وتشعُرني بأهميتي.. كنت أنتشي عندما أكون محل اهتمام الفتيات.. كنت دائمًا أحب أن تهتم بي الفتيات والنساء، أنا المحروم منهن ومن الجامعة! حتى في الإسكندرية، عندما كنت أذهب لزيارة عبد الله الشريف، قريبي، كنت أتجول معه في الجامعة بالزي العسكري.. كنت أريد أن يشعر الجميع

بأهميتي ومكانتي!! لكن إبراهيم الشاهد لم يكن يحب ذلك الزي.. كان دائماً يقول:

- هذا الزي للمعسكرات والثكنات العسكرية.. لماذا تصر على ارتدائه في كل مكان؟!

كنت أشعر أنه يغار مني ويحسدني على هذه النعمة التي جعلتني محل اهتمام الآخرين..

وتخرجت من الكلية الحربية فجأة، أعلنت حالة الطوارئ، فعدت إلى غزة والتحقت بجيش التحرير الفلسطيني.. ثم قامت الحرب وحدثت النكسة.. أو "الهزيمة" كما يصير إبراهيم الشاهد على تسميتها!!.. دوّخني إبراهيم الشاهد وهو يتحدث عن الهزيمة وآثارها وأبعادها.. وعقدني عندما علّق صورة "الزعيم المهزوم" ثم شرع في الثثرة و"التحليل" مع خالد الربيع.. لا يحلو لهما سوى الحديث عن "الأبعاد الفكرية والسياسية والاجتماعية للهزيمة وأثرها على بنية المجتمع العربي!!.. لكنهم لم "يحلّوا" أثر الهزيمة على المقاتل نفسه.. اكتشفت أن إبراهيم الشاهد - ومعه خالد الربيع وعبد الله الشريف - لا يعرفون معنى الهزيمة الحقيقي!!.. أنا الذي يعرف مذاق الهزيمة الحقيقي.. وقع الهزيمة على المقاتل في خط النار.. أنا الذي يعرف معنى أن يتركك "الأشقاء" فريسة لطيران العدو ودباباته ومدافعه!! أنا الذي يعرف شعور الجندي الذي ترك وحيداً، يواجه الموت في شريط صغير من الأرض، الساقطة من الناحية العسكرية.. أنا الذي يعرف معنى أن يصمد المقاتل ويصد الدبابات ثلاث مرات بجسمه وسلاحه

الضعيف في "تلة المنطار".. وأنا الذي يعرف شعوره وقد نفدت ذخيرته وهلك عتاده وهو يرى الدبابات تهدر فوقه، تدوس بجنازيها أحبابه وزملاءه و"تخلطهم" مع تراب الخنادق.. أنا الذي يعرف معنى الهزيمة عند المقاتل، معنى أن يقصف موقعه الصغير غير المحصّن بأربعة من مصادر النيران، كلها تدكّه وتجتث من أمامه رفاقه وتحولهم إلى قطع مبتورة هامدة.. المدافع والبوارج الحربية والدبابات والطائرات من السماء والأرض والبحر، يأتي الموت والدمار طاعياً على "صوت العرب" الذي ظل يجأر معلناً النصر الوشيك من مذياع فتحه المقاتلون ثم ماتوا!! أنا الذي يعرف معنى الهزيمة ومعنى أن تشتعل الدنيا وتتحول إلى جهنم في تلك المواقع الصغيرة، في غزة، في الشريط الذي لا يزيد عرضه على عشرة كيلو مترات!! أنا الذي يعرف حجم الدمار بعد أن تسقط تلك المواقع المشاكسة الصغيرة طائرة إسرائيلية مقاتلة، تسقطها في بحر غزة ليبتلعها، وتأسر قائدها وترسله في سرعة البرق بزورق بحري إلى تليفزيون "الزعيم المهزوم"!! وأنا الذي يعرف كيف ينهار المقاتلون!! كيف يسيطر عليهم العجز واليأس، فيلوذون بالغابات والبيّارات والوديان، بحثاً عن بقية من حياة، بقية من أمل!! يلوذون حاملين هزيمتهم معهم.. لم يعرف إبراهيم الشّاهد هذا المعنى للهزيمة! ولا أظن أن خالد الربيع يعرفه ولا حتى عبد الله الشريف، قريبي الطيب، يعرفه.. لا أظن أنهم يعرفون شيئاً عن معنى الهزيمة بالنسبة للمقاتل في دائرة الموت!! لأنهم ببساطة لم يعرفوا الموت! لم يتذوقوه! ولم

يشاهد أي منهم الدبابات وهي تفرم أعز الناس، أعز المقاتلين أمام عينيه وهو جريح عاجز لا يستطيع أن ينقذه أو حتى يوارى أطرافه التراب!! لا أظن أنهم سيعرفون هذا المعنى للهزيمة، رغم أنهم يحاولون التعبير عنه والإحساس به!!..

كنت هارباً في إحدى البيّارات، لائذاً بهزيمتي، أنتظر موعداً لإقلاع الزورق البحري إلى مدينة بورسعيد.. كنت في انتظار من يأتي بالموعد الدقيق.. كان ذلك بعد شهر من الهزيمة - من الانكسار.. وفجأة ظهرت عزيزة الخيال في طريقي.. وجدتها بجوار بيّارة الأفندي.. كنت مثقلاً بهزيمتي وانكساري، وكانت شهية فائرة.. ووحيدة.. كنت أعرف أن إبراهيم الشاهد يحبها.. لكن، أين إبراهيم الشاهد الآن؟! لا يوجد هنا غير الهزيمة واليأس والشهوة المكبوتة.. لماذا لا أحاول الانتصار الآن؟! لماذا لا أنتصر على إبراهيم الشاهد ولو مرة واحدة! لماذا لا أمسح هزيمتي وأدراني في عزيزة الخيال؟! خطفت منها قبلة وهممت أن أعصر نهديتها وأقطف ثمارها الشهية.. لكنها صدتني! لم تكن عزيزة مهزومة مثلي! ذكرتني بإبراهيم الشاهد (صديقي) وانسحبت بهدوء! هزمتني عزيزة الخيال، هزمتني عزيزة إبراهيم الشاهد وهزمتني إبراهيم مرة أخرى!..

بعد وصولي إلى مصر، في الإسكندرية عدت إلى البزة العسكرية.. عدت إلى تعلقي بها بعد أن أضيفت نجمة ثانية إلى كتفي!! أذكر أن إبراهيم الشاهد جاء مع خالد الربيع إلى الإسكندرية، كان ذلك في شهر أغسطس، بعد النكسة بشهرين.. التقينا نحن الأربعة "رابطة

الصغار" وتجولنا في المدينة.. كان الناس دائخين ساخطين.. كانوا يقذفون النكات والعبارات الساخرة ويهربون من واقعهم.. وقفنا في "محطة الرمل"، "عزمنّا" عبد الله الشريف على شراب مثلج.. وفجأة! التف حولنا مجموعة من الشباب وبدأوا في تبادل "القفشات" والتعليقات ثم وضعوني في مرماهم:

- قوّلي يا أفندي هيّه الدبابير دي بتقرص ولا بتهرب في الحرب؟! هوّه صحيح إنت بتلمعها بالليمون ولا بدموع العين؟!.. هه.. هه.. ولطمه إبراهيم الشّاهد على وجهه، وفي نفس اللحظة ركل خالد الربيع الشاب الثاني بركبته بين فخذه فتلّوى وخر ساجداً على الأرض.. نظرتُ إلى عبد الله الشريف فإذا هو "ينطح" الشاب الثالث برأسه فيخّر الدم من جبهته.. وقبل أن يتداعى "الإسكندرية" جذبني إبراهيم الشّاهد من يدي، قطعنا "شريط المترو" وهولنا في اتجاه البحر وعندما وصلنا طريق الكورنيش أوقف خالد الربيع سيارة أجرة وحشرنا أنفسنا فيها بسرعة.. عندها تذكّرت أنني لم أقل شيئاً! بل لم أفعل شيئاً! لماذا لم أبادر، أنا الطويل القوي، بضرب الشاب القصير الصفيق؟! لماذا تركته لإبراهيم الشّاهد؟! بل، لماذا لم أشارك في الاشتباك ووقفت واجماً متسمراً؟!..

قال خالد الربيع بعد أن جلسنا في الكازينو:

- لماذا تصر يا عصام على ارتداء هذا الزي؟! هذه البزة تستفز الناس في هذه الأيام..

- لا أدري لماذا يصبر على هذا الزي المكروه!! كنت أعتقد أن الحرب غيرته.. عصام لماذا تشعر أنك في حاجة إلى ما يبرزك ويميزك عن الآخرين؟! قاومت في غزة وصمدت، صمدت جميعاً في ظروف صعبة.. صمدت عندما اندحرت الجيوش الجرارة وتقهقرت مهزومة خائبة.. يجب أن تكون راضياً عن نفسك!! لا حاجة لأن تعلن عنها بهذه الطريقة.. ثم، أنظر حولك، ألا ترى هؤلاء الناس؟! ألا تعتقد أن بينهم ضباطاً ورتباً كبيرة؟! لماذا لا يرتدون بزاتهم العسكرية المرصعة بالنجوم والنياشين؟! لأنهم يعرفون مزاج الناس، سخطهم على أصحاب هذه البدلات الكاكية!!

كان إبراهيم الشاهد يهدر مثل البركان.. وعندما هزَّ عبد الله الشريف، (قريبى) رأسه موافقاً على ما يقوله إبراهيم، عرفت أنني هزمت من جديد!

كان عبد الله الشريف يهز رأسه دائماً موافقاً على ما يقوله إبراهيم الشاهد! كان رجلاً هادئاً قليل الكلام لا يعرف غير محاضرات الجامعة والوفاء للأصدقاء.. والصلاة!!.. كان دائماً ينصحنى بالصلاة للتغلب على هموم الدنيا والشهوات!! وعندما أتغيب عنه كان يذكرني بخطورة الأمراض التي تأتي من وراء النساء.. كان عبد الله الشريف يرفض أن تدخل النساء إلى شفته وكان يعرف أنني أتغيب عنه لأمارس متعتي الأسبوعية مع "أم كاترين".. كانت أم كاترين في الأربعين من عمرها، ذات أصول يونانية، أحببت الإسكندرية، وعندما مات زوجها فضلت البقاء فيها ولم تعد إلى بلدها الأصلي.. كانت

تعيش مع ابنتها ذات السنوات العشر، تدبر محلاً لبيع الملابس، والعمود وفي حالات نادرة كانت تؤجر غرفة في شقتها بمنطقة "سبورتنج" الراقية.. عندما وصلت إلى الإسكندرية استأجرت غرفة عندها، مكثت فيها شهراً، ثم جاء عبد الله الشريف وأصرَّ على أن يأخذني لأقيم معه في شقته.. لكنه كان يحرمي من ممارسة تلك المتعة التي "دربتي" عليها أم كاترين.. كانت محرومة مكبوتة وكنت في عنفوان شبابي وفتوتي.. وجدت عندي ما يعوضها عن ذلك الكهل السكير الذي كان يبتزها ويزورها خلصة، ووجدت في أحضانها ما حرمتني منه ظروف المخيم والفقر واليتم!! ذقت معها "العسل"، الذي كنت أسمع عنه ولم أجروء على طلبه من نساء المخيم!! عودتني أم كاترين على "عسلها"، لكن الأمر بنقل القوات جاء ليحرمي منه فجأة!..

كان ذلك في نهاية ديسمبر ١٩٦٧.. تحركنا إلى منطقة فايد، وعلى ضفاف البحيرات المرأة أقمنا معسكرنا الجديد.. كنت "أنزل" إلى القاهرة كل أسبوعين.. وأذكر أنني كنت نائماً عندما فوجئت بخالد الربيع وإبراهيم الشاهد يقتحمان عليَّ الغرفة التي استأجرتها في الفندق ويأمراني بالنهوض والذهاب معهما إلى "الباطنية".. رفضت، واصطنعت الأعذار، لكنني وعدت بالزيارة كلما سحنت الفرص.. عندها أخرج إبراهيم الشاهد مفتاحاً من جيبه ثم قال:

- على كل حال، هذا مفتاح الشقة، تستطيع أن تأتي إلينا في الوقت الذي تريد.. نحن أصدقاء، وفي الإسكندرية لم أقصد الإهانة! أريدك

أن تظل كبيراً.. تعرف أن المشاجرة كادت أن تتحول إلى كارثة لو
تجمّع علينا "الإسكندرية" لفتكوا بنا..

زرتهما بعد شهر.. انتظرني إبراهيم عند محطة الحافلات، وعندما
دخلنا "الباطنية" لاحظت أنه يحظى باحترام التجّار وأصحاب الحوانيت
والجيران.. كان الجميع يحيونه ويقفون احتراماً له.. وتساءلت: كيف
وصل إبراهيم إلى هذه المكانة؟! كأنهم يعرفونه منذ سنين!..

كانت زيارتي الثانية في شهر مارس؛ في منتصف مارس ١٩٦٨..
فتحت الشقة وعندما دخلت اكتشفت أن إبراهيم وخالداً غير موجودين
ووجدت ورقة تفيد أنهما سيبيتان خارج الشقة.. بدّلت ملابسني
ودخلت المطبخ لإعداد كوب من الشاي.. وعندما نظرت من النافذة
رأيت امرأة ترتدي قميصاً رقيقاً يسفر عن صدر ناهد وذراعين
ممتلئين.. كانت تبتسم! ترددت، ثم أومأت لها بحذر واستأذنت لرد
النافذة.. لكنها بعد دقائق كانت تدق بخفة على باب الشقة.. كانت
تحمل طبقاً من الحلوى.. وضعته على الطاولة ثم قالت:

- همّه الجماعة مش هنا ولا إيه؟!

- لا.. تفضلي..

- أنت عصام! مش كده؟!

- أيوه.. كيف عرفتي؟!

- حكوا لي عنك.. وقالوا إنك ضابط..

- آه صحيح.. وإحنا أصدقاء من زمان..

كانت تجربتي مع "أم كاترين" قد زودتني بخبرة في لغة النساء وحركاتهن.. وفي الفندق أعطتني امرأة أخرى دروساً جديدة في الغمز والآهات وأصبحت قادراً على فهم المعاني والإشارات.. وأصبحت "الست عزيزة" جاهزة لاستقبال أول إشارة مني.. داعبت السلسلة الذهبية المعلقة على صدرها وقلت:

- سلسلة جميلة، لكن الصدر الذي تستقر عليه أجمل..

ومسدت نهديها ثم أمسكت يدها، دعكتها ثم أضفت:

- أتشربين الشاي معي؟!

- أشرب مشربش ليه!

وأخرجت من صدرها سيجارة مبرومة ثم قالت:

- ولعني!

ابتسمت ثم أحضرت علبة الكبريت وأشعلت لها السيجارة.. أخذت نفساً منها ثم غرزتها في فمي.. وعندما جذبت نفساً شعرت بالدوخة.. وتذكرت أنني في الباطنية فعرفت أن السيجارة "ملغومة"! عندما كان المعلم حسنين "يعزم" علينا بالسجائر كان إبراهيم يتردد ويقول:

- خايف تكون ملغومة يا معلم!

فيرد المعلم حسنين:

- استغفر الله.. أنا لا أتعاطى الحشيش يا أستاذ إبراهيم.. كفاية عليّ الدخان.

اقتربت "الست عزيزة" مني ثم التصقت بي، وعندها سحبَت السجّارة من فمها وهويت على شفّتيها ثم جذبتها ودخلت بها إلى غرفة إبراهيم الشّاهد..

وعندما ارتدت قميصها، تناولتُ قلمًا وكتبت على يدي:

- ده عنوان في "العمرانية" تقابلني هناك كل يوم خميس، الساعة عشرة بالليل.. ومتخلّيش حد يشوفك.. هه.. وعندما أقفلت الباب وراءها تساءلت: هل فعلت نفس الشئ مع إبراهيم الشّاهد؟! هل نامت في سرير خالد الربيع؟ خالد الربيع لا.. إنه هائم في تلك الشرقاوية الفاتنة ولا يمكن أن يفكر في امرأة غيرها.. وإبراهيم الشّاهد؟.. إذن هي عشيقَة إبراهيم الشّاهد!! ارتمى بين أحضانها بعد أن تزوّجت عزيزة الخيال وتخلّت عنه.. ها أنا أنتصر عليك يا إبراهيم! ها هي "الست عزيزة" تسلمني جسدها وتسقيني من "عسلها" في سريرك!! وشعرت بنشوة الانتصار وتخلّلت إبراهيم الشّاهد مهزومًا، فضحكت..

ترددت على "بيت العمرانية" ثلاثة أشهر متتالية.. كنت أنقر على نافذة البيت الخلفية كل يوم خميس ثلاث نقرات.. تفتح "الست عزيزة" وتأخذني بين نهديها.. ندخّن تلك السجائر الملعومة ونأكل الكباب والحمام ثم ندوب في متعتنا.. وعندما تبدأ تسابيح الفجر أرّتي ملايسي وأنسحب عبر الطريق الزراعي حتى أصل إلى محطة الحافلات..

خلال تلك الشهور الثلاثة انقطعت عن خالد الربيع وإبراهيم الشّاهد..
وغرقت في "العسل" حتى أذني! حتى كانت تلك الليلة الملعونة، الليلة
المهينة الموجهة!!

نقرت على النافذة، ففتح باب الشقة، وعندما دخلت كان في مواجهتي
رجل عملاق عريض الأكتاف.. كان يرتدي جلبابًا غامقًا ويضع على
رأسه عمامة داكنة ويلفّ حول رقبته "تلفيعة" عريضة.. وكان يعلو
فمه الواسع شارب كبير.. ولاحظت أن رأسي تصل بالكاد إلى كتف
الرجل.. جذبني من يدي ثم دفعني إلى الداخل بقوة، فتدحرجت على
البلاط وارتطمت بالطاولة..

- أيوه يا حبيبي! أي خدمة؟ نعم! عايز مين؟!

مسحت الدم النازف من أنفي وشفّتي:

- أنا.. لا.. مش عارف!

- أه.. مش عارف إنت عايز مين! أنا عارف يا روح أمّك.. إنت
عايز الست اللي بتقضي معاها ليالي الغرام.. اسمع يا شاطر الست
بتعتك غارت، راحت في ستين داهية ولو ما كنتش حرمة لدخلت بيت
خالتها زي الجماعة اللي كانوا شغالين معاها.. دخلوا بيت خالتهم،
السجن.. كل واحد عشر سنين يا حبيبي.. الست بتعتك كانت بتشتغل
من ورا المعلم حسنين يا شاطر، بتبيع الصنف لحسابها.. مش بس
بتقضي ليالي الغرام معاك، كمان بتخون المعلم الكبير.. اسمع إحنا
قادرين نكتفك ونرميك في الترة ولا من شاف ولا من دري.. لكن
المعلم حسنين قال بلاش.. علشان خاطر الأستاذ إبراهيم والأستاذ

خالد، الجماعة الجدعان أولاد الأصول اللي ما خانوش العيش
والمليح.. علشان خاطرهم بنعتقك لوجه الله، وإيّاك تورينا وشك
تاني!!

وعندما قذفني إلى خارج البيت شعرت بالهزيمة، بالانكسار.. وشعرت
أن إبراهيم الشّاهد انتصر عليّ هذه المرة أيضاً..

إبراهيم الشاهد

أمام المقهى جلست أم نبيل تدخن النرجيلة وحولها تحلق عدد من المثقفين الشباب، كانت صاحبة المقهى الحافل تحاورنا دائماً في السياسة وشؤون الدنيا والحب، وكان بعض الشباب يتجرأ ويتبادل معها النكات أحياناً.. منذ أن عملت في مكتب الإعلام الموحد القريب وأنا زبون دائم في هذا المقهى، إنه يعوضني عن خالد الربيع، يملأ الفراغ الذي تركه غيابه.. بعد انتهاء عملي أنزل من الفكهاني إلى مخيم صبرا أعرج على سوق الخضار أشتري قليلاً من الفواكه والخضراوات الطازجة، ثم أتجه في الأزقة الضيقة إلى اليمين حيث الغرفة التي استأجرتها في بيت أم سعيد.. أستريح قليلاً واغتسل ثم أبدل ملابسني وأعود إلى المقهى لأتناول وجبة الغداء الخفيفة وأتصفح بعض المجلات.. التحق خالد بقاعدة "الجيئة" تركني وذهب إلى الجنوب، إلى صيدا وتركني حائراً بين الفكهاني ومخيم صبرا..

تغير خالد ولم يعد يحب الثروة، كان يحب العمل، الفعل أكسبه تخصصه في الهندسة الميكانيكية عقلية عملية.. وكان مشروع

تخرجه عن تطوير بعض الذخائر والأسلحة الخفيفة.. رفضت الجهات الأمنية دخوله للمصانع الحربية المصرية في البداية، وتدخلت منظمة التحرير، وأعدّ مشرفه تقريراً داعماً فدخل خالد المصانع الحربية وأكمل مشروع تخرجه وكان متفوقاً كالعادة.. ذهب خالد إلى صيدا لكنه لم يحرمني من زيارته.. كان يأتي إلى بيروت مرة كل أسبوع أو أسبوعين يأتي في سيارة "اللاتدروفر" ويأخذني لنطوف بها لبنان.. أصبح خالد خبيراً في المدن والبلدات والقواعد والمخيمات.. ذهبنا إلى الجنوب ودخلنا القواعد والمخيمات، تعرّفنا على المناضلين والرفاق.. أدخلني إلى الورشة التي يشارك في تأسيسها، كانت ورشة تسليح لجميع التنظيمات.. عرّفني على مهندس عراقي وآخر مصري وثالث لبناني "هنا تتجلى الوحدة الوطنية.. والقومية".. وبتنا ليلة ثم عدنا إلى بيروت وفي أسبوع آخر ذهبنا إلى طرابلس والبقاع ووصلنا الشام، بتنا فيها ليلتين ثم عدنا!! كانت الطرق والحدود مفتوحة لم تكن هناك حاجة للجوازات ووثائق السفر.. كانت "هويتنا النضالية" جواز مرورنا إلى الدنيا كلها!! يعرف خالد هذا المقهى جيداً.. دائماً كان يجدني فيه إذا لم يعثر عليّ في العمل أو الغرفة.. كنت أنتظره بعد عشرة أيام من لقائنا السابق.. أترقب وصوله لننتجول في الأماكن التي نحبها، لنختلي ببعضنا ونطوف بذكرياتنا وأيامنا الخوالي.. في الساعة السابعة، هدرت سيارة "اللاتدروفر" ووقفت أمام المقهى.. أسرعت إلى خالد لأحتضنه فتهامس الشباب الجالسين في المقهى.. كانوا دائماً يستغربون "قومي وماركسي! كيف لا يختلفان فيفترقان؟"

لم تكن العلاقة بيننا بهذا التسطيح الساذج.. لم نترك للأيديولوجيا أي هامش لإفساد علاقتنا.. أعلن خالد عن احترامه لقناعاتي وأفكاري القومية وعبرتُ له أكثر من مرة عن تقديري واحترامي ليساريته ورؤيته الكفاحية "الطبقية" ولم نفترق!! كنّا نتفق دائماً على هدف واحد نسعى إليه "تحرير الأرض والإنسان" وكنتُ أضيف "وتحقيق الوحدة العربية" وكان يبتسم ويقول "وتحقيق الوحدة العربية، وحدة الشعوب العربية"!!..

- سنسهر الليلة في مكان هادئ، في الرملة البيضاء..
وأجبتُه مداعباً:

- حسناً أنك لم تقل شارع الحمراء..
ثم صعدتُ بجواره في "الجيب"..

كانت قد مضت على وجودنا في لبنان سبعة أشهر.. لم تصلنا خلالها أية أخبار من الأهل.. ولم تصلنا أية رسائل من مصر.. عندما جلسنا قريباً من البحر عبر خالد عن قلقه على كوثر، ثم انتقل للحديث عن سميرة صالح!! وسألني فجأة:

- ما رأيك في سميرة توثج؟

- خالد، تحدثت عن كوثر بإيجاز، ثم تحولت إلى سميرة! ماذا تريد أن تقول بالضبط؟!!..

- أرسلتُ سميرة خطاباً مع أحد الرفاق قالت أنها ستأتي إلى لبنان فور تخرجها.. على فكرة تسأل عنك وتريد معرفة أخبارك بالتفصيل..

- أخبرني أنا؟!!..

- اسمع يا إبراهيم! هذه الفتاة تحبك.. لقد عبّرت عن ذلك في خطابها قالت إنها تغيّرت! وقالت بالحرف الواحد: لقد أفلعتُ عن تصرفاتي (الصبيانية) وأفلعتُ عن التدخين وطلبتُ مني أن أخبرك بذلك.. طلبتُ أن أخبرك بأنها تغيّرت وكفّت عن كل ما كان يضايقك في شخصيتها!..

- وماذا عن عودتها إلى الأردن؟

- لم يعد لها أحد هناك ذكرتُ أن جدتها قد توفيت أثناء مجازر أيلول، إنها وحيدة الآن!

- وماذا عن علاقتها بكوثر؟

- قالت أنها تزورها أحياناً وذكرتُ أن المرض يشتد على الحاج صادق العرابي.. هذا كل ما ذكرته عن كوثر! آه يا صديقي إن ما يصبرني هو العمل فقط.. لكن عندما أخلو بنفسي أشعر أن الدنيا ستخذلني، ستحرمني منها، أشعر أنني لن أراها ثانية وأني سأفقدّها إلى الأبد..

أحضر النادل كأسين من الآيس كريم وتكسّرت الموجات الخفيفة على الشاطئ أمامنا فجاء صوت صباح فخري متناغماً مع وشوشات البحر:

تذللْتُ حتى رَقَّ قلبُ حاسدي وعادَ عدولي في الليالي شافعُ
وإن تتفضّل يا رسولي فقلْ له مُحبُّك في ضيق وعفوك واسعُ
ثم صدح صباح فخري بقصيدته التي أعشقها:
لَمَّا أناخوا قبيل الصُّبح عيسهُم وحملوها وسارت بالهوى الإبلُ

فأرسلتُ من خلال السَّجَفِ ناظرَها ترنو إليَّ ودمعُ العينِ منهملُ
وودَّعتُ ببنانِ زائهُ عنمُ ناديتُ لا حملتُ رجلاكِ يا جملُ
يا حادي العيسِ عرَّجَ كي نودَّعهم يا حادي العيسِ في ترَحالكِ الأجلُ
وسألني خالدٌ وقد بدا عليه التأثيرُ:

- مَنْ هذا الشاعر الذي يكاد يذوب من شدة العشق والوله؟
- قد تستغرب إذا علمتُ أنه ليس ابن الملوِّح ولا صاحب بثينة ولا ابن أبي ربيعة ولا جرير صاحب أم عمرو ولا..
- دوَّختني.. من هو إذن؟
- إنَّه صفي الدين الحلِّي..
- أليس هو صاحب القصيدة المعروفة "سل الرِّمَّاحِ العوالي"؟
- نعم هو، وفي هذه القصيدة بيته الذي أخذتُ منه ألوان علم الثورة العربية:

بيضٌ صنائعنا، سودٌ وقائعنا خُضرٌ مرابعنا، حُمرٌ مواضينا
- وعلمنا الفلسطيني أيها القومي العتيد..
وضحكنا معاً ثم نظرنا إلى البحر..

عندما عدنا إلى المنزل وجدنا صاحبتَه في انتظارنا.. جلستُ أم سعيد على عتبة الدَّار محمرة العينين مجهدة هدأتُ من روعها وجلستُ بجوارها على عتبة البيت.. أحضر لها خالد زجاجة كوكاكولا باردة تمتعتُ قليلاً، ثم أخذتها ودلقتها في جوفها دفعة واحدة.. كانت أم سعيد امرأة في الخامسة والستين من عمرها تُوفي زوجها وترك لها ولدًا وبناتًا.. سافر ابنها سعيد مع زوجته وطفليه إلى الخليج، وبقيتُ

معها ابنتها نبيلة وحفيدها طارق.. كانت نبيلة في السادسة والعشرين من عمرها مليحة التقاطيع.. استشهد زوجها "أشرف" وترك لها طارقاً ذكراً وسنداً يعوض حرمانها منه، حدثتني أم سعيد عن ابنتها الغنيمة التي ترفض العرسان وتصر على "البقاء على العهد" عهد الشهيد أشرف الذي أحبته وأخلصت له وقالت إن محاولاتها في إقناع ابنتها باءت بالفشل رغم أنها جسدت لها حاجة المرأة الضرورية للرجل، وأنها ستكتشف ذلك عندما تكبر ويتركها ابنها ليتزوج ويذهب إلى بلاد الغربية!! كانت نبيلة تردد دائماً "لن يمستي رجل آخر بعد أشرف!! لا أستطيع تحمل ذلك!!" تمكنت نبيلة من الحصول على عمل بمساعدة الأصدقاء الشرفاء.. عملت موظفة في مؤسسة أسر الشهداء أحببت عملها وأقبلت على الحياة، شعرت بالمسؤولية، بأنها جزء من هذه الشريحة وعليها أن تساهم في تخفيف معاناتها.. ألم تكن مثلهن منذ شهور قليلة؟ مثل زوجات وأخوات وأمهات الشهداء! تقف أمام الشباك منكسرة، يتفحصها الموظف بعينه الثاقبتين، ثم يسلمها الليرات القليلة على مضض وكأنه يقطع من لحمه.. جاء دورها الآن لتعامل قريناتها باحترام ومودة، تعاملهن بما يليق بأرواح الشهداء الغالية..

- والآن! ما الذي جرى؟ ما الذي يبكيك يا أم سعيد؟ هل هو سعيد الذي لم يرسل خطابات ولم يتذكرك ببعض النقود؟ أم أنها نبيلة مرة أخرى ترفض عريساً جديداً؟

- بالنسبة لسعيد نسيته الله يرضى عليه ويخلي له أولاده.. المهم يكون مرتاح ومبسوط، مصيبيتي في نبيلة يا أستاذ إبراهيم.. أولاد الحرام لا يريدون تركها في حالها، لتربي ابنها في هدوء.. النذل ابن النذل رجع اليوم لمضايقتها وتهديدها.. جاءت اليوم منهارة.. لطمت على وجهها وبكت، بكت حتى فزع طفلها المسكين ونام مرعوباً خائفاً.. قالت إن "المدير" النذل تجاوز حدوده اليوم وهددها بالطرد إذا لم تُطعه وتلبي رغباته الدنيئة.. يريدونها أن -أستغفر الله العظيم- أن تتجمل وتترين وتذهب له بعد أوقات الدوام "للفرفشة والإلا! فسيطردها من العمل".. بكت وقالت إنها لن تذهب إلى العمل مرة أخرى.. مصيبة يا جماعة دبّروني.. إذا تركت العمل مصيبة..

- كيف تترك العمل إنها لا تعمل في بيّارة أبيه.. من هو ذلك "المدير" يا إبراهيم؟

- إنه أبو الشوارب أحد أقارب أبو الشّريم.. رجل وقح مثل قريبه ويستمد نفوذه وسطوته منه.. عمّتي أم سعيد أعطينا يومين وإن شاء الله تُفرج..

- إحنا ملناش حدا غيركم.. دبّروني الله يرضى عليكم..

في اليوم التالي ذهبنا إلى أحد مكاتب الكفاح المسلح.. استقبلنا الشباب باحترام كبير، وتعرّف بعضهم على خالد الربيع، كانوا من نفس المخيم وذكّرنا أحدهم بأيام الصّبا، بدرّجات البلّون التي كنا نكتريها.. وذكّرنا شاب آخر بنادي المخيم والندوات الصاخبة التي

كانت تقام فيه.. وعندما قدموا لنا الشاي همستُ في أذن صديقي
المناضل الكهل:

- قاصدك في خدمة يا أبو نزال..

- ولو يا أستاذ إبراهيم! على عيني حتى لو طلبت روجي..

- العفو.. العفو. بدّي معلومات عن سهرات وعلاقات مدير مؤسسة
أسر الشهداء في صبرا سمعت أنّه من منطقتكم ولك معرفة سابقة
ببيه.

- آه.. فهمت! ذيل الكلب عمره ما بتعدل! ابن الـ... على كل حال
بكرة جيب لك قراره وين بسهر وين بروح ومع مين.. أعطيني يوم
واحد بس.

بعد يومين أحضر أبو نزال سيارة جيب رُكّبت عليها أرقام مزيفة
وكان يحمل مسدسه على جنبه وجاء معه شابان آخران.. كان كل
منهما يحمل (كلاشنكوف).. عندما وصلنا إلى "الهدف" تلّثمنا جميعاً
وكمنا في مدخل العمارة.. ثمّ خرج أبو الشوارب متعتّراً مسطولاً
فانقض أبو نزال عليه وكنم فمه ونزع مسدسه، وبسرعة كمّمه
الشباب وحملناه إلى سيارة الجيب، ثم انطلقنا إلى مقبرة الشهداء،
عند طرف المخيم.. عندما وصلنا حملناه إلى داخل المقبرة وعند أحد
القبور المفتوحة طرحناه أرضاً.. سحب الشاب الطويل أجهزة
الكلاشنكوف وصوّب إلى رأس أبو الشوارب الدّائح..

قال أبو نزال بعد أن فكّ الكمامة عن وجهه:

- والآن أيها الحقيير هل ترى هذا القبر المفتوح؟ صحيح أنك لا تستحق أن تدفن فيه لأنه للأجساد الطاهرة الشريفة وليس للأجساد العفنة النجسة مثلك لكن لا بأس ما رأيك أن تدفن فيه حياً؟ لن يدري بك أحد في هذا الليل! ولن يستطيع قريبك الذي تستمدّ نذالتك منه أن ينقذك ما رأيك.. هه؟

وتأتاً مرتعداً مذعوراً:

- دخيلك.. دخيلكم.. أنا في عرضكم.. أنا ما عملت شي..

- ما عملت شي يا أخو..! والله لأخلص الناس منك ومن قذارتك..
بدك تحول زوجات الشهداء وبنات الشرفاء إلى عاهرات يا ابن.. ما عندك حيا ولا شرف ولا دين..

- دخيلك أنا تحت أمرك أنا في عرضك.. في عرضكم.. بنقذ اللي بدكم إياه.. أنا في عرض ولاياكم..

- طيب! هات الورقة والقلم يا أستاذ إبراهيم..

وناولته الورقة والقلم وأضاء خالد بالكشّاف:

- اكتب يا الله اكتب: أعترف وأقرّ أنا فلان الفلاني (واكتب اسمك الحقيقي) أنني طلبتُ من السيدة نبيلة الشريف أرملة الشهيد أشرف حسّان، أن تتزيّن وتحضر لي في أماكن غير العمل وفي غير أوقات الدوام الرسمي، وذلك بهدف قضاء الأوقات الممتعة معها، وأعترف أنني هددتها بالطرد من العمل إذا رفضت ذلك.. وقع.. يا الله..

ووقع بأصابعه المرتعشة.. فسحب أبو نزال الورقة من يده:

- هات الورقة اسمع، معك ثلاثة أيام بعدها تنتقل من مكان عملك
خلى قريبك ينقلك! والآن هات المقص يا أستاذ خالد لنشوف شواربه
اللي بيخوف الناس بيها..

ناوله خالد المقص فقصّ به شارب "أبو الشوارب" الكث ثم جزّ من
شعره الطويل وفجأة شرم أذنه اليمنى!!
- هذه ذكرى لك..

وعندما صرخ كتم أبو نزال فمه وطرحه على وجهه ثم وضع حذاءه
فوق رقبته.. ربط الشaban يديه من خلف ثم انصرفنا جميعاً مغادرين
المقبرة..

بعد حادثة المقبرة بثلاثة أشهر جاعني أبو نزال حاملاً ثلاث بطاقات
مذهبة.. ضرب بالبطاقات على يده ثم قال:

- هل "تحزر" من أين هذه البطاقات؟

- من السفارة العراقية أو الكويتية! هؤلاء أصحاب البطاقات
الفخمة!!

- لا! هناك من هو أفخم منهم.. أبو الشريم يا عزيزي.. هذه بطاقات
سهرة في حديقة "أبو الشريم" العامة..

- أبو الشريم! ما لنا نحن وأبو الشريم؟ ولماذا يدعونا إلى حديقته..
ما علاقتنا به؟..

- بل قريبه الذي دعانا قريبه أبو الشوارب (وقهقه بصوته الهادر)
أعطاني ثلاث بطاقات هل نسيت أنه معرفة قديمة؟ سلّمني البطاقات

وقال تستطيع اصطحاب شخصين آخرين.. ولا يوجد عندي أعز منك
ومن الأستاذ خالد..

- لكن..

- أستاذ إبراهيم أنت بالذات لابد أن تتعرف على الوجه الحقيقي
لهؤلاء الناس.. يجب أن ترى بعينك, لا أن تسمع فقط!!
كان لابد أن أرى، أن اكتشف! كان لابد أن أعرف كيف ينخر السوس
في عظام الثورة!! أن أعرف وأتأكد بأَم عيني مما يُشاع ويُقال.. قال
أبو الشريم: عُقد المجلس المركزي من أجل.. ولم أصدق "هذه
دعايات ماركسية مغرضة.. أعداء التنظيم يلققون الأكاذيب". ورأيت
ما رأيت..

على سطح العمارة الكبيرة، ثمانمائة متر مربع، أقيم الحفل! وسط
الأشجار المثمرة! أشجار البرتقال والليمون والخوخ والبرقوق
والمشمش، تتوسطها صحنون ونافورات بمياه ملونة وأضواء ساحرة
تنعكس على تماثيل من المرمر وأزهار ذات روائح عطرية وخدم
يتمنطقون بملابس زاهية نظيفة، يحملون الأطباق والكؤوس ورجال
متأنقون، مزججوا الشوارب والحواجب، ونساء ناهدات سافرات
متعطرات مزيّئات حتى العظم وسط هذا كله كان الحفل، في الحديقة
العامرة حديقة أبو الشريم الحافلة بالأشجار المثمرة.. من أين جاءت
هذه الأشجار وكيف زُرعت؟ من أين جاءوا بهذه التربة الحمراء
الخصبة؟ متى أحضروها؟ وكيف أوصلوها إلى سطح هذه العمارة
الضخمة؟ متى انبعثت هذه الحديقة العامرة بالثمار الزاهية اللذيذة؟ كم

هي الأموال التي أنفقت عليها؟ ومن سدّد هذه الفاتورة الباهظة؟ يا إلهي أين أنا؟ هل هذه إحدى حدائق المتوكّل أو ابن المعتز؟ أم أنها واحدة من حدائق ابن جهور أو ابن عبّاد، أم هي فعلاً حديقة أبو الشريم الواقعة في بيروت!!

- عملت كل هذا لأتذكّر وطني ببياراته وفاكهته! هكذا أتذكّر الوطن ولا أنساه أبداً!

قال أبو الشريم ذلك وهو يتأبّط ذراع أحد المتأنّقين:
وعلق أبو نزال بصوت مسموع:

- يا أولاد الشرموطة.. أهكذا نتذكّر الوطن؟ فضحتونا!!

دوختني تلك السهرة! ووجدتني أكتب قصة.. كان عنوانها "السوس" وأرسلتها إلى مجلة الآداب فنشروها بعد أسبوعين فقط.. كانت تلك القصة الرابعة التي أنشرها في مجلة الآداب.. أربع قصص ودراسة عن رواية غسان كنفاني الرائدة "رجال في الشمس" وكنت أعد دراسة جديدة عن روايته "أم سعد"..

أتذكّر الآن! كان ذلك في بداية شهر تموز (يوليو) من عام ١٩٧٢.. عندما حملتُ الأتباء خبر استشهاد غسان كنفاني، وتناثرت مع أشلائه أشلاءً لميس.. مثل زهرة شقائق النعمان، تناثرت ولوّنت سيارة الفولكس فاجن -كنا نشيّع الشهداء بلا توقف- وبجوارى كان خالد الربيع يسير حزيناً قلقاً.. أثناء مراسم الدفن جذبته من يده وسحبته بعيداً ثم قلتُ:

- جاءت برقية من سميرة صالح قالت إنها ستصل بعد أسبوع إلى دمشق سنذهب لاستقبالها معاً ستحضر معها مفاجأة..
- ماذا تقول مفاجأة؟ إذن.. غير معقول! تعني أن..
- نعم ستحضر معها كوثر أيّها العاشق الكبير!
- وهجم عليّ احتضنني بقوة ودار بي.. دار حتى وقعنا على الأرض..
- عندها أطلق الشباب صليّات الرصاص.. فرغدت النسوة من خارج المقبرة..

عزيزة الخيال

مَنْ الذي ربط زينب الدودة في شجرة الجميز وهددها بقطع لسانها؟
مَنْ الذي تسبب في مرض هذه العجوز ورقادها في الفراش أسبوعين
كاملين؟ أقسم أنني لم أفعل ذلك! أقسم أنني لم أخبر أحداً بما حدث،
ولم أطلب من أحد أن يعاقب زينب الدودة على ما قَدَفْتُهُ في وجهي
من عبارات مؤذية! كانت عائدة من غَزَّة، وكنتُ في طريقي إلى
العزيزة، ولم أنتبه إليها إلا عندما أمسكتني من كتفي، كانت تحمل
سَلَّة، مسحتُ العرق بمنديلها، ثم قَدَفْتُ عباراتها:

- ما أقوى عينك يا بنت القبرصية! وكمان بترديش السلام.. جلبتِ
العار لأهلك وللقرية، تزوجتِ من ابن الجنكيَّة الذي رفضته بنات
القرية، وكمان بترديش السلام.. صحيح، اللي استحوأ ماتوا..
كتمتُ غضبي وواصلتُ سيري "عجوز خرفانة، لا تُؤَاخِذْ على كلامها"
لكن هناك مَنْ سمعها! هناك مَنْ أغضبته كلماتها، استفزته فأقدم على
تلك الفعل القاسية.. ذهبتُ إلى زينب الدودة في بيتها بكتُ وطلبتُ
مني الصفح:

- ولا يهملك يا أم صالح.. أنا نسيت الموضوع.. والله أنا ما لي ذنب في اللي حصل لك..

أشفقتُ عليها ومسحتُ دموعها.. لكن عبارة واحدة من كلامها ظلت تقرع أذني و"ترن" في رأسي.. "جلبتِ العار لأهلك" هل حقًا أنني جلبتُ العار لأهلي؟.. وتذكرتُ أنني ولدتُ في تلك الليلة المشنومة.. ليلة ذبح العاشقة.. وتذكرتُ أن أُمِّي أخفت تاريخ ميلادي الحقيقي.. كانت تخشى عليَّ من الجنون! أو لعلها كانت تخشى عليَّ من العار مثل عوض الشاهد الذي تخلص من عاري، وزوجني من جميل حبَّ الرّمان.. خشي علي ابنه مني! خشي علي عائلته من عاري!!.. ها هي عبارة زينب الدودة تفجّر أوجاعي وجراحتي الهامدة.. تنبشني من جديد.. كيف لي أن أبرر زواجي من جميل حبَّ الرّمان؟ كيف أبرر قبولي بالزواج من هذا الرجل الذي رفضته القرية كلها؟! هل كان عليَّ أن أستوقف كل فرد في هذه القرية وأخبره بسبب قراري الغريب؟! لكن، ماذا كنتُ سأقول لأهل القرية؟! أنني بقيتُ في القرية لأن "أبو الكاس" أراد ذلك؟! هل أخبرهم أنني رجعتُ عن قراري بالالتحار أو الهروب لأنه طلب مني البقاء في العزيرة؟! هل أخبرهم أنه طلب مني أن أنتظر تلاميذه، أنظف القنطرة، وأنظرهم، لأمدّهم بالعون وأساندهم في المقاومة- لأكمل دور أُمِّي؟! كيف لي أن أخبر أهل القرية بذلك؟! وهل أذيع سر الشباب ليصبح عملهم مكشوفًا وأرواحهم مهذّدة؟! وهل تُصدقُ القرية ما كنتُ سأقوله؟! هل كانت ستصدق أنني قمتُ بتنظيف القنطرة وتغطيتها بالحطب وقمتُ بنقل

القنابل عندما كانوا يغطون في نوم عميق؟! هل كانوا سيصدقون أنني راقبتُ الدورية وأعطيتُ الإشارة وأطلقتُ الصغير لتبدأ العملية التي تتغنى بها القرية، وتفخرُ بشجاعة الذين نقذوها!!.. هل كانت القرية ستصدق كل ذلك؟! لكن، ماذا يهمني إن صدقتُ القرية أو لم تصدق؟! ما يهمني فقط، ألا تردد القرية عبارة زينب الدودة الجارحة! هل تُخفي القرية حقيقة مشاعرها عني؟! هل تكتُم كلمات زينب الدودة في صدرها؟! أكادُ أشك في نظرات الناس!! منذ أن قذفتُ زينب تلك العبارة المؤذية وأنا أشك في نظرات الناس! كنتُ أتمنى ألا يصبح جميل نصيبي وقدري العاثر.. لكن، ما ذنبي إذا كانت هذه القرية قد اكتفت بالترفج، ورضختُ لرغبة عوض الشَّاهد؟! "لا نستطيع أن نُغضب (أبو إبراهيم)"! تقاذفتني الهواجس، وهجمت على رأسي الأسئلة، لكن واحداً منها برز من وسط الغابة المتشابكة هل حقاً أن كل فتاة تولد في مثل تلك الليلة تجلبُ العار لأهلها - كما يعتقد عوض الشَّاهد؟! أو حتى تُصاب بالجنون - كما كانت تعتقد أُمي؟! كم فتاة ولدت في تلك الليلة، منذ أن ذُبحت العاشقة على العين؟! مائة، مائتان، أكثر؟!.. لم أسمع بفضائح كثيرة! لم أسمع عن بنات كثيرات جلبن العار لأهلهن! ولم أسمع عن حالات كثيرة من الجنون! واحدة.. اثنتان.. خمس حالات نادرة.. يوجد مثلها في القرى والمدن والمخيمات!! حتى بنات القرية اللواتي تزوجن رغم إرادتهن و"البديلات" رضخن للأمر الواقع ورغبة الآباء، ولم يتمردن على تقاليد القرية! عشن في ثباتٍ وتبات وأنجبن الصبيان والبنات!

والنساء اللواتي هجرهنّ الأزواج وتركوهن لأخريات أو مكثوا سنوات طويلة في الغربة صَبَرْنَ ولم يُقدَمَنَّ على الفاحشة!! وأنا! التي أرغمتُ على الزواج من شخص لا تحبه، شخص تكرهه القرية.. أنا لم أفكر يوماً في خيانة جميل حبّ الرّمان!! لم أفكر في خيانة ابن الجنيّة الذي تكرهه القرية كلها!! كيف أفكر في ذلك وأنا بنت عابد الخيال، بنت القبرصية؟ كيف أفكر في ذلك وأنا بنت هذه القرية التي تحافظ بناتها ونساؤها على شرفهن وشرف القرية، حتى إذا لحق بهن الأذى والضيم؟! وتذكرتُ ناهد السمرّي! ناهد التي فضحتُ أهلها وهربت!! واحدة من الحالات النادرة في القرية! كانت ناهد فتاة يتيمة مسكينة.. كانت زميلتي في المدرسة.. أخرجوها من الصف الثاني الإعدادي، وزوجوها إلى رجل كهل.. وصبرت.. تحمّلتُ ورضيتُ بقدرها! لكنهم صبّوا عليها غضب الدنيا والآخرة.. بنات زوجها، أبناءه، زوجاتهم، وزوجها الكهل الضعيف! كلهم كانوا يسومونها سوء العذاب.. كفرتُ وهربت.. هربتُ ولم يعرف أحد وجهتها أو مكانها.. أذكر أن أم أحمد الدّاية جاءت إلى بيتنا بعد يومين من فضيحة ناهد السمرّي.. كانت "الدّاية" تعرف الأوقات والفصول والشهور التي استقبلت فيها بنات القرية وأبناءها!! كلهم نزلوا من بطون أمهاتهم إلى يديها وحضنها! كانت لها حافظة عجيبة.. يومها قالت أم أحمد:

- بنت السمرّي التي فضحتُ أهلها وهربت، مولودة في شهر كانون (يناير) في آخره - بعدك يا عزيزة بحوالي أربعة شهور.. نزلت بنت

السَّمَرِّي على هاليدين بعد منتصف الليل.. كان المطر ينهمر مثل المزاريب.. أدخلنا الكانون إلى الغرفة ثم لففتها في بطانية قديمة بعد أن نظفتها بالماء الدافئ.. والله أمها مسكينة وبنت حلال وسيرتها زي الحليب.. لكن المكتوب مكتوب..

بعد أسبوع من زيارتي لزينب الدودة، جاعني الأستاذ زاهر.. جاء إلى العريزة وجلس بجواري تحت شجرة التين الكبيرة، ابتسم ثم قال:

- هذه شجرة مباركة أصبحت جزءًا من تاريخ هذه القرية!

- شجرة التين هذه أصبحت جزءًا من تاريخ القرية! كيف؟!

لم يجبني! نظر إلى القنطرة.. ثم مسح العريزة بعينه وكأنه يراها لأول مرة.. كان الأستاذ زاهر مدرسًا للتاريخ.. عندما كنتُ في المدرسة الإعدادية كان صوته الهادر يجلجل في الفصل.. كان دائمًا يقول "بريطانيا هي سبب الداء، ودواؤنا في وحدتنا".. لكنه اليوم لا يجلجل في الفصول.. طردته سلطات الاحتلال من الوظيفة.. اتهمته بتحريض الطلاب على الخروج إلى المظاهرات والهتاف ضد الاحتلال وفصلته..

- أراك مهمومة يا عريزة هل يزعجك جميل؟ صحيح ما هي أخباره الآن؟!

- بعد خروجه من السجن تحسّنت أحواله يعمل في التجارة..

- في التجارة!! وابنتك؟!

- شادي بخير في الرابعة من عمره.. أستاذ زاهر هل جئت إلى العريزة هذا المشوار الطويل لتسألني عن جميل وشادي؟

- بل لأسألك عن عوض الشَّاهد!
- عوض الشَّاهد! عمي عوض ما به؟
- عمك عوض مريض.. الواجب أن تذهبي لزيارته..
- وشعرت أنه قد لكزني في خاصرتي.. أيقظني من سباتٍ طويل كيف أكون قاسية إلى هذا الحد؟ عمي عوض الشَّاهد، أبو إبراهيم، وفاطمة، وزوج عمتي أم إبراهيم!! جبراني، أهلي الذين لم أعرف غيرهم! لماذا تركتُ غضبي يقودني إلى القسوة؟ إلى الجفاء؟ تزوجتُ جميل حبَّ الرِّمان وانتهى الأمر! لماذا أصر على الجفاء والقطيعة؟ لماذا أصر على القسوة على هذا الرجل المسن؟ القطيعة مع عائلته؟! حتى فاطمة، التي تعاطفت معي، نالت مني الصدود.. واغرورقت عيناها بالدموع:
- إن شاء الله سأزورهم! يظل عمي وتظل أسرته مثل أهلي!
- أأعتبر هذا وعداً؟
- نعم وعد.. إن شاء الله..
- ومسحتُ دموعي:
- لكنني كنتُ أريد أن أسألك عن شيء أنا أعرف أنَّك تسجل التطورات والتغيرات التي تحدث في القرية منذ سنين، وأريد أن أسألك عن حالات جلب العار هل هي كثيرة في قريتنا؟ وحالات الجنون هل هي كثيرة بين الفتيات والنساء؟..
- أسألتك غريبة.. هل تقومين بإعداد بحث عن القرية؟

- أريد أن أعرف شيئاً عن هذه الحالات.. هل تزيد في قريتنا عن مثيلاتها في القرى والمخيمات الأخرى؟!

- بل هي أقل منها! تقاليدنا الصارمة حدّت منها.. صحيح أنني لا أوافق على كثير من هذه التقاليد، لكنها في الحقيقة قلّت من الفصائح وحالات الانحراف.. آه.. فهمت! أنت تربطين هذه الظاهرة بتلك الحكاية القديمة التي تناقلتها القرية! حكاية العاشقة والمخطوفة والذبح على العين إلى آخر القصة! اسمعي يا عزيزة سيأتي اليوم الذي تأخذين فيه حقك من التقدير.. أنت تستحقين وسام الشرف..

- أنا؟!

- نعم أنت!! دَعِكِ من تلك العبارات الجارحة التي تلقّظتُ بها زينب الدودة.. عجوز خرفانة وقد نالت ما تستحق! رغم أنني أوصيتُ الشباب ألا يمعنوا في إيذائها.. قلت تحذيرها فقط!

- إذن! أنت!..

- نعم أنا! أنا أعرف كل شيء! القنطرة وعملية العريضة.. دورك وكما قلتُ لك، قريباً ستأخذين حقك من التقدير وعندما يحين الوقت المناسب ستعرف القرية كلها من هي عزيزة الخيال، بنت القبرصية وبنت الشهيد عابد الخيال!!

نهض واقفاً وهمّ بالانصراف، لكنه عاد وقال:

- انتظري التعليمات. هناك عملية جديدة لكنها ليست في العريضة هذه المرة..

في المساء عاد جميل من الدكان الذي افتتحه حديثاً.. ولاحظتُ أن نقوداً كثيرة تملأ محفظته وجيوبه.. بعد الخروج من السجن تغيّرت أحوال جميل، انقطع عن العمل في البيّارات والكروم ثم اشترى ملابس جديدة وزادت "روحاته" إلى غزة.. وبعد شهور قليلة افتتح هذا الدكان.. ادعى جميل أن صديقه خليل بصّبوص ساعده بالمصري.. لكنني أعرف خليل بصّبوص وزوجته سماهر.. تموت النخوة عندهما في موضوع النقود "كله إلا المصري".. ولم يكن الدكان مزدهراً رائجاً.. لكن النقود كانت تلعب بين يدي جميل، وسألته:

- هل الدكان يُربح كل هذه الأموال؟ إذن، لماذا لم يظهر ذلك على خليل بصّبوص وكامل كرّاز و خليل سمارة وغيرهم من أصحاب الدكاكين؟

- ليس الدكان فقط! أنا بشتغل في التجارة..

- أي تجارة؟

- كل شيء.. الملابس والأدوات المنزلية و.. الأراضي..

- الأراضي؟ هل هناك تجارة في الأراضي هذه الأيام؟!

- بعيدين.. بعيدين بتعرفي..

وتهامستُ القرية حول قصة تجارة الأراضي.. "الأفندية بدأوا في بيع أراضيهم هرب معظمهم إلى خارج البلاد وبعض السماسرة يشتري أراضي الأفندية سرّاً.. وتساءل الناس عن أولئك الذين يشترون أراضي الأفندية.. وراجتُ بعض الشائعات عن الأموال التي "جرت" في أيدي هذه الفئة بعضهم قال: هذه أموال المنظمة وبعضهم قال هذه

أموال المخابرات الإسرائيلية وبعضهم قال هذه أموال تجار كبار من غزة لا يريدون الظهور الآن.. وسألتُ جميل حب الرّمان مرة أخرى:

- من وين حصلت على النقود؟

- قلتُ لك أن خليل بصبّوص ببساعدي..

- بعرف خليل وزوجته.. ما ببساعدوا مسلم في دخول الجنّة..

- استدنتها من صديق في غزة..

- جميل.. هل هي أموال المنظمة؟

- آه.. آه.. لكنني لا أستطيع الإعلان عن ذلك.

المنظمة ترسل نقودًا إلى جميل حبّ الرّمان؟! هذا غريب!! وما الهدف من شراء الأراضي الآن؟ ووجهت السؤال إلى الأستاذ زاهر:

- تخشى المنظمة وقوع الأراضي في أيدي الإسرائيليين وتكرار القصة القديمة التي حدثت عام ١٩٤٨، عندما هرب الإقطاعيون العرب بعد أن باعوا أراضيهم للوكالة اليهودية.. إنّه تصرف حكيم من المنظمة..

ولكن هل جميل هو الشخص المناسب لهذه المهمة؟ لقد سُجن جميل بالصدفة! بعد عملية العريزة وجدوه في طريقهم واعتقلوه ثم أصدروا عليه حكمًا بالسجن سنة ونصف ظلمًا.. لم تكن له علاقة بالعملية ولا بالوطن كله! هل اعتبرته المنظمة "مناضلًا" وأرسلت له النقود لينجز هدفها "الوطني"؟! لماذا لم ترسلها إلى الأستاذ زاهر أو إلى أي شخص عاقل غيره؟!...

عندما دخلتُ إلى دار عمي عوض الشَّاهد استقبلتني عمتي أم إبراهيم بالأحضان والقبلات، وبسرعة أرسلتُ في استدعاء ابنتها فاطمة ثم أدخلتني على عمي عوض.. كان عمي عوض الشَّاهد ممدداً على فرشاة قطنية وبدا نحيلاً مصفر الوجه.. انحنيتُ عليه وقبلت يديه وجبهته وأجهشتُ بالبكاء.. رفع يده المرتعشة، قرَّب رأسي ثم قبلني في جبهتي وقال بصوت ضعيف:

- أنا سمعت الصَّفير (والتفتُ ليتأكَّد أن لا أحد غيرنا في الغرفة) سمعتك عندما أعطيت الإشارة.. ثلاث مرات للتأكيد.. بعدها خرجوا.. ومشطوهم.. طالعة لأمك.. طالعة للقبرصية!!

- عمي شدَّ حيلك.. شدة وتزول.. إن شاء الله ترجع لك الصحة وتصفّر أنت المرة الجاية..

- إن شاء الله.. الله يرحم أمك.. عزيزة أنا غلظت في حقك.. بليتك في واحد نذل سامحيني.. سامحيني يا عزيزة..

ودخلتُ فاطمة تسحب ابنها وهجمتُ عليَّ تمطرني بالقبلات:

- هيك.. هيك يا عزيزة هالقد قلبك قاسي..

- خلص.. خلص يا فاطمة اللي فات مات.. اسمعي يا فاطمة فيه ورقة، مكتوب مسكّر، هناك فوق، في الجراب هاتيها واطلعي عندي كلام مع عزيزة..

كانت الرسالة مقتضبة وموجَّهة إلى (المناضل) عوض الشَّاهد وكانت مذكرةً بختم المنظمة وتوقيع قائد معروف.. "تهديكم القيادة تحياتها وتشد على أياديكم جميعاً.. ونفيدكم أننا لم نتصل بالمدعو جميل حبّ

الرّمان ولم نرسل له نقودًا ولم نكلفه بأية مهمة.. هذا للعلم وإنها
لثورة حتى النصر"

- هناك نسخة للأستاذ زاهر.. بعرف أنه زارك في العريزة..

دخلتُ أم إبراهيم حاملة بعض البرتقال.. كانت عمتي أم إبراهيم
"تُخزن البرتقال دائمًا، تدسه في التبن وتدّخره للضيوف الأعزاء..
مسحتُ جبهة عمي عوض المبلّلة بالعرق.. ودلّكتُ يديه المرتعشتين
ثم تناولتُ حبتين من البرتقال وخرجتُ مع فاطمة إلى صحن الدار..

بعد أسبوعين مات عمي عوض الشّاهد.. وفُجعتُ مرة أخرى! بكيتُ
عليه كما بكيتُ على أمي! مات عوض الشّاهد بعد أن زرع الشك في
داخلي، كانت الرسالة المقتضبة كافية لأن تزرع الشك وتغمرنني
بالحيرة.. إذن! فأنا متزوجة من رجل مشبوه!! ليس رجل تكرهه
الدنيا كلها فقط، بل رجل تلعب النقود المشبوهة في يديه وتلوك
سيرته الألسن من جديد! لكن المصيبة أن هذا الرجل هو زوجي
ووالد ابني شادي! ابني الذي يملأ الدنيا عليّ ويعوضني عن عذابات
السنين و"خبّطات" القدر الظالمة! ماذا أفعل؟! كيف أتصرّف؟! هل أقنع
جميل بالتوقف عن هذه الجريمة والابتعاد عن المحظور؟ هل أطلب
منه أن يتوقف ويبدأ حياة جديدة نظيفة؟ عليّ أن أجرب! لم يكن
بإستطاعتي أن أكشف لجميل سر تلك الرسالة التي وصلت من
القيادة.. ودرتُ حول الموضوع.. لمَحْتُ له عن الشائعات التي تدور
حوله وحول مصدر النقود التي تلعب بين يديه! لكنه لم يكثرث! وظل
متشبّثًا بموقفه "هذه النقود من المنظمة ولا أستطيع إعلان ذلك"

وفجأة أطلقت على جميل أربع رصاصات كان في ميدان فلسطين
بغزة.. قالوا إنه كان هابطاً لتوّه من إحدى السيّارات المشبوهة..
أطلقت عليه الرصاصات فخرّ متخبطاً في دمائه وهرعتُ إليه في
مستشفى الشفاء.. كانت الإصابات في فخذ الأيسر ويده اليمنى،
وعندما عدتُ إلى البيت سلّمني الأستاذ زاهر رسالة من القيادة
وكانت باسم المناضلة عزيزة عابد الخيال!!..

خالد الربيع

لم أكن أعرف أن لدمشق هذا البهاء! لم أكتشف سحرها إلا بعد وصول كوثر! أيهما أكثر بهاء؟ نهار دمشق النشيط الحافل بالناس والحياة ورائحة التاريخ أم ليلها، الساحر العذب الحاني على العشاق؟! .. عندما وصلتُ كوثر مع سميرة، قطعنا دمشق طولاً وعرضاً.. تجوّلنا في الأسواق و"تبضّعنا"، زرنا المساجد والآثار القديمة.. ومشينا في الشوارع التي تجوبها درّاجات "التروल्ली" الزنّانة.. وكنا دائماً ننهي مشوارنا بمخيم اليرموك، حيث هيّا لنا "الشباب" سكناً مؤقتاً.. وفي الليل كنا نهيم ببعضنا! نجلس في زوايا الحدائق والكازينوهات المنتشرة على نهر بردى.. اكتشفنا دمشق.. اكتشفنا أننا لم نكن نعرف "الشّام"! وأن زيارتنا القليلة لها لم تكن كافية لأن نعرفها.. هل كانت المرأة دليلنا إلى دمشق، دليلنا في اكتشافها جمالاً جديداً أضيف إليها، ففجّر الحنين إلى المكان والتاريخ والسّحر؟! بعد أسبوع من وصول كوثر وسميرة تزوجنا.. تزوجنا في يوم واحد.. بل في ليلة واحدة.. تزوجنا في مخيم اليرموك.. ولم

يُقصِّر الشباب!! كان العُرس فلسطينياً خالصاً، وكانت كوثر في أبهى حالاتها.. كنتُ أنظر إليها فتعتريني رعشة لذيدة.. وأتساءل: هل هي حقاً بجانبني وستكون بعد قليل زوجتي وعالمي الجديد؟! كانت منتشية جذلي.. ترقص وتغني وتضحك، وتغوص بعذوبتها في أحشائي..

وبجوارها جلست سميرة، سعيدة هادئة ودودة تغيّرت سميرة! بدت وكأنها فتاة غير التي عرفناها! لم ترقص إلا بإشارة من إبراهيم وهمس إبراهيم في أذني ونحن جالسين في "الجلوة":

- اكتشفت اليوم أن سميرة تشبه عزيزة الخيال! تشبهها في أشياء كثيرة طولها استدارة وجهها وابتسامتها.. حتى في كلامها إنها تتحدث مثلها تماماً..

بعد أسبوع من زواجنا أخبرتني كوثر ب وفاة والدها الحاج صادق العرابي حزنتُ على ذلك الرجل الودود الشهم.. وعاتبته:
- لم يكن من اللياقة أن نعمل عرساً، والدك متوفى.. لماذا أخفيت الخبر عني؟

- كان من الضروري أن نفرح.. انتظرنا هذا اليوم سنوات عديدة.. كنت في انتظاري وكان لابد وأن نمسك بالسعادة التي انتظرناها.. لقد انتظرتني طويلاً! وأسبوعان ليسا بالوقت الطويل! عندما سألتني عنه في المطار كنتُ على وشك أن أخبرك لكنني شعرتُ بلهفتك وأشواقك وفرحتك.. لمسئها في يديك وتعبيرات وجهك وبريق عينيك، لمستها في ارتعاشة بدنك كله!! ثم أنني تذكرتُ وصية أخي إسماعيل فقررتُ أن أتماسك.. عندما ودعني إسماعيل في المطار شدّد على وصيته "لا

تفجعيه بالخبر! افرحوا ببيعكم أولاً.. اقتنصوا لحظات السعادة مَن
يدري ماذا تخبئ الأيام؟"

واقتنصنا لحظات السعادة.. سرقنا من الزمن وقتًا مقتطعًا للفرح
وذهبنا إلى الشهباء.. سهرنا مع القدود الحلبية والموشحات وعانقنا
قلعة حلب والبحر حتى الفجر، تجولنا في المدينة النابضة بذكريات
الأجداد الفرسان ثم عدنا..

في بيروت، استأجرنا شقة مشتركة في "الفكهاني"، وأرخصى الزمن
حبال مودته لنا.. كان إبراهيم الشاهد راعي البيت والمسئول عن
المصاريف.. وكنتُ أعود من الجنوب، لأجد الجميع متلهفًا مشتاقًا!
كنا نذهب إلى الرملة البيضاء مكاننا المفضل - نأكل الآيس كريم أو
الفروج المشوي وفي يوم آخر نصعد إلى شتورة أو بحدود، أو
نهبط إلى سوق سرسق ووسط المدينة.. وكان إبراهيم يأخذنا في
بعض المرات "للقصدة" في طريق المطار.. كان "يغزمننا" على ذلك
الشراب اللذيذ! "جلاّب بالصنوبر".. كان الباعة يعرفون "إبراهيم"،
وعندما نصل إلى أحدهم كان يغني بصوته الجميل "برهوم حاكينا..
جلاّب نادينا" وتضحك كوثر، تداعب إبراهيم وتقول "جلاّب الهوى..
ياالله يا برهوم، متكسّش الراجل.. وفي يوم الجمعة، كنا نذهب إلى
سوق الخضار في مخيم صبرا وهناك نخرج على بيت أم سعيد..
نطمئن عليها، وتجلس نبيلة مع كوثر وسميرة.. أصبحت نبيلة
صديقة لهما.. كانت كوثر وسميرة تقدمان الهدايا لطارق، وتداعبانه
بمرح، فتقول أم سعيد: إن شاء الله عن قريب نشوف أولادكم ونفرح

بيكو.. تنظر إلى بطن كوثر وتسألها: كم شهر؟ فتجيبها كوثر: أربعة شهور يا خالة.. وتسال أم سعيد: وأنت يا سميرة فتجيبها بفرح: ثلاثة، ثلاثة شهور يا عمتي.. يا رب ابني يطلع شبه برهوم، يا رب.. ويضحك إبراهيم ويقول: ولد ولا بنت، اللي يجيبه ربنا كويس.. وأنظر إلى كوثر وأقول: أمّا أنا فابنتي أريدها مثل أمها.. ونضحك جميعاً..

أحاطتني كوثر بشلال من الحب والرعاية.. لكنها كانت تخفي عني توترها وخوفها! كانت سميرة تخبرني عن خشيتها عليّ أثناء غيابي.. كانت قلقة على حياتي بعد أن رأت جثامين الشهداء محمولة على الأعناق.. أعطتني كوثر كل ما أشتهيه، ومنحتها بدوري كل ما شعرت أنها بحاجة إليه.. كنتُ أشعر أنني ظلمتها معي.. وأنها أكثرنا حاجة للحنان.. وكنتُ أقول مداعباً -جاداً- تورطت معي أيتها الثرية الفاتنة.. مالكِ أنت وحياتنا وقدرنا؟ تتركين أرض النيل، الساحرة الهائلة وتأتين إلى هنا، لتكابدي معي، أنا اللاجئ المطارد المسكون بهموم الوطن والناس الكادحين.. وكانت تغضب ويتدفق الدم إلى وجهها الجميل.. فأصالحها وأعتذر لها.. وعندما تصفو، وتعود إلى ملائكتها، كانت تقول:

- لا تقل هذا مرة أخرى.. ثم لا تنسَ أنني حفيدة أحمد عرابي.. يعني الكفاح والنضال يجريان في دمي.. ثم إنك لم تجبرني على شيء.. فعلتُ كل شيء باختيارى وإرادتي.. وأنا سعيدة بذلك..

والله.. والله لو ما سكت لأروح معاك للجنوب وأعيش معك في القواعد..

كانت كوثر عاشقة مجنونة تعطي بلا حدود فتبهمني ويزداد جنوني بها يوماً بعد يوم.. وعاد إبراهيم إلى مشاكسة سميرة ومداعبتها.. أصرَّ على مناداتها باسمها "الحركي" القديم سميرة تونج!! اسمها الذي نسيته من أجله.. واكتشفت أن إبراهيم يحب تدليلها به، اكتشفت أنه لا يكرهه.. كانت سميرة تتفنن في تلبية رغبات إبراهيم واسترضائه.. كانت تعرف أشياء كثيرة عنه.. الأشياء التي ينفر منها، والأشياء التي يفضلها! أحضرت ذات يوم قدرة فخّارية صغيرة - لا أدري أين عثرت عليها!.. كانت القدرة مغطاة وملفوفة بقطعة من القماش وبدأت كأنها خرجت من القرن للتو.. وقبل أن نسألها، قالت:

- عشاؤكم الليلة من هذه القدرة.. طيبخ شهى لذيذ.. عدس وفول وأرز وبصل.. مخلوطة برهوم العجيبة!!

وفتحت غطاء القدرة فاستنشق إبراهيم الرائحة الفاتحة ثم صاح:
- يخرب بيتك! كيف عرفت أنني أحب هذا الطعام؟! ومن أين أتيت بهذه القدرة من فتح لك كتاب طفولتي وأشياء المنسية؟ توقعت كل شيء في بيروت إلا هذه القدرة! أنا نفسي نسيته! سميرة، أشهد أنني أحبك!!..

- ليست القدرة فقط يا برهوم أنظر! هذه الأشرطة أيضاً!.. كل الأغاني والقصائد التي تحبها تجدها هنا.. وهذا! هذا شريط سُجِّلَتْ

عليه قصيدة الهرم الرابع لنزار قبّاني.. بصوته، سمعتك تترنّم
بمقاطع منها:

يامن بتساءل: هل يأتي عبد الناصر؟
السيّد موجود فينا..

موجود في أرغفة الخبر، وفي أزهار أوانينا
مرسوم فوق نجوم الصيف، وفوق رمال شواطئنا
موجود في أوراق المصحف في صلوات مصلّينا..
واحتضنها إبراهيم فضحكتْ كوثر.. ضحكتْ حتى اغرورقت عيناها
بالدموع وأصابتها الغصّة.. خشيتُ عليها وعلى الجنين، قفزتُ
وناولتها كوب الماء.. جرعت قليلاً من الماء.. مسحتُ دموعها
وتنهدت، ثم قالت:
- يا جماعة سميرة عارفة وحافظة كل حاجة بيحبها إبراهيم..
وعارفة كمان إته..

لكزت كوثر في يدها بخفة.. فمسح إبراهيم جبهته ثم قال:
- الآن زوجتي وحبيبتي سميرة.. على فكرة أنا حكيت لها كل
شيء..

- طيّب أيش رأيكم أنا ما بكره عزيزة الخيال! بالعكس أنا متلهفة
لرؤيتها والتعرف عليها.. نفسي أشوف الفتاة التي سلبت عقل هذا
الرجل! من تستطيع فعل ذلك لا شك أنها تستحق الاحترام.. مش هيك
حبيبي برهوم!!

في الجنوب في ورشة التسليح كنتُ منهمكًا في العمل كُنّا جميعًا مشغولين بقضية واحدة.. بعد إنجازاتنا في مجال الذخائر والرشاشات الخفيفة، كان لابد من تطوير ذلك النوع من الصواريخ المضادة للدبابات.. كان لابد من تحسين أدائه وجعله خفيًا على الحمل والتصويب من مسافة ليست خطيرة على الأفراد.. وسهرتُ ثلاث ليالٍ لإعداد الرسوم ثم عرضتها على الرفاق وهتف المهندس المصري عندما رأى الرسوم:

- هایل.. هایل يا خالد.. هكذا يسهل حمل الصاروخ على الكتف، وتصبح الإصابة به أكثر دقة.. وأيضًا المسافة تصبح آمنة على الرفاق.. والآن دور المخرطة والرفيق جاسم.. يا الله يا "أبو فرات" وربنا الهمة

- حاضر عيني.. ماكو مشكلة.. أسبوعان أو ثلاثة وإن شاء الله يكون النموذج الأول بين أيديكم..

- إيدي على إيدك يا أبو فرات..

ودعك المهندس اللبناني جبهته، ثم قال:

- هَيْك الأمور تمام.. طيب، ما رأيكم أن نعطي الصاروخ اسمًا جديدًا.. أنا أقترح أن نسمّيه على اسم الرفيق خالد، تقديرًا لدوره.. في الدول المتقدمة هَيْك بيعملوا..

- لا لا يا جماعة، أنا رأيي نسمّيه على اسم الشّهيد "تضال" الذي بدأ معنا المشوار واستشهد قبل أن يفرح بالإنجاز..

أذكر الآن أن ذلك كان في شهر يوليو ١٩٧٣، في أواخر يوليو.. تأخرتُ على كوثر، فاتصلتُ هاتفياً وذكرتني بعيد زواجنا الأول.. نزلتُ إلى بيروت واحتفلنا.. تبادلنا الهدايا والقبلات، وقطعنا "التورته" وصفقنا وغنينا واحتضنا الصغيرين.. كان ثائر ابني قد دخل في شهره الرابع، وكانت لُمى ابنة إبراهيم، قد أكملتُ شهرها الثاني وعندما جلستُ مع إبراهيم في الشرفة قال:

- أنت سعيد! لكنني لا أعتقد أن عيد الزواج وحده السبب! أنا أعرفك.. ابسطني معك يا أبو ثائر..

- هناك مفاجأة يا إبراهيم.. حققنا إنجازاً هاماً، سأخبرك عنه في الوقت المناسب.. طلبتُ القيادة عدم إفشاء الخبر، وكذلك أمرتُ عدم استخدام..

- فهمت.. خالد، أنت رجل عظيم! أنتَ بطل، وإعجابي بك يزداد يوماً بعد يوم..

وسال قلم إبراهيم، بعد اختفائه عاماً كاملاً.. كتب قصتين جديدتين.. ثم نشر مجموعته الأولى.. حملتُ اسم القصة التي كتبها عن أبو الشريم "السوس".. ثم كتب عدة خواطر.. وأخيراً، كتب مقالاً رامزاً، ثم ألحقه بمقال لاذع..

وبدأت حرب أكتوبر فانتعشنا، دخلنا إلى عمق العدو كُتِفْنَا عملياًتنا وقذفنا المستوطنات ومعسكرات العدو، سقط منا شهداء كثيرون، وجرحى كثيرون حملنا بعض الشهداء عدنا بهم إلى القواعد.. وتركنا البعض في الأرض حسب وصيته "إذا استشهدتُ داخل الوطن لا

تحملوني! اتركوا جسدي في الأرض لتشرق عليه شمس الوطن
وتزقزق فوق روحه عصافير الوطن.."

وتوقفت الحرب، فعاد إبراهيم إلى مقالاته اللاذعة.. وفجأة حاولت
سيارة مجهولة دهس إبراهيم، وأطلقَ مَنْ فيها رصاصتين.. أخطأته
واحدة لكن الثانية اخترقت يده اليمنى.. هرعتُ إليه في المستشفى
كانت يده معلقة ملفوفة بلا حراك. تهلل إبراهيم عندما رأيته وعندما
قبلته قال:

- شلّو يدي يا خالد يريدون التخلص مِنّي.

في المستشفى تقدّم مني شاب نحيف طويل القامة سلّم وقدّم نفسه
فعرفتُ أنه من أقارب إبراهيم وفهمتُ أن الشاب قد حضر منذ أيام
للتسجيل في جامعة بيروت العربية.. استأذني في خمس دقائق على
انفراد فخرجتُ معه إلى الحديقة الملحقة بالمستشفى، وعندما وصلنا
إلى النافورة الصغيرة بدأ الحديث مرتبكًا:

- أستاذ خالد لا أدري كيف أبدأ لكن هناك خبرًا لا بد أن تعرفه لقد
توفي عمي عوض الشّاهد وأنا في حيرة من أمري! هل أخبر الأستاذ
إبراهيم بالنّبا المفجع وهو في هذه الحالة؟ أم أخفي الخبر فأكون
مسئولاً ومُلامًا أمام خالتي أم إبراهيم!! لقد ألحّت عليّ أن أخبر ابنها
وأشرح له حال الأسرة بعد وفاة العائل.. في الحقيقة طلبتُ مني أن
أعود إليها ومعني "شوية مصري" من الأستاذ إبراهيم!! أستاذ خالد،
أنا حائر..

أخبرت كوتر بوفاة عوض الشَّاهد ونقلتُ لها حديث الشَّاب عن ظروف الأسرة بعد الوفاة.. وبعد أسبوع فوجئتُ بها تُخرج من حقيبة يدها رزمة من الأوراق النقدية:

- خذ يا خالد.. خذ هذه النقود.. وأعطها للشَّاب، قريب إبراهيم، نصف المبلغ لأهل إبراهيم، والنصف الثاني لأهلك.. أنت لم ترسل لهم نقودًا منذ أن تخرجت من الجامعة!.. أخبر الشَّاب أن يقول لأهل إبراهيم أن النقود منه، وشدّد عليه كذلك ألاّ يخبرهم بالحادثة..

- ومن أين أتيت بهذه النقود الكثيرة؟!

- وفرتها من مصروف البيت!

- من المصروف أم من الشرقية؟!

- أوه يا خالد.. ثاني!!

كنتُ أعرف أن نقودًا تصل إلى كوتر من حين لآخر! كان شقيقها إسماعيل يرسل لها النقود من حين لآخر تحدثنا في الموضوع وتجادلنا!! غضبتُ وطلبتُ منها أن تتوقف عن ذلك وبيّنتُ لها أن هذا الأمر يضايقتني ويحرجني!! لكنها كانت دائمًا تدافع عن موقفها بل تصرُّ عليه وها هي تكرره مرة أخرى:

- لا فرق بيننا فلوسي هي فلوسك.. نحن معًا على الحلوة والمرّة.

اتفقنا على هذا وانتهى الأمر.. هذه فلوسي ميراثي من أبي..

إسماعيل أخي صحيح لكنه لا يرسل لي من جيبه الخاص..

- يعني حقك أنت.. فلوسك أنت..

- اسمع يا خالد.. ألسنا وإبراهيم وسميرة أخوة؟! يعني لازم نقف معهم، نسد مكانهم! ألم يقف إبراهيم معك في مراتٍ عديدة؟!.. وكذلك أهلك مثل أهلي! حبيبي.. خذ الفلوس علشان خاطري.. أعطها للشَّاب وتوكَّل على الله.. والآن اضحك.. اضحك.. تعرفني لا أحب هذه التكشيرة.. اضحك يا الله يا أبو ثائر، تأخرنا على إبراهيم وسميرة.. ثم تعلَّقت في رقبتى، وقبلتنى..

مضى شهران وذراع إبراهيم ملفوفة هامدة.. أجريتُ خلالهما عمليتان لليد المعطوبة.. وبدأت أحوال إبراهيم في التدهور.. لم يعد يمليني ويطلب مني أن أتمهَّل في الكتابة.. عاد إلى التدخين! ولم يعد يتناول الطعام إلا بعد معارك طاحنة معنا!! لجأ الأطباء إلى حقن التغذية، أجبروه عليها.. وبجواره، تدهورت صحة سميرة.. كانت سميرة ذابلة العينين، مثعبة، فاقدة الحيلة مع هذا القروي العنيد!! نصحها الأطباء بالانتباه إلى صحتها والإهتمام بطفلتها، ثم أمروها بمغادرة المستشفى!! لكنها ظلَّت تغافل الأطباء والمرضى وتصل إلى "حبيبها" برهوم..

بعد العملية الثانية، لاحظتُ شيئاً لافتاً! كلما ذهبتُ لزيارة إبراهيم كنتُ أجده ممسكاً ببعض الأوراق يخطط عليها بالقلم، ويحاول الكتابة بيده اليسرى.. كان خطُّه متعرجاً مضحكاً.. وحاول إبراهيم مرة ثانية.. كان إبراهيم مُصرّاً على تعلُّم الكتابة بيده اليسرى!! بعد شهر، اعتدل خطُّه وبانت حروفه..

وجاء الطبيب! طلب من إبراهيم تحريك أصابعه.. حاول.. لكنها لم تستجب.. لم تتحرك الأصابع.. كانت جامدة متشنجة. نظر إبراهيم إليّ.. أمسك القلم بثبات، وكتب بيده اليسرى صفحة كاملة.. ثم كتب صفحة ثانية.. وثالثة.. وكانت جميعها مقروءة واضحة الحروف!! عندها، فكّ الطبيب الرباط الأبيض المقيت ثم دوّن في بطاقة المريض الإذن بالخروج..

أتذكّر الآن تلك اللحظات.. أتذكر أنني نظرتُ إلى أصابع إبراهيم المتشنجة ثم أدّرت وجهي.. كان إبراهيم واقفاً بكامل هندامه، متأنقاً، ممسكاً بأوراقه وقلمه بيده اليسرى.. وأذكر أنني ابتسمتُ له وعبرتُ عن إعجابي بأنافته!! وعندما أكملتُ سميرة تنظيف حذاءه، وضع قدميه في الحذاء ثم خرج من الغرفة.. مرّ على غرفة الأطباء، شكرهم، حيّا المرضى، مرّ على عنابر المرضى، تمنّى لهم الشفاء، ثم هبط درجات السلم، أماننا، نشيطاً مبتسماً!!

منّ منّا البطل يا صديقي؟! كان إبراهيم يناديني في أحيان كثيرة، بكلمة "بطل"! لكنني أدركتُ يومها، أنّه بطل كبير! وعندما عبرتُ له عن ذلك، ابتسم وقال:

- الأبطال هم الذين يعملون بصمت في القواعد!!

بعد شهر من خروجه سأل إبراهيم عن الشّابّ النحيف الطويل، قريب أمّه! أخبرته سميرة أنّه سافر، وسيعود إلى لبنان في شهر يونيو.. ثم أخبرته أنا بوفاة والده.. بكى إبراهيم! بكى بحرقة واعتزلنا يومين كاملين.. وفي اليوم الثالث تكلم:

- لا شك أنهم في ضائقة بعده كان من الضروري أن أرسل نقوداً..
- النقود وصلتهم يا صديقي..
- أرسلتها أنت.. إذن فعلتها!
- ألسنا أخوة على الحلوة والمرّة ولازم نسد مكانك؟!
- آه.. فهمت!! أين وجدتما بعضكما؟! هل أنتما من هذا الكوكب؟
- تتفانيان من أجل الآخرين! كم أنتما رائعان!..
- أنت تعلم أين وجدنا بعضنا! في الجامعة التي تخرجت منها! وتعلم أننا من هذا الكوكب أيها القروي المخلص..
- وفجأة، سأل إبراهيم عن أم سعيد.. دُهِشَ عندما علم أنها لم تقم بزيارة سميرة وكوثر أثناء وجوده في المستشفى.. حتى أنها لم تزره هو!! وقرر إبراهيم أن نذهب إلى بيت أم سعيد.. لكننا لم نجدها هناك! ولم تكن نبيلة ابنتها هناك! وجدنا في المنزل خمسة من شباب الجبهة الديمقراطية، استأجروا المنزل وحوّوه إلى مقر للجبهة! كانت الصور والرسومات والشعارات والرّشاشات تملأ المنزل.. عندما سألنا "الرفاق"، فهمنا أن صاحبة البيت قد أجّرتة وغادرت لبنان!! قالوا إنها التحقت بابنها في الخليج.. وقالوا إن ابنتها أخذت طفلها وذهبت إلى سوريا، حيث يقيم أعمام طارق وأهله..
- وتساءل إبراهيم، ونحن في طريق العودة:
- هيك فجأة! لكنها لم تلمح إلى نيتها في الالتحاق بابنها! ونبيلة! لم تتحدث يوماً عن رغبتها في الذهاب إلى سوريا! ما الذي حدث فجأة؟! خالد، أشك أنهم قد وصلوا إليهما!!

- تعني أبو الشوارب وجماعة أبو الشريم!!

- أعني أن المرأتين لم تغادرا لبنان طوعاً، بل خوفاً..

كلما نزلتُ إلى بيروت، كنتُ أذكرُ إبراهيم بمسؤوليته الجديدة في إعالة أسرته وألج عليه في ضرورة تحمل هذه المسؤولية.. لكنني توقفتُ عن ذلك فجأة! خشيتُ أن يفهمني إبراهيم بطريقة خاطئة تؤثر في صداقتنا الطويلة الحميمة! خشيتُ أن يفهم إبراهيم أنني أخاف على نقودي، ونقود كوثر! كان الموقف دقيقاً حساساً! ذكرتُ إبراهيم بالرسالة التي وصلته من أحد أصدقائه في ليبيا.. شجّع صديقه على القدوم للعمل في الصحافة هناك.. لكن إبراهيم ظلّ يردد عبارة واحدة "لن أهرب.. لن أهرب"..

كنتُ خائفاً على إبراهيم وكانت مسؤولية العائلة وظروفها ذريعة لإقناعه بمغادرة لبنان.. كنتُ أخشى على حياته، خاصة بعد أن حفظ التحقيق في محاولة اغتياله وطويت الملفات!! مَنْ يضمن أين ستستقر الرصاصات في المرة القادمة؟! إبراهيم عنيد لاذع في قصصه ومقالاته، و"الجماعة" لا يحسبون حساباً لأحد، ولا بد أنهم سيحاولون مرة أخرى!!..

في بداية يوليو عاد الشَّاب النحيف الطويل.. قال إن الدوائر الأمنية الإسرائيلية كادت أن تمنعه من السفر.. أحضر رسالة وصورة من عائلتي وأحضر لإبراهيم رسالة وهدية، صُراً حوت بعض المواد الغذائية الجافة ألحّت أم إبراهيم على الشَّاب فحملها المسكين عبر البلاد والمطارات قبل إبراهيم صُراً أمّه ثم فتح الرسالة.. وعندما

قرأها تغيّرت ملامحه وتجهّم وجهه.. خطفتُ الرسالة من يده،
وعندما قرأتها عرفتُ أن زوج فاطمة شقيقة إبراهيم قد استشهد!!
نظر إبراهيم في وجوهنا ثم نهض واقفاً:
- يبدو أنني سأهرب.. سميرة جهّزي حقائب السفر..

جميل حب الرمان

هذه القرية تكرهني! تحتقرني! أعرف ذلك! وأعرف أنها تتمنى أن
أختفي منها، أن أغور وأذهب إلى جهنم! حاولوا أن يرسلوني إلى
جهنم! حاولوا قتلي، لكنهم فشلوا، قطرة بسبعة أرواح!..

والآن ها أنا أتحرك أمام عيونهم، الآن كلهم يخشونني، يحسبون لي
ألف حساب، وبعضهم يأتيني سرّاً، ليطلب مساعدتي، المسألة في
حجرك يا أبو شادي، وأنت قدّها وقُدود! إنهم يتوددون لي يتملقونني،
أصبحت (أبو شادي)، لم أعد جميل حب الرمان، الذي سخرت منه
النساء، وتقاذفته بالسنتها وتهكمها، لم أعد ابن الجنكية، الذي أهانه
الشباب واحتقروه، ولكزوه في مؤخرته ولم أعد جميلة الرقاصة..

كنت في العاشرة من عمري عندما سحبتني أمي وراءها وجاءت إلى
هذه القرية.. اختفي والدي، زاهي الغندور، هرب مع امرأة أخرى،
فهمنا - أنا وأمّي - على وجوهنا في القرى والمخيمات، حتى وصلنا
إلى هذه القرية، (وأطنبنا) على أهلها! عليّ أن أعترف أنهم عطفوا
علينا ومنحونا الأمان والمأوى، تفضّل أحد الأثرياء علينا بغرفة،

عشنا فيها في طرف البلدة، وبدأت أُمي تلتقط رزقها في البيّارات والكروم، ثم استغلت معرفتها بالرقص والغناء، بدأت في إحياء المناسبات النسائية، حفلات الطهور والحناء وأسابيع الولادة، وسارت أمورنا يسيرة هادئة حتى ظهر في حياتنا ذلك الشيطان،

عدنان الهائج، ذلك السكير، الذي دمرنا وحول حياتنا إلى جحيم!!
أذكر أن أُمي طلبت مني أن أذهب إليه، في بيّارة الأفندي، كان ناطوراً في تلك البيّارة، وكان ذلك بعد وصولنا إلى القرية بعام: تذهب إلى عمك عدنان وتقول له: أُمي بتسلم عليك وبتقول لك أعطيني شوية ليمون وذهبت إليه دخلت في سياج البيّارة، وعندما وصلته كانت عيناه محمرتين ذابلتين، نظر إليّ، فارتعشت.. مسدّ على رأسي وخدي، ثم سحبني إلى داخل البيّارة، وعند شجرات الكيرفوت الكبيرة قبض على رقبتني وأظهر خنجراً مخيفاً، أمرني أن أمسك بجذع الشجرة.. مسدّ شاربه الكثيف، فكّ سرواله ثم رفع جلبابي و.. صرخت.. وضع يده على فمي هددني وأمرني بالصمت.. وعندما فرغ من فعلته، ملأ الجراب بالليمون والرمّان ثم قال:

- سلّم على أمك وقل لها موعدنا يوم الجمعة.

لم أسأله عن الموعد.. كنت موجوعاً خائفاً مرتعشاً، أخذت الجراب، وعندما تحرّكت شعرت بآثار فعلته الرهيبة.. لم أخبر أُمي بما حدث، وفي يوم الجمعة طلبت أُمي أن أذهب وأجمع بعض الحطب من البيّارات والكروم، لكنني كنت قد أضمرت أمراً.. تظاهرت بالذهاب ودرت حول البيت، وجلست تحت شجرة قريبة، انتظرت حتى

العصر.. ثم جاء رأيته قادمًا، تلقت يمينًا ويسارًا، ثم دخل الغرفة مثل اللصوص.. انتظرت قليلاً ثم صعدت على الحجرين اللذين جهزتهما منذ الصباح، نظرت من الشباك ورأيتهما، أمي وذلك الشيطان يمارسان الفاحشة! نزلت عن الحجرين وجريت، جريت حتى وصلت إلى الحدود! توقفت فجأة ثم بكيت، بكيت، ثم عدت أدرجي إلى القرية..

بعد أسبوع تحولت أمي إلى جنكية، أغواها الشيطان وحولها إلى راقصة أمام الرجال، في الأفراح وأصبحت أنا ابن الجنكية، وتحملتُ وزر أمي.. نزوتها اللعينة، ومجون ذلك السكير الفاسد، وتحملت المهانة والفضيحة، والبهذلة، التي حدثت لنا عندما اكتشفت القرية تلك العلاقة المشبوهة!!

رصد بعضهم خطوات عدنان الهائج، راقبوه ثم ضبطوه متلبسًا بالجرم المشهود، ضبطوهما معًا وقذفونا إلى خارج القرية.. ضربونا بالصرامي والشباشب، ألقوا على وجوهنا القاذورات، وطردونا! وتبرأت عائلة الهائج منه، طردته من حماها، وأمرته بمغادرة القرية وهددته بالقتل إذا عاد إليها..

في الغابة، غرب القرية، بنينا كوخًا بين الأشجار الحرجية، لكن المنبوذ لم يتركنا في حالنا، لحق بنا وأصبح عمي.. تزوج أمي وأخذها إلى الأفراح في القرى والمخيمات، والحارات الشعبية، وعمل لها طبالًا، كانت أمي ترقص وزوجها عدنان الهائج يطبل، يطبل

ويميل برأسه مع نقرات الطبل وينظر إلى خصرها وصدرها بعينيه
المحمرتين!!

حاولت أن أفعل شيئاً فكرت في قتل عدنان الهائج، لكنني لم أستطع
لم أجروا! كان خنجره المخيف يردعني ويجمد الدم في عروقي،
وهربت عدة مرات.. غبت عن الكوخ يومين وثلاثة وأسبوعاً، لكنني
كنت أعود، كنت أشتاق إلى أمي رغم الآلام والإهانات التي سببتها
لي، ولم أستطع إنقاذ أمي، أصبحت فريسة في يد ذلك الشيطان،
عجينة في يديه، يشكلها كما يشاء، علّمها الشرب والحشيش وأعيائها
بالرقص دون رحمة، كانت أمي ترقص وهو يقبض وينفق على
ملذاته ونزواته..

ومرضت أمي كان عمري يومها أربعة عشر عاماً، كنا في إحدى
القرى على وشك بدء الفرح، كان عمي عدنان قد استلم عربوناً
محترماً، عربون ثلاث ليال متتالية.. وأسقط في يده، انتفض وبرم
شاربه، كيف تمرض أمي في هذا الوقت؟! كيف تمرض في بداية
الليلة الأولى، إذن سيعيد العربون، ويفقد بقية الأجرة، ويفقد النقوط،
ويمكن أن يضر بنا أصحاب العرس، كيف نفسد عرسهم، هذا نذير
شؤم وكان لابد من إنقاذ الموقف، وجاءت أمي، زحفت نحوي توسلت
إليّ أن أنقذها.. طلبت مني أن ألبس بدلة الرقص وأضع الماكياج،
والباروكة، والصدّارة وأن أرقص بدلاً منها! أعترف أنني لم أجد
طلبها غريباً، فانا لم أعد أشعر بالإهانة في حالات كثيرة، ابن
الجنكية، معلش ابن الرقاصة، وإيش يعني!.. يتقصّع مثل الجناكي

أضحك.. أضرب على مؤخرتي.. مش مهم، ماذا إذا لبست بدلة الرقص، ما الذي ينقصني جسم ناعم مياس، ووجه أبيض مدور، وعينان عسلتان، وسن ذهبية، ضحوك، ركبتيها لي أمي منذ شهر، صبيّة فاتنة! جميلة! جميل أو جميلة، لن يختلف الأمر كثيراً.
ورقصت جميلة، طافت في المخيمات والقرى والحارات الشعبية..
عامان كاملان، وأنا أضع الماكياج والباروكة، والصدّارة وأضحك بالسن الذهبية وأرقص في كل مكان عدا هذه القرية!
وفجأة مات عدنان الهائج مات في حادثة غامضة، طعنة خنجر نافذة
قضت عليه وأراحنا منه إلى الأبد!!..

أذكر أن عوض الشاهد أشفق علينا بعدها، توسّط لدى مخاتير القرية ووجهائها رقق قلوبهم بحديثه عن حالتنا وعن صحة أمي المتدهورة، فاشفقوا علينا، وأعادونا إلى القرية! وهمس يومها في أذني "بلاش الرقص يا جميل" عيب عليك، ارجع راجل واللي فات مات، وعدت إلى جميل حب الرمان، ولم أعد إلى جميل زاهي الغندور، ولم تنتظر أمي طويلاً، هذها المرض وماتت! ماتت أمي وتركت لي رصيذاً كبيراً من العذاب، من الكراهية، تركت وجعاً مكبوتاً، خزنته في صدري وادخرته للأيام القادمة.

وها أنا اليوم أخرجه وأنفقه في مكانه.. أمارس انتقامي بتلذذ، أمارسه منتشياً، أسترجع كل عذباتي وأوجاعي وانتقم منهم! كل الذين آذوني وأهانوني، الذين تركوني وأمي فريسة لذلك الشيطان! هكذا أفهم أنا الأمور، تركونا فريسة لذلك العرييد، يفتك بنا ويقضي

علينا لا يهمني تفسير القرية للأمور، لا يعنيني قولهم، دافعنا عن قرينتنا، عن تقاليدنا، عرضنا وشرفنا.

لا أريد اليوم أن أحلل الأمور! أن أزنها بالعقل، كل ما أريده أن أثار لنفسي ولأمي، أن أستعيد كرامتي أن آخذ حقي من هذه القرية، من أهلها الذين أصروا على إهانتني واحتقاري! حتى عندما كبرت، عندما قررت أن أكمل نصف ديني، أن أتزوج مثل بقية البشر، رفضوا! رفضوا أن يعتبروني واحداً منهم، رفضوا أن يزوجوني من إحدى بناتهم، لم يقبل أحد من هذه القرية أن أكون زوجاً لابنته، حتى زينب الدودة، لم تقبل بي زوجاً لابنتها الدميمة قصيرة القامة، ابنتها التي تشبهها وتشبه الخنفساء! وكان عليّ أن أبحث عن زوجة من خارج القرية، جلبت الزوجة الأولى من أحد المخيمات لكنها هربت بعد ثلاثة شهور! وجلبت الثانية من مصر، ولم تمكث سوى شهر واحد!! كانت سيرتي الحلوة دائماً تلاحقني وتطرد زوجاتي.. أصابني اليأس، فلم أكرر المحاولة.. سبع سنوات أمضيته بدون زواج قبل أن يأتي عوض الشاهد ويعرض علي ما لم يصدّقه عقلي:

- إلك عندي عروس.. عروس من القرية، مثل القمر.
- بنت من القرية؟! ومن الذي سيقبل بي زوجاً لابنته؟!
- أنا! أنا الذي سيزوجك ويقبل بك.
- أنت تزوجني من؟ ابنتك فاطمة؟
- بل سأزوجك عزيزة الخيال، بنت القبرصية، فقط أريدك أن تصبر وتنفذ كل ما أطلبه منك.

اعتبرت حديثه سخرية جديدة أو دعاية أراد أن يتسلّى بها.. لكنه كرر عرضه فقررت أن أجاريه، لا شيء عندي أخسره، فلماذا لا أجرب؟! وخطط عوض الشّاهد ونفذت كل ما طلبه مني، اقتربت منه واشتغلت معه في قطف الخوخ والبرقوق، عملت في بيّارة الأفندي، معه، وصدحت بالمواويل والأغاني.. لكن القبرصية كانت تكرهني، وكانت عزيزة الخيال تحتقرني ولا تعتبرني رجلاً، وأم إبراهيم وإبراهيم وفاطمة، كلهم كانوا يكرهونني، ولا يحتملون رؤيتي، واكتشفت أن إبراهيم الشّاهد - ابن عوض - هائم في عزيزة الخيال، وأنها تحبه كذلك، اكتشفت ذلك، وتأكدت منه في تلك الليلة الملعونة، عند الجميزة عندما طعننتي عزيزة في ذراعي، ربطتني في الجميزة وطعننتي في ذراعي وبصقت في وجهي، ومثلها فعل إبراهيم! وتيقنت أنها مزحة مريرة، انزويت انقطعت عن عوض الشّاهد ونسيت الموضوع! وفجأة ماتت القبرصية ماتت بـلدغة ثعبان، وأحضر عوض الشّاهد أحد أقارب عزيزة الخيال وجاعني، طلب مني أن أغرق الرجل بالمصاريف والطعام والثياب الجديدة، وفعلت ونجحت خطة عوض الشّاهد، وتزوجت عزيزة الخيال!!

لم تكن مطيعة سهلة، كانت عزيزة الخيال جامحة نافرة، لكنني صبرت عليها، كنت أريدها أن تبقى زوجتي، كنت أعرف أنها أرغمت على الزواج مني، وأعرف أن قلبها مع شخص غيري، لكنني تركتها للزمن، للأيام، تليّن قلبها وتكسر عنادها، إنها بنت القرية ولن تهرب

مثل الأخريات، إنها بنت القبرصية، بنت عابد الخيال، ولا يمكن أن تفعل ذلك!

وصدق حدسي حدث ما توقعته وتغيّرت عزيزة الخيال، لانت وأطاعت، لم تعد تتمنع، لم تعد تعذبني بالصدود والجفاء، عاملتني برقة، واعتبرتني زوجها، قلت: عادت إلى رشدها، وعاد الزمن إلى مصالحتي، وها هي الأيام تصفني وتبتسم لي!! لكنهم لم يكملوا فرحتي، اعتقلني الإسرائيليون ورموني في السجن بدون ذنب أو جريرة، أنا الذي يبتعد عن الشر ويغني له، أنا الذي يمشى بجوار الحائط أنا متهم بالعمل الفدائي، ومساندة المخربين، وحكموا عليّ بعامين ونصف ظلمًا!!

في الشهور الأولى من سجنني أخبرتني عزيزة الخيال بحملها، فرحت! أخيرًا سأصبح أبا! جميل حب الرمان سيصبح أبا، سألتني عن اسم المولود المنتظر قلت لها أي اسم عدا إبراهيم، فقالت ما رأيك في شادي، فوافقت وبعد خمسة شهور أصبحت أبا، أصبحت أبا شادي وأنا في الخامسة والثلاثين..

قبل خروجي بيومين، استدعاني ضابط المخابرات "أبو يعقوب" طلب منّي التعاون معهم، أخبرته أنني رجل غريب في القرية ولست في حاجة إلى المتاعب، لكنه انتفض وقال:

- إلى متى ستبقي مغفلًا؟ لقد سجنك ظلمًا ونحن نعرف ذلك! لكنهم خدعوك! الذين تتق بهم خدعوك، أقرب الناس إليك خدعك..

ثم أخرج ملقاً وواجهني بالمعلومات التي هزّت كياني وزلزلت ثقتي بهما، زوجتي عزيزة الخيال، وصديقي، عوض الشّاهد كلاهما كان يخدعني.

- عزيزة عابد الخيال وعوض إبراهيم الشّاهد من التنظيم وهما يساعدان "المخربين" وينقلان الأسلحة والقنابل ويرصدان الطرق للمجموعات العاملة في القرية! إلى متى تظل مغفلاً يا جميل؟! حتى الأستاذ زاهر جودة، ذلك المدرس المفصول من وظيفته، والذي يزورانه ويزورهما من التنظيم.. أتفهم؟.

وأخرج رزمة من النقود، وضعها أمامي، ثم أضاف:

- هذه النقود لك، تبدأ بها حياة جديدة وتصبح صديقاً لنا.. هذه القرية تكرهني، تحتقروني وها هي تخدعني، أقرب الناس لي يخدعني، لم تكن عزيزة الخيال صادقة في رقتها ودلالها، بل كانت مخادعة ماهرة، وعوض الشّاهد لم يكن هو الآخر مخلصاً، بل كان يضحك على ذقتي، يستغفلي، ويوهمني بصداقته، وأنا مثل "السطل" أشرب من خداعه! لماذا إذن لا أبادلهما خداعاً بخداع وكرهاً بكرهه، لماذا لا أنتقم منهما؟ لماذا لا أنتقم من القرية كلها، وقبل أن أمد يدي إلى رزمة النقود قلت:

- أقبل بشرط واحد!! ألا تؤذوا عزيزة الخيال، تظل زوجتي وأم ابني ولا أريدكم أن تسجنوها..

- لكنها تقدم المساعدة لهم، تنقل السلاح والقنابل و..

- سأراقبها، سأخبركم بكل شيء، لكن لا تدخلوها السجن، هذا شرطي الوحيد..

- اتفقنا لن ندخلها السجن..

وأخذت النقود، واشتريت عشر دونمات من أرض الأفندي، ولم أخبر عزيزة الخيال بذلك، كنت أراقب كل حركة وأقابل "أبو يعقوب" أمدةً بالتقارير والمعلومات، كنت أقابله في غزة، في مكتبه، وفي مرات أخرى كنت أذهب لمقابلته في المجدل.. وكانت عزيزة الخيال تقابل ذلك الشاب الأسمر الطويل، كان راعياً، يطوف بأغنامه حول البيارات والكروم وكانت تذهب إلى الأستاذ زاهر جودة، ذلك المدرس المفصول بسبب مواقفه "الوطنية" كانت توهمني أنها تزور إحدى قريباتها، وفي بعض الأحيان كان هو يأتي إلى العزيزة.. يجلسان معاً تحت شجرة التين الكبيرة، ويتهامسان، وعندما أقترب منهما، يحولان الموضوع، ويتحدثان في أمور عامة! كان ذلك الرجل يكرهني، بل كان هو الآخر يحتقرني! كنت أشعر بذلك من نظراته وعباراته.. ودرّبني أبو يعقوب على طرق المراقبة ووسائل الاتصال وعلمني تفسير الإشارات والرموز.. وطلب مني عدم الاتصال به هاتفياً إلا في حالات الضرورة فقط، راقبت عوض الشاهد لمدة شهرين، لكنه مرض فجأة، أثقلت عليه جروح السجن وأثار التعذيب، رقد في الفراش شهراً كاملاً ثم مات! مات وأراحني من مراقبته ومتابعته تحركاته! واستعنت بصديقي خليل بصبوص، كان خليل بصبوص غريباً عن القرية، كان (طنيباً) عليها مثلي، وكان يحتفظ في صدره

بحقد كبير على شبابها! لكنه كان يخفي ذلك، كنت الوحيد الذي يأتمنه على أسرارهِ، لكنني احتفظت بأسراري هذه المرة، هكذا أوصاني أبو يعقوب! كنت فقط أطلب من خليل أن يخبرني بتحركات وأحداث بعض الأشخاص، حامد كراز وسامي السمري، وعلي السّحار، ووليد أبو كرش، أولئك الذين يلتقون مع (الراعي المزيف)! يتهامون معه ويتقابلون عند دكان خليل بصيوص، ثم يتفرقون، وعندما تسألني سماهر زوجة خليل عن سبب هذا الاهتمام كنت أجيبها بطرق ملتوية وعبارات غامضة.. لكنها كانت تغمز وتقول "والله وراك سر يا أبو شادي، وأنا خائفة عليك من تاليها" ويضحك زوجها ويقول يا شيخه الرجل بدّه يحرّص فقط.. بتعرفي هذه الشّلة لم تكن راضية عن زواجه من عزيزة الخيال.

قمت بتفسير العبارات وفك الرموز والإشارات ففهمت أن هناك عملية جديدة.. وفي يوم الجمعة، عند العصر، جاء الأستاذ زاهر إلى العزيزة، جلس مع عزيزة الخيال ثم انصرف، فخمّنت أن موعد العملية قد اقترب، راقبت عزيزة، ورأيته.. كانت تضع السلاح والقنابل على العربة ثم تغطيها بأكوام الحطب، رأيته وهي تنهر البغل وتتجه إلى الشمال، حيث أرض كراز، بجوار مركز القيادة الإسرائيلية في "أم القريص".. وهناك أزلت الأسلحة والقنابل، سلّمتها إلى حامد كراز، الذي قام بتنظيفها وتركيبها استعداداً للعملية، وأبلغت "أبو يعقوب" طلبته بالهاتف وذهبت إليه في مكتبه بغزة، قدمت له كل المعلومات، فأتحنّفتي بمبلغ محترم من النقود! لكنهم لم

يمهلوني للتمتع بها! أطلقوا عليّ النار بعد ساعة.. أطلق "الفدائيون" النار وحاولوا قتلي والتخلص مني..

في المستشفى، استقرت حالتي بعد أسبوع، عندها علمت بالأخبار! علمت أن الراعي المزيف قد قتل، وعرفت أن اسمه الحقيقي شادي أبو العطا، أن سمّت عزيزة الخيال ابنها باسمه! لم يعد ذلك مهمًا، ها هو قد قتل، وقتل معه حامد كراز، وأولاد السمري والسحار وأبو كرش، وعلمت كذلك أن الإسرائيليين قبضوا على الأستاذ زاهر جودة وثلاثة آخرين من مدرسي القرية!!.. وخرجت من المستشفى برجل عرجاء وجرح غائر في جبهتي، لكنني حصلت على مكافأة كبيرة! كان أصدقائي كرماء معي فاشتريت عشرين دونمًا من أرض الأفندي، وقررت ترك القرية! لم يعد وجودي مضمونًا وسط هؤلاء الناس، بنيت بيتًا من طابقين، غرب القرية، مكان الكوخ القديم، وطلبت من عزيزة الخيال أن تنتقل معي إلى البيت الجديد لكنها رفضت، رفضت وطلبت منّي أن أترك لها ابنها "أترك لي شادي! لا توجد مدرسة في غرب القرية، أتركه وأذهب حيثما تريد". وتركته بعد أن اشترطت عليها ألا تمنعه من زيارتي! هجرتها وتزوجت من امرأة أخرى، وكانت هذه المرة من بنات القرية أيضًا، وها أنا أتحرك أمام عيونهم، أتحرك بسيارتي "المرسيدس" أمام الجميع، فأنا الآن أبو شادي الغدور، الذي يأتيه الناس، يتملقونه ويطلبون مساعدته في قضاء مصالحهم وحوائجهم! حالات لم الشمل وتصاريح العمل وتراخيص محطات الوقود والورش.. أبو شادي، الذي يحتاجونه في شراء

الدونمات من أراضي الأفندية ويحتاجونه في الوظائف، حتى في
الحصول على السلاح عند حدوث المنازعات العائلية يحتاجونني! أنا
الآن "أبو شادي" ولم أعد جميل حب الرمان، ابن الجنكية، ولم أعد
جميلة الرقاصة..

عزيزة الخيال

كان بإمكان جميل أن يستعيد نفسه، أن يصبح إنسانًا جديدًا، لو فعل ذلك، لو تغير، لاحترمته القرية أو لخففت من كراهيتها له! جاءت له الفرصة عندما دخل السجن، تعاطف أهل القرية معه، ودخلت على بعضهم قصة أنه أحد المشاركين في عملية العزيزة، كان بإمكان جميل أن يستغل هذه المشاعر ويتحول إلى إنسان جديد..

كان الناس مهينين لأن يعترفوا به وأن يعتبروه واحدًا منهم، من أبنائهم الذين دافعوا عن القرية وضحوا من أجلها، وكان من الطبيعي أن يوجه جميل حقه إلى الذين اعتقلوه وأهانوه.. الإسرائيليين!! ماذا لو سعى إلى الفدائيين؟ حاول الاتصال بهم وعرض خدماته عليهم؟، كنت سأساعده لو أثبت حسن نيته وتأكدت من إخلاصه، كنت سأساعده في رد اعتباره لنفسه وسمعته وجعله واحدًا من هذه القرية الطيبة المتسامحة! لكنه لم يفعل ذلك، لم يقدم على هذه الخطوة التي تحتاج إلى إنسان جريء إنسان جديد! أصرت نفسه الوضيعة، الحاقدة الدنيئة على الغدر والخيانة! واليوم، ها هو يصل ويجول

بسيارته!! بنى بيتًا غرب القرية، قرب المستوطنة، وتزوج بنت القرام وابتعد عن القرية، لم يعد يأمن الناس الذين تعاطفوا معه، وغفروا له ولأمه، رغم ما تسببا فيه من فضائح وإساءات.. اختار أن يكون عدوًّا لأهل القرية وصديقًا لأعدائهم، وقتلة أبنائهم، أصبح صديقًا للذين اعتقلوا نصف القرية وهددوا النصف الآخر!!..

منذ أسبوع استدعاني ضابط المخابرات الإسرائيلي قال إنهم لم يسجنونني حتى الآن إكراما لصديقهم، الذي ضمنني عندهم! ثم أمرني بكتابة تعهد بعدم التعرض لجميل أو تهديده، وعندما سألته عن بقية أهل القرية قال إنهم يعرفون كل الذين يفكرون في إيذاء أصدقائهم! إنهم يكذبون، يخدعون الناس، انتقوا بعض الأشخاص وأمروهم بكتابة التعهد من باب "التخويف"! يريدون إيهام الناس بأنهم يعرفون كل شيء ويراقبون كل شيء، وقد يهتز أحدهم ويقع، ويقدم لهم المعلومات التي تفيدهم ويضع أيديهم على الخلايا الجديدة..

بعد استشهاد الشباب في أم القريص، تمكّن الإسرائيليون من اكتشاف معظم الخلايا العاملة في القرية، ضيقوا الخناق على الناس، راقبوا التحركات والهمسات، ثم انقضوا على البيوت، والبيارات والكروم، دخلوا كل شبر في القرية وأحوازها، اعتقلوا نصف القرية، وتركوا النصف الآخر مهددًا، ينتظر مداهمة بيوتهم، واختطافهم من وسط أولادهم وأسرهم في أي وقت، ولجأ البعض إلى جميل حب الرّمّان! استجدوا به وطلبوا مساعدته! هذا زمن صعب وجبان! زمن مقلوب!

جميل حب الرمان الذي كان دائماً يطلب الحماية والرحمة، ها هو يصبح الصدر الحنون والمنقذ الذي يستنجد به الناس، هذا زمك يا حبّ الرمان، والدنيا غدارة!.. لكن لماذا استدعاني الضابط الإسرائيلي وأمرني بكتابة ذلك التعهد؟! هل حقاً يخشى أن أقدم على قتل جميل حب الرمان؟! "زوجي" وأبو شادي؟! كيف أفعّلها؟! كيف أواجه ابني بعد ذلك؟! أبوه مشبوه، وأمه قاتلة، كيف أشرح له الأمور عندما يكبر؟!..

منذ أسبوعين جاعني شادي، نزع حقيبتة المدرسية ثم بكى، كانت دموعه تنهمر طوال الطريق من المدرسة إلى البيت:

- الأولاد يبيعونني.. ابن الجاسوس، ابن الجاسوس! بدّيش أروح على المدرسة، وبدّيش أروح لأبوي كمان..

هددته ومسحت دموعه قدّمت له الطعام فرفضه.. وضعت يدي على خدي ولذت بالصمت والبكاء.. في المساء جاءت سماهر زوجة خليل بصبوص إلى بيتي.. تعرف هذه المرأة أنني لا أحبها، فلماذا تأتي إذن؟ وهل تنقصني الهموم:

- بعرف إنه فكرتك عني إني مرة مش كويسة ويمكن بتظني كمان إني بعمل حاجة بطالة.. اسمعي يا عزيزة أنا صحيح بضحك وبقف مع خليل في الدكان وبيبيع للشباب وفي بعض الأحيان بمزح معهم لكن والله والله حياة أولادي وحياة عقصة أمك القبرصية الطاهرة، عمري ما عملت العيبة ولا الفاحشة.. صحيح أنا غريبة مش من هذه القرية، لكن أنا بحب القرية وأهلها وبحافظ على شرفها وسمعتها..

على العموم مش هذا الغرض من زيارتي، اسمعي يا عزيزة، جميل حب الرمان هو الذي بلغ عن الشباب.. شافك وأنتي بتوصلني السلاح لعند أرض كراز في أم القرى، وشاف المرحوم حامد كراز وهو بينزل السلاح معك.

- يعني كان بيراقبني؟!

- كان بيراقبك وبيراقب الشباب وبلغ عنهم، جميل كان عارف إنك مع الفدائيين وعارف إنه المرحوم عوض الشاهد كان معهم وكمان الأستاذ زاهر جودة عارفه.. أنا زرت الأستاذ زاهر في السجن وعرفته بكل حاجة، متستغريش عرفته بكل حاجة وهو بيبلغك السلام ويقول لك السنة عيدي التوجيهي أدرسي يا عزيزة علشان تطلعي على الجامعة في مصر.

قبلتها واحتضنتها بقوة، ورغم المفاجأة استطعت أن أقول:

- سامحيني يا سماهر سامحيني يا أم مروان أنا ظلمتك.

الأستاذ زاهر، الذي منعوني من زيارته، يبعث برسالة من نوع غريب! لم أتم تلك الليلة، فكرت في الدراسة وفي مصر.. كان الذهاب إلى مصر حلمًا يراودني دائمًا، كنت دائمًا أمني نفسي بدخول الجامعة في مصر! مصر التي درس فيها إبراهيم ودرست فيها زميلاتي في المدرسة الثانوية! لكن جميل حب الرمان لم يمهلني، اجتث حلمي وأنا على بعد خطوات منه.. وها هو الأستاذ زاهر يبعث الحلم من جديد، ها هو ينشلني من دوامة الحيرة والعجز والخوف ويضعني أمام تحدٍ جديد! التعليم الذي حرمني منه الزواج والظلم! وفجأة فكرت

في علاقتي بجميل حب الرمان، كيف أسافر وأنا مازلت على ذمة هذا الرجل، فانا زوجته وإن كان ذلك على الورق فقط!!

إذن لابد من الطلاق، لابد من حصولي على حريتي وخلصي من جميل، لكن لماذا أستبق الأمور، لماذا أفكر في الموضوع الآن، عليّ الآن التفرغ للدراسة! وبعد النتيجة، بعد النجاح أذهب إلى جميل، أدخل معه في المواجهة المؤجلة وأطلب الطلاق! ووجدتني أتلمس طريقي إلى صندوق أمي القديم، كنت أحتفظ بذلك الصندوق، تمسكت به رغم إلحاح جميل بأن أرميه أو أكسره وأستخدم أخشابه للتدفئة.. كان الصندوق جزءاً مني، من ذكرياتي.. يحمل رائحة أمي.. احتفظت بمفتاحه معي، في صدري، بجوار قلبي واحتفظت فيه بأوراق وأشيائي الحميمة، لماذا أسعى اليوم إلى هذا الصندوق؟ هل أريد الصندوق؟ أم أنا أسعى إلى شيء ما بداخله؟ كوشان الأرض أم سلسلة فضية، أم أنها تلك الرسالة؟! لماذا أتذكرها الآن، لماذا أتذكر الرسالة التي كتبتها لإبراهيم منذ اثني عشر عاماً؟.

وأخرجت الرسالة من الصندوق، قرأتها من جديد ثم وضعتها في خزانة ملابس، قريبة من يدي..

في اليوم التالي، ذهبت إلى بيت عمي عوض الشاهد وجدت عمتي أم إبراهيم قد قرّصت العجين وفردته وعندما جلست بجوارها طلبت مني أن أشعل لها الفرن الحديدي الجديد:

- والله يا عزيزة أنا بخاف من هذه الأفران.. تعودنا على فرن الطابون والحطب أو الفرنجي! لكن عامر "بطل" يخبز والناس كلها

بتخبز على الأفران الجديدة اللي ما بتولع إلا والجرة هذه وراها..
إيش بدنا نعمل زينا زي الناس..

جاءت فاطمة وأكملت مع أمها رص الأرغفة في الفرن ولم تمزح
معي فور دخولها كعادتها.. أثقلها فقدان زوجها.. ولاحظت أن
تجاعيد الأيام والحزن قد تسلفت إلى وجهها وبدأت يدها نحيلة لا
يكسوها اللحم.. وعندما شاكسها أحد أبنائها وسحب المنديل عن
رأسها، لاحظت أنها لم تعد تهتم بشعرها.. كانت فاطمة مفتونة
بشعرها الطويل، تمشطه وتدهنه بالزيت فيبدو ناعماً لامعاً، وفي
الأفراح والمناسبات كانت تتفنن في تسريحه بطرق مختلفة لإغاضة
النساء وسحب التعليقات من ألسنتهن السليطة! لكنها اليوم قصّته
وتركته مهملاً كأنها لم تضع المشط فيه شهراً كاملاً!

- فاطمة بتعرفي وين كتب إبراهيم؟

- آه يا حبيبتي بعرف في الصندوق، في الغرفة الوسطانية، عمتك
أم إبراهيم كل يومين أو ثلاثة بتنظفها وتحسّس عليها وترجعها مثل
ما كانت! وكم ان بتحط دوا للفيران.. خايقة على الفيران من العلم!
أمي بتعمل هيّك وكأن إبراهيم راجع بكره..

- إن شاء الله يرجع بالسلامة، بعدين إنت مالك يا بنت؟ إبراهيم
وصّاني عليهن قبل سفره.

- عمتي، ممكن أشوف كتب إبراهيم؟ أصلي بدي أكمل دراستي..

- هه.. بعد ما شاب ودوه الكتاب، بعد أحد عشر سنة بدك ترجعي
للتعليم.

- خَلِّينَا نَعْمَلُ حَاجَةً تَنْفَعُنَا يَا فَاطِمَةَ.

لم أطلب مساعدة من أحد إلا وبادر بتلبيتها، سجّلت في نظام "المنازل" وأحضر الشباب الكتب اللازمة.. بل أصبح عندي نسختين وثلاث من كل كتاب.. تطوع المدرسون لمساعدتي في اللغة العربية والإنجليزي والمنطق، كانوا يتنافسون في عرض خدماتهم! بزعل منك يا عزيزة إذا احتجت شيئاً ولم تخبريني أو إذا لجأت إلى مدرس آخر..

بعد نجاحي في الثانوية العامة، ذهبت إلى جميل حب الرمان في بيته الجديد، لاحظت أن هناك من يراقب القادمين! كنت أعرف أن أصدقاء جميل يحمونه ويراقبون كل من يأتي إلى بيته، وتهامس الذين زاروا هذا البيت، وقالوا إن جميل ينصب فوق السطح رشاشاً من عيار ٥٠٠!! استقبلتني بنت القرام باحترام.. كانت حميدة القرام في الثامنة والعشرين من عمرها عندما تزوّجها جميل، وفي عرف أهل القرية بنت فاتها قطار الزواج! توفي والدها منذ خمس سنوات فتكفل بها عامر الفرّنجي، بعد أن تزوج أمها! بعد ظهور الأفران الحديدية، التي تعمل بالغاز، انقطع الزبائن عن فرن الفرّنجي أقفل عامر فرنه، حوّلته إلى غرفتين وتزوج أم حميدة.

كانت أم حميدة (زوجة القرام) امرأة قوية البنيان تحمل كتل العجين الثقيلة مثل زوجها وتضعها على البلاطة ثم تقرّص العجين وتدكّه بيدها أمام عامر، فتبهره بقوتها! وكان عامر في حاجة إلى امرأة

مثلها، بعد أن عاد إلى أرضه "المبورة" وغرسها بأشجار الحمضيات والفواكه ثم زرع بينها شتلات الفلفل والباذنجان والخيار والبندورة.. كانت معه إيدهن على إيدته، دائماً ثلاث نساء زوجته الأولى، وأم حمدية، وابنتها، وعندما طلب جميل حب الرّمان يد حمدية وافق عامر الفرنجي لكنه طلب مهراً غريباً.

- بعطيك حمدية جاهزة مجهزة وبتجيب لي ابني من الغربة، بتعمل له لم شمل وهذا مهر حمدية.. أعدت بنت القرام الشاي ثم أيقظت جميل من قيلولته وعندما سلّم سأل عن شادي..

- لماذا لم تحضره معك؟
- عليه واجب في المدرسة بيعطوهم واجبات ثقيلة.
- يعني لو تعطل ساعة بتخرب الدنيا.. سمعت أنّك نجحتي في التوجيهي، مبروك! وبعدين؟!

- بعدين الجامعة.
- أي جامعة؟
- في مصر.. بدّي أدرس في مصر وبدّي أحكي معك في موضوع.. سكت فجأة فعرف أنني لا أريد التحدث بحضور حمدية:
- حمدية أتركينا لوحدنا..

وأصفت بعد أن خرجت:
- جميل أنا لم أعد أصلح لك، أرجو أن تطلقني.. خليني أصير حرة ومسئولة عن نفسي..

- لماذا لا تحضري شادي وتعيشان معي هنا؟!
- هذا كلام فات أوانه.. أنت الآن رجل مهم ولك مشاغلك! بعدين أنا وشادي مسافرين.. بدّي أخذه معي على مصر..
- يعني إنت قررت لوحدك؟!
- لا.. أنا جايه عشان أقول لك وأطلب حل الأمور بهدوء.. بسافر وبتتريح مني أنت وأصحابك!!
- معنديش مانع.. بس على شرط!
- شرط أيش؟!
- الكرم! تسجلي الكرم في الطابو باسمي!!
- كنت أعرف أن الأمور لن تتم بسهولة.. كنت أتوقع أن يطلب جميل تعويضاً، مقابلاً لحريتي.. لكن، لم يخطر ببالي أن يكون الكرم هو الثمن! توقعت أن يطلب نقوداً، مصاعاً، "تحويشة عمري" ما ورثته عن أمي من أساور وكردان – مثلاً.. وكنت أنوي أن أقدمها له بعد أن يحررني.. لكن، الكرم!.. لن أسجله باسمه، لن أفرط فيه.. لن أتنازل عنه لجميل حتى لو فقدت فرصة عمري!!
- وقذفت عرضاً طراً لي فجأة:
- بسجل الكرم باسم شادي.. إنه ابننا وسيرثك بعد عمر طويل!!
- يسجله في الطابو باسم شادي مقابل أن تطلقتي وتسلمني تصرّيح الموافقة على السفر..
- لم يكن أمام جميل سوى الموافقة!! أمره أصدقاؤه بالموافقة على الطلاق، والتخلص مني.. استدعاني ضابط المخابرات وأخبرني

بموافقة جميل، فذهبنا إلى المحكمة وأنهيينا الإجراءات! وبعد يومين حصلت على وثيقة حريتي وخلصني.. كانوا يريدون التخلص مني.. أعدوا لي تصريح السفر وعندما سلمني الضابط إياه قال:

- أرجو أن ترتاحي في مصر.. أنصحك أن تنتبهي إلى دراستك ومستقبلك وتنسي الماضي.. ولا تنسي أن عيوننا في كل مكان.. ورغم لعبته الجديدة وتهديده المبطن، شعرت أنني في حاجة لأن أقول شيئاً وأن أؤكد أمراً هاماً:

- أما أنا، فأرجو ألا تمنعوني من العودة إلى وطني في كل عام.. أنا لا أستطيع الابتعاد عن وطني فترة طويلة.. سأكون متلهفة للعودة بعد انتهاء الامتحانات في كل صيف..

- هذا يتوقف على سلوكك وتصرفاتك..

في ليلة السفر، أكتظ بيتي بالمودعين.. كان الجميع يوصي ويبيحث بالسلامات والتحيات ويضع الهدايا والصور.. وفاطمة تضعها بدورها في الحقيبة الكبيرة، وتضع الرسائل في حقيبة يدي التي انتفخت وأوشكت على الاستغاثة وطلب النجدة.. قبل أن تنصرف، في آخر الليل، غمزتني سماهر، ثم أخرجت حذاءً نسائياً من كيس في يدها:

- هذه هديتي.. لا تضعيها في الحقيبة!! ارتديها أثناء السفر.. انظري إنها تليق بطالبات الجامعة.. كندرة محترمة..

- كندرة؟! الناس بتجيب الكنادر من مصر يا سماهر!! طيب كان جبتي شوية شاي من الدكان ولا قلن زيت زيتون، ولا شوية تفاح تنفعها في الطريق!!

- معلى يا عمتى أم إبراهيم.. هذه كندرة تفصيل، مش مثل كنادر
مصر.. هذا الصنف بيتحمل.. (وخطت على الحذاء بيدها) هه..
شوفي بترن رن.. سامعة؟!
ضحكنا.. وضكت أم إبراهيم.. عندها، قالت فاطمة:
— صحيح يمّه.. هذه الكندرة للسفر مخصوص!!..

خالد الربيع

خط أبو نزال بيده اليسرى على الطاولة ورشف ما تبقى من الكأس ثم قال:

— أشقاؤنا "القوميون" يريدوننا ثورة للعرض فقط.. ثورة في زجاجة (مثل هذه) وغطاؤها يكون في يدهم.. يحبسوننا في الزجاجة وقتما يشاءون، ويفتحونها ويخرجوننا منها، يعرضوننا على جماهيرهم للفرجة ويمتصون بنا سخطهم ونقمتهم وقتما يشاءون!! وإذا رفضنا هذا الدور، غضبوا وتحركوا لتهشيم الزجاجة بما فيها.. عجب!! كان لسانه صحيحاً، ولم تكن يده اليسرى مرتعشة وخرجت ألفاظه قوية واضحة.. والغريب! أن صوته كان هادئاً ويتكلم بالفصحى! لم يكن في حديثه وصوته ويده أثر الخمر، لكنه لم يستطع إخفاء حالة الإحباط التي لازمته منذ سنوات.. منذ أن أصيب أبو نزال في "تل الزعتر" وهو يعاني من صدمة.. لقد أصبح مبتور الذراع ولم يعد قادراً على القيام بأشياء كثيرة! لم يعد باستطاعته أن "يمازح" الشباب ويمسك أقواهم، يلوي ذراعه ويعصرها، فيصرخ الشاب ويتلوى

مستغيثًا.. ولم يعد أبو نزال قادرًا على التحكم في "الآر. بي. جي" ولا العمل على الهاون بالكفاءة التي عُرف بها.. وما يعذبه أكثر، أنه لم يعد يخيف أحدًا، بل لم يعد أحد يخافه!! حتى صوته الهادر المجلجل، أصبح هادئًا حزينًا! ها هو أبو نزال يتحوّل إلى رجل مستكين، مسالم، يدفن همومه في كؤوس الخمر والسجائر والتهديدات!!..

وأضاف بعد أن طوّح بالكأس من النافذة:

— عارف يا رفيق خالد (صار يناديني بكلمة رفيق بعد اقتحام تل الزعتر) عيبك الوحيد أنك لا تشرب.. كنت أظن مثلك إن الشراب عيب، رذيلة.. لكنني اكتشفت أنه حسنة! ألم يقولوا أن النسيان أعظم ما منحه الله للإنسان؟! عندما تتشابك الأمور ويصعب عليك فهمها، فمن الأفضل أن تحاول نسيانها! وأنا أريد أن أنسى.. والشرب يمنحني هذه الفرصة.. لكنني اليوم لم أشرب سوى ذلك الكأس، معك لا أريد أن أنسى شيئًا..

أستفز ذاكرتي بحديثه عن "ثورة الزجاجاة والفرجة" فوجدت نفسي أعود إلى مصر في منتصف الستينات.. حككت لحياتي القصيرة وقلت:

— حديثك يا أبو نزال ذكرني بظاهرة كانت منتشرة في مصر عندما ذهبنا للدراسة هناك.. ظاهرة "القرّادين المتجولين".. كان أولئك القرّادون يطوفون الأحياء الشعبية والساحات والميادين العامة ويلتقطون رزقهم بواسطة فرد يصطحبونه معهم.. كان اسم الفرد دائماً "ميمون".. يمسك القرّاد بالدف، ينقر عليه ويلاعب ميمونه، ويطلب منه أن يؤدي بعض الحركات والرقصات.. نوم العازب رقصة

المجنونة.. عجبن الفلاحة.. سلام للملك.. نوم العروسة.. وتقليد بعض الشخصيات.. موشي ديان.. الملك فاروق.. هتلر.. وكان القراد يختار أحياناً بعض الأشخاص ويطلب من "ميمونه" أن يُسلم عليهم.. "سلم على البيه يا ميمون".. فيعلق القراد في الرجل، الذي يحاول التخلص منه فيرمي في دف القراد ما تيسر من النقود المعدنية.. واكتشفنا بعد ذلك، أن صاحب القراد يتفق معه على سرقة النقود من جيوب بعض المشاهدين المتحلقين المنبهرين.. هكذا هم أشقاؤنا يا "أبو نزال" يريدوننا ميموناً! قرداً يلعبونه ويُسخرونه لأهدافهم.. والفرق الوحيد أن أختنا يريدوننا أن نسرق من الجماهير (المتفرجة) مشاعرها وعواطفها بدلاً من النقود!!

ضحك أبو نزال ثم قهقه بصوت عال حتى نسي يده المبتورة، فضرب على الجزء المتبقي منها، ثم أشعل سيجارة ولم يصب خمرًا جديدًا..

في عام ١٩٧٧، كانت توقعات القيادة باجتياح إسرائيلي للجنوب، صدرت الأوامر بتفكيك ورشة التسليح ونقلها إلى بيروت.. وتمكنا من إنجاز المهمة قبل الاجتياح بشهرين.. ولم نترك في الجنوب سوى عشرة صواريخ مطوّرة.. وعندما جاء الاجتياح، بعد عام من توقعات القيادة، استخدمناها.. أثبتت الصواريخ فاعليتها وكفاءتها فمحنى القائد العام للثورة وساماً رفيعاً.. قبلت الوسام المذهب وقبلت كوثر وأهديته لها، فاحتفظت به بجوار صورتنا المحببة!! وظلت تمسح إطاره وتعطره كل يوم.. كانت الورشة الجديدة مجاورة للموقع الذي يعمل فيه أبو نزال وهكذا أصبح لقائنا يومياً.. كان يقضي معظم

ساعات النهار معنا وكنت أذهب إليه في موقعه عندما يتأخر.. كنت أحاول التخفيف عنه وتشجيعه على عدم الاستسلام للإحباط والحزن.. وأحياناً كنت أستمع إليه وهو يروي قصة "تل الزعتر" التي تؤرقه "وتطير" النوم من عينيه:

— ما يحيرني يا رفيق هو موقف الذين منعوا عنا الإمدادات والحركة، الذين حاصرونا وسمحوا للطائفين الانعزاليين أن يفتكوا بنا.. الانعزاليون دمروا المخيم وقتلوا المئات، وأشقأونا "القوميون" راقبوا كل هذا بهدوء..

— هناك قضية أعتقد أنها لم تخطر ببالك يا "أبو نزال".. ما أعتقد أن الأشقاء الذين تحدث عنهم بدأوا يدركون أن دورنا في لبنان لا يقتصر على تحرير الأرض والقتال ضد إسرائيل.. أدركوا أن دورنا بدأ يفعل فعله نحو أنصاف الفئات والأحزاب المظلومة ويدفعها إلى المطالبة بتحقيق الديمقراطية والحقوق المتوازنة.. وما أعتقد أيضاً أنهم لا يريدون ذلك، رغم شعاراتهم العنيفة وخطاباتهم الحافلة بهذه الديمقراطية ونصرة الفئات المظلومة!! كما أن هناك أمراً آخر أعتقد لم يخطر ببالك، هناك عداء تاريخي، "صراع" بين بعض الطوائف في هذه المنطقة ولا يمكن محوه بالشعارات والقبيلات والضحك على الذقون!!

— ها أنت تغرق في التحليل.. ها أنت تحاول التخفيف عني فتجبر معي إلى دوامة الحيرة والتساؤلات والتحليلات.. اتركنا من هذه

القصة، حدثني عن أخبارك! ما هي أخبار الأستاذ إبراهيم الشّاهد، عمله، أسرته؟!

— بخير، رزق مولودًا ذكرًا وسمّاه "ناصر" أخيرًا أصبح إبراهيم "أبو ناصر" دائمًا يسأل عن أخبارك.. إنه يعمل في الصحافة هناك.. وهو يحاول السفر إلى مصر، اشتاق إلى مصر مثلي! لكن أين أنا من مصر؟! كوتر ستسافر إلى مصر ومعها ستأخذ ثائراً وهدى وأنا سأظل وحيداً..

— بمناسبة الحديث عن مصر، هل تعرف من أصبح من "شلة" أبو شريم؟!

— من؟

— صاحبك! الضابط الذي حضر من مصر..

— عصام؟

— نعم عصام، الذي قابلته، في بيتك، في العام الماضي.. عصام أصبح مقرباً من "أبو الشريم"؟!

صدمني أبو نزال بهذه المعلومة، هزّني بقوة، فسألته بغضب:

— لعلك مخطئ! منذ متى هذه العلاقة؟ ومن أخبرك بها؟

— لست مخطئاً.. والعلاقة بدأت تظهر منذ عام.. أخبرني أحد

الأصدقاء أن ضابطاً اسمه عصام الفايز (أليس هذا اسمه؟) أصبح

مقرباً من "أبو الشريم" ويسير على خطاه في كل شيء! أخذني

الصديق، ورأيته بنفسه يدخل إلى "فيلا" أبو الشريم، ثم يخرجان معاً

وقد تشابكت أيديهما!!

جاء عصام الفايز مع القوات التي حضرت من مصر بعد سفر إبراهيم الشّاهد بثلاثة أشهر.. احتفيت به كصديق، وزارني عدة مرّات في بيتي.. استقبلته كوثر بحفاوة، كانت تعرفه منذ أيام القاهرة، وكانت تُشعره دائماً كأنه في بيته فتشجّع وكرر الزيارة.. وظلّت علاقتنا محصورة في الوفاء للصداقة القديمة والمخيّم الذي نشأنا فيه في ظروف متشابهة.. وفي الغربة، ننسى عيوب الذين يذكروننا بالأشياء الحميمة.. نغفر لهم وننسى أخطاءهم ونأس معهم بما يعيدنا للأماكن والناس والذكريات.. لم أدخل مع عصام في حوارات وأحاديث تسبب الاختلاف، فأخسره.. لكنني أتذكر الآن شيئاً هاماً.. قال أبو نزال أن العلاقة بدأت منذ عام.. منذ عام! منذ تلك الليلة الوحيدة التي رآه فيها أبو نزال.. طلب مني عصام - بعد أن غادر أبو نزال - اطلاعه على مقالات وقصص إبراهيم الشّاهد.. "كل ما كتبه إبراهيم".. دهشت لطلبه المفاجئ الغريب، فعصام لا يهتم بمثل هذه الأشياء ويعتبرها "ثرثرة وكلاماً منمقاً لا جدوى منه".. فلماذا يطلب هذه الثرثرة الآن ويعلن أنه سيقراها حرفاً حرفاً؟! لماذا يهتم عصام بما كتبه إبراهيم الشّاهد؟!.. "لعله تغيّر وأصبحت لديه رغبة في تنمية ثقافته وأفكاره؟" أطلّعت على المقالات والقصص، ثم أهديته نسخاً منها في مظروف كبير.. هل قرأ عصام ما حواه المغلف؟! هل فهم دلالات ورموز الشّاهد؟! وهل أعجبه قلمه اللاذع، الذي لا يختلف عن لسانه؟! إذا كان قد فهم ما بين السطور وأعجب بما كتبه "صديقنا"

فلماذا يرتمي بين أحضان "أبو الشريم"؟! هل عاد عصام إلى عاداته القديمة؟ هل عاد إلى "سقطاته" التي كان إبراهيم يغفرها له دائماً؟!..
كان إبراهيم الشاهد يقول:

— لا أعتقد أن عصام سيتغير إلى الأفضل.. المرجح أن يتغير إلى الأسوأ عصام يحتفظ بمخزون كبير من الحقد والشعور بالنقص، وهما عاملان يقودانه إلى بحث دائم — وإن كان خفياً — عن الفرصة المواتية..

هل جاءت الفرصة المواتية لعصام؟! هل تقرب من "أبو الشريم" نكاية في إبراهيم البعيد عن لبنان؟ أم هي رغبة في انتهاز الفرصة المواتية؟ أم هما عصفوران بحجر واحد؟!
وأفقدني أبو نزال من شرودي:

— هل تشتاق إلى مصر حقاً؟!!

— طبعاً!! خاصة أن إبراهيم سيكون هناك في الصيف القادم.. تسع سنوات منذ غادرناها معاً.. دبر إبراهيم أمره ونظف ملقه، وسيحصل على تأشيرة دخول.. ساعده نسيبي إسماعيل العرابي — كان صديقاً لنا قبل الزواج من كوثر — لكنه فشل في موضوعي، ولم يتمكن من تنظيف ملفي.. أنا حزين يا "أبو نزال".. محروم من الوطن، ومحروم من مصر التي أحبها مثل وطني!!

— متى تنوي الذهاب إلى مصر؟!

— قلت لك أنا ممنوع، لا أستطيع السفر إليها!!

— وأنا أعيد عليك السؤال، متى تريد السفر إلى مصر؟!

— ماذا تعني؟ هل تستطيع مساعدتي في الحصول على تأشيرة؟ هل لك أصدقاء أقوياء في..

— لن تحتاج إلى تأشيرة، ولن تسافر بوثيقة اللاجئين المزعجة، بل بجواز سفر محترم..

تفرّس في وجهي ونظر إلى لحيتي، ثم أضاف:

— لحيتك القصيرة مناسبة.. ملامحك السمراء مناسبة.. فقط عليك أن تحلق حلقة برازيلية.. مثل بيليه، هه.. إذن ستسافر بجواز سفر برازيلي.. نعم برازيلي أو أرجنتيني إذا لم يعجبك البرازيلي..

— جواز مزور؟! لا.. أخشى أن "تطب" في ورطة عويصة.. المصريون لا تنظلي عليهم هذه الأمور.. أنا أعرفهم..

— لن يكون الجواز مزورًا.. وإذا تعرّضوا لك تطلب السفير البرازيلي.. أنت من مواطنيه، ومن واجبه التدخل والدفاع عنك.. هذه ليست المرة الأولى يا رفيق! ثلاثة من أصدقائنا فعلوا نفس الشيء. اطمئن، الجواز سيصدر من البرازيل وستكون عليه تأشيرات لثلاث أو أربع دول وعليه أختام وتواريخ الوصول إليها والخروج منها.. كل الأمور ستكون سليمة مائة في المائة، اطمئن..

في مطار القاهرة، تفحص الضابط جواز سفري ثم سألني عن أخبار الكورة البرازيلية فأجبتة بالإنجليزية أنها في حالة جيدة.. هزّ رأسه، وعندما سلّمني الجواز تمنى أن يصبح فريق النادي الأهلي في مستوى الفريق البرازيلي.. عندها فتح ضابط آخر حقيبتى الصغيرة،

مرّ يده خلالها بسرعة فوجد فيها علبة قهوة كنت قد اشتريتها من
الحانوت المجاور لشقتي في الفكهاني.. تنشق العلبة ثم قال:
— الله.. ده بن برازيلي معتبر..

أهديتها له فوراً.. وقدمت لزميله الأهلوي ثلاث علب من السجائر
المهرّبة، فشكرني بامتنان.. وبعد دقائق كنت خارج مبنى المطار،
أجلس في سيارة الأجرة وأطلب من السائق التوجه إلى فندق وسط
المدينة، وأنا لا أكاد أصدق أنني أصبحت حرّاً في "أم الدنيا"..

في اليوم الثالث، سددت فاتورة باهظة وتوجهت إلى الشرقية التي
كانت كوثر قد سبقتنني مع الأولاد إليها.. ومن نافذة الحافلة، ملأت
عيني بالخضرة التي تناغمت مع المياه الوفيرة وشكلت لوحة جميلة
بألوانها الخضراء والبيضاء والداكنة.. تنشقت رائحة "الغيطان"
والدخان.. وراقبت الفلاحين والجواميس المكدّبة المطيعة.. وأغلق
المزلقان فتوقفت الحافلة لتفسح الطريق للقطار الذي جاء هادراً
زاعقاً، ثم مرّ قريباً من النافذة بجواري.. انتفض قلبي، وتذكرت أبياتاً
لمعين بسيسو كان إبراهيم الشاهد يرددها عندما نركب القطار أو
نسمع صفيره:

أنا في المنفى أغني للقطار

وأغني للمحطة

أي هزة

حينما تومض في عيني غزة..

ثم سارت الحافلة وعادت اللوحة المتناغمة.. وقفز قلبي مرة أخرى عندما رأيت أغصان الصفصاف الحانية على المياه.. كان الصفصاف ينساب هابطاً حتى يلامس الماء - كما عرفته.. أخذني الصفصاف إلى كوثر التي مر أسبوعان ثقيلان دون رؤيتها.. أسبوعان من الشوق دفعاها إلى انتظاري في محطة الحافلات ساعة كاملة.. كانت متلهفة مشتاقة كعادتها، وكنت أكثر منها شوقاً وولهاً.. قبلتني وضممتني إلى صدرها فنسيت الدنيا ونسيت شقيقها إسماعيل العرابي، الذي أحضر سيارته وجاء لاستقبالي:

— يا مرحبا يا مرحبا بخالد.. أهلاً أهلاً شرفت الشرقية..

كان إسماعيل يرتدي عباءة، لكنها لم تخف جسمه الممتلئ وكرشه الذي نما بسرعة.. ولفتت نظري تلك "الزبيبة" التي ظهرت على جبهته.. "متى ظهرت هذه الزبيبة؟" أعرف إسماعيل قروياً خجولاً محافظاً! لكنه لم يكن مواظباً على السجود والصلاة في أوقاتها! كان يصلي يوم الجمعة فقط - مثل إبراهيم الشاهد - متى ظهرت هذه الزبيبة إذن؟! أذكر جدي الذي عاش قرناً كاملاً.. أذكره وقد ظهرت في جبهته علامة صغيرة من أثر السجود.. شهد عجائز أهل قريتنا كلهم أن جدي كان مصلياً منذ طفولته.. وأذكره ساجداً مطيلاً، لكن جبهته العريضة لم "تتزين" بمثل هذه الزبيبة! متى رزق إسماعيل العرابي بهذه الزبيبة المحترمة؟!

— من حسن حظك، بكره "زفة سيدي العرابي"

قال إسماعيل وهو يربت على ركبتي:

— سيدي العرابي؟! —

ونظرت إلى كوثر.. ابتسمت وظلت ممسكة بيدي ثم قالت:

— زقة سيدي العرابي وبعد أسبوع يحضر إبراهيم وسميرة وأولادهم،
وبعدهم بيومين فرح أختي منى.. واحشني يا خالد واحشني يا
حبيبي.. نورت الشرقية.. نورت مصر كلها..

في ساحة القرية، احتشد الأهالي، يتقدمهم حاملو الطبول والدفوف
والصاجات النحاسية.. امتطى إسماعيل العرابي فرساً بيضاء وارتدى
عباءة بيضاء.. وأحاط به عن يمينه وعن يساره رجлан يرتديان
عباءتين ويلقان على رأسيهما عمامتين.. وخلفهما سار شيوخ
الطرق وال دراويش والمجاذيب.. وفي آخر الصفوف سارت النسوة،
ومن حين لآخر كن يخطفن سهو الرجال ويمسحن وجوه الأطفال
وبباركنهم برايات المتصوفين وشيوخ الطرق.. وتذكرت "زقة الشيخ
محمود" في قرية إبراهيم الشّاهد ومشوارها إلى "سيدي المنطار"..
هنا أيضاً، جلب شيوخ الطرق والمريدون، من كافة القرى والنجوع،
العطايا والهدايا، حملوها. وأوصلوها إلى "مقام" سيدي العرابي..
وهنا أيضاً، كانت الزقة مناسبة هامة في القرية، تهيأت واستعدت لها
أكثر من أيام العيد!!

كان إسماعيل يمتطي فرسه ويوزّع "البركات" ويمسح على رؤوس
النساء والأطفال.. وأنا أتساءل: هل هذا هو إسماعيل الذي عرفته؟!
إسماعيل المثقف العاقل يتحوّل إلى "شيخ طريقة"!! ومن هو سيدي
العرابي هذا؟! هل هو المكافح والتائر على الظلم والاستبداد أحمد

عرابي باشا؟ أم أن هذا الضريح يضم رفات مجذوب أو درويش آخر؟! ..

انتشلتني كوثر من تساؤلاتي وحيرتي، جذبتني بعيداً عن الزفة:

— تعال نقعد تحت شجرة الصفصاف زي أيام زمان.. تعال.

وسألتها عندما وصلنا إلى حافة التربة وجلسنا تحت ظلال الصفصاف:

— ما رأيك في الزفة؟

— أعرف ما تعنيه! أنا نفسي مستغربة، لم يكن والذي يفعل هذا..

هناك أشياء غريبة تحدث في هذا البلد.. لكن، ما علينا! خلينا نستمتع بالأشياء الجميلة.. الطبيعة والجو وبساطة الناس.. حبيبي إنس الخزعلات دي وكل واحد حر في حاله..

في المساء، حضر الأستاذ نجيب العرابي ولاحظت أنه يرتدي عباءة أيضاً.. هذا زمن العباءات!! لم يعد نجيب العرابي مهتماً بشيء أكثر من الصفقات والدولارات.. أخبرتني كوثر أن خالها أصبح من البارزين في الحزب الحاكم، تولى عن "ناصرته" فأصبح من أصحاب النفوذ.. والملايين:

— ده زمن الشطارة والفهلوة، كل واحد لازم يشوف نفسه ومصالحته.

إحنا تعبنا كتير ولازم نشوف نفسنا، نبص لمستقبلنا.. كفاية بقى..

لازم نستعمل عقلنا ونعيش.. كلهم كانوا عايشين ومبسوطين واحنا دايخين في الحروب والأزمات.. خلاص خلينا نفوق بقى..

وسأته عن الأستاذ محسن:

— أهو متلقح في السجن.. راجل غاوي مشاكل نازل كتابة وكلام..
الناس دي مش عاجبها حاجة.. لا عبد الناصر عاجب ولا السادات
عاجب.. عايزينا نعيش في دوامة على طول.. قالوا أحزاب، عملنا
لهم أحزاب وجرايد ومعارضة، وبرضه مش عاجبهم.. خلاص خليه
في السجن!!

قبل يومين من زفاف منى، شقيقة كوثر، توقفت في حوش العربية
سيارة أجرة.. ضرب من فيها على البوق فزمرت السيارة زاعقة..
أطلت كوثر من الشرفة ثم صاحت بفرح طفولي:

— وصلوا.. وصلوا يا خالد.. إبراهيم وسميرة وصلوا..
وهبطت درجات السلم الخمس بسرعة.. ارتميت على إبراهيم
واحتضنته بقوة.. سلّمت على سميرة وقبلت الطفلين، لكنني تسمرت
فجأة!! لقد هبطت في تلك اللحظة من السيارة!! كانت عزيزة الخيال
يشحمها ولحمها! لكنها بدت رشيقة مشوقة القوام.. وكانت ترتدي
الجينز وقد جدّلت شعرها وتركته ضفيرة طويلة على ظهرها.. يا
إلهي! عزيزة الخيال مع إبراهيم وسميرة!! كيف حدث هذا؟ أذكر أن
إبراهيم أخبرني في واحدة من رسائله أن عزيزة الخيال حضرت إلى
مصر للدراسة.. لكن، أن يحضرها معه إلى هنا إلى الشرقية، مع
سميرة، كأنهم عائلة واحدة! لم يخطر هذا ببالي، ولاحظت أنه لم
يخطر ببال كوثر أيضاً:

— كوثر أريد أن أعرفك على.. على عزيزة الخيال، وهذا ابنها
شادي!

— مين؟! عزيزة الخيال..؟! هي نفسها!؟

— نعم، هي عزيزة الخيال.. لا تستعربي.. هذه صديقتي عزيزة الخيال التي..

ونظرت سميرة إلى شادي فإذا هو منصت لما يجري، يراقب الموقف ويسجل انفعالات اللقاء الغريب.. غيرت كوتر الموضوع وطلبت من بعض الفلاحين حمل الحقائب:

— تفضلوا.. تفضلوا.. واحشاني يا سميرة.. الله مين ده.. ناصر؟ وريني.. دمه زي العسل.. طالع لمين؟ طالع لمين؟ حبيبي (وقبلته) فيه شبه من إبراهيم.. والعيون واخدها منك يا سميرة..

صعدت الدرجات متأبطاً ذراع إبراهيم وتبعتنا سميرة وعزيزة ومعهما كوتر التي أصرت على حمل ناصر حتى نهاية الدرج..

انفردت بإبراهيم في اليوم التالي.. حدثته عن لبنان وظروفها المتقلبة.. وحدثني عن بذخ الشعارات والولاه بالنظريات وتضخم الذات؟! ثم حدثني عن همومه في العمل والكتابة.. وسألني فجأة:

— ما هي أخبار صديقنا عصام الفايز!؟

وعندما ترددت أضاف:

— هل صحيح أنه أصبح صديقاً للزعيم "أبو الشريم"؟

— من أخبرك بهذا؟ لم أتوقع أن تصلك هذه الأخبار!

— نسيت يا صديقي أن الوفود تأتينا من كل مكان.. نحن "قبلة المناضلين" من جميع ألوان الطيف.. وتعرف الصحفي وعشقه للأخبار وروائح الصفقات!! وعندنا تفوح الروائح الكريهة بسرعة!!

أنت لم تخبرني عن عصام في خطابتك، لكنني عرفت عنه الكثير..

هل تعلم أنه هرب نقودًا إلى خارج لبنان؟!

— من أين جاءت النقود؟

— ومن أين جاءت للمناضل "أبو الشريم"؟!

— لكن علاقتهما ليست طويلة، إنها فترة قصيرة..

— ومئة ألف دولار ليست مبلغًا كبيرًا.. إنها خميرة فقط!

وقلت، بعد أن لاحظت أنه يحرك يده اليسرى ويستخدم أصابعه أحيانًا:

— ألاحظ تحسنًا في يدك!

— أداوم على تدليك طبيعى وهناك موعد مع جراح متخصص في القاهرة في بداية سبتمبر.. إنه شقيق أحد أصدقائي..

كان زفاف منى، شقيقة كوثر، قبل أسبوع من سفر عزيزة الخيال إلى غزة.. في الساحة المجاورة لحوش العرايية أعدت حفلة الزفاف.. جلس العروسان على أريكة وخلفهما وضعت الورود وعُلقت الأوراق الملونة والفوانيس.. جلست وجواري إبراهيم الشاهد وسميرة وعزيزة الخيال.. كان الجميع سعداء بنا ودأبت "حماتي" أم كوثر على تحيتنا في روحاتها وغدواتها:

— مؤثرين.. والله منورين

غابت كوثر عن ناظري فخمّنت أنها تقوم بمهام الأخت الوحيدة للعروس..

رقص الفلاحون وتبادلوا الضرب "بالنبابيت" ثم رقصت الخيول على المزممار البلدي.. تغنى المطرب الشعبي بمواويله وأغانيه العذبة، وأمامه رقصت اثنتان من بنات القرية.. كان إبراهيم يهز رأسه ويتمايل طرباً مع الأنغام والمواويل، كان يغني أحياناً ويردد بعض المقاطع باستمتاع..

وظهرت كوثر من جديد، كانت ترتدي الثوب الفلسطيني المطرز!! لماذا ترتدين هذا الثوب الآن!! أحبك يا كوثر.. أحبك في ثيابك العصرية الأنيقة وأحبك في ثيابك الشرقاوية الفضفاضة الرائعة وأحبك في هذا الثوب الآتي من أعماق الوطن، الثوب الذي يحمل رائحة الأرض والحناء والريحان!! فجأة! ظهر رجل يرتدي جلباباً وسترة ويضع على رأسه كوفية بيضاء وعقالاً.. كان الرجل يحمل في يده نايًا حديدياً.. قالت كوثر في نبرة استعراضية:

- والآن أيها السادة يسعدنا أن نقدم لكم وصلة شامية، وصلة الدبكة الفلسطينية.. وندعو باسمكم أعضاء الفرقة لتقدم وصلتها.. نظرنا إلى بعضنا! كانت مفاجأة للجميع، لم تمنحنا كوثر فرصة للتردد.. تقدمت نحونا، وسحبتنا من أيدينا واحداً واحداً.. وعندما وصلنا قريباً من العروسين شبكت يدها في يدي فشبك الآخرون أيديهم مستجيبين.. كان إبراهيم يصطف في أول الحلقة: "لويح".. وبجانبه اصطفت سميرة شابة يدها في يد عزيزة الخيال ثم أنا وكوثر.. وغنى إبراهيم الشاهد مع الشباية الشجية.

كنّا خمسة.. أربعة فلسطينيين نرتدي الملابس العصرية، ومصرية واحدة ترتدي الثوب الفلسطيني المطرّز.. ودبّكنا.. أخرج البدوي من سترته مزماراً قصيراً بقصبتين.. دار حول نفسه مثل النحلة ثم انتفخت أوداجه.. استعاد إبراهيم رشاقته وقفز خفيفاً كالغزال وخرجت معه سميرة ورقصا معاً.. وخرجت عزيزة الخيال ورقصت معه.. وخرجت معي كوثر ودبّكنا متقابلين.. دبّكنا حتى فاضت مشاعر الناس وانهمرت دموعنا.. وعندما انتهت الدبكة سألت كوثر:

- من أين أحضرت هذا البدوي الذي عزف على الشبابة والأرغول؟!

غمزت بعينها وردّت بدلال:

- هذا سر لن أخبرك به إلا في لبنان..

ثم طبعت قبله على خدي، واندست وسط النسوة تمارس واجبات الأخت الوحيدة للعروس..

إبراهيم الشاهد

انتشي الطاووس بدقات صديقه الطبل ففرد ريشه الملون الجميل
وتبخر أمام الطيور.. تفنن الطبل وأصدر إيقاعات متنوعة أبهرت
المشاهدين المعجبين.. كان الجو صحوًا مشمسًا. استعرض الطاووس
جنيئة وذهابًا وهز رأسه فبدأ عظيمًا ضخماً وظن لبرهة أنه سيد
المكان.. حاولت بعض الطيور تقليده، لكن ريشها لم يسعفها، كما
أنها كانت تنتفض وتعود إلى مكانها كلما اقترب الطبل وهدرت دقاته
المخيفة.. هكذا سيطر الطبل والطاووس على المشهد، وظلت الطيور
مبهورة مأخوذة بالاستعراض المهيّب!!

فكر بعض الطيور في التخلص من هذه "السيادة" الظالمة، لكن
الأصوات الضعيفة الخائفة كانت تحبطها وتنثيها عن أي فعل يوقف
الطاووس عن غيّه ويضع حدًا لزهوه المصطنع.. سادت حالة من
الإحباط، لكن طيورًا ثلاثة صغيرة ظلت تبتسم في صمت!! كانت
الطيور الصغيرة تبتسم وتنظر إلى السماء!!

وعند العصر تجمعت بعض السحب في السماء.. ورويدا رويدا حجت الغيوم الداكنة الشمس وصار النهار أقل بهجة.. لم يكن الطاووس مستعدا لملاحظة هذا التغيير، ولم يكن مهيبا مع صديقه الطبل لالتشغال به بعد أن نسيا كل الأصوات والأشياء حولهما.. فجأة! هطل المطر، نزل على الطاووس فارتعد وضم ريشه الجميل ثم فرّ لائذا بالأشجار وما وجده في طريقه من السواتر.. وهدمت دقات الطبل، تبلل بالمطر وفترت إيقاعاته فلجأ بدوره إلى أقرب مكن ينقذه من فساد أو تلف..

وضحكت الطيور.. تقافزت مبتلة مهتزة مع عذوبة المطر ثم تحركت ببطء إلى أعشاشها وسواتر الأشجار.. وحدها ثلاثة من الطيور الصغيرة بقيت في المكان.. ظلّت تنفّس ريشها تتمتع بعذوبة المطر.. قفزت مزقزقة مبتهجة ولم تهرب، إلى السواتر والأشجار..

كانت تلك قصة قصيرة جدا كتبتها ونشرتها إحدى المجلات الأدبية المعروفة.. تساءل المغربي، محمد الباهي، وهو يمكّن بالمجلة:

- أهذه قصة للأطفال؟!

فردّ عليه المصري عبد الفتاح الجمل:

- بل هي قصة للكبار جدا..

قال سي أحمد العباسي التونسي:

- تحاول تفهم تدوخ، قصة للأطفال وقصة للكبار.. كيفاش؟؟

وعلق السوداني محبوب الفيل بجملة واحدة - كعادته:

- هذه قصة رمزية..

فعاد عبد الفتاح الجمل إلى تأكيد موقفه:

- هذه القصة التي جاءت في صفحة واحدة، تُحللُ في ثلاث صفحات على الأقل..

وراح يشرح ما تضمنته القصة من رموز ودلالات.. وتساءلت: هل كانت تلك الرموز والتأويلات حاضرة في مخيلتي عندما كتبت تلك القصة؟! أم أنها تحليلات النقاد وتأويلاتهم التي يكتشفونها في القصص والأشعار واللوحات الفنية؟! لا أذكر أن تلك الدلالات طرأت على بالي عندما كتبت تلك القصة، بعد عودتي من ذلك الاحتفال الحاشد.. كل ما أذكره أن الاحتفال المشبع بالتشنجات والهتافات كان دافعي إلى كتابة تلك القصة ولم يكن في مخيلتي، آنذاك، سوى شيء واحد "الزهو الكاذب وهدير الحناجر المتشنجة المخدوعة"..

كان ذلك منذ عام، تخلصنا من رائحة الورق والكربون والرصاص وصخب الماكينات وخرجنا إلى فناء المطبعة.. اشفق علينا الحاج "البوني" فأمر أحد الشباب ليجلب لنا ألواح الخشب، التي افترشناها وجلسنا عليها.. ثم ذهب ليعد لنا بنفسه برادًا من "الشاهي" الثقيل.. كنت تعرفت على أولئك الأربعة حديثًا.. كنّا نعمل في مجلة واحدة، ولم أكن قد عرفت بعد ما وراء كل منهم.. لكنني اليوم أتذكر ذلك الحديث المقتضب فأجده مفتاحًا لشخصياتهم..

المغربي محمد الباهي، ذلك الشاب الخجول المرتبك دائماً.. يخفي وراء ابتسامته الغامضة قصة غريبة.. كان محمد حذرًا، يلتفت دائماً حوله ويخشى من شيء ما.. كنت أسأله عن سبب خوفه الدائم،

وكان يجيبني بكلمات مبهمّة، فألوذ بصمتي واحترم أسرارهِ
وخصوصياته..

أذكر أننا كنّا نسير معًا في شارع الجماهيرية في طريقنا إلى مبنى
الصحافة.. فجأة، انقضّ علينا شاب راكبًا دراجة، مال على محمد
الباهي، بصق في وجهه وصفعه على رقبتهِ بقوة ثم انطلق بدراجته
هادئًا.. هممت للحاق به، لكن الباهي جذبني من يدي وتوسّل إلى أن
أتركه.. بكى ثم قال:

- يا سي إبراهيم هذه ليست المرّة الأولى.. إنهم ييصقون في وجهي
ويصفعونني في كل مكان يجدونني فيه.. هؤلاء مغاربة مثلي، ولهم
الحق، كل الحق في ذلك.. أنا سبب تعاستهم ومصائبهم.. أنا الذي
أحضرتهم إلى هنا.. أنا الذي تسبب في حالتهم المهينة المزرية..
وعدتهم بالحياة الشريفة والكفاح والاستعداد من جديد، لكنني لم
أفعل.. أنا الآن لا أستطيع مساعدة نفسي.. بعد فشل الانقلاب، انقلاب
أو فقير، كنّا جميعًا مؤيدين بل مشاركين في الانقلاب، وبعد أن انحنى
ذلك الضابط المعتوه وقبّل يد الملك ثم أعاده إلى القصر، هربنا..
تمكّنّا من الهرب بأعجوبة.. هربنا بواسطة واحدة من "المومسات"
عن طريق تونس حتى وصلنا إلى هنا.. جئنا لالتقاط الأنفاس
والاستعداد للنضال من جديد.. ولكن!.. مسح دموعه، ثم أضاف:

- لكننا اكتشفنا اللعبة الخادعة.. يريدوننا مناضلين على مقاسهم،
بطريقتهم.. فصلّوا لنا ثوبنا النضالي، وعندما رفضنا لفظونا وحوكّونا
إلى كلاب! كلنا نعيش مثل الحيوانات.. لا نملك هوية ولا جنسية..

سحبوا منا جوازات السفر، طبعاً هذه الجوازات انتهت منذ سنوات والنظام في بلادنا لا يعترف بنا، بل نحن محكوم علينا بالإعدام! لم يمنحونا، هنا، جوازات بديلة ولا نستطيع التحرك إلى أي مكان.. بعضنا يتسول في الشوارع وآخرون يعيشون على صناديق القمامة.. ألا تريدكم بعد ذلك أن يبصقوا في وجهي ويصفعونني؟! لهم الحق أن يفعلوا ذلك وأكثر..

لم يعد محمد الباهي مؤمناً بشيء بعد تجربته المريرة. كان يعتبر الكتابة عبثاً ويعتبر النضال عبثاً.. كان مصححاً في المجلة، لكنه كان يحتقر كل ما يصححه ويسخر من كل ما يقرأه.. وكان ينفلت من شرنقته السوداوية أحياناً وينصحنى بشيء واحد:

- لا تسلّموا أنفسكم لأحد.. لا ترهنوا نضالكم وقضيتكم في يد أحد!!

أما عبد الفتاح الجمل، ذلك اليساري الأبتري، فلم يصبه الإحباط بعد.. ما زال يراهن على الجماهير.. وما زال مؤمناً بها و"بفعلها الثوري الآتي"! شارك عبد الفتاح في حرب ١٩٦٧ وخرج منها فاقداً ذراعه اليمنى.. وعاد إلى الحياة المدنية، يكتب القصص والمقالات ويرسم بيد واحدة.. أذكر أنني سألته عن محسن الشرقاوي، ابن الغرابية العنيد.. عرفه، وأخبرني أنه عاش معه في معتقل واحد ثلاث سنوات بعد وفاة عبد الناصر.. كان عبد الفتاح يشير إلى عبد الناصر بكلمة "زعيمك".. وكان يذكر له بعض الحسنات، لكنه كان دائماً يقول "حاشيته الحقيرة كانت تدفعه إلى ارتكاب الأخطاء" رفض عبد الفتاح

الوظيفة "الوضيعة" التي وضعوه فيها بعد خروجه من الجيش وجاء إلى ليبيا، باحثًا عن واحة "الحرية والديموقراطية والأدب الملتهزم".. قال لي بعد عودتي من مصر:

- ها أنت يا إبراهيم تتمكن من إصلاح يدك.. عدت إلى الكتابة بيدك اليمني.. تحركت أصابعك المتشنجة وأصبحت قادرة على الكتابة، لكن! أنا لم يستطيعوا إعادة يدي لي..
قلت:

- لماذا لا تعوضها بيد اصطناعية؟!
- لا!! لن أخفي ذراعي المبتورة! حتى لو أخفيتها، تظل في داخلي! أنا مبتور من الداخل يا إبراهيم.. أريدها أن تظل رمزًا للهزيمة، تذكرهم بها، الهزيمة الباقية حتى بعد "توبة السلام" المزعوم..
كان دائمًا يتحدث عن الرمز، يحلل الأشياء ويعطيها الدلالات البعيدة.. وظلّ متمسكًا بالأمل و"فعل الجماهير القادم"..

وسي أحمد العباسي! الكهل الذي أنهكته الغربة والشعارات والدوران في أروقة المكاتب "القومية".. عروبي قديم، باحث عن إجابات لأسئلة فات أوانها.. معجب بالشيخين محمد عبده وجمال الدين الأفغاني، وما زال متمسكًا بمقولات تجاوزتها كتب التاريخ نفسها.. "هؤلاء ماسونيون" عملاء لفرنسا منذ كذا وكذا.. "هذه صورهم مع فلان" "هذه وثائق تثبت تورطهم في كذا".. سي أحمد العباسي من "طراز" المكافحين المخلصين لأفكارهم والذين لا يقبلون تطور الأشياء والظروف ولا يعترفون به.. سرقة الزمن و"وهم" الإطاحة بنظام

بورقية فني نفسه وظلّ وحيداً.. لم يكن باستطاعته مجارة "الموجة" الجديدة من المناضلين.. ولا يستطيع العودة إلى تونس، رغم صدور العفو عنه!! كيف يعود بعد هذا العمر وفي هذه الوضعية؟ كان قائداً معروفاً بشجاعته وإقدامه ومقارنته لتسلط الفرد الحاكم.. واليوم يعود خالي الوفاض من كل شيء!! الزوجة والأولاد والمكانة اللاتقة؟ أبعد الستين تصلح الأشياء؟ لا!! يفضل أن يموت هنا على أن يعود محن الرأس خاسراً لكل شيء.. رفض كل التوسلات من أقاربه وذويه وظلّ متشبثاً بصورته التي خرج بها من تونس منذ عقدين من الزمن.. هذا حصان خذله الفارس والمضمار، فلا عجب أن "يدوخ" ويظل دائماً يسأل: كيفاش.. مفهمتكش!! تلك الكلمات التي سمعتها منه في أول لقاء بيننا ما زال يكررها.. كان - يومها - ممسكاً بذلك المغلف الأصفر الذي يحوي صورته ووثائقه.. وأذكر أن محجوب الفيل كان يجلس على المكتب المجاور، ذلك السوداني الأسمر الطويل النحيف واسع العينين، كان يدخن بشراهرة عجيبة.. جاء محجوب الفيل من ضواحي أم درمان، اصطحب معه أسرته المكوّنة من تسعة أشخاص، بينهم والده ووالدته المسنان.. جاء حاملاً الأقلام وأدوات الرسم وصوراً جاهزة للناس والأشياء، وعمل مخرجاً في المجلة.. كانت مشكلة محجوب الفيل في أغلفته ورسوماته.. ظل يرسم بطريقة واحدة.. سألتته ذات مرة:

- لماذا لا تغيّر هذه الطريقة؟ الناس والأشياء تتغير من حين لآخر؟

- لا أستطيع أن أتخيل الإنسان بدون جلباب وعمامة وسمرة ونحافة وعيون واسعة.. والبيوت! لا أستطيع أن أتخيلها "قصورًا" أو عمارات.. مخيلتي لا تحفظ إلا البيوت المتواضعة والأخصاص.. ماذا أفعل؟!

كانت رسومات محجوب الفيل تضرنا في حيرة.. كل الأغلفة والرسومات الداخلية عبارة عن مستطيلات ومربعات ومثلثات ودوائر.. الإنسان عبارة عن مستطيل طويل - مثل القلم - في رأسه عينان واسعتان وفوقها مثلث أبيض اللون (عمامة).. والبيت! مربع فيه عينان صغيرتان (نافذتان) بينهما مستطيل صغير هو الباب.. وفوق هذا المربع مثلث من القش.. حاولنا معه، لكنه لم يتبدل، فتركناه أسيرًا لمستطيلاته ومربعاته ومثلثاته ودوائره.. وسجائره ذات الدخان الكثيف.. استوقفتني ذات مرة امرأة سودانية ممثلة الجسم ترتدي ملاءة ملونة وسألتني:

- أنت الأستاذ إبراهيم الشاهد؟!
- نعم.. تفضلي..
- أنت تعرف محجوب الفيل، إذن!
- طبعًا! إنه زميلي وصديقي تقريبًا..
- إذن! أتوسل إليك أن تقنعه بتخفيف التدخين.. إن مريض بالقلب ونصحه الأطباء بالتوقف عن التدخين.. أرجوك! أقنعه أن يخفف التدخين فقط..

كان محجوب الفيل شاحب الوجه، كثير التأمل.. طلبت منه بتودد أن يخفف التدخين رافة بنا، نحن زملاؤه وأصدقائه ولنا حق عليه:

- بعدين عمك سي أحمد العباسي لا يحب رائحة الدخان والرجل كهل، صحته تتأثر بالتدخين..

- يا زول كيف أبطل الدخان.. خلاص، اطلبوا من رئيس التحرير يحطني في مكتب بروحي..

وسألني مغيراً الموضوع:

- كيف كان المؤتمر؟!

كان يعني مؤتمر الغزو الثقافي، كنت عائداً لتوي من تونس التي استضافت المؤتمر - مكاناً - وأنفقت عليه دولة أخرى.. كان ذلك في ربيع ١٩٨١، انتدبتني المجلة لتغطية المؤتمر الهام، الذي حُشد له عدد كبير من المفكرين، والمثقفين و"المناضلين المعارضين".. لم أحدث محجوب الفيل عن وقائع المؤتمر والأبحاث التي قُدمت فيه ولا عن بياته الختامي ووثائقه "التاريخية".. فهناك ملف كبير في مكتبة المجلة يستطيع العودة إليه!! لكنني حدثته عن تلك المفارقة "اللطيفة" التي حدثت معي:

- بعد الجلسة الثانية، عدنا إلى الفندق الفاخر.. توجهت إلى الاستقبال لأخذ مفتاح الغرفة فسألتنني الموظفة بأدب:

- أنت السيد الشاهد؟!

- نعم هو أنا..

- تفضل! هذه هديتك..

تناولت الحقيبة، وخمّنت أن مثلها قدّم لغيري من المشاركين.. صعدت إلى الغرفة وعندما فتحت الحقيبة كانت دهشتي الكبيرة.. وثائق المؤتمر ووسطها رزمة كبيرة من النقود.. رزمة كبيرة من الدولارات الخضراء الجديدة.. ما هذا الكرم؟ أنا موظف عندهم فلماذا يقدّمون بهذه الطريقة؟! وقبل أن أقلب الأمر طويلاً رن جرس الهاتف.. وجاء صوت موظفة الاستعلامات خجولاً مرتبكاً.. ثم طلبت مني الهبوط إلى الاستقبال ومعى تلك الحقيبة..

- سيّد شاهد، نعتذر لك، هذه الحقيبة للسيد محمد الشّاهد، قدمناها لك عن طريق الخطأ..

تقدّم المُفكر الكبير، وتناول الحقيبة، فتحها وتحسّس رزمة النقود ثم أغلقها.. نظر إليّ بامتناع ثم أنصرف مؤرجحاً حقيبتيه الدسمة.. وناولتني الموظفة حافظة صغيرة، ثم رددت اعتذارها مرة ثانية.. قال محجوب الفيل:

- كلّهم يقبضون.. كان عليك أن تعرف ذلك!.. ثم طلب مني أن اختار صورتين فقط لإرفاقهما بالتقرير.. ووجدته يزيح من أمامي صورة لإحدى جلسات المؤتمر، وقد برز فيها "المفكر المعارض" صاحب الهدية السخية، متراًساً الجلسة..

* * *

إنّه وقت الغروب.. أتذكّره.. والبحر ملاءة زرقاء كبيرة، والشمس برتقالة تلامسه ثم تغطس فيه راسمة لوحة بلون الجمر.. يتسرّب

الشفق مرتعشاً إلى داخلي، يبعث شوقاً قديماً إلى البرتقال فأتساعل:
ما علاقة البرتقال بالدم؟.. يقذفني عطا الجوراني ببرتقالة "دمي"
ويقول:

- خذ هذه لتندمج مع المشهد.. ماذا يُسمى هذا النوع من البرتقال
عندنا؟!

- دم الزغلول..

كان خالد الربيع أول من لفت نظري إلى علاقة البرتقال بالدم، عندما
قدّمت له واحدة من "دم الزغلول" في بيّارة الأفندي:
- أنظر! لون البرتقالة من الداخل يشبه لون الدم..

وذكرت له يومها، أن الفلاحين في قرينتنا يقولون عندما يعبرون عن
مكابدتهم في العناية بالبرتقال "راعيته بدم قلبي".. كانوا يشيرون إلى
الجهد والعرق الذي بذلوه حتى ترعرعت تلك الأشجار وكبرت، ثم
جادت بثمارها الذهبية.. مثل الأولاد تماماً، يتحدث القرويون عن
البرتقال والزيتون!! لماذا تذكرني هذه اللوحة الفاصلة بين الضوء
والعتمة، بالبرتقال والدم وخالد الربيع؟! لماذا أتذكرها اليوم، وأنا
الذي دأب على انتظارها ومشاهدتها طوال السنوات الماضية؟! في
الرسالة التي كتبها خالد الربيع، بعد عودته إلى لبنان، ذكرني بأيام
الصبا: المخيم و"دم الزغلول" الذي اقتسمناه في بيّارة الأفندي.. ثم
تحدث عن تلك الليالي الساحرة التي قضيناها في "حوش العرابية"
وحديقة "الميرلاند" بالقاهرة.. وأوصاني على الصورة التذكارية التي
التقطها لنا مصور جوال.. قال في رسالته "احتفظ بالصورة يا

إبراهيم.. كوثر تحتفظ بها مع صورنا العائلية.. أنا وكوثر وأنت
وسميرة وعزيزة الخيال.. صورة لن تتكرر مرة أخرى.. كنا في
حديقة "الميرلاند" والأولاد ينطون ويتقافزون على الحشيش الأخضر..
وأذكر أنني قلت لخالد معبراً عن حالة التماهي والتداخل:

- أيهما سميرة صالح وأيها عزيزة الخيال؟ أنظر! سميرة ترتدي
الفستان الطويل وتضع على رأسها المنديل.. وعزيزة ترتدي الجينز
وتنثر شعرها على كتفها.. أنت تذكر سميرة كانت ترتدي هذا
الجينز، وتعرف عزيزة بمنديلها وثوبها الطويل.. من التي تغيرت في
رأبك؟ عزيزة أم سميرة؟!

- أعتقد أن كل واحدة منهما تغيرت بطريقتها ولأسبابها..

ثم طلب من المصور أن يلتقط لنا صورتين..

وفي اليوم التالي كنا جميعاً في وداع عزيزة وشادي في محطة
الحافلات.. كانا مسافرين إلى غزة.. سلّمت عزيزة على كوثر
وسميرة، قبلتهما وقبلت الصغار، ثم تقدّمت نحو باب الحافلة ملوِّحة
بيدها.. فقالت سميرة فجأة:

- عزيزة! نسيت أن تقبلي إبراهيم! أليس هو مثل أخيك؟! دفعت
شادي إلى داخل الحافلة ثم عادت.. قبلتني على خدي مرتين ثم
أسرعت إلى الحافلة، فأصابتنى الرجفة للحظات..

قال عطا الجوراني فيما يشبه الصراخ:

- جاء وقت الصيد، ها قد هُذ الشاطئ وانسحب المصطافون..
صفية جهزي شبكة الصيد..

كان عطا الجوراني مدرساً للكيمياء.. تعرّفت عليه في طرابلس الغرب، بعد شهر من وصولي.. ذكرني بعبد الله الشريف، كان زميله في كلية العلوم، وتذكرت أنني التقيته في الإسكندرية بعد هزيمة ١٩٦٧.. عطا شاب متعدد المواهب، صياد ماهر وخبير في أنواع السمك، ولا يشبع منه أبداً.. وبالإضافة إلى كونه مدرساً ناجحاً فإن له خبرة في أشياء كثيرة.. الكهرباء المنزلية والسباكة والنجارة، يصلح كل ما هو موجود في المنزل.. حتى البلاط! يستطيع أن "يبلط" لك الشقة.. والأغنام والمواشي، إذا أردت أن تشتري خروفاً أو جدياً؟ خذ عطا معك واترك الباقي عليه.. والخياطة! معلم يستطيع أن يُفصل لك بنطلوناً محترماً.. سألته ذات مرة:

- كيف تعلّمت كل هذه الأشياء؟!

- أما الصيد، فأنا من الجورة، صياد ابن صياد.. كان والدي صياداً في قريتنا الجورة، وبعد أن استقر بنا المقام في مخيم الشاطئ، علّمني الصيد وعرفني أسرار البحر والسمك.. وبقية الحرف، تعلمتها في صباي واشتغلت في جميع المهن.. كهربجي، سباك، نجار، خياط، بليط، راعي أغنام، كلها..

النشي الوحيد الذي لا يتقنه عطا الجوراني الحديث في السياسة.. يعيش فلسطين، لكنه لا يحب التنظيمات والأحزاب.. ورغم ذلك يصر على حضور الاحتفالات في كل المناسبات.. ويحب بوجه خاص حفلات فرقة العاشقين التي كانت تقام في ليبيا.. أذكره، باكياً مثل الطفل عندما ذهبنا إلى "مسرح الكشاف" حيث أقيمت حفلة الفرقة..

كانت الفرقة قد بدأت وصلتها بملحمة الشهداء الثلاثة، محمد جمجوم وفؤاد حجازي وعطا الزير.. لا أدري لماذا يتخيل الجوراني نفسه عطا الزير؟! عندما نأح صوت مطرب الفرقة:

محمد جمجوم مع عطا الزير فؤاد حجازي عزّ الذخيرة
أنظر المقدّر والتقدير محكمة تطالب تا يعدموننا
ويقول محمد أنا أولكم خوفي يا عطا أشرب حسرتكم
ويقول حجازي أنا أولكم ما نخاف الردى ولا المنونا
شهق عطا من شدة البكاء، كان قلبي ينتفض كلما سمعت تلك
الأهزوجة - الملحمة، لكن عطا الجوراني كان حالة خاصة، فريدة..
أذكر أن امرأة فلسطينية سألت جارتها وقد رأته مجهشاً بالبكاء:
- هذا قريب عطا الزير ولا محمد جمجوم؟!

فردت عليها المرأة الباكية:

- ولك هذا قريب فؤاد حجازي! طلي في وجهه وأنت تعرفي!..
- يا لله يا برهوم شدّ حيلك مع عطا خيلنا ناكل سمك الليلة
انتشلني صوت سميرة من شرودي، وأذكر أنني تحركت وساعدته في
"تسليك" الشبكة ودخلت معه في البحر بضعة أمتار.. تقدّم بالشبكة في
الماء، ثم سبح بها حتى وصل إلى "الجرف" الذي اعتاد أن يلقي
شبكة عنده..

وجاء حصار بيروت.. أهدر دمنا مرة أخرى وصمتت كل العواصم
والجيوش.. وفي طرابلس الغرب، شكّلت لجان التعبئة والدعم!! كنت
عضواً في واحدة من تلك اللجان.. كنا نسهر حتى الفجر مشدودين

مازومين.. في الساعة الثانية صباحًا كان علينا أن نرتب مع "الأشقاء" طريقة لتوصيل كمية من الدم ونشحنها بالطائرة خلال ساعات.. كان ذلك بعد شهر من الحصار.. ذهبنا إلى "قيلا" المسؤول الفلسطيني الأول، وطلبنا منه الاتصال والتدخل السريع.. انزعج وقال:

- لماذا تزعجونني في هذا الوقت؟ لم لا تنتظروا حتى الصباح؟!

كان باب "القيلا" مواربًا، نظر أحد الشباب إلى الداخل ثم همس:

- إنه مشغول برقصة لسهير زكي.. هيا بنا

وفي الساعة الرابعة صباحًا كنا في المطار ومعنا الصناديق التي تحوي قناني "الدم العربي"! كانت الطائرة جاهزة للإقلاع وعندما تقدمنا بالصناديق، اكتشفنا خمسة من الفلسطينيين وثلاثة من الليبيين يتأهبون لل صعود إلى الطائرة.. كان عطا الجوراني واحدًا منهم.. سألته في ضيق:

- ماذا تفعل هنا؟!

- مسافر..

- إلى أين؟

- إلى لبنان! إلى القتال معهم.. الثورة محاصرة ونحن نصطاد السمك ونقشر البصل عيب..

مسحت جبھتي المعروقة ونظرت إلي زميلي، طلبت منه أن يخبر أسرتي بسفري إلى لبنان ثم مشيت خلف عطا الجوراني صاعدًا سلم الطائرة..

أتذكر الآن كل شيء! وأتذكر أننا سلّمنا قناتي الدم في مطار دمشق إلى المندوب، ثم توجّهنا مباشرة إلى الحدود.. مكّتنا ليلتين على الحدود ولم نتمكن من الدخول إلى لبنان.. لم يسمحوا لنا، ولم نستطع إقناعهم بمسؤوليتنا عن تصرفاتنا وحياتنا، فعدنا إلى دمشق.. وفي الطريق سأل أحد الشباب مستغرباً:

- إذن: كيف دخل أبو صراخ؟

التفت الشاب الملتحي الذي عاد معنا بعد محاولته الرابعة للدخول:

- ومن أخبرك أن "أبو صراخ" قد دخل إلى لبنان؟!

- ماذا تقول؟ ألم يدخل إلى لبنان؟

- بل هو "يرتع" في نعيم دمشق!! أتريد أن تراه؟!

عطا الجوراني وثلاثة من الشباب وأنا بذقوننا النابتة وملابسنا المتسخة المهلهلة، نجرّ أقدامنا الملتهبة ونقف أمام باب فيلا في دمشق.. أتذكر الآن.. عندما فتحت الصانعة "السيرلانكية" ودخلنا.. وعندما جلسنا في البهو الكبير جاء أبو صراخ مرتدياً روب "دي شامبر" أحمر بلون الشفق.. وثمة على الطاولة وضعت أربعة أصناف من الفاكهة وبعض المقبلات وقنينة "مبعوجة".. نظر عطا الجوراني إلى القنينة ثم قال:

- هلكتنا بالخطابات والحديث عن شلالات الدم... والله ما ودّانا في داهية غير أشكالك.

ولم يترك لي ما أقوله، أنا المعروف بلساني الطويل وقلمي اللاذع، ألجمني عطا الجوراني، ثم جذبني من يدي لننطلق إلى المطار،

عائدين إلى بحر طرابلس الغرب ولوحة الشفق التي تأخذ لون
الجمر..

إنه وقت الغروب..

أتذكره الآن.. والبحر ملاءة زرقاء كبيرة، والشمس برتقالة تلامسه
ثم تغطس فيه مُشكلة لوحة بلون الجمر ويتسرّب الشفق مرتعشًا إلى
داخلي، يبعث شوقًا قديمًا إلى البرتقال فأتساءل: ما علاقة البرتقال
بالدم: وأتذكر أن خالد الربيع كان أول من لفت نظري إلى علاقة
البرتقال بالدم عندما قسمنا "دم الزغلول" بيننا.. وأتذكر أنه "راعى"
بيروت ودافع عنها بدم قلبه.. استشهد خالد الربيع حاملًا صاروخه
المطور بعد أن أشعل به دبابات شارون وصدر الحكام الصامتين..
وها هي الشمس، برتقالة كبيرة ملّونة بدماء خالد وأخوته ورفاقه،
هذه اللوحة الفاصلة بين الضوء والعمّة هي أشواق خالد إلى
البرتقال وأشواقي إليه.. هيبه يا خالد.. هيبه يا دمي المسكوب..
تعال نقسم البرتقالة مرة أخرى.. و"أنظر! لون البرتقالة من الداخل،
إنه يشبه لون الدم".

§ الجزء الثالث

الدخان

عصام الفايز

البحرُ ملاذُ الهاربين.. والزبدُ الأبيض طوق النجاة! والإسكندرية تجلب
الطمأنينة وتعيدني إلى التوازن والهدوء.. أرشفُ من فنان القهوة
وأنظرُ إلى البحر.. أتابعُ الجدائل الفضية وهي تتوالى وتقترب
لتضرب أسفل الكازينو..

كانت تبحرُ نحو قبرص كانت جسر الخلاص والأمل.. والزبدُ الأبيض
المتراجع خلفها كان طوق النجاة.. والناجون العابسون كانوا دليلاً
آخر على أنني انتصرت وأن مستقبلاً جديداً ينتظرني.. ثلاثة أشهر
من الدمار والخوف والموت ظلّت ورائي! كنتُ خائفاً حتى المرض،
حتى الهذيان! اختلف الأمر هذه المرة، كان الموت يتربص بكل
إنسان، حتى المرضى والمقعدين الغافلين! بكل شيء بكل حيوان..
كانت الكلاب والقطط! تهر وتتلوى، تحاول النجاة، لكن الموت كان
يصطادها ويفتك بها وينثر أطرافها!.. كانت تتهاذى بحمولتها من
البشر والهموم عندما اكتشفتُ أنني نجوت، وأني اختلف عن أولئك
التائهين الحائرين.. همومي لم تكن همومهم ومشاعري كانت تختلف

عن مشاعرهم! أولئك المسكونون بالوجع لستُ مثلهم! لم أكن أشبههم إلا في شيء واحد، أنني كنتُ موجودًا معهم على ظهر ذلك المكان المتحرك - السفينة! وأنني نجوت! من العقاب والسجن؛ ولم يعد في مقدور الذين هددوني أن يظفروا بي، لم يعد بمقدورهم أن يحرمني من فرصة عمري، مستقبلي الذي خططت له وبنيته طوال خمس سنوات!! كانت تتهدى وتنشر الطمأنينة وتبث اليقين ليستقر في داخلي ويثبتني! وخلفها كان الزبد الأبيض يعود.. يتراجع ويؤكد أنها تتحرك، تبحر وتترك لبنان وراءها! وبعد ساعات، بدأت حشرات النحيب وآهات الحرقعة في الخفوت.. وبدأ الناجون التائهون في تبادل السجائر والنظرات الغامضة.. والتساؤلات!.. وانتبه أصدقاء خالد الربيع - الذي تركناه في بيروت تحت التراب - إلى كوثر العراقي.. بدأوا يتحلقون حولها وحول طفلها! ويتبادلون معهم حديثًا ودّيًا مشجعًا.. وعندما تحركت نحوهم كانوا يمرحون مع الطفلين! كنتُ أريدُ أن أعبر لكوثر عن تعاطفي معها، عن حزني على خالد، أن أداعب الطفلين - مثل الآخرين:

- كيف حال الأولاد الآن؟ أنتم ستذهبون إلى مصر طبعًا صدّتي، ورشقتني بنظرات قاسية موجهة.. وشعرتُ للحظة أنها لن تتوانَ عن البصق في وجهي! ارتبكتُ، ولم أجد غير الانسحاب، ألوذ به من الإهانة والصدود!..

قبل شهر من الاجتياح، جاعني خالد الربيع بعد قطيعة طويلة:

- عصام أنصحك أن تبادر إلى إنقاذ نفسك.. أخشى عليك من

السجن والفضيحة!

- ماذا تعني؟
- أنت متورط في قضايا عديدة، تزييف وابتزاز وتجارة سلاح و..
- وماذا أيضاً؟
- سطو مسلح! محل المجوهرات والصرافة!!
- هذه شائعات، تلفيقات كاذبة.. مجموعة من الحاقدين!
- هرب أبو الشريم، والأمور تغيرت.. أنقذ نفسك يا عصام، سلمهم كل شيء.. بعدها سأدافع عنك..
- لا دخل لي في "أبو الشريم" تركته منذ سنتين..
- لا يهمني "أبو الشريم".. ليهرب أو ليذهب إلى الجحيم، أنت من يهمني، نحن أبناء مخيم واحد، وكانت بيننا صداقة وعشرة.. سمعتك تهمني، مستقبلك.. لا تكابر يا عصام..
- سمعتي تهمة؟! تكرر الشائعات والتهم نفسها، وتقول إن سمعتي تهمة، كيف بالله عليك؟!..
- لأنها ليست شائعات وتلفيقات، هناك أدلة وإثباتات..
- تمّ التحقيق في هذه "التلفيقات"
- لا فائدة إذن!
- أنا لم أغتصب شيئاً من أحد، ولا اعتديت على مال أحد!
- في الحقيقة أنا مصدوم! تغيرت يا عصام! تغيرت كثيراً.. بتذكر؟! كنت..

- آه..! ضعيف ومهزوز وأعاني من شعور بالحرمان.. مرّكب نقص!! هه..! ليس هذا رأيكم؟ أنت وإبراهيم الشّاهد؟ حتى ذلك الدرويش عبد الله الشريف، كان يردد نفس الكلام! أما أنتم! ملائكة! أصحاب مبادئ ونزاهة ووطنية!! وكل الفضائل والمزايا الموجودة في الدنيا! طيّب! أين هم أصحابك، أصحاب المبادئ والشعارات و"الثورة النقيّة"؟! واحد في ليبيا، يغرف من الدولارات النفطية ويكتب المقالات "النّارية" عن "الحكّام المتخاذلين"، ثمّ يتغنى بأمين القومية، مُخلص البشرية الجديد!! والثاني، في الخليج، أطلق لحيته وحلق شاربه ولبس (الدشداشة) - مثلهم.. ويغرف من الدولارات النفطية أيضًا ويتغنى ويسبح بحمد الشيخ فلان والشيخ علّان! إصح يا خالد وانظر حولك! أنظر إلى حالنا - أنا وأنت - إلى مستقبلنا! أنا وأنت في النار والحرمان وغيرنا في النعيم! لماذا تلاحقوني وتبحثون عني فقط؟! مقدّرتوش عالحمّار قلتوا النط عالبردعة أسهل.. هه.. يا أخي ابحتوا عن اللي هبروا الملايين وخربوا الدنيا باسم الثورة وتحت خيمتها! امسكوهم وحاسبوهم! أصحاب الكانتونات وميليشيات الأنظمة وأزلامها هه.. و.. وبدي أفرطها وأقول.. خوازيق الأنظمة.. جايين تتشاطروا علينا بس؟!

- أنا بعرف إته في ناس بتخرّب وصارت شوكة في ظهرنا! ويعرف ارتباطاتهم الخطيرة! لكن هذا كله حسابه جاي! ظروف الثورة ما بتسمح بفتح هذه الملفات هلقيت..

- ظروف وفتح ملفات إلنا عشر سنوات وإحنا بنسمع هالحكي!!

- يعني هذا مبرر علشان تصير مثلهم؟! بتحكي عليهم وفي الآخر بتصقي مثلهم.. ليش؟!

- اسمع يا خالد! آخر كلام عندي كل واحد حر في حاله.. وكل واحد يخطط لمستقبله بطريقته..

لكنني خشيتُ من الحساب الذي تحدّث عنه خالد الربيع.. أخذتُ كلامه على محمل الجد وبدأت أفكرُ في طريقة لمغادرة لبنان والاختفاء عن العيون.. فكرتُ في اللحاق بأبي الشريم، لكن من يضمن ذلك الرجل؟ قد يتخلص مني إذا وجدني عبناً عليه! لقد فعلها مع آخرين.. ومن أنا حتى يحافظ عليّ؟ ماذا لو صدق خالد الربيع وأتى يوم الحساب؟! لن تنفني تلك النقود التي هربتها إلى خارج لبنان! لن تجدني الأموال التي جازفتُ بحياتي وسمعتي ومستقبلي من أجلها.. ياه.. - مرحباً عصام، أين أنت يا رجل؟ ليش قاعد شارّد الذهن؟ لا تقلق يا "باشا"! مصر أحسن من غيرها..

- القلق أمر طبيعي يا أيمن كلنا قلقانين على المستقبل ونشعر بالخوف من المجهول..

كان أيمن جابر ضاحكاً ساخرًا كعادته.. تزوّج قبل عام، وفي أثناء الاجتياح والحصار والموت، وضعتُ زوجته طفلها الأول.. رأيتُ زوجته الشابة تتعلّق في رقبته باكية عند المغادرة. خطف منها قبلة ثم تناول طفله وقبّله أكثر من قبلة ثم أعاده إليها شاهقاً بالبكاء.. قبل أسبوع من الرحيل كنّا نجلس متكئين على جدار مهدّم وأماننا ترتفع أكوام القمامة وفوقها جثث الكلاب والقطط.. كنتُ

قد شفيتُ لتوي من الحمى والخوف. كانت الرائحة النتنة تفوح في المكان وتطغى على النسمات الرقيقة التي جلبها ذلك المساء الحزين.. كان يمسك في يده زجاجة.. رشف منها ثم قال مهمومًا ساخرًا:

- بتعرف يا عصام - يا عصام باشا - هه.. هه، أنا عمري ما سكرت، بتصدق! هذه أول مرة أشرب في حياتي! هذه القنينة وجدتها ملفوفة عند مدخل إحدى البنايات، وجدتها بجوار رجل ميت.. صاحبها ما شربها، ملحش يشربها! اتصور النصيب! قنينة خمرة لواحد ما بيسكر، نصيب! آه.. الدنيا غدارة! ملحقتش أتها وأتمتع بحياتي! أتها بزوجتي وطفلي! تزوجتُ وأنا في سن الأربعين.. تزوجت متأخرًا لكن يا خسارة.. ملحقتش.. آه.. طلعنا من الدنيا بلوشي! طلعنا من المولد بلا حمص يا عصام! لا وطن ولا مال ولا عيال ولا.. ثورة!! وقف إطلاق النار وبعدين المغادرة! منافي جديدة وغربة جديدة!! بتعرف في ناس حسبتها صح! حضروا لمثل هذا اليوم.. أنا سمعت إنك واحد منهم.. والله لو هذا الكلام صحيح بتكون شاطر وحسبتها صح..

ورشف من الزجاجة ثم سألني فجأة:

- أأنت متزوج يا عصام.. يعني عندك أولاد؟
- تزوجتُ مرتين وطلّقت! عندي بنت واحدة مع أمها في مصر.. زوجتي اللي طلّقتها في لبنان ما أنجبت..
- أريح.. والله العظيم أريح..

كان أيمن يرشف من الزجاجاة ويضحك ويتكلم، يسأل ويثرثر دون توقف.. وعندما يتذكر زوجته وطفله يتحول إلى الشتائم والسخرية ويصبح شخصاً مسكيناً مثيراً للشفقة:

- أيمن، عندما تستقر في أي بلد لابد أن تكتب لي! هذا عنواني في مصر.. هه لابد أن تكتب وتعرفني بمكانك..
- يا عم إنت إيش بدك فينا، بكره بتنسانا يا باشا! إسمع خذ رشفة.
- بالله عليك تأخذ رشفة.. علشان أتذكرك.. خذ..
- ولك أنا غلبان مثلك.. بطل الأوهام اللي في راسك.. وهذه رشفة.. هه علشان خاطرك.

أرشف من فنجان القهوة وأنظر إلى البحر وأتابع جدائل الموج الفضية وهي تتوالى وتقرب لتضرب أسفل الكازينو.. هذا البحر يجلب الطمأنينة، والإسكندرية تعيدني إلى التوازن والهدوء..! أين ذلك الهدوء؟ ها أنا بعد عام من تلك الرحلة البحرية العجيبة ما زلت حائراً! ما زلت لم أصل إلى قرار! كيف أستثمر تلك الأموال التي جمعتها؟ الأموال التي جازفتُ من أجلها؟ كيف أتمتع بها دون أن أعرض نفسي للشبهات؟ كيف أكشف هذه الأموال وأتمتع بها دون خوف من أحد؟.. شريك ثري، كما فعل أحدهم لكنني لا أثق في أحد! قد يستغل هذا الشريك تستري وخوفي ويبلغ كل شيء! أقاربي أصدقائي لا أضمن أحداً منهم! ولا أثق حتى في أخي ابن أُمي وأبي! لم أتعب كل هذا التعب وأجازف هذه المجازفة لأسلم رقبتى لأحد! هذه نقودي، أموالى ولن يتمتع بها أحد غيري! لابد من وجود طريقة!!

لابد!

بعد شهر، ذهبتُ إلى القاهرة! كنتُ مدعوًا لحضور حفل زفاف ابن أحد الأثرياء الفلسطينيين.. كان الحفلُ مهيبًا عامرًا بمظاهر الترف والبذخ.. امتلأت صالة الفندق الفخم، وعجتْ بالمتأنقين والمتزيّئات وروائح العطر.. والنعيم!

- هكذا يتمتع الناس بأموالهم!

همسَ صديقي، الذي بهره الإعلان الصارخ عن الشراء..

- كان من الأفضل التقليل من هذا البذخ..

- كيف تريدُهم أن يتمتعوا بأموالهم إذن؟!

- على كل حال مظاهر البذخ لا تقتصر على العائلات الثرية المعروفة فقط.. رأيتُ في بيروت أكثر من هذا، هناك آخرون يمارسون البذخ والإتفاق المجنون! ولماذا بيروت؟ أتذكر ذلك العرس الذي ذهبنا إليه صدفة في الإسكندرية قبل سفري إلى لبنان؟ ألم يكن طافحًا بالبذخ؟ وكنا - يومها - خارجين لتونا من محنة الأردن! لا أعرف كيف ينفق الناس بهذه السهولة؟ كيف تهون عليهم الأموال؟.. أصدر صفيّرًا خافتًا، ثم لكزني في ذراعي وقال:

- دعنا من بخلك وأنظر هناك! أنظر إلى تلك المرأة الثرية الجميلة

أنظر كيف يلاحقها ذلك التاجر الكهل.. يحاول التقرب منها!..

كانت ترتدي فستانًا كحليًا فاخرًا، لكن زينتها ظلت هادئة وقورة وظلّ شعرها طبيعيًا مسدلًا على ظهرها، متاعمًا مع بياض جسمها وملامحها الفخمة الباهرة!.. معقول؟! أكون هي؟! بل هي لم تتغيّر

كثيراً.. ياه! بعد هذه السنين الطويلة! كم عمرها الآن؟ "أكبر منك بخمس سنوات".. أذكر أن إبراهيم الشّاهد قال ذلك! كنتُ في السادسة عشرة من عمري! إذا هي الآن في الأربعين أو الحادية والأربعين!.. معقول!

- إنها سوزان الأفندي!
- سوزان قاسم الأفندي؟..
- أتعرفها؟
- رأيتها منذ عشرين عاماً!
- وكيف عرفتُها بعد هذه السنوات الطويلة؟ بعينيك أم بقلبك؟
- بل من ملامحها الفخمة الطافحة بالعز والجمال والهيبة! لم تتغير كثيراً لم تغيّرُها السنوات الطويلة، بعض السمنة فقط.. ظلت كما هي أفندية! أفندية بنت أفندية!!
- لكنها أفندية مسكينة!
- مسكينة؟ ماذا تعني؟
- مات زوجها منذ سنة بعد مرض عُضال.. تسبب مرضه الطويل ثم موته في إرباك حياتها وتدهورها.. قلب حياتها كلها وورثها الديون الطائلة.. أعتقد أن التاجر الكهل يحاول بلع ما تبقى لديها.. لكن كهولته قد لا تساعد على تحقيق مآربه!
- ماذا تعني؟ التجارة ليس فيها شباب وكهول!
- ومن قال إنه يسعى إلى الأموال والشركات فقط؟ هذا رجلٌ مزوّاج! تزوج سبع مرات.. معروف في الوسط الفلسطيني باسم "أبو

- سبعة" .. امرأة جميلة مع شركة سياحة ومصنع ملابس.
- .. و.. ويعدين ببسموه "أبو ثمانية" ..
 - شركة سياحة ومصنع ملابس ..
 - ونصف فندق في العتبة .. هذا غير بيّارة غزّة، متنا دونم من الحمضيات المثمرة الفاخرة .. يا بختك يا "أبو ثمانية" !!
 - خلّص! سمّيته "أبو ثمانية" زوّجتها له .. ألم تقل أن كهولته قد لا تساعد على تحقيق هدفه؟!
 - لكن أين الشباب الأثرياء يا صاحبي .. أين؟
 - وفكرت: "الشباب موجود يا صاحبي! لكن كيف الوصول إلى الهدف؟ امرأة ثريّة - هذا ما يعرفه الناس على الأقل - الجمال والهيبة والاسم .. سوزان الأفندي! هل جاءت صفقة العمر يا عصام؟ معقول؟" .. وسألتُ صاحبي:
 - هل يعرف الجميع أنّها مثقّلة بالديون؟!
 - لا .. لا طبعاً .. هذه أسرار! أنا عرفت بالصدفة من أحد المحاسبين .. الموضوع محصور جداً ..
 - نظر في وجهي .. غمز بعينه ثم ابتسم .. وعندما ضحكنا معاً، أعلنت الموسيقى دخول الراقصة إلى الحفل المهيّب ..

عزيزة الخيال

انطلق صوتُ المؤذنِ مدويًا في العرابيّة، فتوقفتُ السيارةَ أمام الحوش الكبير! كنتُ أعرفُ أن كوثر العرابي في انتظاري قويّة متماسكة، رغم أنّها تركت نصفها مدفونًا في بيروت!.. وكنتُ أعرف أنّها ما زالت تحتفظ بجمالها وبهائها! لكن ما لم أكن أعرفه، ولم أتوقعه، أنّها ستستقبلني بذلك الثوب الفلسطيني البديع! كأنها تستعدُّ لوصلة من الدبكة، أو لرقصة في عرس شقيقتها، أو لحفل يحضره خالد الربيع! ما أروعك يا كوثر!.. عندما تحدّثتُ معها في الهاتف، بُحَّ صوتها للحظات، لكنها عادت وتماسكتُ ومازحتني، وتحدّثتُ كأنّها لم تُصب في خالد، لم تفقده!.. كانت تتحدّثُ وكأنّه بجوارها، يداعبها ويمسّد شعرها، ينظر في عينيها ويتغرّل فيها:

- كوثر أنت امرأة عظيمة!

قلتُ بعد أن جلسنا في غرفة الاستقبال:

- العظماء هم الشهداء يا عزيزة! الذين ضحّوا بحياتهم من أجلنا ومن أجل أطفالنا ومستقبلنا!

- طبعًا.. طبعًا! وكذلك الذين يحافظون على عهودهم ويسيطرون على خطاهم عظماء!

- صحيح.. صحيح! تعالي.. تعالي يا عزيزة أوربيكي حاجة..
جذبتني من يدي فنهضتُ معها.. أخذتني إلى غرفتها، وعندما دخلتُ
وقفتُ في منتصف الغرفة ثم أشارت إلى جوار التسريحة، فرأيتُ
الصورة!.. صورة مكبرة لنا نحن الخمسة! خالد الربيع وإبراهيم
الشّاهد وسميرة صالح وكوثر وأنا! الصورة نفسها، التي التقطها لنا
ذلك المصوّر الجوّال في ذلك اليوم البهيج منذ ثلاث سنوات! صورة
الميرلاند التي لن تتكرر..! ثوب فلسطيني.. وصورة فلسطينية!
وعندما عاد ثائر وهدي من المدرسة كانت تزين صدريهما شارتان
بالألوان العلم الفلسطيني..! ما هذا الوفاء والعشق، أيتها الشرفاوية
العظيمة، بل أيتها الفلسطينية؟!.. سحبتُ عينها من الصورة، تهتدتُ
ثم قالت فيما يشبه الهمس:

- عزيزة أريد منك خدمة..

- خدمة؟ على عيني، تفضلي!

- أريد منك أن تبحتني عن أحد الفلسطينيين المسافرين إلى ليبيا
وتحضره إلى هنا.. أريدُ شخصًا تثقين به تثقين به جدًّا..

- ليبيا! ولماذا ليبيا؟!

- أريد أن أرسل معه أمانة..

- أمانة؟.. يعني هدية، هل لك أقارب في ليبيا؟!

- بل أمانة أريده أن يوصلها إلى إبراهيم الشّاهد، يسلمها له

بنفسه! لكن سامحيني يا عزيزة لا أستطيع أن أفصح لك عنها، ولا أريد الشاب أن يفتحها.. أرجوك يا عزيزة ساعديني واحترمي رغبتي، هذه وصية خالد!

- حاضر.. حاضر يا كوثر، لا تقلقي.. خلال أسبوع، قبل سفري إلى غزة إن شاء الله سأحضر لك الشخص المناسب.. لا تقلقي، وسيكون ثقة بإذن الله..

خرجنا من الغرفة فوجدنا أم كوثر المقعدة تداعب أحفادها وتمزح معهم! وعندما دخل فوج جديد من الأطفال، أمسكت كوثر يديّ بحنان وقالت:

- تعالي يا عزيزة نبعد عن الدوشة، تعالي نشم شوية هوا برّه! هبطنا إلى الفناء، ثم سرنا باتجاه التربة، وعند شجرات الصفصاف الحانية على الماء، وقفت كوثر!.. لامست أوراق الصفصاف، داعبتها ثم شردت بنظرها إلى البعيد!.. بدت كأنها تنظر إلى شخص بعينه، بل هي تنظر الآن إلى خالد الربيع تناجيه وتحادثه!.. احترمت تأملها، لكنني خشيت تغلب الحزن عليها، فقطعتُ شرودها:

- يبدو أن الأولاد قد انتظموا في الدراسة بسرعة..
- هه.. آه.. الحمد لله! ثائر وهدى مجتهدان ولا خوف عليهما..
يستطيعان تعويض ما فاتهما من دروس الحمد لله..
ذهبت عيناها إلى البعيد مرة أخرى لكنها التفتت إليّ فجأة:

- عزيزة، هل تعرفين عصام الفايز؟
- طبعًا أعرفه.. أعرفه جيدًا! كان صديقًا لإبراهيم الشّاهد ولخالد

أيضاً! رأيته منذ أسبوع في مكتب المنظمة بالقاهرة.. لكنني..
تجاهلته!

- ولماذا تتجاهلينه؟

- لا شيء! لا أريد متاعب! أنا مسافرة إلى غزة، ولا أريد منغصات
عندما أعود! تعرفين، عصام كان في بيروت.. لكن لماذا تسألين
عنه؟ أين تعرفت عليه؟

- عاد معنا على نفس الباخرة.. تذكرته فقط!

تمتتم وعندما اكتشفت أنني أنظر إليها صمتت!..

ها هي كوثر تخفي شيئاً متعلقاً بعصام الفايز، كما أخفيت أنا سبب
تجاهلي له! عيونك الجميلة تفضحك يا كوثر! يا إلهي، هل يكون
عصام قد تقرب من هذه الفاتنة النجلاء ولفَّ شبابه حولها؟ هل يمكن
أن يصبح... لا.. لا.. كوثر لا يعجبها هذا النوع من الرجال! ثم أن
خالدًا ما زال يسلبُ لبَّها ويسيطرُ على كيائها.. ما زال مغروسًا في
قلبها ودمها!.. لا بدَّ أن أمرًا آخر وراء سؤالها!.. وطردتُ الفكرة
الملعونة من رأسي، وندمت عليها! تبًا لهذه الوسائس النسائية
الشیطانية.. اعذريني يا كوثر، اعذريني واغفري لي.. ما زلتُ أراك
عظيمة.. ما زلت!..

بعد أسبوع عدتُ إلى حوش العرابية مرة أخرى، وكان معي هذه
المرّة شاب فلسطيني يُزعم السفر إلى ليبيا!.. تركتنا كوثر في غرفة
الاستقبال لبرهة، ثم عادت وفي يدها لفة محكمة التغليف! لفة تزن
كيلوجرامًا أو اثنين! ولاحظتُ أن كوثر قد كتبت عليها عنوان إبراهيم

الشَّاهد بالتفصيل!..

بعد الغداء، استأذنا للمغادرة، فأمسكتُ كوثر يدي، وعندما تقدّم الشاب خطواتٍ نحو الباب الخارجي قالت هامسة:

- أوّعي يا عزيزة تكوني مش متأكدة من الشاب! يعني زي ما اتفقنا، ميفتحش اللّفة! هه.. وصيّّه يا عزيزة: لازم يسلمها لإبراهيم باليد، حتى لو بقي سنة يدور عليه.. وصيّّه!

- حاضر.. حاضر يا كوثر متخفيش! أنا فهّمته، اطممني، الشاب ثقة وأنا بعرفه وبعرف أهله من زمان! بلاش نقول له يفتح اللّفة أو ما يفتحهاش! بلاش يشك، ها!

- كده.. طيّب.. خلاص اللي تشوفيه يا عزيزة.. ربنا يستر!
وعندما عدنا إلى القاهرة، حمّنت أن اللّفة تحوي نوعًا من الملابس.. سروال، قميص، بلوفر، جاكيت، يعني! لعلها بعض الملابس تذكّر من حاجيات خالد الربيع، رائحته، طلبها إبراهيم ليتذكّر بها صديق العمر ويشم أنفاسه!!..

بعد شهرين، عدتُ إلى غزّة! واكتشفت أنني غريبة، والعزيزة غريبة، والقرية كلها غريبة!.. تعجّبتُ! سنوات قليلة تفعل كل هذا! لا أصدق أن هذه هي قريتي التي نشأت وترعرعتُ فيها!.. أفراح صاخبة وسهرات وحفلات، وعلى مقربة منها، بجوارها، في نفس الشارع، ماتم ودور عزاء!.. زغاريد وفتيات صغيرات يفرحن بالزواج والحلي والذهب إلى درجة الجنون! وفي الجوار شجار عائلي شرس تستخدم فيه السكاكين والنباييت!! صبيّة وفتيان وأطفال يتسابقون في التسرّب

من المدارس، وآباء يتشمسون يلعبون السجّة ويتباهون بأولادهم الذين يعملون في إسرائيل، في المزارع والبنيات.. والمستوطنات!! كأن هذه القرية مخدّرة أو فقدت صوابها! من ضرب هذه القرية على رأسها وأفقدتها وعيها؟ مَنْ؟ كأنها لا تخضع للاحتلال، كأن الإسرائيليين لا يجوبونها طولاً وعرضاً ويتجولون في شوارعها راجلين آمنين، ويتبضّعون من حوانيتها مطمئنين!! والمعتقلون آه أولئك المنسيون القابعون في السجون، لا أحد يتذكرهم! نسيتهم القرية! حتى الزيارات صارت شحيحة، تحوّلت إلى عبء على هؤلاء المتخمين بالأولاد والأعراس والخلافات.. لا، لا هذه ليست قريتي التي أعرفها..

- الناس تعبت يا عزيزة، لا تظلمهم!

قال الأستاذ زاهر جودة، وكأنه يقرأ ما يدور في رأسي!.. هل تغيّر الأستاذ زاهر هو الآخر؟.. لماذا يحاول إيجاد التبريرات والمعاذير! منذ أن عدتُ، وهو يحاول "عقلنة" الأمور "وترشيدها"!.. هل غيّرته سنوات السجن والاعتقال؟ ها هو يبدو ضعيفاً محنياً يضع نظارة سمكة على عينيه، وها هي الصلعة تكبر وتتوسط رأسه وتفيض على حافتيها ضفتان من الشعر الأبيض القصير! لم تعد بنيته قوية صلبة، كما عرفتُها! وعباراته، لم تعد حاسمة!.. لماذا يذكرني هذا الرجل بغاندي، يبدو نحيلاً هرمًا، ويكاد يدعو إلى "النضال السلمي" - مثله! عجيب! هذا الرجل الذي خطط لجميع عمليات القرية، وعلى يديه تتلمذت كوادر القرية كلها، هذا "القائد" يتحوّل إلى "حمامة للتعقل

والترشيد"!.. وقلتُ في نبرة مسائية:

- يعني خلص.. استكان الناس وأعجبتهم الحال؟
- وضع الثورة بعد مغادرة لبنان، سهولة كسب المال وفتح مجالات العمل في إسرائيل، شجّع الناس على الالتفات لمعيشتهم وطلب الراحة!.. تغيّرت اهتمامات الناس.. وهناك حالة من الإحباط أيضاً!
- هناك أشياء لا علاقة لها بوضع الثورة ولا الكسب السريع ولا الإحباط! النعرات العائلية المتنامية! تسرّب الصبية والتلاميذ من التعليم، وتشجيع الآباء لهذه المصيبة!.. إهدار الأموال والأعراس والحفلات الصاخبة! المنطق يقول إن هذه الظواهر يجب أن تتقلص لا أن تزداد خاصة في مثل ظروفنا.. كان يجب أن يتشبّث الناس بالتعليم، أن يُصروا على تعليم أطفالهم.. أن يزداد الناس في التآلف الاجتماعي.. أن يتناسوا الأحقاد والنعرات العائلية! في ظل الاحتلال وإهدار الكرامة وانعدام "البطولة" بمَ يتباهى هؤلاء؟
- الغريب أنك تتحدثين وكأنك لم تدرسي في الجامعة وتحصلي على ليسانس في علم الاجتماع! هذه الظواهر، والتي أسميها "مظاهر مؤقتة" تعبر عن سيكولوجية الإنسان المقهور! هؤلاء الناس مستلبون مقهورون في أعماقهم! لا تأخذي الأمور بظاهرها.. والإنسان المستلب المقهور يحاول أن يُظهر عكس حقيقته، يحاول أن ينفي استلابه وقهره بمثل هذه الأشياء التي تتحدثين عنها! يظهر قوته ويتباهى على المحيطين به، جيرانه، أقاربه، الذين يعملون معه! يتفاخر بالعائلة، وتعدد الزوجات، بكثرة الأولاد والجاه والمال

والعمارات، بالبذخ في الأعراس.. وهكذا! لكن، راقبيهم ودققي في حالهم، وشاهدي كيف تنوب هذه "العظمة المزيفة" في حضرة مجنّدة إسرائيلية حبشية!!..

- أستاذ زاهر، أنت تعرف أنه كان يُضرب بنا المثل في الحرص على التعليم! هذه القرية كانت تفاخر بالعدد الكبير من أبنائها المتعلمين.. مصيبة! ما يحدث مصيبة!

- كيف يصمد المتعلمون أمام هذه الإغراءات؟ أي شخص يحسبها بالعقل سيجدها خاسرة! ما دامت الدول العربية "الشقيقة" لم تفتح لهم باب الرزق، والنجاة من براثن السيطرة الإسرائيلية وسياسة التجهيل المدروسة! لم تفتح لهم منافذ العيش الكريم والصمود! خير الدول العربية ومجالات العمل مفتوحة للهنود والسيرلانكيّات والتايلانديين وكل أجناس الأرض، عدا أهل الأرض المحتلة.. هل هو خوف علينا أم خوف منا؟ لا أدري!

- من يسمعك، يظن أنك ستذهب غداً للعمل في إسرائيل - مثلهم! وعندما تزوج ابنك ستقيم حفلاً باذخاً صاخباً، وتحضر النوريات وزجاجات الخمر.. ومش بعيد تعزم بعض اليهود - مثلهم!!..

- له.. له.. يا عزيزة.. خربتيتها! مش لهذه الدرجة!

- راحت البلد يا أستاذ زاهر.. راحت وانتهى الأمر!

- البلد لا راحت ولا حاجة، كل هذه الأشياء بتروح وتنتهي.. بكرة بتروح السكره وتترجع الفكرة.. اسمعي، سأحكي لك مثلاً واحداً من تاريخ هذه القرية.. في الثلاثينات كان معظم أهل البلد يعملون في

مستعمرة الغصين على طرف البلد! وكانوا مبسوطين والأمور ماشية تمام.. وعندما قامت الثورة وأصبحت القضية إما نحن وإما هم، أهل البلد الذين يعملون في المستوطنة ورزقهم عليها هم الذين دخلوها واستولوا عليها وطردوا اليهود منها وسلموها للقوات العربية نظيفة!

- أيش يعني؟

- يعني لابد أن يأتي يوم وتستيقظ الناس وترجع إلى عقلها.. لا تخافي يا عزيزة ليس هذا ما أخشاه وأخاف منه.. اللي بخوف إشي ثاني!

- ما هو؟

- بعدين.. بعدين خليني ألحق الصلاة.. وعندي أمانة لازم أسلمها لأصحابها!..

- نحن نعرف أنك سلّمت الأمانة في القاهرة.

فاجأني الضابط الإسرائيلي المسئول عندما دخلت لمقابلته.

- أمانة؟ أية أمانة؟

- الرسالة التي تم تهريبها في الحذاء.. أنت لم تلتزمي بالتعهد الذي كتبته على نفسك.. لقد تعهدت بأن تتفرغي للدراسة فقط، وأن لا تتدخل في الأمور الأخرى..

- بل التزمتُ بذلك..

- لا.. لا يا عزيزة، أنت عملت أشياء غير الدراسة والتعليم.. بلاش الرسالة، أنظري (وعرض صورة) أليست هذه صورتك؟ وهذا،

أليس هو ابنك شادي، ابن صديقنا جميل؟.. شو لابس؟.. كوفية، وحامل علم فلسطين! وأنت، شو لابس؟ ثوب فلسطيني وحاطة كوفية، وبتدبكي معاهم! هذه حفلة للجبهة الشعبية في الإسكندرية، صح، يعني فتح والشعبية مع بعض! أنت أيش وداكي من القاهرة على الإسكندرية يا عزيزة؟! طيب وهذه؟ (وعرض صورة أخرى) أليست هذه صورتك؟ حاملة علم فلسطين وتهتفين ضدنا وضد أصدقائنا الأمريكان، هذه الصورة أمام السفارة الأمريكية في القاهرة.. صح؟

- هذه نشاطات طلابية، ولم أكن فيها بمفردي.. بعدين أنتم تقولون أنكم دولة ديمقراطية وهذا تعبير ديمقراطي!..

- آه طبعاً نحن بلد ديمقراطي، ونحب الديمقراطية، لكن ليس في مصر يا عزيزة، هناك اتفاقية سلام معهم وهذا تحريض ضدنا وضد الاتفاقية!.. بلاش الصور والأعلام والمظاهرات.. هذه..

قلب في الملف الذي وضعه أمامه، ثم أخرج ورقة، وأردف:

- هذه القائمة أنظري! هذه قائمة بأسماء الطلبة الذين سجّلوا للذهاب إلى بيروت سنة ١٩٨٢ مصريون وسودانيون وعراقيون وجزائريون ويمنيون وليبيون ومغاربة وطبعاً فلسطينيون.. تاريخها، آه في ١٩٨٢/٦/٢٥. اسمك موجود فيها رقم ٨ عزيزة عابد الخيال، يعني أنت كنت ذاهبة إلى لبنان لتحاربي معهم! كنت ذاهبة لتنضمي إلى الإرهابيين الذين ذهب جيشنا ليخلص الشعب اللبناني منهم!.. وأطاحت عبارته الأخيرة برأسي، فشعرت بالدوار. أوشكت أن أقذف

في وجهه كل غضبي.. أن أعبر عن احتقاري له ولحكومته ولوظيفته وجيشه! كنت أريد أن أقول له أنهم قتلة ومجرمون وأن من حاصروهم في بيروت مناضلون، يدافعون عن حقوق مقدسة وأننا سنسير على دربهم! لكنني تذكرت "غاندي العظيم" بعباراته الرشيدة المهدئة.. "الظروف لا تسمح بالمواجهة المباشرة، لابد من الانحناء للعاصفة، من الأفضل التحمل قليلاً وتغيير أساليب العمل، حتى لا نخسر كل شيء".. فتماسكت:

- أنا لم أسجل للذهاب إلى لبنان أو سوريا! كيف أسافر وأترك ابني؟! تعلمون أن ابني كان معي! هذه القائمة مزورة!

- سنرى، إذا ما كانت القائمة مزورة أم لا! على كل حال سنرسل في طلبك إذا تأكدنا أنها مزورة..

لكنهم لم يرسلوا في طلبي! سنة كاملة، لم يطلبوني! فتأكدت أنني لن احصل على أية وظيفة في الحكومة!..

وخرج غاندي من جديد، جاء الأستاذ زاهر جودة، محنياً باسمًا هذه المرة:

- هذه أوراق ومذكرات عن القرية قد تفيدك وتعيد لك الثقة.. سمعت أن الوظيفة قرّبت!

- أخبرتك أنّهم لن يرسلوا في طلبي وأنني فقدت الأمل..

- لم أقصد الحكومة!

- آه.. تعني عرض جميل حب الرمان، موظفة في شركته، سكرتيرة يعني!

- عرض معقول! لماذا لا تقبلينه؟
- آه.. يعني نفسيتك اليوم رايقة وجاي..!
- اسمعي، عندي أخبار طيبة!.. أخبرني أحد الأصدقاء، صديق قديم من أيام الدراسة، أن وكالة الغوث ستعلن عن حاجتها إلى باحثات اجتماعيات لتعيينهن في مدارس البنات التابعة لها!.. وعندما عرضتُ عليه شهادتك وملفك، أعجبته تقديرائك العالية! أعتقد أنّه سيكون في لجنة المقابلات، ولا شك أنّه سيعمل ما في وسعه.. في قريتنا مدرسة إعدادية للبنات، ولا توجد فيها مشرفة اجتماعية! ما رأيك؟..
- رأيي؟! ماذا سيكون رأيي.. يا ريت!!..
- ومرّ من أمامنا شاب طويل نحيف، يرتدي ملابس أفغانية غريبة أطلق لحيته وتركها متشعبة مبعثرة!.. لاحظ الأستاذ زاهر أن الشاب لم يلق علينا التحية، فمسح نظارته وسألني:
- من ذلك الرجل يا عزيزة؟
- أعتقد أنّه ابن السمرّي، لا أعرف اسمه..
- اسمه حمزة.. هؤلاء الشباب لا يلقون السلام على أمثالنا.. إنّهم طالب في الجامعة الإسلامية..
- غريب ما حدث في الجامعة الإسلامية. سمعتُ عن أشياء مرعبة مخيفة جنازير وسيوف وماء نار وشج رؤوس ودماء! ما هذه القسوة؟! أنا لا أصدق أن ذلك كله كان بسبب انتخابات!
- تقصدين أحداث ذلك السبت الدامي!.. الموضوع أكبر من نقابة العاملين وهذا ما يخيفني أكثر من "المظاهر المؤقتة" التي تحدّثتِ

عنها والتي تقلقك في القرية! ابن أخي واحد من هؤلاء، زميل هذا الشاب الذي لم يلق علينا تحية الإسلام! تصوّري أنّه قال لي منذ أيام: إذا حدثت مواجهة حاسمة بيننا وبينكم - هكذا - فلن أتردد في قتلك! دفاعاً عن عقيدتي وديني!.. كنا قد فرغنا من تناول الطعام معاً!..

- معقول! إلى هذه الدرجة أوصلوا الشباب وسيطروا على عقولهم؟! الابن يقتل أباه وعمه وأمه وشقيقه! لم نعهد مثل هذه القسوة في مجتمعنا!

- منذ شهرين أو ثلاثة هجم أحدهم على دار الحسني، كسّر التلفزيون والمسجل والأشرطة والراديو وأتلف أغراضاً أخرى.. كان يكسر ويصرخ: كفار، فاسدون، فاسقون!.. تصوّري دار الحسني طلعوا كفاراً من قريش ونحن لا ندري! كان هائجاً يضرب كل من يحاول التصدي له!! شجّ رأس ابن الحسني وجرح أمه وأخته.. وبتعرفي دار الحسني لا عيلة ولا ظهر، بلعوها وسكتوا!.. بعدها، تجرّأوا أكثر! ذهب ومعه مجموعة من أمثاله وحاولوا الاعتداء على عرس دار كرز.. حاولوا تخريب العرس.. نوريات وخمرة، يعني مسخرة واضحة! لكن هذه عائلة كبيرة مش لعبة! هجم شبابها على المشايخ وكسّروهم، رثّوهم علقة سخنة، بعدها اختفوا من القرية!

- أيش هذه البلدة؟! يا إمّا خمرة ونوريات ورقص ومسخرة، يا إمّا سيوف وتكسير وفقع وتكفير؟! أيش مفيش حل ثالث؟!!

- اسمعي يا عزيزة. أنت تعرفين أنني صريح، نحن أيضاً ارتكبنّا أخطاء!

- أخطاء! من؟

- جماعتنا.. التنظيمات الوطنية، تنظيمات المنظمة أخطأت.. اغتيال حمدان الرقيب كان خطأ.. كان الرجل متديناً، لكنه لم يكن عميلاً! محسوب على المشايخ صحيح، لكنه لم يكن جاسوساً! لماذا يقتلوه؟

- لماذا وافقتم على تصفيته إذن؟!

- أنا لم أوافق لكنني لم أستطع منعهم! كذلك ما نشرته تلك المجلة العائرة كان خطأ! التقرير الذي نشرته استفزهم..

- أي تقرير؟

- حددت فيه أسماء ثلاثة من المشايخ، اتهمتهم بالعمالة و"قررت" - هكذا - الحكم عليهم بالإعدام! شعر المشايخ، طبعاً، بالخطر، وأنهم لابد أن يستعدوا للدفاع عن أنفسهم.. أه.. دخلنا في صراع لا تحمد عقباه وإسرائيل مرتاحة وحاطة في بطنها بطيخة صيفي! اعرفتي أيش اللي مخوفني يا عزيزة؟!..

مسح النظارة مرة أخرى ثم تفحصني، وأردف:

- اسمعي يا عزيزة، أنت مثل بنتي بلاش هذا اللبس، بلاش الجينز والبنطلونات المحزقة والشعر العريان! حطي منديل على راسك والبسي مثل بنات البلد.. قربي منهم علشان يحبوكي ويقتنعوا بكلامك يا عزيزة! لابد أن تكوني مثلهم! لابد أن يشعروا أنك واحدة منهم، ها!

- حاضر.. حاضر يا أستاذ زاهر، حاضر يا غاندي العظيم..

إبراهيم الشاهد

وهطلَ المطر.. وانسابَ الغدران في الطرقات.. ومثلما فعلتها
طفلاً، سرتُ تحت المطر.. "هيه.. أمطري يا ميطرة على عروق
الشجرة.. أمطري وزيدي.. بيتنا حديدي.. سيدي في البيرة.. ما
بيخاف الغارة.. هيه..". سرتُ تحت المطر وضربتُ الإسفلت بحذائي
و..

"..أنظر لم تبقَ قطرة واحدة على الإسفلت.. انزلتُ المياه ونظفتُ
الشوارع، وها هو الإسفلت يبدو جميلاً لامعاً.."
كنا نسير تحت الرذاذ.. كان خالد الربيع يشير إلى المنحدرات اللامعة
تحت الأضواء، كنا نتمتع بشتاء بيروت وعذوبة المطر.. آه.. ما
أوجع غيابك يا خالد! تركتني وحيداً فريسة للمطر.. والذكريات:

"تشاءبَ المساء والغيوم ما تزال
تسحُّ ما تسحُّ من دموعها الثقال
كأن طفلاً باتَ يهذي قبل أن ينامَ
بأن أمّه - التي أفاقَ منذُ عامٍ

فلم يجدها، ثم حينَ لَحَّ في السَّوَالِ
قالوا له بعد غدٍ تعودُ
وإن تهامسَ الرفاقُ أنَّها هناك
في جانب التل تنامُ فوق اللُّحودِ
تسفُّ من ترابها وتشربُ المطرَ
هل كنتُ طفلاً يبحثُ عن أمِّه أم يبحثُ عنكِ؟ أم مجرد شخص ضائع
لا يدري ما يفعل فلجأ إلى المطر؟
أتعلمين أيَّ حزن يبعث المطرُ؟
وكيفَ تنشجُ المزاريبُ إذا انهمرُ؟
وكيفَ يشعرُ الوحيدُ فيه بالضياح؟
بلا انتهاء - كالدَّم المُرَّاق كالجياح
كالحب، كالأطفال، كالموتى - هو المطرُ
ومقلَّتاك بي تطيفان مع المطر.."
أتذكرك! بعد ثلاثة أعوام من غيابك، أتذكرُ كل شيء..
كنتَ تحفظ قصيدة السيَّاب عن ظهر قلب.. كنتُ أسمعك مقتطفاتٍ من
شعر نزار ودرويش وصلاح جاهين والأبنودي ونجم، فتُسمعني
قصيدة السيَّاب عن المطر والجياح:
ثم اعتلنا - خوفًا أن نلام - بالمطر..
وكم ذرفنا ليلة الرحيل من دموع..
أفقتُ يا خالد في منتصف الليل - مثلما فعلنا في بيروت - لاتعلل
بالمطر.. وبعد ساعة، لم أعد أفرق بين دموعي وقطرات المطر

المناسبة على خدي، المنزلة من ذقني.. سرتُ وحيداً مبللاً بالمطر
والذكريات وهذيتُ بالسؤال عنك، كنتُ أحدث نفسي..
- تعال نختم هذه الجولة المطرية بالفطائر الشهية..
- هذه المرة على حسابي.
- إذن، تفحص محفظتك، لأننا سنلتهم كمية كبيرة منها، وسنأخذ
بعضها لكوثر وسميرة والأولاد..
- موافق، سأعوضها في المرة القادمة..
وأثناء التهامنا للشطائر الشهية الساخنة تُسمعي ترجمة لقطعة
شعرية قصيرة للوركا.. أذكر أنها كانت بعنوان "حقاً":

أوَاه ما أقسى أن
أحبك كلَّ هذا الحب
في حبك يؤلمني الهواء
وقلبي
وقبعتي
من يشتري حزامي
وحزنَ هذا الخيط الأبيض
لينسجَ منه المناديل
أوَاه ما أقسى أن
أحبك كلَّ هذا الحب
وأشاكسك وأنا أنفخ من سخونة الشطيرة:

- من تكون هذه؟ الأرض أم المرأة أم الفكرة؟

فتجيبني وأنت تنفخ أيضاً:

- أو هذه الشطائر النارية اللذيذة!

فنغرق في الضحك.. والمطر..

مطر.. مطر.. مطر.. كان سائقو السيّارات يتمهلون بمحاذاتي ويشيرون لي بالصعود اتّقاءً للمطر والمرض.. لكنني كنتُ أبُتسم لهم.. أشكرهم وأرفض الصعود.. نعم كنتُ أبُتسم وأسيرُ غارقاً في المطر والحزن ومقلتيك اللتين طافتا على المطر..

في اليوم التالي لم أذهب إلى العمل، ونمتُ نومًا فائضًا بالمطر والوجوه.. وعندما استيقظتُ وجدتُ سميرة قد رصّت بجواري أدوية النزلات الصدرية.. شربتُ حساءً ساخناً وليموناً ساخناً وبلعتُ ثلاث حبات وغرقت مرة أخرى في المطر.. في المساء أيقظتني سميرة مرة أخرى، جفقتُ عرقي ثم أخبرتني أن عطا الجوراني ينتظرني في غرفة الاستقبال ومعه شاب آخر..

- الأخ سعيد سالم، وصل لتوّه من مصر، معه هديّة لك.. ذهب ليسأل عنك في مكان عملك، فأخبروه أنّك في إجازة مرضية..

لم تكن هدية كوثر العراقي غريبة! أتذكر الآن أنني طلبت من كوثر في الهاتف أن ترسل لي بعض حاجيات خالد، شيئاً من ملابسه، أتشممها، لأتذكره وأتعلل بها من الهموم!! هذه صدرية، وهذا سروال، وهذا؟ شريط في جيب الصدرية.. استنشقت رائحة خالد العزيز، ثم استمعتُ إلى الشريط.. كان صوت خالد حزيناً، ومشحوناً بالوجع.. والحيرة.. لم أتوقع أن يكون خالد على هذه الدرجة من

التشاؤم.. والإحباط.. لم يكن ما ذكره عن عصام الفايز مفاجئاً لي! كنت أتوقعه.. بل وأعرف كثيراً منه، أعرف الكثير عن عصام الفايز وأخباره تصلني أولاً بأول.. ها هو يبحث الآن عن طريقة لإشهار ثروته التي جمعها وهربها، ليستثمرها!.. وها هو ينصب شبكه حول سوزان الأفندي، ولعله الآن قد تزوجها.. "أخيراً وصل عصام الفايز إلى المرأة الفخمة الطافحة بالعز والجمال يا خالد". لم تكن معلومات خالد الربيع عن عصام جديدة، بل حيرته وتبريراته التي تناثرت في الشريط هي الجديدة!.. "تصور يا إبراهيم أنني لا ألوم عصام الفايز أحياناً.. اكتشفت أنه ملاك بالنسبة لغيره!.. في الحقيقة هناك من قاموا بأفعال فظيعة أكثر مما فعله عصام بمئات المرات.. هناك من نهبوا وقتلوا واغتصبوا ولم يحاسبهم أحد.. كثيرون ظلوا في مواقعهم رغم الجرائم التي ارتكبوها ثم زادوا في بطشهم ووقاحتهم.. يبدو أننا نغالي في قسوتنا على عصام الفايز.. لماذا نقسو عليه إلى هذه الدرجة؟ لأنه من طينتنا ومثلنا من المسحوقين والفقراء؟.. في الحقيقة أشعر أن عصام محقّ عندما يطالبنا بمحاسبة الجميع وتعريتهم قبل محاسبته هو..".

كان خالد يلومني عندما أبدي بعض المראה وأشير إلى تحول الثورة إلى "شركة استثمارية"!

- لن ينتصر هؤلاء يا إبراهيم! سيذهبون وتستمر المسيرة، سيبقى الشرفاء والمناضلون الحقيقيون! سينتصرون يا إبراهيم هذا منطق الأشياء والحقيقة لا تموت أبداً!!

"كيف تبرر جرائم عصام الفايز بجرائم غيره إذن؟! كم أنا في حاجة لأن أتحدث معك، أحاورك، لأفهم ما كان يدور في رأسك ويمور في صدرك!؟" ..

بعد أسبوع من تلك الليلة الماطرة، عدتُ إلى العمل.. وكان أول شيء فعلته، تقديم استقالتي.. فوجئ الكثيرون! اتهمني بعضهم بالجنون! ومنهم بلال تحسين:

- من يكون في وضعك ويستقيل؟ أين ستذهب؟

- سأبقى هنا!

- يعني لم تحصل على عمل في إحدى دول الخليج؟

- لا..

عندها شدَّ شعره وصرخ:

- إذن أنتَ مجنون فعلاً كما يقولون! لا يُقدم على ما فعلته أيُّ عاقل!

لماذا هذا التصرف؟ أنصحك بأن تسرع إلى سحب استقالتك.. أستطيع

مساعدتك في هذا الأمر!!

الشخص الوحيد الذي فهمني وقدر أسباب استقالتي ورغبتي في

الابتعاد هو محبوب الفيل.. يومها، شعرتُ أنه كان يضم جوانحه

على جروح غائرة ويأس عصي على الشفاء!.. اشتبك مع بلال

تحسين، انفجر فجأة، وراح ينفثُ همومه المحتقنة ويعري شخصية

بلال تحسين الانتهازية "الحربائية"!

- على فكرة يا أخ بلال، إنت راجل انتهازى!

- انتهازى، أنا؟ إنت بتقول الكلام ده ليّ أنا؟!

- أيوه.. انتهازى وجبان وحرابية كمان..
- علشان بنصح الراجل يسحب استقالته ويشوف مصلحته صرت
انتهازى وجبان وحرابية يا أخ محجوب!؟
- لا! مش علشان كدة.. علشان إنت مش حاسس بحاجة ومش
عارف إيه اللي حصل! كل الدنيا عندك فلوس وبس.. مرة هنا، ومرة
هناك.. شوية مع دول وشوية مع دول.. المهم تقبض فلوس وبس!
إن شاء الله من الشيطان!! يا أخ بلال إنت وأنا وكلنا صرنا دُمى
عارف يعني إيه دمية؟ لعبة! أنت مثلاً، خلال سنة واحدة: دراسة عن
جنور الوحدة بين ليبيا وتشاد! وهجوم على النظام السعودي في
دراسة ثانية.. بعدين دراسة تغمز فيها من قناة النظام العراقي!
ودراسة رابعة تهاجم النظام المغربي! وأخرى عن إشراقات النظرية
الخضراء على العالم.. ودراسة عن التجربة الشعبية (العالمية)
وغيرها.. يا راجل حرام عليك كل ده ومش عاوزهم يعملونا لعب!!
ما دام ملاقيين اللي يكتب لهم اللي عاوزينه.. والله والله لو عبد
الناصر اللي بتتمسح في اسمه طلع من قبره لقطع لسانك وإيدك
وعلقك على أبواب القاهرة!.. يا شيخ حرام عليك، إسرائيل بتحاصر
عاصمة عربية ثلاثة أشهر بتدمرها وتضرب الثورة الفلسطينية،
الأمل الوحيد الباقي.. وأنت لسه بتكتب عن الإشراقات والشمس
الثورية الساطعة! ولا حرف واحد عن اللي حصل في بيروت ولا
حرف عن النكبة الجديدة، ولسه صاحبك كان عاوز الناس تنتحر
 وتموت علشان يظل هو الثوري الوحيد في المنطقة!!.. خربتو بيوتنا

الله يخرب بيوتكو..

- الله.. الله.. إيه الهجوم الكاسح ده يا أخ محجوب؟ إيه اللي جرى لعقلك أنت في وعيك؟ إنت قد الكلام اللي بتخرف بيه ده؟ متودّيش نفسك في داهية.. بلاش الكلام الكبير ده!!

- أيوه.. أيوه.. خوفني، هددني.. نظام مخبرات وعسكرتارية ها.. يا أخي روح إعمل اللي إنت عاوزه.. أنا زهقت وقرفت من دور "القرد ميمون" بتاعك.. قرفت من العبودية والحمورية والذل!.. يا أستاذ إبراهيم، بالله عليك تشوف لي معك وظيفة في التعليم.. مدرس رسم ولا حتى مدرس قرف.. خلىنا نبعد عن الأشكال دي..

لكنه مات!! مات محجوب الفيل بعد عشرة أيام من هذه الهبة.. سكت قلبه وسكنت جوارحه مرة واحدة.. كأنه كان يودعنا بعاصفته الأخيرة.. سجل علينا ذلك الموقف ومات!.. سجل رفضه للأقنعة والتزييف ومات وهو في أفضل حالات الوعي.. والقومية!! مات الرجل الوحيد الذي فهمني وعرف أنني رفضت بلباقة أن أكتب مثل تلك الدراسات "البلاية" - كما كان يسميها.. أتذكره وهو يبتسم ساخرًا شاحبًا، عندما كنت أسأله عن أبواب المجلة والدراسات التي ستحتويها:

- حافلة بالدراسات البلاية إيّاها.. النافذة المضيفة الوحيدة هي نافذتك الأدبية.. لماذا لا تطلب من رئيس التحرير أن يزيدها؟

- طلبت لكنه اعتذر!

- أعتقد أن الأمر ليس بيده..

- أعتقد ذلك..

مات محبوب الفيل تاركًا وراءه عاصفة من الرفض.. والهروب!!
تسرّب الكتاب والصحفيون واحدًا تلو الآخر.. ابتعدوا وهربوا إلى
أماكن مختلفة! منهم من هاجر إلى أمريكا أو أوروبا.. ومنهم من
انزوى وعمل في التجارة.. ومنهم من عاد إلى وطنه رغم المتاعب
التي تنتظره.. فجرّ موت محبوب الفيل ما بداخل النفوس وأزال
الافتقار والمساحيق، بحث الناس عن أنفسهم وأدوارهم وأجابوا على
الأسئلة التي كانوا يطرحونها همسًا، وخرجت الإجابات الحقيقية
المكبوتة.. وحدهم ثلاثة بقوا يكتبون "للشمس المشرقة على العالم":
بلال تحسين وأحمد الرّاضي وسعيد عيّاش.. بقوا في دورهم
"الممسوخ" وتلذذوا به!!..

سأني عطا الجوراني عندما طلبتُ مساعدته في الحصول على وظيفة
في مجال التدريس:

- ماذا لو لم نجد فرصة في المدن؟
- بل أنا لا أريد العمل في المدن! أريد أن أبتعد عن المدن وأعيش
في قرية بعيدة، نائية.. أريد أن أحصل على إجازة..
- إجازة؟ إجازة بدون راتب؟
- بل إجازة بدون نفاق وتزويق وخداع! لم يعد هناك طعم لأي شيء
يا عطا! أريد فترة نقاهة، إجازة سمّها ما شئت..
- فهمت.. هكذا ستكون الأمور ميسرة أكثر، القرى تعاني من نقص
في المدرسين.. وتخصصك مطلوب، لكن العمل سيكون في بداية العام

الدراسي.. ها..

توقفت السيارة أمام مبنى أبيض مخطط باللون الأخضر، فنظر السائق إلى الغرب ثم قال:

- هذا هو معهد المعلمين، والمحلة اسمها "بئر العريزة".

ثم أشار بيده وأردف بلهجة حاسمة:

- هناك إلى اليمين سكن المدرسين، المسافة مهبّاش بعيدة والشنطة متاعك صغيرة..

ثم أدار سيارته وعاد مثيراً وراءه غبار الطريق.. فتناولت الحقيبة وهمست:

- سبحان الله! حتى هنا! بئر للعريزة! ترى هل كانت عزيزتهم جميلة مثل عزيزتنا؟!

في منتصف الطريق إلى سكن المدرسين لحق بي أحد المزارعين المصريين، همّ بحمل الحقيبة عني، ورفضتُ. وأخبرني أنّه يعمل في محطة التحلية، وأنه جاء لزيارة أحد أقاربه الذي يسكن في محلة "أولاد عجيبة" القريبة، إلى اليسار.. سألته عن "بئر العريزة" فقال:

- لا دي مكتتش بئر يعني بئر.. يقولوا كانت "جابية" يعني بركة كبيرة، كانوا يجتمعوا فيها الميه في الشتا علشان يستعملوها في الصيف.. وكانوا يشربوا منها ويسقوا البهايم كمان.. يعني!.. ده كان طبعاً قبل ما تخش الميه والحنفيات والمواسير وينتشر نظام الري بالتنقيط اللي أنت شايفه ولم يخبرني شيئاً عن العريزة نفسها..

أذكر أنّه كان يوم جمعة، وأنني وصلتُ إلى سكن المدرسين قبل غروب الشمس بقليل، وأن ثمانية من المدرسين العرب استقبلوني بحفاوة وأعدّوا طعاماً شهياً على شرفي.. كانوا أربعة من المصريين وثلاثة من السودانيين وعراقياً واحداً.. ولم يكن بينهم فلسطينيون.. لكن الفلسطينيين تداعوا من أماكن سكناهم في اليوم التالي، رحّبوا بي وأصروا على استضافتي في بيوتهم على الغذاء بالتناوب لأسبوع كامل.. كان منهم الأطباء والمهندسون والحرفيون والمزارعون.. والمدرسون.. ولاحظتُ أنهم مترابطون ويتعاملون مع بعضهم بمودة ويعرفون عن بعضهم التفاصيل الكثيرة.. لم تمض فترة طويلة حتى اكتشفت أن ثمة صعوبة في التجمد في دور المدرس.. دور "البوق" الذي يفرغ بعض المعلومات العقيمة من الكتب والمقررات الباهتة.. كنا في بيت الفلسطيني فؤاد رمضان، مدرسين ومهندسين وأطباء وحرفيين ومزارعين، وفجأة سأل السوداني أمين تاج السر:

- مَنْ تَأمر على مَنْ في رأيك يا أستاذ صلاح، الشيخ محمد عبده أم الخديوي عبّاس؟

فأجابه المصري صلاح السيّد:

- بل الخديوي عبّاس

- كيف وقد استعان الشيخ محمد عبده بالإنجليز على الخديوي؟

- لا.. لا.. ليست هذه الحقيقة.. عندما عارض الخديوي عبّاس الثاني خطوات الشيخ محمد عبده الإصلاحية، اضطر الشيخ محمد عبده إلى الاستعانة باللورد كرومر مستغلاً دعاوي بريطانيا إلى

الإصلاح والديمقراطية. فما كان من الخديوي عباس الثاني إلا أن اتهم الشيخ محمد عبده بالعمالة لبريطانيا، وهو الذي لم يتنفس ولم يعيش يوماً واحداً إلا تحت أذيتهم وحمايتهم!! والمصيبة أن الخديوي قد سخر في هذه الحملة بعض المشايخ والفقهاء المتحجرين.. ألّهم على الشيخ الإصلاحي المتثور.. هذه هي الحقيقة يا أستاذ أمين.. لو اتبعنا نهج الشيخ محمد عبده وسرنا على دربه لما حدث لنا ما حدث..

وتدخل العراقي كاظم عبد الجبار:

- زين.. زين يا أستاذ صلاح الشيخ محمد عبده رجل متثور ومحترم والكواكبي متثور ومحترم والكاظمي متثور ومحترم.. والملوك والسلاطين منذ الخديوي عباس حتى الآن قادوا الأمة إلى التخلف والجهل ونهبوا ثروات البلاد وارتموا في أحضان الاستعمار وأوقفوا السلطة والحكم على عائلاتهم وأسرهم.. و.. وماكو خلاف.. لكن النورية والقومية واليسارية، ماذا فعلوا بنا؟ ماذا فعلوا بالأمة؟ رفعت شعارات تحرير الأمة من الاستغلال وناديت بالوحدة والبناء والتنمية والعدل الاجتماعي وتوزيع الثروات والحرية وحرق المراحل و.. و.. وقبل هذا كله تحرير فلسطين.. وماذا كانت النتيجة؟! حرق الأمة وسحق الشعوب والعبودية والفقر والدخول في دوامة الخوف والعجز والطائفية والعشائرية.. كفر الناس بالوحدة والعروبة والتنمية وشعارات الصمود والتصدي، لماذا؟ بسبب شعاراتكم وتجاربكم الفوضوية والفردية التسلطية ونزعاتكم ومغامراتكم

الفاشلة، والتي كنتم تغلفونها دائماً بشعارات الوحدة والقومية والصمود في وجه العدو الخارجي!!.. هذه النزعات التي افتقرت إلى التخطيط والإعداد الجيد.. إذن قل لي بالله عليك يا أستاذ صلاح، ما الفرق بينكم وبين هؤلاء الجهلة المتخلفين و"أعوان الاستعمار".. كما تقولون؟

- لا.. لا.. يا أستاذ كاظم.. أنت تظلمنا! أنت تحسبنا على الأنظمة القمعية! أولئك الحكّام المغامرون أصحاب النزوات والعقد "الثورية" لا علاقة لنا بهم، نحن لا نتحدّث عن أصحاب هذه الهرطقات والشطحات، هؤلاء مرضى لا يمثلون الفكر القومي التقدمي الحقيقي! ولا الانتماء "العروبي" الحقيقي!..

- ها.. ها.. تهربون!! كلما واجهناكم بحقيقتكم وحقيقة ممثليكم في الحكم تهربون.. تتبرأون منهم وتهربون!! زين، أحزابكم، تنظيماتكم، وجماعاتكم شلون تسميها، ماذا فعلتم؟ ماذا قدمتم لهذه الأمة؟ اسمع! ترى أنا بالنيابة عن أخواني الفلسطينيين، عفواً أستاذ ابراهيم، أستاذ فؤاد، مهندس حامد، أنا أقول لك بالنيابة عن إخواني همّهم يقولوا لكم يعطيكو العافية، لا تشغلوا أنفسكم بتحرير فلسطين، همّهم ما يطالبوكم بتحرير فلسطين.. يبوسون على أيديكم ورجليكم إذا حررتم أنفسكم، إذا واجهتم هذه الأنظمة وخلصتونا منها..

- نحن نناضل بنفس طويل، بنشر الوعي،، بالفكر بالتنظيمات والجمعيات، القضية ليست بهذه البساطة يا أستاذ كاظم، نريد أن نخلق حالة من الوعي الجماهيري لمواجهة هذا السقوط!

- زين والله! عيوني النقابات والمؤتمرات ما عملوا شَيء.. أصحاب
النقابات والوعي كلهم شايقين مصالحهم ويغازلون الأنظمة من تحت
الطاولة، عيوني ترى من وين يصرفوا ويتقشمروا ويشربوا الفودكا
ويوكلوا الكافيار؟ حبيبي.. ده يزينون الحكومات، يعني ديمقراطية!!..
ها.. خوش، أريد أسألك كم حكومة أسقطتم؟ كم وزارة؟ صار إلنا
أكثر من ثلاثين سنة ماكو شَيء!!.. أقول لك بلاش اللي مضى! الآن!
هسَّه! يا الله ازحفوا قدامنا، حاصروا قصور الحكام والملوك، تجمّعوا
في الساحات والميادين، وتشوفون أيش تسوي بعد! بس تكونون
قدامنا، مش تظلون تحجون وتنظرون وأنتم تشوفون الناس تموت
وتنهان وينسلخ لحمها عن جلدها وتأكّل من حاويات القمامة مثل
الكلاب، وتظلون تصيحون.. وتحجون.. يكفي عاد..
عدّل السوداني أمين تاج السر عمامته البيضاء الطويلة وانتصب
واقفاً، ثم هتف راقصاً بطريقته السودانية:
- الله أكبر.. الله أكبر.. يسلم لسانك يا أستاذ كاظم.. والله قلت اللي
نفسى أقوله من زمان.. يسلم لسانك يا زول!
وهمسَ الفلسطيني المضيف فؤاد رمضان في أذني:
- عنده حق، كلامه كله صحيح.. هلكونا بالحكي والخطابات.. بس
أنا بدّيش أدخّل وزعلّ حدا منّي! أنت عارف، الجماعة ضيوفى! يا
راجل خدّرونا بالشعارات وسكّتونا بدعوات النفس الطويل وشد
الأحزمة والعدو الخارجي حتى قطعوا نفسنا وهدّوا حيلنا!.. الناس
تعبانة.. عنده حق..

عندها أدركت أنني وقعت في "مصيصة عربية" خطيرة!! ما هذا الوعي
الموجع الحاد؟ كانت الأحاديث والإشارات والتحليلات دليلاً مبكراً على
فشلي! انتهت فترة نقاهتي المرجوة، وعدتُ إلى قدرتي.. وهمومي!!
لن أتمكن من الابتعاد.. والهرب.. هؤلاء الناس ملامحهم واضحة
حاسمة، لا يرتدون أقنعة ولا يستترون بالمساحيق والكنايات! ولا
ترعيبهم حسابات الطرد وإنهاء عقود العمل التي يتفنن بها "الثوريون"
في الغضبات القومية السنوية!!.. كان "العرب" المتواجدون في بيت
الفلسطيني فؤاد رمضان بيئر العزيرة، ناضجين وحاسمين ومتحايين
إلى درجة الإعجاب.. والخوف!! كانوا مختلفين عن تلك العشيرة
المتفككة التي عشتُ بينها وهذيتُ معها عشر سنوات كاملة، كان
أفراد تلك العشيرة يحملون شهاداتهم وألقابهم ومؤلفاتهم على
صدورهم وكروشهم ويبرخون بها في الفنادق الفاخرة والمؤتمرات
العامة.. كانوا يتساقطون تحت وطأة حقائب "البوكيت موني!"
و"العطايا الثورية"!!.. هل اكتشفتُ نفسي وعشيرتي الجديدة؟! هل
يقبلني هؤلاء "العرب" بينهم؟ هؤلاء المتفقون - المختلفون،
الناضجون - الفائرون، المتباينون - المتآلفون، هل يقبلوني في
عشيرتهم؟ لا أدري! كل ما أعرفه أنهم أفسلوا هروبي وأعادوني إلى
ذاتي و..

نظرتُ.. فرأيتُ العصافير تزقزق بالقرب من النافذة.. كانت تمسحُ
ريشها بقطرات المطر العالقة من ليلة البارحة..
ابتسمتُ وهمستُ: أوّاه ما أقسى أن أحبك كلَّ هذا الحب..

(٤)

جميل حب الرمان

ها هو أبو صبري يهز شبكي وينغص عليّ حياتي ويفسد كل شيء!!
جاء بلحيته وعينه الماكرتين وألقى قنبلته في حجري:
- لا بدّ أن تتقرب منهم، وتصبح واحداً منهم..

- أنا؟

- نعم أنت ولا أحد غيرك..

كيف؟ هذا الضابط لا يدرك عمق الفجوة القائمة بيني وبين هذه القرية، يبدو أنّ المصالح والابتسامات قد خدعته! خدعه خوف الناس وتملقهم وحرصهم على تحقيق مصالحهم، فظنّ أنّ القرية غفرت لي، واعتبرتني واحداً منها ومن أبنائها! هل يدرك هذا الضابط أنّ هذه القرية تحفظ سيرة حياتي عن ظهر قلب، تحفظ مشواري الصعب معها ولا تنساه؟! أصغر طفل في هذه القرية يعرف أنني كنتُ سبباً في تعاسة عدد من أسر هذه القرية وكنتُ سبباً في مقتل بعضهم؟ كيف يقبلونني بينهم، كيف يغفرون لي وأصبح واحداً منهم، كيف؟! ولماذا أنا أيّها الشيطان؟ لماذا أنا بالذات؟.. الله يلعنك!!... بعد أن

ابتسمت لي الدنيا، وظننتُ أن الأيام المهيبة قد ولّت، أيام الاحتقار والتهديد، والخوف.. ظننتها قد ولّت إلى غير رجعة، بعد أن استقرّت أحوالي وغمرتني النعمة!! خمسون دونماً من أرض الأفندية صارت ملكاً لي.. شركة استيراد وتصدير، خمس سيارات أجرة تعمل في نقل العمال إلى إسرائيل، وتدر أموالاً وافرة، منزل جديد مؤثث في غزّة!! كل هذه النعمة، هذا الرغد الذي دام ست سنوات، مهدد بالزوال! بفضل هذا الشيطان - الصديق - الذي لا تهمّه سوى مصالح دولته! مالي أنا وهذه الحرب الجديدة..؟! وقع المشايخ مع رجال المنظمة واشتعلت الحربُ بينهم، وقع المسلمون مع الشيوعيين الكفار، وخرجت السيوف والجنازير والحرايب والسكاكين! ما دخلي أنا في ما يحدث؟! فخار يكسر بعضه! من الأفضل أن أظلّ بعيداً، متفرجاً، لماذا يصّر أبو صبري اللعين على إقحامهم معهم، لماذا يصّر على إفساد حياتي؟

- الطريق إلى المشايخ أيسر! نحن ندرك أن جماعة المنظمة لا يثقون بك، ولن يثقوا بك مهما فعلت.. المشايخ في حاجة إلى أنصار وتائبين! ويجب أن تعود إلى الله!

- أعود إلى الله، كيف؟

- تعلن توبتك بين أيديهم وتواظب على الصلاة وحضور الدروس.. تتبرع ببعض المال.. تساعد في بناء المساجد.. هكذا..

أنظروا من يتحدث عن العودة إلى الله والصلاة وبناء المساجد؟ على بعضنا يا "أبو صبري" على بعضنا أيها الكافر البعيد عن السموات

والأرض! ألم تقل لي ذات مرة "الله في جيبى، أخرجته وقتما أشاء.. أنا أتحكم فيه وليس هو!". ما الذي تغيّر إذن؟ ما الذي جرى أيها الشيطان؟ هل أسلمت من وراء ظهري؟ كم هو مضحك هذا الذي نقوله!.. وهمست:

- هذا أمر صعب، أنت تعرف..

- هذه أوامر!! تذكر أننا أصدقنا عليك كثيرًا.. هذه البجوحة التي أنت فيها نحن مصدرها.. لا تستطيع أن تنكر ذلك!.. لا بدّ أن تردّ الجميل يا جميل.. وإذا أردت الاتسباط والتمتع بحياتك، فمارس ذلك بعيدًا عن هذه القرية، هناك اسهر وانبسط وعش كما تريد! بلاش النوريات والخمرة في القرية!..!..!

أنتم تخططون لشيء خطير! وتريدونني أداة للتنفيذ!! مرة أخرى أداة! لماذا أغضب من مروان بصُبوب إذن؟

عندما طلب مّتي خليل بصُبوب المساعدة والتوسط لإخراج ابنه مروان من السجن، لم أتأخر! كان مروان خليل بصُبوب، أحد المعتقلين في أحداث الجامعة الإسلامية؛ كان من المحسوبين على جماعة منظمة التحرير.. ذهبتُ إلى "أبو صبري" وأنجزتُ الموضوع وخرج مروان بصُبوب بكفّالتي! كان خليل سعيدًا بخروج ابنه لكن مروان لم يكن سعيدًا بهذه "الصفقة"! ولم تكن سماهر أمّه راضية عن خروج ابنها بهذه الطريقة المهينة!! لكن دموع خليل أجبرتهما على الرضوخ وقبول الأمر على مضض:

- يا ناس أنا راجل وحداني، ليس لي حمولة ولا ظهر! هؤلاء أولاد

عائلات وحمائل ويستطيعون تدبير أمورهم وإخراج أولادهم!.. يا
ناس هذا ابني الوحيد، ارحموني، خلّوني أشوف صاحبي وأدبر
حالي!

- خلص.. خلص يا خليل اعمل ما تريد.. خلص.

أذكر أن صديقي "أبو صبري" قال يومها:

- كنت أتمنى أن تتوسط لواحد من المشايخ وليس لواحد من جماعة
المنظمة..

ولم أفهم يومها مغزى كلامه، لكنني أفهمه الآن وأستوعبه جيداً!
أدركه وأنا أتذكر مروان بصُبُوص بوجهه الدّامي ورأسه المهشمة،
وآثار الجزير على خده:

- ماذا سيقول عني رفاقي؟ تخلّيت عنهم، وخرجت بكفالة..

- عيب يا مروان! عيب الواجب نشكر الراحل..

رفع مروان رأسه، ثم صوّب عينيه نحوي في تحدٍ واضح:

- البومة ما بتحدّف صيْصان يابا! المصائب كلها من تحت رأس "أبو
صبري"!!

- يا جماعة حرام عليكم، ما دخل "أبو صبري" فيما حدث؟! لماذا
تصرون على إلصاق كل شيء بهم؟! هذه مشاكل بينكم وبين
المشايخ، ليس لليهود أي دخل فيها!! الله يرضى عليك يابا.

- أبو شادي، هل تعلم أن صديقك "أبو صبري" كان يعيد الذين
يحاولون الخروج من سور الجامعة.. يريدوننا أن نذبح بعضنا،
يريدوننا أن نقتل بعضنا ويصبح الدم حتى الركب!

- ولماذا يفعلون ذلك؟ ما هي مصلحتهم في الفوضى؟ بالعكس مصلحتهم في الهدوء والاستقرار.. والأمن!

- آه.. مصلحتهم يا سيدي في بروز قوى جديدة منافسة، مصلحتهم في التناحر والخلافات والصراعات، هذه هي مصلحتهم! هل تستطيع أن تخبرني أين كان اليهود في أحداث عام ١٩٧٩، عندما قام المشايخ بحرق الهلال الأحمر ودور السينما و..

- أنتَ زعلان على السينمات يابا؟.. خُلبهم يحرقوها إن شاء الله ما ردت!.. هه..

- لا مش زعلان يابا على السينمات، لكن، أنتَ مصدّق أن اليهود هدفهم القضاء على الفساد والعودة إلى الدين الحنيف والأخلاق الحميدة؟ ولا غرضهم الفتنة والخلافات؟.. لكن ما يفرحوا كثير قل لهم يا أبو شادي، إن شاء الله سينقلب السحر على الساحر! وإن شاء الله العقلاء والوطنيون سينتصرون على الأمور ويحلّون هذه الخلافات والتشنجات!!

كان مروان يتحدث بثقة كبيرة رغم جروحه، وكانت ثقته في نفسه لا تقل عن ثقة "أبو صبري" في خططه!!

الله يلعنك يا "أبو صبري" دوختني ووضعتني في الدّوامة من جديد.. آه.. كيف أتخلص منك؟ آه لو أستطيع الفرار والإفلات!.. صلاة، ودروس ولحية وجلابية! يا سلام ما أخلاتي في الجلابية؟ جميل حب الرّمان، صار الشيخ جميل الزّاهي!! والله منظري مثل المشايخ عن صحيح!..

- عدو عدوي صديقي.. تذكر هذا المدخل! إظهار حقدك الشديد على جماعة منظمة التحرير، وسنتابع معك خطوة بخطوة..

وبعد هذه الأوامر الصارمة وضرورة التنفيذ لم يبق لي سوى أمل واحد! الفشل! كنت أتمنى أن أفشل في مهمتي، أن يرفضني المشايخ ويطردوني بل كنت أتمنى أن يضربوني بالصراحي لأرتاح! أرتاح من هذه المشقة والتكلف، وأعود إلى حياتي، وهدؤني! لكنهم لم يحققوا لي هذه الأمنية.. المصيبة أنهم لم يسمحوا لي بإعلان فشلي:

- مرحباً بك يا أخ جميل بيننا! كلنا خطاؤون وخير الخطاءين التوابون.. لتكن هجرتك إلى الله ورسوله صادقة.. إن شاء الله ستكون توبتك مقبولة!

وبكيت.. فأردف الشيخ:

- لا تقسو على نفسك يا أخ جميل، منذ اليوم، اعتبر نفسك واحداً منا! توكل على الله - إنه يغفر الذنوب لمن يشاء!

كنت أبكي غيظاً وحسرة، أبكي لأنهم شربوها، بلعوا الطعام ودخلت عليهم توبتي المزيفة! كان الشيخ الطيب يربت على كتفي معتقداً أن دموعي كانت دموع الندم والتوبة، ولم يكن يعلم أن بكائي كان بسبب دخولي في هذه اللعبة الجديدة الخطرة! كانت دموعي حسرة على حياتي التي سافقتها وأهجرتها مكرهاً!! لكن الشيخ ظل يربت على كتفي ويهددني، ويهتني على هذه الدموع الصادقة:

- هوّن عليك يا أخي، هوّن عليك.. هذه الدموع الصادقة تعني أن توبتك صادقة وستكون مقبولة إن شاء الله.. هوّن عليك..

وأحضروا لي من شرابهم، فاقتربتُ من المحراب!!
لم تصدّق حمديّة القرّام التّحول الذي حدث! لكنها أظهرتُ بعد فترة
فرحاً واضحاً.. نشرتُ أعواد البخور في أنحاء المنزل، أشعلتها ثم
غسلتُ الجلابيب والكوفيات البيضاء، ثم كوتها، وعطّرتها ورصتها
بعناية.. وفي المساء شرعت في الصلاة والدعاء، وأمرتُ الأطفال
بفعل ذلك، فبادروا إلى قراءة القرآن بصوت مسموع!
لكن عزيزة الخيال لم تقتنع! سخرتُ مما حدث وأعلنتُ أنها حيلة
جديدة!! وعندما أخبرني شادي أنّها تقول أنّ وراء هذا التّغيير
مصيبة كبيرة، ذهبتُ إليها:

- لماذا لا تصدّقين أنّي ثبتُ ورجعتُ إلى الله؟
- من يتوب ويرجع إلى الله لا يقابل "أبو صبري" سرّاً ولا يسهر في
أماكن مشبوهة، ولا يذهب إلى تل أبيب خلصة!!
- لا أستطيع التخلّص من "أبو صبري" ومن عاداتي بسهولة.
امنحوني الفرصة والوقت!
- ماذا تريد أن تفعل بالبلد أكثر مما فعلت يا جميل؟.
- المشايخ قبلوني بينهم ويعاملونني كواحد منهم، وأنتم تصرّون
على غلق الأبواب في وجهي!
- أنت من أغلق الأبواب عندما قبلت أن تكون..
- جاسوساً لليهود! أليس كذلك؟ أنتم السبب، أنتِ وعوض الشّاهد
والأستاذ زاهر جودة والبلد كلها.. احتقرتموني، ضحكتم على ذقني..
خدعتموني.. لماذا لا تلوموا أنفسكم؟!

- نحن لم نخدعك، البلد لم تخدعك.. أمك هي السبب، هي التي جلبت لك العار والمصائب، وأوصلتك إلى هذه النفسية المريضة الحاقدة الموتورة! على كل حال، هذا الكلام فات أوانه..

- وإذا قلت لك أنني أريد أن أتوب توبة حقيقية هذه المرة! وأنني تعبتُ من وضعي وحالتي.. ومنهم؟!

- أصدقك في حالة واحدة!

- ما هي؟

- تطهر نفسك وتقتل "أبو صبري"!!

تلقتُ حولي، ووضعتُ يدي على فمها، كان شرطها صاعقًا ومخيفًا!! أنا أقتل "أبو صبري"؟ من يستطيع قتل هذا الداهية؟ من هم أقوى مني، ولديهم السلاح والتنظيم والأموال وأجهزة الرصد فشلوا في ذلك! وأنا! الذي يشك فيه الجميع ويراقبه الجميع يفعل ذلك! كيف؟ وهمستُ:

- هذا جنون! ألا تخشين أن أبلغه بهذا الطلب الغريب؟!

- لا..

- لماذا؟

- لأنك تتمنى ذلك في أعماقك، أنت تكرهه أكثر منا! وتريد التخلص منه لكنك لا تجرؤ..

يا إلهي! لم تتغير هذه المرأة! ها هي تعود بكامل قوتها وذكائها وحيويتها، وعنادها! ها هي تجازفُ بقذف هذا الاقتراح الخطير وتهزني من جديد، إنها تلعب على أوتاري الداخلية المهترئة!! هل

تريد أن تهزني فقط؟ أم تريدني أن أقتل "أبو صبري" فعلاً؟.. أم أنها تريد التخلص مني ومنه في ضربة واحدة؟ لا شك أنني أكره ذلك الضابط الملعون، وزاد حقدي عليه في الفترة الأخيرة، لكن، أن أقوم بقتله، فهذا لم يخطر ببالي! ولماذا أفعل ذلك؟ وإذا قُتل أبو صبري وذهب إلى الجحيم هل تنتهي معاناتي؟ هناك العشرات من أمثاله! سيواصلون استغلالني والضغط عليّ وتهديدي!

الشخص الثالث الذي يقلقني ويخيفني هو الشيخ فلاح! ذلك الشاب العائد من مصر، أشعر أنه يشك في توبتي ولا يصدق عودتي إلى الله! إنه شاب يعمل بهدوء ومثابرة، وتعقل! سلّمه شيوخ القرية قيادتهم خلال عام واحد! يحترمونه ويقدمونه في أمورهم ويقبلون أحكامه وآراءه ولا يخالفون نصائحه.. وأوامره.. الشيخ فلاح لا يرتاح لوجودي! ولا يطيل في الحديث معي! عندما أدخل فجأة يفضل التوقف عن الحديث، وعلمت بالصدفة - عن طريق الشرثرة - أنه يقابل فتحاوياً من المخيم، وتدور بينهما أحاديث طويلة.. وعلمت فيما بعد أنهما نجحا في فض عدد من المشاكل والاحتكاكات بين المشايخ ورجال المنظمة.. هذا الشاب يعمل بطريقة مختلفة وهو يفسد مخططات ذلك الملعون، أبو صبري:

- أنت نايم يا جميل.. الشيخ فلاح يخرب ما ننجزه ويصعب علينا الأمور! وأنت نايم في العسل! الشيخ فلاح يبني جسوراً ويحل المشاكل مع جماعة المنظمة، ويهدئ التوترات وأنت نايم، لا تحرك ساكناً!!

- إنه حذر مني! يتجنب الحديث في حضوري! لا يتحدث إلا في الأمور الدينية العادية.. حاولت التقرب منه، لكنه مختلف عنهم، مختلف جداً!!

- لابد أن تصل إلى قلبه، لابد أن تصبح محل ثقته يا جميل! إنه رجل مهم وخطير.. لا تيأس.. حاول..

لكن محاولاتي جميعها باءت بالفشل.. إنه شاب يقظ وحذر ويعرف ما يريد، ويجيد إخفاء مشاعره، وأسراره.. لكنني استطعت الحصول على شيء من أسرارهِ الثمينة! هكذا ظننتُ في البداية، علمتُ، عن طريق الثرثرة، عن إبرام صفقة الأسلحة! كان الشيخ فلاح قد تمكن من شراء أسلحة وقنابل وتخزينها في أماكن متفرقة! وطرتُ إلى "أبو صبري" بهذا الاتجاز العظيم! أخيراً استطعتُ الحصول على معلومات مهمة وخطيرة لكن "أبو صبري" سخر مني عندما وضعت هذه الأخبار بين يديه:

- معلوماتك قديمة يا جميل! أخبارك بايئة - مثلك -! نحن نعرف عدد قطع السلاح وعدد القنابل والذخيرة، والأماكن التي خُزنت فيها! لا تقلق عليها، والأفضل أن تتابع وتبحث عن معلومات أخرى!

آه.. هكذا إذن معلوماتك بايئة مثلك!! وضعك أصبح حرجاً يا جميل! الأمور تعقدت وأصبحت متشابكة وغامضة!.. المشايخ حذرون منك ولا يثقون بك، و"أبو صبري" الذي ورّطك في هذه المهمة يخفي عنك الكثير، ويطلب منك المزيد.. بل ويعمل بعيداً عنك، ويعتمد على أعوان آخرين! وجماعة المنظمة لا يصدقون توبتك، ويشكون في

صلاتك وتقواك، ويعتقدون أنك تقوم بخدعة كبيرة! ماذا ستفعل في

حالك الآن؟ كيف ستتدبر أمرك؟!

وقبل أن أتدبر أمرى وأنقذ نفسي حدثت المصيبة!..

فجأة! انقض الإسرائيليون على المشايخ وقبضوا على عدد كبير

منهم، وفي مقدمتهم الشيخ فلاح! ضبطوا الأسلحة والقنابل والذخيرة،

كلها! حملوا المشايخ إلى السجون والمعتقلات! حتى أنا، قبضوا

عليّ! أخذوني معهم إلى سجن عسقلان!..

وعندما علمت أن حمديّة القرام، أطلقت زغرودة التباهي.. لعنت "أبو

صبري" الداهية، وغصت في دوامته من جديد..

عصام الفايز

الآن أستطيع القول بأنني انتصرت! هيبه يا خالد الربيع انهض لتتأكد
 بأنني كنتُ على حق! هيبه أيها الشاهد التعس، تعالَ لتَرَ من هو
 عصام الفايز! لن تتمكنوا من هزيمتي بعد اليوم! لم يعد بمقدوركم أن
 تحتقروني أو تفذفوني بالسنتكم! أنا الآن عصام الفايز، عصام بك
 الفايز! صاحب شركة السياحة وصاحب الفندق ومالك لخمسين دونماً
 من أشجار الحمضيات الفاخرة! خمسين دونماً في بَيَّارة الأفندي!
 تعرفها يا إبراهيم، تلك البَيَّارة التي أخذتني لأعمل فيها حملاً شقيّاً
 للصناديق الثقيلة الجارحة والتي هذيت لي ذات مرة أنها كانت
 أرضكم! الآن لم أعد في حاجة لأن تتوسط لي يا إبراهيم! لم أعد في
 حاجة لأن تدافعوا عني وتحمونني! لم أعد في حاجة لأن تجروني إلى
 شارع الكورنيش خشية أن يضربني الإسكندراتية، ولم يعد بمقدوركم
 أن توبخوني وتنعتوني بأبشع الصفات!...

"كل ما حققته ووصلت إليه لن يجعلك عظيماً ومحترماً يا عصام! كل
 ما أنجزته وادخرته بالاختلاس والسطو والاعتصاب لن يرفعك إلى

مستوى الاحترام الحقيقي! أنتَ رجل مريض، بالنسبة لي ما زلتَ مريضاً، وأعتقد أنك وصلت إلى درجة المرض العضال! فقدتُ الأمل في شفائك! ما زلتَ تخدع نفسك وتوهمها بأن الشراء والألقاب يمنحانك الاحترام! ما زلتَ صغيراً، صغيراً وتافهاً يا عصام..".

أنا من يحدد الآن الصَّغارَ والمرضى أيها المعنوه المتكبر! بعد أن انتصرتُ عليك وأمتلكُ كل شيء، أنا الذي يحدد الصالح والطالح والفاشل والمنتصر.. ومن هو البطل! بعد أن أصبحت "الفخامة" كلها في حضني، أنا الذي يحدد يا إبراهيم! الفخامة كلها، شركتها وفندقها وعزها ولقبها، أصبحت ببهائها وترفها ملكاً لي! هل تسمعي؟ هل تراني؟ ها هي ترقد - مثل القطة - بين قدمي، نعم، سوزان الأفندي، التي لم تكن تجرؤ على الاقتراب منها أصبحت في قبضتي، عجيبة أشكلها كيفما أشاء! سوزان التي أفقدتني عقلي عندما رأيته في بيّارة الأفندي لأول مرة، أصبحت الآن ملكي، تحت تصرفي، دميته التي ألهو بها! استطعتُ أن أدجنها وأنتفَ عزها ولقبها.. وأمتلكها!!..

- هتف قلبي باسمك منذ اللحظة الأولى أحبك.. سيدتي، وأمنيته أن تشرفينني بالانتساب إليك، بانتسابنا إلى بعضنا.

- ماذا أقول؟ لقد فاجأتني، أنتَ تذهلني!

- لا تردي الآن! يكفي أن أشعر أنك لا ترفضين!

- لا تستطيع امرأة مثلي أن ترفضك، أنتَ تغمرني بهذه المشاعر، إنك جذاب وجريء لكن الأمر يحتاج إلى التفكير..

- ثقي أنني في حاجة إليك أكثر من حاجتك لي!.. أنتِ امرأة لا يستطيع مقاومتها أي رجل! هذا البهاء، وهذه العذوبة من يستطيع مقاومتها؟!

- كفى.. كفى.. أنتَ تربكني..

- لا أستطيع السيطرة على مشاعري سيدتي!

- لكن الظروف والناس.. موت زوجي، العائلة، السمعة..

- سأكون لك الزوج والعائلة والسمعة، سأعوضك عن كل ما فاتك،

كل ما حرمت منه، كل الحنان والعشق الذي افتقدتيه!

- من أين خرجت لي من أين جئتني؟ أنتَ تدوخي بهذه العبارات

والأحاسيس التي حرمت منها.. وأكاد أقول نسيته..

- حبيبتي أنا أريد أن أبعث فيك الحياة، أريد أن أجدد معك العمر!

وأعيدك ورده يانعة..

- هل أنت ملاك أم شيطان؟ من أين تُخرج هذه الأنغام؟

- آه لو تعلمين كم أحتفظ لك بمثل هذه الأنغام والأحاسيس! قلبي

قارورة مليئة بالشوق والحب.. معي ستكونين مشرقة متجددة.. لا

تكوني قاسية وتطيلي انتظاري..

- أعط نفسك فرصة لمراجعة مشاعرك.. لا تكن عجولاً!

- تدللي كما تشائين.. ولكن عديني ألا تغيبني عن ناظري طويلاً، لم

أعد أحتمل العيش بدونك!

- احتفظ ببعض الكلام إلى ما بعد الزواج!

- إذن، حصلتُ على الوعد!..

- ما أعدك به الآن هو أن انتظارك لن يطول..

- وأنا سأنتظر على أحر من الجمر..

كانت سوزان الأفندي أضعف مما تصورت، كانت مهياة لأن تدخل القفص مثل دجاجة ودیعة منهكة.. كانت في حاجة إلى رجل لم يفقد الشباب والشاعرية والخیال.. بعد أن فقدت الهيبة والحماية.. والعطف! كانت تبحث في أعماقها عن منقذ، عن معوض، عن جنی يخرج من قمقمه ويحقق لها ما ترغب فيه من شباب وحب وعذوبة! دوّخها أولئك الطامعون، الذين نهبوا ونهبوا زوجها، لاحقها العجائز والمخمورون وحاصروها.. خرجت لها من القمقم وقلت شبیک لبيك، عبدك وبين إيديك.. فارتمت بين أحضائي! لم تكن تعلم أنني نصبت شباکي حولها، وأني كنت في حاجة إلى اسمها ولقبها وسمعتها لتحميني، لتتقذني وتدفن أموالی وثروتي في اسمها وسمعتها! يا سلام! كم هي غريبة هذه الدنيا! الفريسة تأتي وتدخل المصيدة بنفسها! بعد أن تكون قد أجهدت نفسك في البحث والتخطيط للاستيلاء، تأتيك الفريسة - كما رأيتها في المرة الأولى - أنيقة، مشرقة، مفعمة بالعز والجمال، وتلقي نفسها في أحضانك، بل بين أنيابك! هنيئاً لك يا عصام.. التهم الفريسة كما تشاء وأين تشاء وأينما تشاء! هنيئاً لك يا عصام والحسرة لك يا إبراهيم الشاهد!.. لم تعد لي حاجة للأرامل والنساء المحرومات والممرضات والعوانس! لا أم كاترين ولا الست عزيزة ولا تلك اللبنانية التي تذرث بها عامين كاملين! لم تعد تغريني حتى تلك الشرقاوية المغرورة..

- ماذا تريد أن تقول يا أستاذ عصام؟
- أريد أن أقول أنه قد مضت أربعة أعوام على موت.. أقصد استشهد خالد.. وأنت..
- أنا ماذا؟
- أنت في حاجة إلى رجل..
- من أخبرك أنني أفكر في الرجال بعد خالد الربيع؟!..
- لكنك ما زلت.. شابة، ما زلت فاتنة و..
- أستاذ عصام، أنا لا أفكر في الزواج!
- أنا الآن عصام جديد، غير الذي تعرفينه..
- تقصد الثروة.. والشركة؟
- نعم، والفندق والدونمات.. أنا مرتاح، ويمكنني أن..
- أعرف أنك مرتاح وأعرف كيف حصلت على هذه الثروة؟
- ماذا تقصدين؟
- ما أقصده أن وجهة نظري فيك لن تتغير بسبب ثروتك ولن تملأ عيني مهما تغيرت.. والله دي آخرتها، نبدل الغزلان بالقروء!
- قروء!! كنت أريد أن أسعدك وأربي الطفلين معك وأعوّضهم عن فقدان والدهم..
- لا!! بل تريد أن تنتصر على خالد الربيع بعد استشهاده، تريد أن تسير بجانبني وتشير للناس، وتقول لهم هذه كوثر العرابي زوجة الشهيد البطل خالد الربيع.. أنظروا ها أنا أفوز بها! بس ده بُعدك يا عصام، لن تنال من خالد أبداً..

- لا والله أنا أحترم الشهيد خالد ..
- لو كنت بتحترم ذكرى خالد وبتقدّر تضحيته ورجولته لما فتحت الموضوع ده أصلاً..

- مش أحسن ما حد غيري يسبّقي!!
- يسبّك؟ ايه شايفني بضاعة في السوق الشّاظر اللي يسبق ويخطفها؟!.. على فكرة أنت إنسان ما بتحسّش! والله لولا أنك في بيتنا لخليت الرجالة يرموك في الترة! ياالله.. ياالله تفضل ومتورّيش وشك تاني.. ياالله.. آخر زمن!..

ستعرفين من هو القرد ومن تطردين يا كوثر! هذا الذي طردتيه من بيتك فاز بسوزان الأفندي! أيتها المغرورة المخدوعة، المدفونة في ذكريات رجل ميت!! لم أعد في حاجة إليك ولم أعد في حاجة إلى بطولات خالد الربيع! تكفيني هذه الشجرة الوارفة ذات المقام العالي! نعم تكفيني هذه السّوزان، التي ضحّت بكل شيء من أجلي.. غيّرت اسمها ولقبها وأعطتني كل شيء.. لم تبخل عليّ بلقبها، لم يكن باستطاعتي أن أتحوّل إلى عصام الأفندي، فصارت هي سوزان الفايز! يا إلهي سوزان الأفندي، بنت العائلة العريقة المعروفة تتحوّل في خبطة قدر مجنونة إلى سوزان الفايز.. شحّدة الفايز، اللاجئ الفقير الذي مات بالذبحة الصدرية.. والفقر، تنسب إليه هذه المرأة الطافحة بالعز، المرأة التي لم تعرف الفقر والجوع لحظة واحدة!! لم أتوقع أن تستسلم سوزان بهذه السهولة.. شعرت أنها تعاني من رغبة مكبوتة للهروب!! من ماضيها، وعزها.. ومن نفسها.. لم تعد

تعتر بانتسابها إلى أولئك المهووسين بالألقاب والأنساب، والنفاق!
أولئك الذين تركوها تشرب الحرمان والعذاب والتعاسة بمفردها!
تركوها لزوج عجوز مريض ولأخ مستهتر مقامر سكير، ولم يبادروا
إلى إنقاذها! لم يحفلوا بها وبمشاعرها وأنوثتها! لم يرحموها، بل
زادوا في حصارها وتجروا عليها!! لكنها كانت مصرة على قرارها..
- "ماذا تريدون مني الآن؟ ألا يكفيكم ما فعلتموه؟ ألا يكفيكم ما نلته
من المخورين والمرضى منكم؟!"

- لا زلت واحدة منا، ونحن ندافع عن هيبتنا وسمعتنا!
- هيبتكم وسمعتكم؟ دفنتموني في رجل مريض مقامر، ولم يبادر
واحد منكم إلى إنقاذي وتقولون هيبتكم! ماذا لو أقدمت على خيانة
ذلك العجوز؟ أين مصير هيبتكم وسمعتكم عندها؟!
- عودي إلى رشدك يا سوزان لا تنسي نفسك، أنت لا تدركين
جسامة الخطأ الذي تقدمين على ارتكابه..

- أخطاء.. أنتم تتحدثون عن الأخطاء.. كم هي الأخطاء والخطايا
التي ارتكبتموها بحقي؟.. ألقابكم وأنسابكم العقيمة أعمت عيونكم، حجب
إنسانيتكم ومشاعركم!

- تتهميننا بتبذل الأحاسيس والعواطف؟
- وتبذل العقول أيضاً!
- إذا كنتِ تطنين أننا طامعون في ثروتك فأنت مخطئة!
- إذن!

- نريدك أن تحافظي على هيبتك ومستواك ومقامك، بلاش هذا

المقطوع، المتسلق!

- إذن، أنتم لا تريدون لي الحياة، تريدون الإجهاز على ما تبقى من عمري، تكررّون الخطايا نفسها.. لا تجدون فيّ سوى امرأة ذات لقب وهيبة، بحاجة إلى رجل ذي لقب وهيبة ومقام.. حتى إذا كانت هذه الهيبة والمقام عجوزًا متهاكًا!! لم تفكروا في آدميتي، حقي في الاختيار والحياة.. تأتيني فرصة الحياة فجأة وتريدون منعها والإجهاز عليها! لماذا؟.. لماذا تريدون أن تمنعوا عني المطر؟!

- مطر! أي مطر؟!..

- عصام هو المطر.. هذا "المقطوع" هو المطر الذي انتظرت طويلاً.. أنا أرض انتظرت المطر طويلاً.. طويلاً..

- ما هذا الهذيان؟ مطر وشتاء ورياح؟

- لن أحرّم نفسي من المطر والحرث أيها المتبلدون المرضى!

- إذن تصرين على ذلك المقطوع المتسلق، الذي لا نعرف له أصلاً!
ولا حسباً! ذلك النكرة!!

- وسأمنحه كل شيء! نفسي وشبابي ولقبي وكل ما أملك! سأهبه كل شيء!

- ستندمين يا سوزان.

- أطرّدوني من جنتكم، من فردوسكم العظيم!..

كانت تضحي بكل شيء من أجلي.. كنت قد سيطرتُ عليها وسلّبتُ لَبّها! كانت مواجهتها معهم أكبر دليل على تمكّني منها! شعرتُ بقوتي وانتصاري! ولم أعد أشك لحظة واحدة أن سوزان على

استعداد للتضحية بأي شيء من أجل! على استعداد لتلبية أي شيء
أطلبه منها، حتى لو كان ذلك الشيء هو عقلها نفسه، وليس
مجوهراتها فقط..

- خذ يا حبيبي.. هذه هي المجوهرات، وهذا هو التوكيل العام، لكن
لم تقل لي ماذا ستفعل بها؟ ولا أفهم فائدة التوكيل وأنت تدير كل
شيء!

- سأشتري قطعة أرض جديدة، إنها فرصة لا تعوض، أما بالنسبة
للتوكيل فأريد أن أضمن ألا ينط أحدهم فجأة.. شقيقك سعدي مثلاً..
- سعدي! أين هو الآن؟ هرب المسكين ولا أدري هل كان هروبه
بسببي أم بسبب أولئك المرضى المجانين، أم بسبب الدنيا كلها..
مسكين!!

- لا عليك حبيبتي.. إنس كل شيء الآن، ما دمت معي فلا تفكري
في شيء..

- أنا أريدك أنت فقط.. أريد أن أستريح من كل شيء، وأتفرغ لك
فقط حبيبي.. مللت من هموم المال والشركات والعقارات! مللت من
نفاق الحفلات وبهرجتها الصاخبة المتكررة.. أريد أن أحيأ حياة
هادئة، معك، بعيدة عن التكلف والألقاب.. عصام، أنا ألقيت كل شيء
في حجر، فلا..

- لا تكلمي سوزان.. لن أتردد لحظة واحدة في العمل من أجل
إسعادك! ولكن شركتنا وتجارتنا، مصالحنا وأعمالنا، لا أستطيع تركها
للموظفين والطامعين!

- لا.. أنا لا أرضى بذلك.. فقط أخشى عليك من هوس الشراء وسيطرته على العقول والأحاسيس! أخشى أن ..
- لا.. لا حبيبتي! كيف أنسى ذلك؟!!
- على فكرة، لقد تعرفت على ابنتك وفاء.. إنها فتاة ذكية وجميلة!
- لماذا لا تحضرها إلى هنا؟ إنها فتاة ترفع الرأس..
- وفاء ابنتي! أين رأيتهما؟ وتحدثت معها أيضاً؟
- نعم، رأيتهما في..
- لم أسمع ما قالتة سوزان بعد ذلك، غرقت في المفاجأة.. المرات القليلة التي رأيت فيها ابنتي لم تسعفني على التقرب منها وكسبها.. وهذه سوزان تكتشفها وتقترب منها! هل أعجبتا ببعضهما؟ أين وجدتهما؟ وكيف تمّ اللقاء دون علمي؟ هل خططت سامية، زوجتي السابقة لهذا اللقاء؟ غمرتني الأسئلة وعلامات الاستفهام فقررت أن أسأل ابنتي نفسها:
- كيف تمّ التعارف بينك وبين سوزان؟
- مجرد صدفة! هل كنت تعتقد أننا لن نتقابل أبداً؟
- ليس هذا بالضبط، ولكن ألا ترين أنه كان من الأفضل أن يتمّ اللقاء الأول بينكما بمعرفتي وحضوري؟!!
- لم يكن اللقاء مخططاً! قابلتها لدقائق في حفل مدرسي.. كانت مدرستنا تعرض مسرحية، وكانت سوزان هاتم هناك..
- كيف عرفتك كيف عرفت أنك ابنتي؟ ومنذ متى تهتم سوزان بالمسرحيات؟ ولماذا لم تدعوني أنا إلى هذه الحفلة؟!

- دعوتك في السابق، ولم تلبي الدعوة! قلت أنك لا تحب مثل هذه المسرحيات!.. أما سوزان هانم، فاسألها بنفسك..
- وكيف عرفتك؟ لم تخبريني!
- أبي، القضية ليست صعبة عندما أعلنوا أسماء فريق التمثيل وحينما الجمهور واحدًا تلو الآخر.. وبعد انتهاء المسرحية وجدها في انتظاري.. هذا كل شيء!!
- وفاء، اسمعي يا ابنتي، أنت الآن في الخامسة عشرة من عمرك، يعني كبرت وأصبحت في حاجة إلى الرعاية والحماية.. لماذا لا تأتين للعيش معي، نحن في حاجة إليك..
- وأمي في حاجة لي! أمي تعبت وضحت من أجلي، لم تتزوج ونذرت نفسها لتربيتي!
- تستطيعين رؤيتها وقتما تشاءين..
- ولماذا أفعل ذلك، لماذا أترك أمي؟
- لأنك ابنتي، لأنني أبوك! الحياة عندي أفضل.. مريحة، ستذهبين إلى المدرسة في سيارة.. وأسجلك في النادي و..
- أنا مرتاحة مع أمي
- وأنا.. أليس من حقي أن تعيشي في كنفني وتحت عيني ورعايتي؟ أنا أحق من أمك، أنتِ تنتسبين لي وليس لها..
- ماذا تعني بالانتساب؟ الاسم! أمي لم تتركني أنسى يوماً أنني ابنتك وأنتسب إليك! كانت تلج على ذلك إلى درجة الحفظ! كانت دائماً تذكرني بأنني فلسطينية، ابنتك من صلبك، رغم أنك ابتعدت ونسيت

ولم تكثرث بنا لسنوات عديدة.. حتى المصاريف لم تطالبك أمي بها يوماً، لم تطالبك بالإتفاق عليّ.. كانت توفر لي كل ما أحتاجه من راتبها بصمت.. حتى بعد أن عُدت غنياً ذائع الصيت، لم تفكر في ذلك! كنا سعداء، وما زلنا، كانت امرأة عظيمة وما زالت! نعم، أمي امرأة عظيمة يا أبي!!

- لكنني أبوك! ستكونين في كنفي قريباً..

- أبي، تعلمتُ من أمي الوفاء.. أنا فلسطينية وفية.. لن أتخلى عن الذين كانوا أوفياء وضحووا من أجلي.. لن أتخلى عن أمي!.. على فكرة، أمي أيضاً تعرّفت على سوزان هاتم.. وتبيّن أنهما تعرفان بعضهما! أمي صديقة لإحدى قريبات سوزان هاتم وتبادلتا حديثاً قصيراً عنها.. ثم أخرجت من حقيبتها صورة..

- انظر هذه الصورة إنها صورة الجوالين الأربعة..

- وتعرفين الجوالين الأربعة؟

- طبعاً.. هذا عمو خالد الربيع الله يرحمه وهذا عمو إبراهيم الشّاهد وهذا عمو عبد الله الشريف وطبعاً هذا أنت.. أخبرتني أمي أنكم كنتم أصدقاء، كنتم تحبون بعضكم جداً.. حدثني يا أبي عنهم، ما هي أخبارهم؟ هل أصبح لهم أولاد وبنات في سني؟!..

كدتُ أن أخطف الصورة وأمزقها! لكن فرحة وفاء بالصورة ألجمت غضبي ويدي! أعدت الصورة إليها، وعندما أعادتها إلى حقيبتها مرة ثانية، تنهدتُ وقلت:

- الوفاء يا ابنتي يحتاج إلى أشخاص أقوياء، أشخاص يستطيعون

مواجهة الظروف والعقبات!

- طبعًا يا أبي! سأكون قوية ووفية مثلك! ألم تتغلب أنت على

الصعاب ووصلت إلى ما حلمتَ به؟!

وشعرتُ أنها تسخر مني وكدتُ أن أصفعها! لكنني تذكرتُ أنها ابنتي،

ولا يمكن أن تقصد إهانتني والسخرية مني!.. من أين لها أن تعرف

عن حياتي ومصدر أموالِي؟!.. تأملتُها.. ثم قلت:

- في المرة القادمة أخبريني عندما تقيم المدرسة حفلة!

- يعني ستحضر.. ستلبي الدعوة!

لم أجب! لكنني طلبت الصورة لأتمعن في وجوه الجوالين الأربعة من

جديد..

(٦)

عزيزة الخيال

لم أكن أتوقع أن يُذكرني أحد بوصية "أبو الكاس" والقنطرة، بعد هذه السنين! لم أكن أتوقع أن أجد شادي أبو العطا أمامي حيًا مرة أخرى! - تعالى يا عزيزة، أريد أن أعرفك بمسؤولك الجديد، الأخ مفيد السمّك، منذ الآن ستصلك جميع التعليمات عن طريقه، هذه أوامر القيادة..

تفحصته وتمعنت في وجهه، فإذا هو شادي أبو العطا بكل ملامحه.. وتذكرته في ذلك اليوم وهو يقترب مني خلسة:

- ها أنتِ تنفذين الوصية!

- أية وصية؟!

- وصية أبو الكاس!

- وهل تعرفه؟!

- نحن تلاميذه وأبنائه، ونحن ننفذ وصيته مثلك..

وتذكرتُ طلّته في اليوم السابق للعملية، وقد تخفى في هيئة بائع جوال.. تناول النقود وهمس:

- الليلة! يجب أن تصل القنابل الليلة!
- ولكن، الليل والدوريات وجميل..
- الوطن يستحق التضحية يا عزيزة..
- ربنا يستر..
- لا تبالغ يا أستاذ زاهر! تعليمات ومسئول! الأخت أم شادي هي قيادتنا، نحن نتعلم منها ونعمل تحت إمرتها..
- عجيب! التواضع نفسه! العيون الثاقبة الحادة، السمرة والنحافة والأسنان البيضاء نفسها! حتى الشارب الأسود الدقيق هو نفسه، شادي أبو العطاء، تفاصيل وجهه، وطوله، هو.. هو!!
- هل تعلمين أنني أعرفك منذ عشرين عاماً؟..
- أنت؟
- نعم أنا! كنتُ أحضر مع خالي في بعض الأحيان، كنتُ أرى معه حول البيارات والكروم وأجمع له بعض المعلومات! أنا أتذكر جيداً، وأتذكر تلك القنطرة والعملية الأولى في القرية! ودورك فيها! أتذكر ذلك الخندق الطويل والأغصان التي غطته والصفير وشجرة التين ..و.
- ما هذا؟ هل حدثك خالك بكل هذه التفاصيل؟
- بل رأيتُ ذلك بنفسي! كنتُ أراقبك من خارج السياج بهدوء.. كان خالي يطلب مني أن أتابع خطواتك لأطمئن عليك وأخبرك في حال وجود أي خطر!!
- وكَم كان عمرك؟

- عشر سنوات..
- يعني أنت الآن في الثلاثين من عمرك!
- بالضبط!
- سمعتُ عنك من هذا العجوز، لكن..
- لم تتوقعي أن أكون ابن أخت شادي أبو العطا!
- الأسماء لا تحمل أية إشارة للقرابة، لكنك تشبهه تمامًا، بل أكاد أقول أنني أراه فيك!
- كيف حال شادي؟
- شادي! ابني؟..
- وقف بجوار شجرة التين، قبل يدي ثم طبع قبلة على جبيني، كنا في الكرم وكان يستعد للسفر إلى مصر بعد نجاحه في الثانوية العامة، ناولني حبة من الخوخ المعطر ثم قال في جدية:
- بماذا توصيني يا أمي؟!
- أوصيك أن تضع وطنك في قلبك دائمًا، تحبه وتفخر به، وأوصيك أن تجتهد في دروسك، وتعود إلى غزة في كل عطلة، فور انتهاء الامتحانات..
- حاضر.. سأفعل إن شاء الله، سأكون مثلك يا أمي!
- وأخذته بين أحضائي وضممته إلى صدري.. "سأكون مثلك يا أمي" ما أعذب هذه العبارة وما أوجعها! كبر شادي، وها هو يقول كلامًا كبيرًا! لأول مرة أكتشف مذاقًا مختلفًا لكلمة أمي! أكتشف معنى جديدًا لها! معنى يفيض بالاعتزاز.. والانتماء!! أخيرًا أعلن شادي، حبيبي

- ومهجتي، أنه ينتمي لي، لي أنا..
- على فكرة هناك نقود لك، من التنظيم!
- نقود لي أنا؟! تعرف أنني أصبحت موظفة ولا أحتاج إلى نقود التنظيم!
- النقود ليست لك، هي لشادي، لتعليمه، وإن شاء الله سيحصل على هذه المساعدة حتى تخرجه!
- وقال الأستاذ زاهر بصوته الضعيف:
- لو سمعت كلامي ووافقت على سفره في منحة كاملة إلى الجزائر! كان سيوفر عليك كل هذا التعب وهذه المصاريف! تصرين على تعليمه في مصر! بس إن شاء الله بعد كل هذا التعب ما يتخصص مثلك، في علم الاجتماع!
- لا في الأدب العربي مثلك!
- مثلي أنا، ولا مثل صاحبنا.. ها؟!
- ياه.. إنت لسه فاكِر يا أستاذ زاهر؟ لسه فاكِر إبراهيم الشّاهد؟!
- أيش اللي جابه على بالك؟!
- وتدخل مفيد السماك:
- الأستاذ إبراهيم الشّاهد شخصية لا تنسى يا أخت أم شادي!
- وأنت أيضاً! شخصية لا تنسى! استفدنا كثيراً! هذا هو في بلاد ونحن في بلاد، وما الفائدة؟!..
- وانطلقت الزغاريد من غرب القرية، فهمس الأستاذ زاهر:
- هذه زغاريد حمدية القرام.. جميل خرج من السجن..

- علمتُ بذلك في الصباح.. لعلتُ هذه الزغاريد ووصلتُ إلى المدرسة وعندها اقتربت مني إحدى الطالبات وأخبرتني أن جميلًا قد خرج من السجن وذبح عجلًا كبيرًا..

وصل جميل إلى الكرم فجأة، وكانت معه حمديّة القرام.. كانت ترتدي جلبابًا غامقًا وتلف رأسها ورقبتها وكتفيتها بمنديل غامق طويل.. وتضع يديها في قفازات سوداء.. أخرج جميل من جيب جلبابه الأبيض رزمة من النقود ومدّها إلى شادي:

- خذ هذه النقود..

- شكرًا، لدي ما يكفيني.. أمي وفرت لي كلّ شيء..

- بأقول لك خذ، بلاش عنطزة عالفاضي.. أنا عارف البير وغطاه.. خذ، ولا تنسَ أنني أبوك، مصر مصاريفها كثيرة والجامعات مصاريفها أكثر..

لم أكن أريده أن يأخذ قرشًا واحدًا من جميل.. أعرف أن النقود التي ادخرتها من راتبي طوال سنتين لن تكفيه لمدة طويلة، لكنني سأتدبر أمري! نعم سأتدبر أمري، أحصل على قرض أو سلفة على الراتب، أستدين، أفعل أي شيء! فقط لم أكن أريده أن يأخذ قرشًا واحدًا من جميل:

- معه ما يكفيه، لا داعي لأن تتعب نفسك أمورنا جيدة!

- عزيزة، إذا لم يأخذ النقود بيصير حكي ثاني هه.. بقلب على الوجه الثاني.. خلىنا في الوجه الأول أحسن، وجه التقوى ومخافة الله.. ولا أيش رأيك؟!..

وفكرتُ: يمكن أن يُقدم جميل في لحظة غضب وعناد على منع شادي من السفر وحرمانه من التعليم! يفعلها وينتقم! ونظرتُ إلى شادي وأومات له برأسي، فتناول النقود.. وعندما عدنا إلى القرية، طلبتُ من شادي ألا يدنس نفسه وشهادته بهذه النقود القذرة، وأوصيته أن يضعها في البنك، وعندما يعود، بعد انتهاء الدراسة، يعيدها إلى جميل كاملة..

- يبدو أن خروج جميل يقلقك! إن لم يخرج اليوم كان سيخرج في يوم آخر.. أمر طبيعي!

- لقد وعدني هذا العجوز بتفسير بعض الألغاز.. سجن جميل والتهمة التي وُجهت له.. لكنه لم يخبرني بشيء!

نظر الأستاذ زاهر جودة بعينه المتعبتين من تحت النظارة إلى مفيد السمّك، سعل ببطء ثم اتكأ عليه وعندما أصبح واقفاً قال:

- لا بد أن تخبرها يا مفيد، أخبرها بكل شيء!

ثم دبَّ بعصاه، وعندما وصل إلى آخر الشارع قال مفيد بتوتر واضح:

- إنه موضوع حساس، ولا أريد أن أسيء إلى أحد..

- مفيد هل هناك أسرار؟ هل أخفيتما عني شيئاً؟ ألسْتُ واحدة منكم؟

- ليست أسراراً يا أم شادي، لكننا لم نشأ.. أقصد القيادة لم ترد تحميل المسؤولية لأحد، الرجل أمضى حياته في خدمة التنظيم!

- لماذا لا تتكلم بوضوح يا مفيد؟

- تذكرين صفقة الأسلحة التي سُجن بسببها المشايخ.. الشيخ فلاح وزملاؤه ومعهم جميل حب الرّمان؟

- طبعًا أذكرها! وهي بالنسبة لي غامضة حتى الآن.. جميل حب الرّمان يشتري الأسلحة ويخزنها ليقاتل بها الإسرائيليين! غريب!!
- جميل لم يقم بشراء الأسلحة ولم يشارك في تخزينها أو إخفائها! وأعتقد أنه لم يكن يعلم بأمرها أصلاً!
- لماذا قبضوا عليه إذن.. لم يجذوه في طريقهم بالصدفة مثل المرة السابقة! كانوا يعرفونه جيدًا، وذهبوا إليه في وضح النهار، وأخرجوه من بيته أمام جميع الناس!
- طبعًا.. طبعًا لابدّ أن يقبضوا عليه في وضح النهار وأمام جميع الناس.. يجب أن يعرف ويسمع العالم كله أنهم قبضوا عليه! هذا هو سر هذه المسرحية هدفها الحقيقي!
- لم أفهم..
- قبل أن أوضح لك أكثر، هل لاحظت موقف حمديّة القرام، زوجة جميل وكيف تصرّفت!!
- كانت مزهّوة، فرحة، وأطلقت زغاريد المباهاة عندما سجن، وزغاريد البطولة عند خروجه.. "قال أيش بيقولوا عليه صاحب اليهود، يروحوا يدوروا على حالهم.. هذه حصوة في عيونهم، الشيخ جميل الزّاهي أشرف منهم كلهم!!..." هذا ما كانت تردده وتهذي به في البيوت والحارات!!...
- وهذا هو المطلوب! أن يضع كل واحد حصوة في عينه ويتوقف عن الشك في الشيخ جميل! بعد أن اصطدمت مهمة جميل حب الرّمان بعقبات كثيرة وكاد أمره أن يفتضح أقدم أبو صبري الدّاهية على حبك

هذه المسرحية! استغل موضوع الأسلحة، وأخرج هذه الصورة الجديدة لجميل، "الشيخ جميل الزّاهي" البطل الذي سجنه اليهود بسبب مشاركته في شراء الأسلحة وتخزينها لمقاومتهم!!

- هل كان جميل يدرك هذه اللعبة؟ ويعرف دوره الحقيقي؟
- لا أدري إن كان فهم اللعبة في البداية أم لا؟ لكنني متأكد أنه يدرك الآن دوره الجديد!

- حتى الآن لا علاقة لتنظيمنا بالقضية، خُدع المشايخ بتلك الصفقة وسُجنوا بسببها! أين هي مسئوليتنا نحن؟ لماذا يتحمل أحدنا المسؤولية في هذه القضية؟

- في الحقيقة أنا لا ألوم المشايخ! إذا كنا نحن كدنا أن نتورط في تلك الصفقة، فما بالك وهم خبرتهم في هذا المجال قصيرة؟!
- نحن! كدنا أن نتورط؟!!

- للأسف!.. كاد الأستاذ زاهر أن يورطنا في تلك الصفقة المشبوهة! لولا ستر الله، لحدث لنا ما حدث للمشايخ!
- كيف؟

- عرض علينا ذلك التاجر الصفقة قبلهم، الرشاشات والقنابل والذخيرة، كلها! ولولا ستر الله لتمت الصفقة وكُشف عدد كبير من كوادرنا! شككتُ في هيئة الرجل، في سحته، لا أدعي أنها فُراسة لكنه حسن الحظ، التوفيق من الله.. همستُ يومها للأستاذ زاهر وعبرت عن شكي في التاجر. كانت عيون الرجل عيون لصوص وملاحه لم تكن فيها ذرة من الوطنية، طلبتُ من الأستاذ زاهر

التروي، لكنه - للأسف - لم يأخذ برأيي وكاد أن يتم الصفقة، لولا أنني تدخلت وطردت التاجر، نعم طردته وأوعزت إلى بعض الشباب بتهديده!.. فذهب إلى المشايخ وباعهم تلك الأسلحة! والمصيبة أنه عرف مكان تخزينها وإخفائها بالقطعة.. وبالنسبة لجميل، المشكلة أن بعض المشايخ، وجزءاً من أهل القرية، مقتنعون بأنه اعتقل بسبب السلاح المضبوط! والشخص الوحيد الذي يعرف الحقيقة في السجن! - الشيخ فلاح! لكنهم يتصلون به، لا بد أنه سيخبرهم..

- لا!.. لا أعتقد أنه سيخبرهم الآن! الشيخ فلاح أذكى من أن يثير البلبل في صفوف جماعته وهو في سجنه! أعتقد أنه ينتظر الخروج ليحسم الأمور ببراعته وتأثيره المعروف!

- لكن قل لي يا مفيد، كيف عرفت أنت كل هذه الأشياء، كل هذه التفاصيل؟! موضوع التاجر والصفقة ومكان الأسلحة، وأن التاجر عرفها وأنه كان عميلاً، كيف عرفت كل هذه الأشياء، بالفراسة؟ ها؟..

- ها.. ها..

ولم يتكلم لبرهة، صمت، فشعرت أن سؤالي كان ساذجاً ولا ينم عن فطنة!!.. نظر في وجهي وحدق بعينه الثاقبتين، ثم قال:

- لماذا تتسبن أنني ابن أخت شادي أبو العطا؟

وفجأة، قفز في رأسي سؤال عجيب، فقدفته في وجه مفيد السمّاك:

- كيف تجزم أن جميل حب الرّمان لم يكن على علم بصفقة الأسلحة! ألا يوجد أي احتمال على علمه بالصفقة، وبأن التاجر كان عميلاً

للإسرائيليين!!

- لماذا تخطر في بالك هذه الفرضية؟

- يعني! همس، شرثرة! لا تنسى أنه كان يجالسهم وأن بعضهم كان يثق فيه ويأتمنه.. كانت ترضيهم أحاديث جميل التهكمية عن كوادرنا وترديده الوقح للفتاوى الحاقدة عن شهدائنا! كما أن هذه المجموعة تعتقد أن الأسلحة كانت تُشتري وتحضر لمقاومة منظمة التحرير وكوادرها وليس لمقاومة الإسرائيليين!.. لعل أحدهم أفشى لجميل سر الصفة! كما أن علاقته بالملعون "أبو صبري" معروفة! يعني!..

- فرضية ممكنة، لا أستبعدها!!

- ولم أذكر لمفيد شيئاً عما دار بيني وبين جميل، حديثه عن الرغبة في فتح الأبواب المغلقة، وطلبي "الغريب" بقتل "أبو صبري"!.. كنت أنوي أن أخبره بهذه التفاصيل في لقاء آخر، لكن الأحداث تجاوزت هذه الأشياء البسيطة! وانفجرت الدنيا مرة واحدة!.. دهس الإسرائيليون سيارة وقضوا على من فيها من العمال الفلسطينيين عند معبر إيرز، فاشتعلت غزّة بكاملها! تحولت إلى بركان قذف ما في جوفه من صخور ونيران وحجارة.. هجرت غزّة هدوءها وكشفت عن غلّها المكبوت! استيقظ الناس ولفظوا اللقيمات المغموسة بالذل والمهانة، لغوها وصرخوا في وجه المحتلين القتلّة.. وبدأت الانتفاضة!.. وفي الشوارع والحارات والسّاحات، في المخيمات والقرى والمدن كان التلاميذ والطلاب والنسوة، الشعب كله، يواجه المحتلين! كانوا يواجهون الجيئات العسكرية والرصاص! كانت

النسوة تزغرد وتزود الفتيان بمئونة جديدة من الحجارة، والتحدي!
وكان الرصاص يُسيلُ مزيدًا من الدماء، فتشتعل الشوارع والساحات
والحارات من جديد.. وتصلُ مئونة جديدة من الحجارة، فيتواصل
التحدي!.. كانت الأحداث مفاجئة، لكنها كانت مهيبه ومبهرة..
وفاصلة!! هذه انتفاضة الشعب!!.. هذه مفاجأة الشعب لقيادته
وللعالم!!

بعد شهر ذهبتُ إلى الكرم، إلى الأخدود القديم، في العريزة، أخرجتُ
قطعة من السلاح، وعندما ناولتها إلى مفيد السمّاك قال:

- هذا الشعب أكبر من الجميع! انظري ماذا فعل؟ لم ينتظر أحدًا، لم
ينتظرنا! انتفضَ وقرر أن يغير واقعه بنفسه وعلينا أن نسير وراءه!
نعم، منذ الآن علينا أن نسير وراء الشعب الذي أنقذنا من حيرتنا
وترددنا! لن يتبعنا بعد اليوم! حتى لو أردنا ذلك، فلن نستطيع بعد
الذي حدث، لن نستطيع!

كانت كلمات مفيد السمّاك حقيقية وصادقة! لقد فاجأتنا الانتفاضة
وقلّبت كل المعايير، فاقت توقعات الجميع، فاقت حتى أحلامهم!
وهمس مفيد مسرًّا لي:

- لقد هرب الشيخ فلاح من السجن مع اثنين من كوادرننا.. إنه الآن
في القرية، سيبدأون المقاومة المسلحة ضد الاحتلال!
- وطبعًا أنتَ عرفتَ ذلك بالفراسة! حسنًا! عليّ أن أخبرك بدوري أن
جميل حب الرّمان هرب من القرية، أعتقد أنه هرب إلى إسرائيل هذه
المرّة..

- لقد هرب من قدره!! أخت أم شادي، كنتِ على حق، ذيل الكلب
عمره ما يتعدّل!
شعرتُ بالراحة، ابتسمت وناولته صندوق الذخيرة، ثم فكرت في
كومة الحجارة التي جهزتها مع الطالبات لمواجهة الغد..

(٧)

إبراهيم الشاهد

زغاريد وغناء.. وفرح! ما هذا؟ فتحتُ عيني وتأكدت! نحن في بئر
العزيزة، وليس في مكان آخر! إذن، من أين يأتي الفرح؟ من أين
تأتي هذه الزغاريد؟ نفضتُ الشرشف وخرجتُ إلى الصالة وعندما
أدركت حقيقة ما يجري تسللتُ على أطراف أصابعي واسترقتُ
النظر!.. كانت سميرة في حالة من التجلي والنشوة!.. انتهزتُ فرصة
غياب الأولاد عن البيت فأدارت المسجل، ونسيتُ نفسها مع ذلك
الشريط الشجي البهيج "زفة شقيقي الأصغر"!.. لاحظتُ دموعها
فمكثتُ في مكاني!.. وجاء صوت الأرغول فانتفضتُ سميرة، التفتتُ
حولها ثم راحت تدقّ قدميها على الأرض بخفة، وتغني! ولم أتمالك
نفسي، اقتحمتُ عليها تجليها وشبكتُ يدي في يدها، ثم طرتُ بها
دابكًا!..

دبكنًا وغنينا، ونسينا الدنيا، وتذكرنا الأيام الخوالي:

- يا سلام! والله زمان يا إبراهيم! فإكر حفلات الجامعة وعرس
الشام، هيبه أيام الشباب؟!!

- طبعًا فاكرا! لكن ماذا تعنين بأيام الشباب، يعني قصدك عجزنا،
خلص؟!

- اسمع يا إبراهيم، ما رأيك أن نعمل عرسًا فلسطينيًا يوم زفة ابن
فؤاد رمضان؟! نوفر الصالة والتكاليف! نفسنا في عرس فلسطيني يا
أبو ناصر!

- أيوه! حتى نصير مضغة في السنة الناس!.. شوفوا الفلسطينيين
يغنون ويرقصون وأهلهم يموتون ويدخلون السجون. إحنا مش
خالصين من غير فرح ورقص يا سميرة! ألم تر ما فعلوا مع
المهندس حامد أبو جابر يوم عرس أخيه؟ بهذلوه، جرسوه!.. كله
بسبب أن النسوان زغردن، وواحدة منهن انهبلت ورقصت!.. والله يا
سميرة حامد بكى بالدموع مثل الأطفال..
ورن جرس الباب، ثم بدأ صوت الخطب، وعندما فتحت الباب هدر
فؤاد رمضان:

- أيش نايمين؟ كسرنا الباب يا رجل!
أدخلتهما، ثم دلفنا إلى الحاكورة.. فبدأ فؤاد شارحًا مثل التجار:
- هذه حديقة الشَّاهد! انظر يا أستاذ كاظم كم هي رائعة! أنظر ماذا
فعل الكاتب المرفه صاحب الأيادي الطرية الناعمة!! أنظر التقسيم
والتنسيق: هنا قسم الفواكه، ثلاث شجرات من الزيتون وثلاث
شجرات من التين وثلاث شجرات من العنب، ومثلها من المشمش
ومثلها من الخوخ المعطر!..
- خوش حديقة! رائعة!

- وهنا، انظر، هنا قسم الحمضيات، ثلاث شجرات من "أبو صرة"، ومثلها من اليوسفي، وثلاث شجرات من "دم الزغلول".. تعال.. تعال.. هنا قسم الخضراوات: الفلفل والباذنجان والبندورة والخيار والفول!! آه نسيت.. وهنا حوض الورد!.. ورد من كل الأصناف، انظر!.. تعال تعال، هنا قسم الدواجن، الدجاج (بلدي) والبط والحمام والأرانب.. كلها!

- عيني، هذا مو شغل مثقفين ومدرسين! ما أصدق!
- لا تبالغ يا فؤاد، لقد استعنت بالمهندسين الزراعيين والمزارعين والعمال.. جميعهم لهم الفضل في تعمير هذه الحاكورة.. هذه حاكورة وليست حديقة يا أبو رمضان!

- حاكورة ولا كرم ولا بيّارة، المهم أنها إنجاز رائع!! اسمع بمناسبة ظهور تباشير الثمار، فلا بد أن تعد لنا وليمة، هنا.. يعني من الحسد والعين! نعم لابد أن تذبح لنا خروفا.. لن نقبل أن تضحك علينا ببيع الخضراوات! سندعو جميع الأصدقاء هنا للغداء يوم الجمعة!.. انظر يا أستاذ كاظم، تعال، انظر هذه النافورة الجميلة، يا سلام قعدة ملوكي! هنا تكون الجلسة رائعة.. هنا يجلس إبراهيم الشّاهد كأنه في قريته! ماذا ينقصه؟.. لا شيء! هنا البرتقال والفواكه والدجاج البلدي والحمام!! ماذا ينقصه؟..

"ماذا ينقصه؟.. هل تعني ما قلته يا فؤاد؟! لم يعد ينقصني شيء! تعني أن هذه الحاكورة بديل عن الوطن والقرية!.. تعني أنني رُضيت بالصورة بديلاً للأصل! لا يا فؤاد.. ينقصني الكثير، الكثير.. وكل ما

فعلته هو هروب! هروب من الهموم، انغمست في الزراعة والري، كنتُ أريد أن أعود إلى قرويتي التي أفسدتها المدينة والغربة، أتنفس رائحة النباتات والتربة الممزوجة بالمياه، أستنشقها وأنتعش بها! لكنها لم تكن نفس الرائحة! ولم تكن نفس التربة، ولم ألتصق بها! جذوري مغروسة في أرض أخرى! ينقصني الكثير يا فؤاد، لأن ما تراه وما يبهرك مجرد صورة! وهم، معز، لا أكثر! هذه الحاكرة، ليست لي! أدرك ذلك بكل نبضة في جسمي، بكل قطرة في شراييني، ليست أرضي، ولن تنبت جذوري هنا! فلماذا القسوة يا فؤاد.. لماذا؟.."

- ها!! اتفقنا؟! يوم الخميس نذهب لشراء الخروف! لا تنسَ أنا من أقتع صاحب البيت بتأجير الأرض لك!
- لم أنس ذلك.. يوم الخميس نذهب لشراء الخروف وندعو الأصدقاء! وأنت تتكفل بترتيب الذبح والشواء... الشواء خارج الحاكرة هه..!

ورافقتا كاظم عبد الجبار، ذهبنا إلى مزرعة الحاج مفتاح الشيباني، واتجهتُ الشاحنة الصغيرة إلى اليمين، فدخلنا في طريق يحفه سياجان ظهرتُ بداخلهما "سواني" الحمضيات والنخيل! وليصبح المشهد مماهياً لما جال في رأسي، تقافزتُ العصافير ثم نطتُ أمامنا لتطير مرة أخرى كلما اقتربتُ الشاحنة منها، فصرخت:
- إنها العريزة!

فقال فؤاد رمضان وهو يتمايل مع قفزات الشاحنة:

- نعم هذه هي العزيزة، قبل أن يهجرها أهلها ويسكنون تلك القرية!
وهناك بقايا البئر القديمة، بئر العزيزة، هناك! اسمع الحاج مفتاح
الشيباني لديه كل ما يشبع نهمك حول بئر العزيزة وأولاد عجيبة!
الأسماء والحكايات، و"الخراريف".. كل شيء! هذا الرجل موسوعة
في هذه الأشياء! يستطيع أن يحدثك ساعات طويلة دون كلل أو ملل!
لكننا لم نأت اليوم لسماع القصص والحكايات، جئنا لشراء خروف
وبس.. لا تضيع وقتنا في "الخراريف" الفاضية! ولا أيش رأيك يا
أستاذ كاظم؟!

- عدل! عدل بو رمضان!

لكنهما لم يستطيعا منعي من سماع "الخراريف"!.. ظل الحاج مفتاح
يسرد ويقص ويمثل بمتعة، وبقيت أستمتع بحكاياته وخراريفه حتى
الظهر:

- كَتَّفوها وربطوها على ظهر الجمل ثم أخذوها إلى صحراء بعيدة!
وهناك أنزلوها وتركوها لقدرها، تفتك بها الوحوش الضارية أو
تلدغها الأفاعي والعقارب السامة! لم يقتلوه، تركوها وعادوا!.. أما
العاشق الغريب فقد هرب، تركوه ولم يطاردوه! لم يقتلوه.. العزيزة
عادت إلى البئر! عادت وعاشت عند البئر! كانت تشرب من مياه
البئر، وفي الليل كانت تصيح وتنادي على حبيبها، وتطلب منه أن
ينقذها! كان أهل النجع يسمعون صراخها وبكاءها! وبعضهم رآها
وهي تمزق ثيابها وتخمش وجهها! وخشي الناس أن تقتحم عليهم
بيوتهم، فهجروا البئر والنجع!.. حرّموا مياه البئر على أنفسهم ولم

يشربوا منها بعد ذلك اليوم!.. وإذا تصادف وأخطأ غريب أو جاهل وشرب من مياه البئر كان يُصاب بالجنون ويدور حول البئر - مثل العزيزة - ويقيمُ عندها، ومن يومها سُميت البئر والمنطقة باسمها!

- وأولاد عجبية؟

- لا.. عجبية لم يكن امرأة! عجبية كان اسمًا لرجل! أنا أتذكره، كان عمري ست سنوات، كان قادمًا من مصر، وسمعتُ أن بلاده اسمها الصعيد! كان هاربًا من ثار.. قتل أحد أبناء بلدته وهرب.. وكان ذلك الرجل الأسمر القصير قوي الجسم! أنا رأيته مرات عديدة.. كان يضع فوق رأسه طبقًا مدورًا مصنوعًا من سعف النخيل.. كانت المنطقة مزروعة بالنخيل، وفي الشتاء يزرع الناس الشعير! كان يضع فوق الطبق ثوبًا ثم يربطه من عند وسطه فتصبح هيئته غريبة ومضحكة، كائن بلا رأس، عجبية! كان يدور ويرقص ويؤدي حركات غريبة ويصدر أصواتًا غريبة! أصوات حيوانات وطيور.. وأحيانًا كان يبكي! نعم أنا رأيته يبكي والناس من حوله تضحك وتسخر منه! وفي آخر الليل كانوا يعطفون عليه ويقدمون له ما تيسر من التمر والزيت وخبز الشعير! كنا نغني حوله، ندور حوله ونردد: يا عجبية بلا راس، حوز ودور على الناس.. غريب تعيشو يا مسكين؟ وين دماغك يا ترأس؟!.. كنا نعرف أنه رجل وليس امرأة، لكننا لم نعرف له اسمًا غير عجبية! بعضنا كان يحاول أن يجذب ثوبه ويكشف عما بداخله.. كان للشوب عينان، ثقبان ينظر منهما إلى الناس وكان في بعض الأحيان يتشقلب ويمشي على يديه! كان عجبية يثير دهشتنا

وفضولنا، وكانت هيئته وحركاته المضحكة تسلي الناس وتدخل بعض
البهجة إلى قلوبهم.. لا! لم يكن يسكن في النجع! كان يعيش وحيداً
منعزلاً في كوخ بعيد عن النجع!.. بعد سنوات عطف عليه أحد سكان
النجع، كان غريباً مثله، كان من أصل تركي! زوّج عجيبة إحدى
بناته واستخدمه في زراعة الأرض! أنجب عجيبة من زوجته ستة
أولاد وأربع بنات، كل أولاد عجيبة الذين تراه من نسله! حتى بناته
سبحان الله - جاء أولادهم لأخوانهم وجدهم، ولم يأخذوا من العرق
التركي شيئاً!! الملامح والأجسام نفسها! تعرفهم من سمرتهم
وقامتهم القصيرة الممتلئة المدكوك! والغريب أنهم يتمتعون بالروح
المرحة وخفة الظل، كلهم! يعرفون بهذه الصفة دون أهل المنطقة
كلها - سبحان الله - أولاد عجيبة!!..

وقلت لكاظم عبد الجبار أثناء عودتنا بالخرووف:

- أعرف أن لديك خبرة في الإخراج المسرحي..
- هيبه! الأستاذ كاظم فنان يا أبو ناصر، فنان كبير.. مسرح ورسم
وديكور وتأليف أغاني يعجبك! وصوته، لازم تسمعه يا أبو ناصر..
رهيب!!..

- أنت تكتب مسرحيات بو ناصر؟ يعني أكو محاولات سابقة؟
- آه.. يعني محاولتان، من فصل واحد!! واليوم طرأت لي فكرة
مسرحية! قل لي ما هي ملاحظتك على حكايات الحاج مفتاح؟
- حكاية العزيرة؟ أعتقد أنها موجودة في الريف والبادية العربية،
تعرف هذه أساطير شعبية: الهامة والغولة والمارد والجان الذين

يتحولون إلى حيوانات وكائنات غريبة، وخيالات الناس، يعني كل بيئة تفرز أسطورتها!

- لكن عجيبة قصة حقيقية، ليس للخيال أي دور فيها!
- بتعرفوا يا جماعة أنا بذكر شخص في بلدنا مثل هذا، معلش أنا أكبر منكم شوية.. كنا بنسميه عجوبة، مش عجيبة، كان يرقص وينط ويضحك الناس، بس كان من البلد نفسها، يعني في عندنا عجوبة كمان!

- هذا نموذج لإنسان تحايل على ظروفه المريعة الصعبة، تخفى وتكسب بحرفة مهينة ليتغلب على محنته.. وأعتقد أنه كان يعاني من صراع نفسي مرير وهو يمارس هذه المهنة المهينة!
- ألم تستوقفك تلك الكلمات التي كان يرددتها الأطفال حوله "غريب تعيش يا مسكين، وين دماغك يا ترأس"؟! لاحظ أن الأطفال ربطوا الحياة - الحياة الحقيقية - بوجود العقل والتفكير - يعني الإرادة! وقهقهه فؤاد رمضان:

- يا سلام! عليك شطحات غريبة يا أبو ناصر! يعني الأطفال من حوالي مئة سنة، في هذه الخرابات والصحاري كانوا يعرفون التفكير والإرادة والحياة الحقيقية؟ مش ناقص إلا تقول أنهم كانوا يفكرون في الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية.. ها.. ها.. ها..
- مش مهم قصدهم يا أبو رمضان، المهم ما نأخذه نحن ونلتقطه من أفواههم، الإشارات والإيحاءات..
- أتفق معك يا أستاذ إبراهيم، لكن لم نخبرنا، ماذا أوحى لك تلك

الكلمات؟

- مسرحية نقدمها في مسابقة المسرح المدرسي: الحياة بدون عقل لا قيمة لها.. الإنسان بلا عقل حيوان.. الإنسان بدون إرادة لا قيمة له في الحياة! ومن يحرم الإنسان عقله وإرادته هو عدوه الحقيقي..

- ياه..! شلون جبتها أستاذ إبراهيم؟

وضرب فؤاد رمضان على مقود الشاحنة بقوة ثم داس فجأة على كابح السرعة فارتطمنا بالزجاج، وخلفنا ارتطم الخروف بكابينة الشاحنة بقوة وثارث خلفنا زوبعة من الغبار.. نظر فؤاد في وجوهنا، ثم زمجر:

- شلون جبتها! يا حبيبي.. يعني الحكاية جد.. ها؟! حسبت الموضوع مجرد حكي، حديث مثل أحاديثنا كلها! نشتم الحكام والأنظمة، نهاجم الذين أضاعوا الأمة العربية، ندعو إلى الديمقراطية والعدالة الاجتماعية وتوزيع الثروات، نصرخ - مثلهم - بإدانة واتهام الجميع.. آه.. ونقول نكت وطرائف، ها! بيننا! لكن التحريض المؤثّق وكل الناس تتفرج عليه، مسرحية يشاهدها الجميع، هذا جنون! تحريض ودعوة للتمرد! ألم تشاهدا التلفزيون؟! في شهر رمضان يشنقون الناس! ألم تسمعا بما حدث في بني غازي! شنقوهم، المدرسين الستة، كانوا عربًا مثلنا.. ها؟! العملية كلها ثلاث ساريات من الخشب تُدق بسرعة ثم تعلقان فيها وتشنقان! والجماهير الحاشدة تهتف حولكما بالموت للخونة وأعداء الثورة والأمة! الإنسان بدون عقل وإرادة لا يستحق الحياة يا سلام! يعني قوموا

ارفضوا تمرّدوا!.. مالنا نحن وهذه الأمور؟! يستعملوا عقولهم وإرادتهم ولا يأكلوا بطيخ أصفر! ما دخلنا نحن؟! بعدين، أنت، أنت يا أستاذ كاظم هارب من صدام وحكم إعدام حتى تتعلق هان على المشنقة؟! يا راجل حرام عليك، أولادك كبروا وبداهم إياك تربيههم.. وأنت يا أستاذ إبراهيم، هذه ليست معركةنا وبلاش بطولة كاذبة! ما تفعله هو انتحار! إلغاء العقل يحول الإنسان إلى حيوان أو كائن بلا إرادة نعم! والانتحار المجاني، الهبل، هو إلغاء للعقل أيضاً!.. وطبعاً أنتم تعرفان الفرق بين الانتحار والاستشهاد البطولي!! كيف تحرضان وتحثان على استخدام العقل، وفي الوقت نفسه تلغيان عقليكما؟! مجانيين صحيح! هل صدقتما أن هناك حرية وديمقراطية؟! وأعادتني كلمات فؤاد رمضان الهادرة إلى عقلي!! نظرتُ في وجه كاظم عبد الجبار فوجدته ممتعاً معروفاً!.. ارتفعت يد كاظم إلى عنقه تحسسه وبلع ريقه، ثم قال بصوت مبحوح:

- صار لي عشر سنين هارب وخايف! رجعتني للخوف من جديد يا أستاذ فؤاد! خوف جديد وهروب جديد.. ورعب جديد!! وهمستُ بمرارة:

- الأستاذ فؤاد عنده حق! إذا لم يكن خوفنا على أنفسنا، فمن أجل الآخرين وأولادهم! عنده حق، النعمة ستكون على الجميع والبطش سيكون شديداً.. الشعارات شيء والحقيقة شيء آخر يا أستاذ كاظم!! وعندما ربط فؤاد رمضان الخروف في الحاكورة تمتمت "لكنني سأكتب المسرحية.. لنفسي على الأقل".. فقال كاظم عبد الجبار:

- بو رمضان، الكلام عن المسرحية يظل بينا.. يعني، تعرف!!
- هو هذا كلام ينقال لحدا يا أستاذ كاظم؟! اطمئن!..
- بعد الغذاء، لاحظتُ سميرة والأولاد أنني مهموم، فراحوا يطمئنونني:
- لا تحمل همّاً حبيبي، كل شيء سيكون على ما يرام.. الأمور ستكون جيدة إن شاء الله! ما رأيك أن أستعين ببعض الصديقات، يعني، الضيوف كثيرون هذه المرة..
- وأضافت لُمى:
- لا تقلق بابا! أنا سأساعد ماما.. أنت خائف نقصر مع الضيوف بابا ولاّ خائف على الحاكرة؟! ودخل ناصر عائداً من الحاكرة.. وضع سطل الماء، ثم قال:
- بابا هذا الخروف غريب! مش راضي ياكل ولا يشرب.. صايم!! معقول الخروف حاسس أنه بده يندّبح؟! معقول؟! مش عارف بابا.. انت مش عرضت عليه الميه والبرسيم.. خلص طلع من خطيتنا!!.. على كل حال لا تتعبوا أنفسكم.. الجماعة سيتكفلون بإعداد كل شيء.. هذا شرطهم - الشواء والسلطات.. كل شيء!!
- طيب ليش قلقان بابا؟! لا شيء حبيبتى! لا شيء لُمى!
- لا شيء حبيبتى! طيب خذ هذه المفاجأة الحلوة حتى تعرف بنتك أيش قد تحبك - على رأي صاحبك العراقي - هذه رسالة من عمتو فاطمة، من الأرض المحتلة!

وقال خالد الذي التصق بأمه، فجأة:

- بابا.. أنا ركبت على الخروف، بس..

- حرام بابا، الخروف ما بيركبوا عليه.. بعدين انت ما اسمعت أخوك ناصر وهو بيقول أنه الخروف صايم! حرام بابا..

كانت رسالة فاطمة حافلة بالأشواق ورائحة الأهل.. والانتفاضة:
"..على فكرة يا أبو ناصر الأحوال ليست مثل الأول!.. لم يعد الناس يخافون من أي شيء! لم يعد يهمهم الحبس والضرب والتعذيب والبهذلة!.. يعرف الناس هنا أن الإسرائيليين يخافون أكثر منا! ويعرفون أن الأمور لن تعود إلى الوراء مرة أخرى.. مثل ما تقول الناس كانت مسدودة على قشّة! انطلقوا إلى الشوارع والحارات مرة واحدة! عجائز وشباب وأطفال، نساء ورجال وبنات.. كلهم يا أبو ناصر في هبة واحدة بدون أن يوجههم أحد!! إذا كان يقولوا عندكم أن أحداً وجه هؤلاء الناس لا تصدقوه!.. الله أكبر لو شفت مرة كراز وهي تمسك الضابط الإسرائيلي من قبته وتضربه بالكف! الله أكبر لو شفت النسوان وهن يهجمن على الجنود والدبابات والجيبات بدون خوف! آه لو رأيت مرة السمري وهي تحط الحجار في حجرها وتجري وتنادي: عليهم يا شباب، عليهم! تقذف الحجارة، وتناول الشباب من حجرها وتقذف على الجنود الإسرائيليين! وبنات المدارس يا أبو ناصر، الله أكبر لو شفت بنات المدارس وهن يواجهن الجنود الذين يحملون الرشاشات! ومش هاممهن الرصاص.. يا سلام لو شفت أم شادي قدامهن! عزيزة الخيال قدام البنات وتقذف الحجارة

وتهتف معهن!... بتعرف يا أبو ناصر اليهود صاروا يتحركوا في الشوارع مرعوبين! والشباب هم الذين يحكمون البلاد في الليل!... أخي أبو ناصر، أريد أن أطلب منك طلب ولكنني أشعر بالخجل، لكن أمي أصرت على أن أكتب لك عن الموضوع!... ابني وائل حصل على الثانوية العامة وبتعرف الجامعات عندنا تعطلت تقريباً، وأمي قالت أن أكتب لك وأستشيرك إذا كنت بتقدر تدخله عندك في الجامعة! وقالت إذا وافق إبراهيم بسافر أنا (يعني أمي) مع وائل وبشوف إبراهيم وأولاده وبطمئن عليهم ويقعد عندهم شهر أو شهرين! وهذه أوراق وشهادات وائل مرفقة مع الرسالة..

أنعشتني رسالة فاطمة، أذابت الإحباط الذي سببته كلمات فؤاد رمضان! فأنجزت المسرحية! وسلّمت نسخة منها إلى كاظم عبد الجبار! لكنني عدتُ إلى حزني وخوفي بعد شهرين فقط! أغتيل أبو جهاد في تونس فحزنتُ وانعزلتُ عن الأصدقاء.. هجرتُ سهراتهم وجلساتهم، فجاءني كاظم؛ واساني وترحمّ على الشهداء.. ثم قال:

- مصباح الحامدي يود رؤيتك..

- مصباح الحامدي! من مصباح الحامدي؟

- الأستاذ الجامعي الذي قابلهنا في ندوة "الأدب الثوري"...

- أستاذ الأدب الإنجليزي العائد من بريطانيا، وماذا يريد مني؟! أرجو ألا تكون قد أطلعت..

- بل أعطيته نسخة منها، نسخة بدون أسماء.. وهو معجب بالمسرحية!

- هل جننتَ يا كاظم؟

- اسمع يا إبراهيم مصباح الحامدي يريد أن يتبنى المسرحية، تأليفاً وإخراجاً! هذا هو الحل الوحيد: أن نختفي وراء اسمه! المهم أن تصل الرسالة.. على فكرة الحوامة قبيلة كبيرة، تتوزع في نجوع ومدن كثيرة، والنظام يحسب حسابها! يعني مصباح يستطيع أن يجازف.. المهم أن تصل الفكرة يا أبو ناصر!

وجاء مصباح الحامدي.. لكنه بدأ حديثه بسؤال مثير:

- أستاذ إبراهيم، لماذا غيرت أسلوبك؟ كانت قصصك رائعة ورشيقة، بأسلوبها ورموزها الجميلة! أذكر قصتك "الطبل والطاووس" قرأتها قبل سفري إلى بريطانيا، كانت حافلة بالدلالات والرموز، لكنك هنا، في هذه المسرحية، تلجأ إلى الواقعية الفجّة، صحيح أنك تحاول أن تزين المسرحية ببعض اللقطات الفانتازية، لكن المباشرة تظل هي الطاغية! أشعر أنك تخشى من عدم وصول الفكرة!..

- ألا ترى أن الواقع أصبح أكبر من الرموز والدلالات؟ لماذا نخفي أفكارنا؟!..

- عمق الأفكار وتكثيفها ورمزيتها، سمة الإبداع الأساسية.. واسمح لي أن أعرض عليك بعض الملاحظات حول فكرة المسرحية وشخصياتها!

- فكرة المسرحية وشخصياتها! يعني تريد أن تغير النص..

- اسمع ملاحظاتي، ولك الخيار في قبولها أو رفضها.. أليس هدفنا هو أن تصل الفكرة، الرسالة؟!.. مثلاً، لماذا لا نحصر الشخصيات في

اثنتين فقط "الدعبول" والراوي! ولماذا نُظهر ملامح "الدعبول" ووجهه؟! يفضل أن يبقى مجهول الملامح , كائن بلا رأس! وأقترح أن يموت في نهاية المسرحية.. وتنتهي المسرحية بأن يطرح الراوي السؤال حول أسباب موته!

- هذه الأفكار مقتبسة من مسرحية أجنبية! الإنسان الدُمِية الذي لم يستطع التخلص من صفته وحالته التي لازمته لسنوات طويلة، لم يستطع العودة إلى ممارسة دوره في الحياة! انتصرت عليه حالة المسخ التي لازمته وأبقته "دُمِية" بلا إرادة!

- ثم احترقت "الدُمِية"! هناك تشابه.. نحن نريد الاستفادة من رمزية الشخصية ودلالاتها.. المهم أن تصل فكرتنا ورسالتنا!.. وقبلتُ العرض..

وبعد شهرين عُرضت مسرحية "الدعبول" من تأليف وإخراج مصباح الحامدي على مسرح الجامعة! وفازت بالترتيب الأول! والغريب أن أحدًا لم يسأل عن معنى كلمة "الدعبول" أو مدلولها.. وخشيتُ أن نكون قد فشلنا في توصيل الرسالة!

وفي صباح اليوم التالي وقفتُ في الفصل أمام طلبة الصف الثالث - أ- ووجهت السؤال التالي: "من الذي قتل الدعبول؟" .. وطلبتُ الإجابة بدون ذكر الأسماء.. وجاءت النتائج مذهشة!! ثمانون بالمئة من الطلاب فهموا المسرحية ورسالتها!!

"ليس مهمًا من قتل "الدعبول" وكيف قُتل!! المهم أنه مات بسبب تخليه عن نفسه، عن عقله وإرادته! مات بسبب قبوله بحالته

الممسوخة المشوهة!..

وعرضت النتيجة على كاظم عبد الجبار فقال ببرود:

- مبروك!

- مبروك لمصباح الحامدي!

- أبارك لك على قبول ابن أختك بالجامعة! أخبرني مصباح الحامدي
بالأمس.. وقال إن عليه الحضور بسرعة للالتحاق بالجامعة!

أومأت لكاظم فوضع يده في يدي ثم خرجنا مبتعدين عن المدرسة!
عندها جاءنا صوت أمين تاج السر منادياً! وعندما وصلنا قال لاهثاً:

- هل سمعتما الخبر؟!

- أي خبر؟!

- مصباح الحامدي دهسته سيارة، ونقلوه إلى المستشفى!

نظرنا إلى بعضنا ثم صرخنا في صوت واحد:

- حتى ابن الحوامة!!..

عصام الفايز

وجاءك المطر يا سوزان! نزل عليك غزيراً مدرّاراً، وتمّ الحرثُ
 بسنان قوية حادة.. حتى صهلت! صهلت!! ولكنك لم تنتجي زرعاً ولا
 ثمرًا!!.. المرأة الفخمة لم تنجب الولد الذكر الذي كنتُ أتمناه!.. كيف
 لي أن أعيش بدون أولاد ذكور من صلبى؟!.. أولاد يكبرون في كنفي
 ويحملون عني همى.. وثروتى!! كلهم أنجبوا، خالد الربيع أنجب
 وترك أولاداً، ذكوراً!.. وإبراهيم الشّاهد أنجب أولاداً! آه، ما أقسى
 الحرمان من البنين! "المال والبنون زينة الحياة الدنيا" حصلت على
 المال يا عصام، لكنك حرمت من البنين! خذلتك سوزان الأفتدي،
 خذلتك المرأة الفخمة الطافحة بالعز والهيبة! وعدت نفسك بالنصر،
 منيتها بفوزك بالضربة القاضية! لكن سوزان خذلتك ولم تمنحك
 أطفالاً يسعدونك ويملأون عليك الدنيا، كما ملأها الثروة! ها هي
 حياتك، بعد أربع سنوات، من الصبر والتماسك تنهار ويحاصرك
 الحزن!.. والحرمان!..

- تحرّكي، افعلي شيئاً، حاولي، لماذا لا تحاولي؟!

صرخت في وجه سوزان غاضباً حزناً.. فدارت على الأطباء، أكبر الأطباء، وأجرت الفحوصات.. كل شيء سليم، لا يوجد أي مشاكل، تستطيعين الإنجاب!.. لا يوجد عندها مشاكل، وأنا لا توجد عندي مشاكل! لماذا يصر الزمن على العبوس في وجهي إذن؟! ما هذا النحس الذي يلاحقني؟!..

وهربت من حزني، حاولت الانغماس في السهرات والحفلات، لكنني صدمت! كانت مكلفة! لا! أنا لا أستطيع أن أنفق هذه الأموال الكثيرة عبثاً! لا أستطيع أن أنفق قرشاً واحداً بدون فائدة.. هدف!.. لم أتعب في هذه الأموال لأنفقها على هؤلاء السكران المحتالين! لا!.. وتزوجت.. تزوجت سرّاً، كانت امرأة مجربة ولوداً!.. لكنها لم تنجب أيضاً!! فتحطمت حياتنا

- أنت رجل مضطرب حائر، تشقى بثروتك ولا تتمتع بها!
قالت ذلك بلسانها السليط اللاذع ثم قبضت الثمن واختفت من حياتي بسرعة، كما دخلتها.. هل كانت شيطانة أم عرافة لا أدري! آه.. لمن تترك هذه الثروة التي كبرتها وأصبحت ضخمة؟!.. "لوفاء ابنتك الوحيدة" ابنتي، التي لم تشعر بي وبأحزاني وعذابي! التي لم تعوضني عن الولد الذكر، ولم تحاول التخفيف عني وإسعادي! وفاء التي تصر على جفائها ووفائها الأحمق!

جاءتني منذ أسبوع وسألتني بحدة:

- لماذا لا تتبرع للانتفاضة؟

- وما دخلك أنت في هذه الأمور؟

- أنا في لجنة الدعم والمساندة بالجامعة، نقوم بحملة لجمع التبرعات من الأشقاء العرب وأثرياء الوطنية..
- ماذا تقصدين بأثرياء الوطنية؟ لماذا لا تتوقفي عن هذه النبيرة الحادة والتلميحات السخيفة لا تنس أنك تتحدثين مع والدك!
- حسناً يا والدي! ماذا فعلت من أجل أبناء شعبك؟ ماذا قدّمت للانتفاضة ولأطفال الحجارة؟
- وماذا يفعل الآخرون؟
- يفعلون الكثير! يتبرعون بالمال، بكميات من الدم، يتبنون بعض الطلاب الذين انقطعت بهم السبل، ينفقون عليهم! يرسلون بطرق مختلفة أموالاً تعزز صمود أهلنا و..
- تبرّعتُ بمبلغ من المال!
- مبلغ من المال؟! ألف جنيه مصري!! ها! مليونير مثلك يتبرع بألف جنيه، يا للسخاء!! أنت تنفق في سهرة واحدة!!
- وصفعتها بقوة ثم صرخت:
- ماذا تريد مني؟ ماذا تريدون مني، أنت وأمك وسوزان؟ أنتم تكرهونني ولا تحسون بمعاناتي..
- وأجهشتُ بالبكاء.. وبكتُ وفاء أيضاً! لكنها كففت دموعها بعد لحظات ثم قالت بصوت متقطع:
- نريدك أن تشعر بالناس أن تكون فلسطينياً حقيقياً!..
- ومن يشعر بي أنا؟! كلهم يريدونني أن أشعر بالناس، أن أبعثر أموالي هنا وهناك حتى يرضى عني الناس!.. أموالي التي جمعتها

بالشقاء والمجازفة والخوف.. والتهديد! هكذا أبددها بسهولة! ما هذا الجنون؟! أين كان هؤلاء المجانين عندما ارتديتُ السراويل المرقعة ونمتُ في العراء والبرد؟ أين كانوا عندما عملت في المهن الوضيعة وتسولت اللقيمات من الدور والأزقة والحوانيت؟! "افتح يدك وبحبح على الناس واشعر بهم حتى يشعروا بك" هذا ما قالته سوزان أيضاً! سوزان الأفندي، الإقطاعية المترفة التي لم تعرف عن "الناس" وعن عذاباتهم شيئاً، تطلب مني، فجأة، أن "أفتح يدي وأشعر بالناس" أليس هذا غريباً؟! أصيبت سوزان "بلوثة إنسانية" هي الأخرى!.. فجأة، تحولت إلى "ناشطة في المجال الاجتماعي"! يا سلام! تحضر الحفلات والمهرجانات، تتبرع هنا، وتبذر هناك، تجمع الملابس والحاجيات لأسر الشهداء والمعتقلين! تجري لاهثة متعبة على المؤسسات والسفارات ومراكز الشؤون الاجتماعية! كلهم أصبحوا وطنيين فجأة!..

قلت لسوزان بعد عودتها من إحدى جولاتها الاجتماعية:

- كفى عن اللهاث وراء أمور لا تهمنا! توقفي عن هذا التبذير! لماذا لا تهتمي بحياتنا قليلاً؟!

- كيف تريدني أن أهتم بحياتنا؟!

- انظري إلى وجهك في المرأة! لونك شاحب، ولم تعودني نضرة مشرقة! أين سوزان التي أعرفها؟!

- سوزان أعيثها الأدوية والجلسات الطبية وعمليات التنظيف التي أجرتها من أجل أن يكون لك ابن! لماذا لا تحاول أنت مع الأطباء؟ قد

يكون الأمر متعلقاً بك!

- لا، أنا سليم! صحتي سليمة والتحاليل تثبت ذلك!
- لماذا لم تنجب المرأة التي تزوجتها إذن؟ كانت أصغر مني!
- آه.. تتابعين أخباري وتتجسسين عليّ؟!
- مشكلتك يا عصام أنك تعتقد أن لا أحد يعرف ما تفعله! بالنقود يا حبيبي تستطيع أن تعرف كل شيء!
- من حقي أن أحاول! أم تريدني أن أحل المشكلة مثلك.. باللهات وراء الحفلات الوطنية والجمعيات ومراكز الشئون الاجتماعية؟!
- غريب أن تشغلي نفسك بهذه الأمور!!
- غريب فعلاً! فالمنطق يقول أنني أنا التي يجب أن تقول ذلك! أن تأنف وتخجل من هذه الأشياء!
- تعيريني يا سوزان! تذكريني بأصولي الفقيرة؟!
- بل أذكرك بأمر يبدو أنك نسيته، أو تناسيته!
- وما هو؟
- أنني ضحيت بكل شيء من أجلك! نسيتُ نفسي واسمي إليك! اخترتك، وتخلّيتُ عن كل شيء.. عن اسمي وطبقتي وفخامتي، هه، من أجلك...!!
- هل أنتِ نادمة؟
- بل حزينة! لأنك لم تعد ذلك الرجل الذي ضحيت من أجله!..
- أحسستُ بالخوف، رغم أنها لم تأتِ على ذكر ذلك التوكيل! أحسستُ بالرعب لأن سوزان لم تعد تلك المرأة الوديدة الهادئة، والعاشقة

المطبعة!! سوزان أصبحت خطرة! وقد تُقدم على أية خطوة مفاجأة في أية لحظة! يا إلهي! قد تقوم سوزان بإلغاء التوكيل وتدمر كل شيء!.. وطرْتُ إلى المحامي.. وتأكدتُ أنها لم تُقدم بعد على تلك الخطوة المجنونة، فأعددتُ الأمر بسرعة وسرية تامة.. أتممتُ البيع نفسي بموجب التوكيل وصدّقتُ العقود والأوراق واعتمدتُ الإيصالات! ووضعتُ الملف العزيز في خزنتي العزيزة!! "بالنقود تستطيع أن تعرف كل شيء".." نعم، بالنقود تستطيع أن تفعل كل شيء يا سوزان! هكذا أصبحتُ آمنًا من جنونك يا حبيبتي!.." وجاءت سوزان بجنونها، أيام قليلة وجاءت متعبة لاهثة، حطت جسمها أمامي وقالت:

- عصام أريد أن أخبرك أنني ألغيتُ التوكيل!
- ألغيتُ التوكيل؟!
- نعم، اليوم وأريد أن أعرف كل شيء عن الشركة والفندق والأعمال التجارية الأخرى!
- ابتسمتُ، ومسدّتُ شعرها وطبعتُ قبلة على جبينها وهمست:
- كما تشائين حبيبتي، كما تشائين! ستكون الأوراق جاهزة، سأطلعك على كل ما تريدينه عندما تأمرين بذلك!

وفي اليوم التالي عرفتُ كل شيء! عرفتُ أنني بعثتُ نفسي، بموجب التوكيل، كل ما تملكه من عقارات وأسهم واستثمارات! عرفتُ أنها لم تعد تملك شيئًا في الشركة والفندق والأسهم!.. وعندما عرض عليها المحامي "المتعاون" الأوراق والعقود انهارت! ضربتُ رأسها في

الحائط، ثم راحت في غيبوبة، فنقلتها إلى المستشفى "الفخمة"!
وأمرت لها بجناح يليق بها!

في الحقيقة لم أكن أتوقع أن تتدهور حالتها الصحية بهذه السرعة!
ولم أكن أتوقع أن تكون مريضة بذلك المرض العُضال... هل كانت
سوزان تعلم أنها مريضة بالسرطان فحاولت تطهير نفسها من أدران
ماضيها وعزوفها عن الفقراء والمحتاجين؟! لا أشك الآن أنها كانت
تعلم حقيقة مرضها!..

وجدتها منذ ثلاثة أشهر في حالة من الإعياء الشديد! أذكر أنها،
حاولت إخفاء بعض الأدوية بيدها المرتعشة عندما اقتربت منها!
خمنتُ أنها تتناول بعض الأدوية والعقارات من أجل الإجاب لكنها
تحاول إخفاء ذلك عني مكابرة!.. لكن حالة الإعياء تكررت وشغلني
زواجي السري وأمور أخرى عن التفكير في سوزان!.. آه.. أذكر
الآن أن وفاء، ابنتي، قالت في إحدى لقاءاتنا:

- أبي، أرجو أن تهتم بالسيدة سوزان! إنها امرأة طيبة و..

لاحظت يومها التأثير في وجه وفاء، فسألتها:

- هل تخفين عني شيئاً؟

- لا.. لا بابا، فقط أرجوك أن تهتم بها! إنها لا تستحق منك هذا
الإهمال.. لقد أعطتك الكثير..

أثناء عودتي من المستشفى فكرت: ماذا لو لم أفعل ما فعلته؟ ماذا لو
لم أبيع لنفسي ما تملكه سوزان؟ وبقيتُ هي مالكة للعقارات
والاستثمارات؟ ماذا كانت ستفعل بهذه الثروة؟ معقول! هل كانت

ستنفقها في.. أنا لا أستطيع أن أصدق ولا أتصور ما كان سيحدث! هل كانت سوزان ستقدم على خطوة كبيرة مجنونة من تطهير الذات؟ تنفق أموالنا على الفقراء والمحتاجين، وترسلها إلى الأرض المحتلة؟! لا أستطيع أن أتصور ذلك الجنون، ولا أن أتخيل ما كنت سأقدم على فعله لو حدث ذلك!.. وتنهدت: "الحمد لله أن سوزان لم تفعل ذلك، ولم تعد قادرة على فعله! بل، لم تعد قادرة على فعل أي شيء!.."

أخبرني الطبيب أن حالتها متأخرة! وأن السرطان تمكن من كبدها! وأن أيامها أصبحت معدودة!.. فحزنت! لماذا لا أحزن؟! وقد أعطتني سوزان كل شيء، عدا الأولاد!.. وبدأت نوبات الغياب عن الوعي، ثم الغيبوبة الكاملة.. ثم ماتت سوزان قاسم الأفندي! بل سوزان قاسم الفايز، وبقيت ممتلكاتها وثروتها تحت يدي.. لكن روحها أو لعنتها ظلت تلاحقني!..

وصل سعدي الأفندي من أمريكا، فجأة!.. أقام دعوى ضدي، طعن في الأوراق والعقود، أقام ثلاثة أسابيع وحاول أن يحصل على حصته من ميراث شقيقته! لكن المحامي البارح دحض كل دعاويه وحججه! وأبرز العقود والإيصالات والأوراق الداعمة في مرافعة تستحق أتعابه السخية:

"السيد رئيس المحكمة، السادة الأعضاء الموقرون...

لقد باعت السيدة الفاضلة المرحومة سوزان قاسم الأفندي، العقارات والأسهم والسندات المبينة أمامكم، في حياتها وهي بكامل وعيها، إلى زوجها الفاضل، موكلي، السيد عصام شحدة الفايز، بموجب العقود

والإيصالات المصدقة، وقبضت الثمن بالجنيه المصري نقدًا!.. وقد أكدت الجهات المختصة، حسب ما هو مبين لديكم صحة العقود والأوراق والإيصالات! وعلى هذا فإن الطعن الذي قدّمه السيد سعدي قاسم الأفندي لا يعتمد على أي سند قانوني، وتُعد دعواه باطلة وغير قانونية، وهو ما يُلزمه بدفع تكاليف إقامة الدعوى!.. أما سؤال الزميل وكيل النيابة عن المصير الذي آلت إليه تلك الأموال خلال هذه الفترة الزمنية القصيرة، فهذا ما يثير الاستغراب والدهشة! فمنذ متى يُسأل الناس كيف ينفقون أموالهم وأين؟ إنها أموال السيدة الفاضلة المرحومة سوزان قاسم الأفندي وهي الوحيدة التي تعلم كيف أنفقت أموالها وأين وضعتها؟ وكما تعلمون أيها السادة فإن زميلي وكيل النيابة بإثارته ذلك السؤال يريد أن يشكك في مصداقية البيع والدفع! وهذا أمر مردود عليه بالوثائق والعقود كما أوضحت، وكذلك بالحالة المالية لموكلي والمودع بيانها طرفكم!

سيدي رئيس المحكمة السادة الأعضاء الموقرين..

لم يكن موكلي في حاجة إلى هذه الأموال، وقد قام برعاية زوجته في مرضها وأدخلها أرقى المستشفيات وخصّص لها جناحًا كاملاً وطاقمًا راقياً من المختصين وبُثبت ذلك كشف الحساب والفواتير المرفقة، المودعة طرفكم، والتي بلغت قيمتها خمسة آلاف جنيه، خلال أسبوع واحد فقط!

من ناحية ثانية، وكما بيّن الشهود، فإن المرحومة السيدة الفاضلة سوزان قاسم الأفندي، كانت معروفة بسعيها للبر والخير، ومعروفة بجهودها في مساعدة الفقراء والمحتاجين، من أبناء شعبها وأسر

الشهداء على وجه الخصوص! فلماذا لا تكون المرحومة قد أنفقت تلك الأموال على أهلها وأبناء شعبها في الأرض المحتلة بطريقة أو بأخرى؟!...

السيد رئيس المحكمة، السادة الأعضاء الموقرون...

أود في ختام مرافعتي هذه، أن أعبر لكم عن تأثر موكلي، وحزنه الشديد جراء إثارة مثل هذه الأمور العائلية الحساسة، خاصة وأنه يُكنُ لزوجته ورفيقة عمره، المرحومة سوزان قاسم الأفندي تقديرًا كبيرًا وحبًا لا يعادله بكنوز الدنيا!!...

وخسر سعدي الأفندي القضية، فأرسل يستجديني لتحمل نفقاتها! وكذلك توسل كي أدفع عنه نفقات إقامته في الفندق الفخم الذي أقام فيه! فتحملت نفقات القضية وسددت فاتورة الفندق، وحملته ببعض الهدايا لصديقاته في أمريكا ثم ودعته عند سلّم الطائرة!

ثم أقامت زوجتي الأولى سامية دعوى نفقة ضدي! كثر المتآمرون عليّ! أقرب الناس يتآمر عليّ وينغص عليّ حياتي! زوجتي، أم ابنتي الوحيدة، تطالب بنفقة! لم تفعل ذلك وأنا في غربتي.. وفقري! لكنها تقدم على ذلك الآن!.. تلك المرأة الوديعه المكافحة تتحول، فجأة، إلى امرأة عنيدة شرسة!! هل حركها الانتقام؟ أم حركها التعاطف النسوي مع الأموات؟! "من يتسبب في موت زوجته ويستولي على أملاكها وثروتها لا يستحق الرحمة!".. لماذا أصبحوا جميعًا معادين! حتى ابنتي وفاء، ابنة الجامعة الناضجة، التي صدّعت رأسي بمقولات الوفاء والالتزام، أصرت هي الأخرى على أن تحصل على حقوقها

كاملة! التزامات بالإففاق وأوراق وتعهدات مكتوبة وشيكات! لم تعد عازفة عن أموالى ونقودى! "هذه أموال المسكينة التى خُدت، وضحت بكل شيء من أجله.. أبى لم يعد مضموناً".. هكذا أعلنوا الحرب مرة واحدة!!.. رفضت ابنتى أن تنضم إلى حضانتى، ربحت القضية بمثابرة أمها! وحصلت زوجتى على نفقة محترمة وابنتى تمكنت من تنفيذ شروطها وحصلت على مصروف شهري "يناسب وضع والدها"..!.. كان موت سوزان بداية للمنغصات، فى العمل، وفى الحياة! أصبحت مادة للمتآمرين والمتهمين: "هذا هو المليونير القاتل!" ستكون الثروة من حظ ابنته! سيسقط يوماً ميتاً وتذهب أمواله هباءً منثوراً".. "دبروا له زوجة تخلص عليه وتقتل كل ما لديه!.." فرعت من أسنتهم وتعليقاتهم.. ووحشيتهم، فهربت إلى الريف! اشتريتُ منزلاً من طابقين، وصرتُ أقضى معظم أوقاتي فيه.. هجرتُ المدينة وقصرتُ وجودى فيها على العمل فقط! كنت أنطلق فور انتهاء العمل فى الفندق والشركة إلى ذلك المنزل الجميل الهادئ وأتمتع بذلك السحر الذى افتقدته! بعد شهرين، اكتشفتُ أنني اشتريتُ منزلاً مشابهاً لحوش العرباية! بيت واسع وحوله حديقة وأشجار مثمرة وقريب من التربة التى تدنو على مياهها جداول الصفصاف! تماماً مثل قلعة كوثر العرباي المنيعه!!.. لم يبق إلا أن أبحث عن كوثر هذا المنزل! وكلفت الخدم بالبحث عن "العروس المناسبة"، فوجدوها خلال أسبوع فقط! يا للروعة! كانت الفتاة مذهلة، وتشبه كوثر العرباي! بل هى كوثر فى سن التاسعة عشرة، عندما رأيتها لأول مرة فى الجامعة.. معقول! صبية ذات عيون حوراء ساحرة،

ابتسامة خجولة مُسكرة، ووجه بتقاطيع مرسومة! ما هذه الحورية؟
من أين أحضروها؟ أمن هذه القرية الريفية البسيطة، أم من الجنة؟
معقول! هل خرجت هذه الجوهرة من هنا؟ ما أسعدك يا عصام!..
وأقمتُ عرسًا بهيجًا! عرسًا يليق بالحورية "سلوى" العمر والزمان!..
وأصبحت زوجتي، وصار بإمكانني أن أتمس السعادة والهناء!..
وانتعشتُ، فقررتُ تسوية ما تبقى من منغصات مع زوجتي الأولى،
وذهبت إلى ابنتي:

- وفاء، أنا تعبت من المشاكل يا ابنتي! وأريد أن أعيش مرتاحًا!
أرجو أن تتركوني في حالي! صدقيني أنا لم أتسبب في موت سوزان
الأفندي، كانت مريضة وهذا قدرها، وأنا لم أستول على ثروتها تلك
كانت أموالي أنا و..

- أعلم أنها كانت مريضة! وبالنسبة لثروتها.. على كل حال سنترك
في حالك، سنترك لحياتك الجديدة! ولزوجتك الجديدة، عسى أن
يرزقك الله مولودًا ذكرًا! نعرف أن هذه أمينتك، أنا كذلك هذه أميتي
أتوق لأن يكون لي أخ.. صدقتي!

- أصدقك! أصدقك يا ابنتي!

قبلتها على جبينها فقبلتني على خدي وانصرفت دامعة! عندها أدركت
أن أملًا كان يراود ابنتي في أن أعود إلى أمها بعد هذه السنين!
ودُهِشتُ: كيف لم يخطر ببالي مثل هذا الأمر؟!

أعطيتي سلوى كل ما أشتهي! ما حلمتُ به وما لم أحلم به! كانت
فتاة رائعة إلى حد الخوف! أغرقتني في السعادة والنعيم، فجفلت!..
هكذا بدأت حياتي مع سوزان الأفندي! ناعمة وديعة مفعمة بالحب

والهدوء والنعيم، ثم تحولت إلى توتر، ثم عذاب وجحيم! حتى حياتي القصيرة مع زوجتي "المجربة السرية" بدأت بالمتعة والسعادة والحب، ثم فجأة تحطمت!

لكن سلوى تختلف عنهن جميعاً! هذه فتاة من عجينة أخرى، ليست لديها أية تجربة، من عائلة فقيرة طيبة! وهي ليست طامعة سوى في السر والحياة الكريمة! فلماذا أتوجس وأخاف؟! .. "معك وبين أحضائك امرأة غضة في عنفوان الأثوثة والقابلية ولم يفت الوقت بعد!! ما زال في العمر بقية يا عصام!.. إحرق الأرض البكر، واطرد كل الوسوس والأوهام!!"

وحملت الأرض، جاء الغيث بنعمته! حملت سلوى فسمعت زغاريد الدنيا وتراقصت أمام عيني كل حوريات الجمال والفتنة! سمعت الموسيقى الملائكية العذبة! سمعت نشيد الحياة من جديد! إذن هناك أمل!.. ولم أصدق الممرضة التي جاءت بالنبا:

- بتقولني حامل؟!

- والله العظيم، والكعبة الشريفة الست سلوى حامل.. إنت مش مصدقني ولا أياه يا سعادة البيه؟.. بقول لحضرتك الست حامل، عاوزين الحلاوة بقي!..

واكتملت زغرودة الزمن، أكملت الدنيا عزفها ونشيد الملائكي العذب! وعرفت أن الجنين ذكر! ولد من صلبى!..

- نعم ذكر، والجنين سليم مئة بالمئة.. مبروك!

ووضعت سلوى تحت رعاية طبية مكثفة، رعاية تليق بابن عصام

الفايز: "منتصر"! نعم سأسميه منتصرًا! منتصر عصام الفايز، هذه هي الضربة القاضية يا إبراهيم الشاهد.. يا أبا ناصر!!

كانت التقارير طبيعية، والتحليل طبيعية، والصور تؤكد أن وضع الجنين "الذكر" طبيعي!!.. لكن حظي لم يكن طبيعيًا، والقدر لم يكن طبيعيًا!!.. كان كل شيء يخدعني ويتآمر عليّ خلسة! كان الشؤم يتربص بي متكررًا في ثياب السعادة والفرح.. والوهم!!.. ما أتعسني وأشقاني؟!.. وضعت سلوى مولودًا ذكرًا جميلًا! لكنه كان معاقًا! هيئة طفل فقط!" عصام أيها المخدوع الكبير، هذا هو الولد الذكر الذي انتظرتَه العمر كله!! ستحمل همه حتى الممات!!.. وخرجت من الحوش، وعندما هممتُ بصعود السيّارة اقترب مني طفل كبير معاق! كان يحبو ويلتقط الأوراق والأوساخ من الأرض يلتهمها، ثم يحبو ويصدر أصواتًا مبهمًا!.. أسرع الغفير إليه، التقطه من الأرض وركض به بعيدًا عن البيت.. سألتَه عندما عاد:

- مين هذا المسكين يا عم مغوري، ابن مين؟

تلعثم الحارس، وتشاغل بإقفال البوابة، فنهرته:

- بأقول لك ابن مين هذا المعاق، ألم تسمعي يا مغوري؟!

- أصله.. أصله ده.. ده أخو الست سلوى.. أخوها يا سعادة البيه..

ربنا يلطف بيه ويخفف عنه!.. كل ما نبعده عن الدار يرجع تاني..

مش عارفين نعمل معه أيه!!..

أخوها "أنت مغفل كبير يا عصام"!!!

وبكيت.. بكيت وحيدًا.. تائهاً.. مخدوعًا!!..

عزيزة الخيال

وفي الليلة العاشرة، سكبت السماء ماءها غزيرًا مدويًا! فقالت إحدى العجائز:

- هذا مطر لم ينزل على القرية منذ أربعين عامًا!
امتلاً الجرن القديم بالمياه، وحاصرت الساقية القديمة بحيرة كبيرة!..
الشوارع والأزقة والحواكير والبيارات، تحولت كلها إلى برك من المياه!..

- يا حامي البيت احم البيت يا رب ألطف بنا وخفف عنا!
في العام الماضي ابتهل الناس وكبروا إلى الله، دعوه وتوسلوا إليه
أن ينزل عليهم المطر، وأن ينقذهم من الجفاف! وها هم، في هذا
العام، يبتهلون إلى الله ويدعونه لوقف المطر، وإنقاذ القرية من
الغرق!!

هرول المؤذنون إلى المساجد، صعدوا إلى المآذن ونادوا:
- يا أهل البلد يا سامعين الصوت، كل واحد سكر واد أو مجرى قديم
يفتحه.. كل واحد حول قناة أو مجرى سيل يفتحه.. يا ناس البلد

مهدة بالغرق.. افتحوا للميه علشان الله يفتح عليكم ويفرّج كركبكم..

يا أهل البلد الصلاة والدعوات بأن ينقذ الله البلد!!

ارتعد الناس، أسرعوا يبحثون ويفتشون عن السدود والموانع التي بنوها! كسروها ووسعوا للمياه.. فتحوا كل المجاري والمسارب والقنوات القديمة، ووصلوا حتى الجرن والساقية! فتسرّبت المياه، متبخرّة، إلى الحواكير والبيّارات والمزارع! عاثت فيها آمنة، اخترقتها، ثم تدفقت نحو الغرب! وعند الحدود، إلى الشرق، كانت البحيرة الكبيرة تهدد القرية وتحاصر البيّارات والكروم! تلتوت مسارب وغدران المياه مثل الأفاعي باحثة عن منافذ لها! ثم ارتفعت وارتفعت! وفجأة، جاء الطوفان! انهارت السدود والخزانات التي أقامتها إسرائيل وحجبت بها المياه عن قطاع غزة! تحطمت السدود فتدفقت أنهار المياه هادرة، جارفة كل شيء يعترضها! السياجات والأشجار والأسلاك والجدران والحواجز! حتى أكوام الأتربة والطين والحجارة جرفتها! وفاضت البحيرة، وبحثت ثعابينها المائية عن مجراها القديم "وادي العريزة" حتى وجدت بقايا ضفتيه فتدفقت إليه، وحفرت فيه باحثة عن ملامحه الأخرى، وعندما اطمأنت إلى حضنه اتجهت إلى الغرب مكتسحة بهديرها وزمجرتها كل شيء وضعه الناس في مجرى الوادي المعطاء الحنون!.. وسُمع هدير الوادي أسبوعًا كاملاً!.. بعد انحسار المياه، انشغلت القرية بنفسها! انهمك أهلها في ترميم بيوتهم وحواكيرهم ومزارعهم وحمدوا الله أن الطوفان لم يجرفهم ويخطف أولادهم! "الحمد لله.. جاءت الخسائر في

المواشي والمزارع، المال معوّض!.." ولم يفتنوا إلى شيء هام حدث أثناء الطوفان.. وفاة زاهر جودة! مات غاندي فقيراً منسياً! أربعة فقط هم الذين فطنوا واهتموا بذلك العجوز المهمل! اثنان من المثلثين، وإمام المسجد وابنه! صلوا عليه، ثم حفروا في الوحول التي غمرت مقبرة القرية، وواروه التراب والطيني على عجل!.. وعندما عاد مفيد السمّاك من المقبرة، أزاح اللثام ثم قال:

- كان الشيخ فلاح أكثرنا تأثراً! قال: هذا رجل لا يعوّض! إذا شاء الله وأنجبت زوجتي ولداً، سأسميه - بإذن الله - زاهراً!..

بعد الانتهاء من الترميم، عاد أهل القرية إلى تأويل ما حدث وتفسيره!! الإسلاميون والمشايخ اعتبروه نذيراً من الله وواحدة من علاماته وعبره، حتى يتعظ الناس ويعودوا إلى طريق الإسلام! والوطنيون انطلقوا منه للتحذير والدعوة إلى الوحدة الوطنية والابتعاد عن التناحر! والعلمانيون قالوا عنه غضبة الشهداء على التجاوزات في صفوف المناضلين، ودعوا إلى تشكيل لجنة للتحقيق في تلك التجاوزات، وخاصة حوادث الخطف والتعذيب والقتل بدون بيّنة!!..

وسألت مفيد السمّاك:

- ما رأيك في ما حدث؟
- وفاة الأستاذ زاهر؟
- بل الفيضان!
- رأيي مثل رأيك!

- وهل تعرف رأيي؟
- نعم! ليس المهم التأويلات والتفسيرات! المهم أن يستمر التكاتف والإخلاص الذي جسده أثناء الفيضان.. أن نستمر في وحدتنا ونحافظ على جماهيرية مقاومتنا، مثلما كنا..
- أيام اغتيال "أبو صبري" مثلاً!
- التنظيمات والناس والجميع كانوا يعملون بصدق ووطنية خالصة! عندما خططنا للعملية لم نفكر لحظة واحدة في التنظيم الذي سيتبناها..

"كانوا أربعة مقاتلين، كل منهم ينتمي إلى تنظيم: مفيد السمك والشيخ فلاح ومروان بصبوص وأسعد السمري!.. تعاونوا في وضع الخطة وجمع المعلومات ورصد تحركات "أبو صبري" وتحديد الوقت.. كل شيء! لم تكن قياداتهم وتنظيماتهم تعرف التفاصيل، فقط أعطتهم الضوء الأخضر بالتنسيق والتعاون!!... أذكر أنني نفذت ما طلب مني لإجراز بعض ظروف تلك العملية.. سعيتم إلى بعض نساء القرية، النساء اللواتي أثق فيهن، وطلبت منهن إشعال الطوابين والأغصان الجافة في أنحاء متعددة من القرية! وبعدها، يطلقن الزغاريد! يتصاعد الدخان وتنطلق الزغاريد ليلاً فجأة، فيشك أبو صبري في الأمر ويتجه إلى حيث يستقبله الشباب ويفجرونه ويقضون عليه وعلى من معه!.. ونفذت العملية بكل دقة وسرية.. وإخلاص! ولم تستطع المخابرات الإسرائيلية تحديد التنظيم أو الأفراد الذين نفذوا تلك العملية النوعية!.. "ولم تتبارى التنظيمات إلى تبنيها!

صدر بيان واحد من القيادة الموحدة فقط" .. قامت مجموعة من مناضلينا باغتيال ضابط المخابرات الصهيوني الكولونيل داني يعقوب عزرا، المعروف باسم "أبو صبري" كما تم قتل أربعة من ضباط المخابرات المرافقين له، إضافة إلى تاجر عميل كان يرافقهم! .. ونهدي هذه العملية إلى أرواح شهدائنا! ..

- أليس هذا هو رأيك يا عزيزة؟!

ولاحظت أنه يناديني باسمي لأول مرة، وقبل أن أتمعن في مدلولات ذلك أضاف:

- عزيزة أنت امرأة عظيمة .. في الحقيقة هناك موضوع أود أن أناقشه معك، بموضوعية وهدوء .. لكنني لا أدري إذا كان الظرف مناسباً! ..

قبل شهر جلست بجوار الأستاذ زاهر جودة وجففت عرقه المتصبب في شهر كانون (يناير)، سألني عن الأوضاع، ثم اعتدل قليلاً وقال لاهئاً:

- عزيزة، هناك موضوع حسّاس أود أن أتحدث فيه معك ..

وتذكرت عوض الشاهد، قبل وفاته، كان في هذه الصورة الملائكية الصفراء .. "يحنّني يا غاندي أن تكون في هذه الحالة" .. وقلت:

- لا تجهد نفسك! استرح ولا تجهد نفسك بأمورنا!

- مفيد السمّاك رجل مخلص! وأنت تعرفين رجولته ومكانته!

- ويحبّني، أليس كذلك؟

- نعم، ويرغب في الزواج منك!

- وهل ترى ذلك مناسباً؟!
- لا أتمنى لك زوجاً أفضل منه!
- لكنني لا أفكر في الزواج!
- نذرت نفسك للعمل الوطني؟
- بل لابني! نذرت نفسي لتربيته وتعويضه عن تلك السيرة القذرة التي تركها له والده! أريد أن أظل معه وأحميه! أريده أن يكون مخلصاً في وطنيته ومحباً للناس! وأقف إلى جانبه عندما يتعرض لأي خطر أو مكروه!!
- ابتسم رغم إعيائه الشديد.. ثم سعل! ناولته كوب الماء، أخذ رشفة منه ثم قال:
- ضحكْتُ لأنك تضعين أعذاراً واهية! أين التعارض في الموضوعين؟ الزواج لن يمنعك من الوقوف بجوار ابنك وحمائته، على العكس، زواجك من مفيد السمّاك يمنحك القوة والقدرة على الوقوف في وجه الحمقى والحاquدين! من يسمعك يعتقد أنك تتحدثين عن طفل! نسيت أن شادي، ابنك، في العشرين من عمره! بعد عام سيتخرج من الجامعة وتبحثين له عن زوجة..
- بالضبط! سأزوج "شادي" وأسخر نفسي لأولاده!
- صدقيني يا عزيزة ستحتاجين إلى رجل! إذا كنتِ لا تشعرين بذلك الآن فستشعرين به بعد سنوات!
- قضيتُ عمري بدون رجال! تعودت على الوحدة!
- بل تعودتِ على التحدي! تعيشين في تحدٍ دائم! تحدي مع جميل

حب الرّمان وتحدي مع "أبو صبري" .. وتحدي مع إبراهيم الشّاهد ..
وتحدي مع الظروف! وها أنتِ تعيشين التحدي مع مفيد السمّاك .. أنا
لا ألومك على أيام زمان، بل أنا فخور بك، بصمودك وإصرارك على
النهوض والاستمرار! ولكن الآن، من حقك أن ترتاحي وتلتفتي إلى
نفسك! سيأتي اليوم الذي تكتشفين فيه أنك قصرت في حق نفسك!
أنك أعطيت الآخرين ونسيت نفسك! ..

هل كان العراف العجوز يتحدث عني أم عن نفسه؟ هل يشعر الرجل
الذي اهتم بالجميع بالإهمال؟ الرجل الذي حافظ عليهم وأحاطهم
بالرعاية، هل يشعر أنه قصر مع نفسه وعائلته؟ .. لم يدخر لأولاده
ما يؤمنهم من نوائب الدهر! حتى هذا البيت القديم، رفض تجديده،
حتى لا تلوك الألسن سيرته! ياه .. كم قسونا عليك يا غاندي! ..
ونظرت إلى مفيد، ثم سألته:

- هل تعرف كم عمري الآن؟

- أعرف!

- أنت تكبرُ ابني بعشر سنوات فقط!

- وأنت تكبريني بعشر سنوات فقط! رغم أنك لا تبدين كذلك! من
يراك يعتقد أنك في الثلاثين فقط! أنت تبدين أصغر مني! ثم، إن العمر
ليس بالسنوات أيتها الأخصائية الاجتماعية المثقفة! العمر
بالأحاسيس والمشاعر والقدرة على العطاء.. والحب! وأنا أراك
هكذا، مليئة بالأحاسيس والمشاعر والقدرة على العطاء.. والحب!
أنت لا تعطين نفسك حقها وقيمتها.. هل رأيت نفسك وأنت تقودين

الطالبات في تلك المظاهرة، يوم الجرن العظيم، تتقدمين وتصرخين
وتقذفن الحجارة وتهتفين! على فكرة هل رأيت صورتك في المجلة؟!
- أية مجلة؟

- نُشرت صورتك "الرائعة" في إحدى المجلات الأجنبية! التقطها أحد
الصحفيين الأجانب المجازفين في تلك المظاهرة - المعركة!
- آه.. يوم حرب كعوب البنادق وقنابل الغاز والدخان.. ثم بعد ذلك
الرصاص الحي، بلا صحافة بلا غيره! كيف أنسى ذلك اليوم، وكنت في
مخلوعة من يومها!!.. لكنني لم أرَ تلك الصورة..

عندما ذهبتُ إلى العريزة لم أتوقع أن يكون الفيضان قد فعل كل ما
رأيتُه.. وادي العريزة ينبثق من جديد.. ها هي الدرجات العلوية
الخمس للعريزة تظهر، والقنطرة القديمة تبدو الآن بكامل بنائها
الصخري القديم! لكن العين لم تظهر: "لن تعود الجمال المحملة
بالقمح والشعير، ولن يعود الصبية للجري وراءها إذن.. وعاد
المزارعون وأصحاب الأراضي إلى الوادي.. عادت الجرّارات
والمحاريث الآلية وبدأت تعيد ما جرفه الطوفان! وتضم حوض
الوادي وحماه! أعادوا الحواجز والسيارات والأسلاك وضموا الوادي
إلى أحوازهم من جديد!.. لكن الجيش الإسرائيلي فجأهم بجرّاراته
وبلدوزاته الضخمة الشرسة! أزاح ما وضعوه! وشرعت الجرّافات
في تنظيف الوادي وتهيئته وتعبيده وأمرت المزارعين بالعودة إلى
حدودهم!

قال الحاكم العسكري لأعيان القرية وأصحاب الأراضي:

- عليكم المحافظة على القانون! هذه ليست أراضيكم، لماذا تعتدون عليها و"تغتصبونها"!!

- لكننا حرثناها وزرعناها أكثر من عشرين عامًا!

- هذه أراضي الدولة "أراضي وقف" ومن يعتدي عليها سيعاقب سنشق طريقًا في الوادي يستفيد منه الجميع..

وتحوّل الوادي إلى طريق عسكري.. وعند العريزة أقاموا نقطة مراقبة كبيرة، فانتقل المطاردون المثلثون إلى غرب القرية!!
في الصيف عاد شادي من مصر.. وفي المساء فك ثلاث بطانات من سراويله ثم وضع النقود التي كانت بداخلها أمامي.. فسألته باستغراب:

- ما هذه النقود؟

- هذه من أم ثائر!

- من؟ كوثر العرابي؟

- نعم من السيدة العظيمة كوثر العرابي.. وهذه رسالة قصيرة منها.. على فكرة هناك أضعاف النقود مع زملائي، سأحضرها بعد أيام.. المبلغ يشمل النقود التي أخذتها من ذلك الهارب الجبان..

- ومن أين تعلمت إخفاء النقود بهذه الطريقة؟

- منك!

- مني أنا؟ متى رأيته أخفي النقود بهذه الطريقة؟!

- بل أخفيت ما هو أخطر من النقود.. الرسائل التنظيمية السرية! هل تذكرين؟ الرسالة التي سألوكِ عنها؟!

وقرأت رسالة كوثر، كانت كوثر العراقي عظيمة فعلاً - كما عرفتها
- امرأة مفعمة بالحب والانتماء.. والأمل:

"..نتابع أخباركم بكل جوارحنا ومشاعرنا وقلوبنا! نهتف وندعو لكم
ونفخر بكم ونعتز بالانتساب إليكم.. الأولاد كبروا يا عزيزة، يا أم
شادي، ويشتاقون إلى رؤيتكم، ويتمنون أن يكون اللقاء بكم قريباً،
في فلسطين، لا خارجها!.. على فكرة يا عزيزة، ابنك شادي شاب
ممتاز.. مثلك!.. قضينا معه وقتاً ممتعاً، والأولاد تعلقوا به وأحبوه
وينتظرون عودته بشوق!.. بالنسبة للهدية أرجو أن توزعيها
بمعرفتكم، فأنا أثق بك، وسأنتهز كل فرصة لأرسل لكم مزيداً من
الهدايا..

وتقبلي تحياتي وأشواقي.. وقبلاتي!

"أختك أم ثائر الربيع"

سلمتُ النقود إلى مفيد السمّك، وأعطيته فكرة عن كوثر العراقي
وعن زوجها الشهيد خالد الربيع! وجهزنا كشفاً بأسماء الأسر التي
سنوزع النقود عليهم!.. وسألني مفيد فجأة:

- هل صحيح أنك سميت على اسم عين العزيزة؟

- ياه.. هذه حكاية قديمة.. ما الذي يذكرك بها اليوم؟

- كيف تتذكرين تلك العين؟

- أتذكرها؟! أنا أعيشها! أول مكان فتحتُ عيني عليه ووجدته في
حياتي هو تلك العين الساحرة المجنونة! الصبية والكروم والرعاة
والعصافير الملونة والجديان المتقافرة وشجرات التوت، والقبرصية

القوية الصلبة وعوض الشّاهد.. وإبراهيم والبركة.. إنها حياتي،
طفولتي وصباي!! لكن لماذا تسأل بعد هذه السنين؟ لست من القرية
لتتعلق بها وتهتم بحكاياتها!

- أشعر أنني أعرف تلك العين منذ زمن! عندما أعاد الناس سيرتها
بعد الفيضان، تعلقت بها وأصبحتُ شغوقاً بها!! هل تصدقون إذا قلتُ
إنني أراكُ تنبثقين منها.. حورية..
- ها!!

- تنادينني.. ثم تقبلين عليّ وتأخذينني من يدي إلى مكان بعيد!
- مكان بعيد! ما هذه التخيلات أيها الفدائي المطارد؟! هل تجد الوقت
للنوم حتى ترى مثل هذه الهلوسات والأحلام؟!
- هذه ليست هلوسات يا عزيزة، أنا أحبك، نعم أحبك!..
وعندما عدتُ إلى البيت جاعني إبراهيم الشّاهد:
- "لماذا سموكِ العزيزة؟

- كان أبي من عشاق العزيزة!
- العين أم العاشقة؟

- كليهما! كان متيمّاً بالعين التي أطفأت ظمأ الحصادين والحرّاثين..
دغدغ جسمي وعصرني.. فجثمتُ على ركبتَي وسقطتُ السلة من
يدي وتبعثرتُ حبات الخوخ.. فلهثتُ متوسلة:

- برّهوم كفى.. كفى .. اتركني.. اتركني يا برّهوم..
ونظرتُ إلى الشرق، تجاه البركة، وأطلقتُ الصفيّر وانتظرت.. لكن
أحدًا لم يجبني.. فعدتُ إلى النوم.

إبراهيم الشاهد

عندما جلسنا تحت شجرة التوت الكبيرة في حديقة المعهد التفت حمدي، مدرس الكيمياء المصري حوله، ثم قال:

- اسمعوا هذه النكتة التي وصلتني حديثاً.. هذه النكتة على..

التفت حوله مرة أخرى، ومدَّ رقبته نحو الإدارة، ثم أردف:

- النكتة على صاحبنا.. ها؟ صاحبنا ونائبه: طلب النائب من الحاكم

أن يمكنه من حكم البلاد لمدة سنة! فسأله الحاكم: وهل تستطيع حكم

هؤلاء الناس والسيطرة عليهم؟!... يعني هل أنت متأكد من قدراتك؟!!

فأجابه النائب بثقة نعم! فقال الحاكم، إذن أختبرك أولاً، وإذا نجحت

في الاختبار، أسلمتك الحكم ثلاث سنوات وليست واحدة! وفي اليوم

التالي أمر الحاكم باحضار سيارة حديثة، سلّمها لنائبه، وسلّمه معها

كيساً يحوي بداخله عشرة فئران! وطلب منه أن يوصلها سليمة إلى

حاضرة البلاد الثانية! ففرح النائب بهذا الاختبار السهل، تناول الكيس

وربطه بالحكام ثم وضعه في صندوق السيّارة، أغلق الصندوق ثم طار

ناهباً الأرض نحو الشرق! في حين أفلع الحاكم بالطائرة ليكون في

انتظار الفئران السليمة! ووصل النائب في زمن قياسي! وبسرعة فتح صندوق السيارة ليسلم الحاكم الفئران، حسب الاتفاق، لكن، ويا للمفاجأة، لم يجدها! هربت الفئران، قرضت الكيس وهربت جميعها!! فغَرَ النائب فاه مندهشاً مما حدث، لكن الحاكم ابتسم، وقال لنائبه: تعال، اصعد إلى جوارِي، لتتعلم كيف توصل الفئران ولا تدعها تهرب! ثم انطلقا عائدين بالفئران الجديدة إلى العاصمة!!... وبعد بضعة كيلومترات توقف الحاكم، فتح صندوق السيارة ورجَّ كيس الفئران ثم واصل انطلاقه! وكرر فعلته هذه عدّة مرات، حتى وصلا إلى العاصمة! وهناك فتح الحاكم صندوق السيارة وأخرج الفئران العشرة، ثم عدّها في حجر نائبه دائخة!!... نظر النائب إلى زعيمه بإعجاب، ثم قال: الآن فقط، تعلّمت كيف يُحكم الناس وكيف تتم السيطرة عليهم! إنها نظرية رائعة "نظرية الفئران الدائخة"!!... وعلق أحد المدرسين الجدد:

- هذه ليست نكتة، هذه مصيبة! كلهم يرجون شعوبهم، كلهم يدوخونها!

وقال مدرس آخر:

- طبعاً كلهم! البعض يدوخ شعبه بالحروب والدخول في متاهات العدو الخارجي والدفاع عن حياض العروبة! ثم اعتبار الدول الشقيقة حليلاً له!

- والبعض يدوخ شعبه بإغراقه في أوهام العظمة والتفرد والنظريات العبتية و"الأغاني الثورية" التي تبحث عن الملايين!

- والبعض يدوخ شعبه بأخرة الدين وشرف الحسب والنسب
وقدسية ولي الأمر وتحويل البلاد إلى مزارع خاصة.. كلهم!
- والبعض يدوخ شعبه بالضائقة الاقتصادية والدوران زي الساقية
في دوامة البحث عن لقمة العيش وحل أزمة السكن وأزمة
المواصلات وأزمة العيش والزواج
- والبعض يدوخ شعبه بإغراقه في الترف والفساد وتجارة الرقيق
الأبيض وإشباع الغرائز!..

وهمستُ لنفسي "لم يبقَ لنا سوى النكات والطرائف! ليتها تجدي! منذ
عشرين عامًا، وأكثر، وأنا أسمع مثل هذه النكات والطرائف التافهة!!
ولم تتغير هذه الأمة! لا، بل تغيرت إلى الأسوأ!..".

تغيرت أحوالنا بعد حادثة دهس مصباح الحامدي! نزلت علينا
المُسكّنة فأخرستنا وحوّلتنا إلى أجسام هامدة صامتة!.. تحوّل كاظم
عبد الجبّار إلى هامس مبجوح! وأمين تاجر السر توقف عن أسئلته
المثيرة، ولم يعد يشارك في الحوارات.. والطرائف! وأنا، تحوّلتي إلى
مراقب، شاهد، لا يحرك سوى رأسه ويديه!!.. أما هؤلاء الشباب،
المدرسون الجدد فما زالوا يتحركون ويضحكون ويصرخون بالنكات
والتعليقات والأحلام.. مساكين! لم يتعرفوا بعد على مواقع أقدامهم
وحُدود ألسنتهم! ما زالوا - كما كنا - يُفجرون غضبهم ومكنونات
صدورهم عن "أنظمة القمع والتسلط"!!.. لم يكتشفوا بعد الحقيقة! لم
يفهموا، أنهم في بلد لا يختلف عن بلدانهم إلّا في الجغرافيا واللباس،
وأنَّ أنظمة القمع والتسلط واحدة، وإنَّ تغيّرت أسماؤها وأدواتها!!..

وهمس فؤاد رمضان:

- لا تنسَ موعدنا الليلة.. الجماعة موافقون على الاقتراح ويريدون مناقشة بعض الترتيبات!..

كانت فكرة "جمعية دعم الأسرة الفلسطينية" قد نبتت في رأسي بعد مواجهة مشكلة أحد الطلاب الفلسطينيين بالجامعة.. كان فقيراً معدماً، وانقطعت به السبل بعد استشهاد شقيقه!.. وشعرتُ أن "الجالية" في حاجة إلى جمعية، خاصة أنني علمت أن هناك عدداً آخر من الطلاب الفقراء، وأسراً مات عائلها الوحيد وتعاني في معيشتها ويتصدق عليها البعض من حين لآخر! لماذا لا نحفظ كرامة هذه الأسر ونأخذ بيد هؤلاء الطلاب ونكون عوناً وحافظاً لهم من الانحراف.. والإتهيار؟! جمعية تقوم بدور اجتماعي إنساني فقط!..

وسألتُ الأستاذ عبد الجليل بعد أن شرح أهداف الجمعية ووضّح شروط نجاحها:

- كم عدد الفلسطينيين الذين يحصلون على دخل في هذه البلدية.. المدينة والنجوع والقرى؟ المدرسون والموظفون والعمال والمزارعين!.. كم؟ هل هناك إحصائية؟!

- طبعاً! حوالي خمسمائة من جميع الفئات! لكن عليك أن تلاحظ أن دخولهم متفاوتة، ومنهم من دخله غير منتظم!.

- ما رأيكم لو جعلنا الاشتراك عشرة دنانير؟

- لا! عشرة كثير على الحرفيين والعمال.

- يعني خمسة؟!

- نجعلهُ اختياريًا على العمال والحرفيين، وعشرة على الموظفين ثابتي الدخل!

حددنا الأسر المحتاجة فوجدناها سبعة أسر، وعندما أردنا تحديد الطلبة المحتاجين قال عبد الجليل:

- اسمعوا الطلاب المحتاجين فعلاً أربعة.. اتركونا من أولئك المستهترين، "الدشّر" تبعين البنات والسجاير! عندما يعقلون ويعتدلون ننظر في أمرهم! بعدين، المبلغ المرصود للطلاب يجب أن يكون نصف المبلغ المرصود للأسرة.. الطلاب يقيمون في السكن الداخلي ويتوفر لهم الأكل والشراب.. وهناك ملاحظة أخرى، توقعوا أن يمتنع البعض عن المشاركة والدفع..

- هه.. والله بنقاطهم ونعتبرهم مش منا!

- لا.. لا ليس لهذه الدرجة يا جماعة.. قد يتردد بعض الناس، ويظن أن الموضوع لعبة، يعني! لكنني متأكد أنهم سيعودون ويشاركونا بعد فترة!

واتفقتا على أن يكون المبلغ المقدم للأسرة مئة وخمسون دينارًا والمبلغ المقدم للطلاب هو سبعون دينارًا!.. وتمّت تركيبة لجنة لإدارة الجمعية، وأصروا على اختياري أمينًا لها.. عندها قلت:

- بصفتي الآن أمينًا للجنة الإدارة، فأول اقتراح هو أن يتبرّع كل عضو من أعضاء اللجنة الموقرة بمئة دينار لصندوق الجمعية لتكون أول رصيد لدينا.. وهذه مئة دينار مني، خذ يا أمين الصندوق.. وتناول فؤاد رمضان المبلغ وهو يعض شفتيه.. وعندما خرجنا من

بيته استوقفني عند الباب، ثم قال مرتجفاً:

- لو يعرف أنك ستقترح التبرع بمئة دينار لما قبلت المشاركة في عضوية اللجنة! ضحكت علينا يا أبو ناصر!

- ضحكت عليكم! عضوية اللجنة مش للوجاهة يا أبو رمضان! نحن أول ناس يجب أن ندفع ونضحى ونحس بالناس! بعيدين طلع شوية من المصاري وبلاش بخل! كل الناس بتعرف أحوالك الممتازة والدولارات اللي بتحولها! بتعرف إنك تتاجر في الخضار والفواكه مش بتدرّس وبس ويتضمن مزارع ها! أحكي كمان ولا خلص؟!...

- خلص.. خلص! بس مية دينار كثير.. حرام!

جاءت "جمعية دعم الأسرة الفلسطينية" لتضعني في تجربة جديدة! تجربة عملية ومفيدة! تجربة تلمس آثارها ونتائجها في عيون الناس ونفسياتهم وأحوالهم!! شعرتُ بثمار تلك التجربة عندما عاد الاعتبار لتلك الأسر التي أوشكت على الانهيار! وشعرتُ بجدوى ما فعلناه عندما ارتفعت معنويات الطلاب بعد أن كانوا يقتربون من التحول إلى متسولين! اجتهدوا، وثابروا وحصلوا على الدرجات العالية وتفوقوا في دراستهم! شعرتُ بقيمة ما فعلناه عندما جنّم الطلاب المستهترون أمامنا، بكوا وندموا على تصرفاتهم واستهتارهم، أقسموا على المصحف ووضعوه على جباههم، وأقسموا بأرواح الشهداء أنهم لن يعودوا إلى تصرفاتهم السابقة مرة أخرى!!...

أنقذتني الجمعية من تلك النقاشات والتشنجات العقيمة فهدأت نفسي واطمأنت! وشعرتُ بدفع البيت والأسرة والعلاقة الإنسانية! لكن

أمين تاج السر وكاظم عبد الجبار حسداني على هذه النعمة وجاءا
ليزعزعا هدوني واستقراري مرة أخرى:

- جننا نطرح عليك موضوعاً..

- خير؟

- معروض علينا - نحن الثلاثة - السفر إلى بريطانيا!

- بريطانيا؟ ومن الذي يعرض علينا رئيس الوزراء البريطاني؟!

- بل مصباح الحامدي؟

- ماذا؟ ألم يسافر إلى هناك من أجل العلاج؟

- تعافى، وقرر الإقامة هناك.. أنشأ دار نشر ومجلة وطلبنا معه..

وأنت بالذات "ذلك الأديب، صاحب القلم الرشيق اللاذع"!

- بريطانيا! ومجلة أكتب فيها على راحتى؟! عرض سخى! سخى

جداً! فرصة العمر!!

- بالنسبة لي لن أتردد! لا أمل في العودة إلى العراق، يبدو أن صدام

باق على قلوبنا لفترة طويلة، بعد غزوه للكويت، ضمنوه لسنوات

طويلة حطموه وكسروا عموده الفقري ولا أعتقد أنهم يفضلون

اختفائه الآن! سأذهب إلى بريطانيا لن أفوت الفرصة!

- وأنا كذلك، هذه فرصتي لأكمل دراستي في مجال الكمبيوتر.. هناك

جالية سودانية كبيرة، سيكون وضعي هناك أفضل، والوضع هنا

أصبح لا يطاق لم أعد أحتمل..

"الوضع هنا لا يطاق يا أمين" هذا صحيح! ولكن، أنا الفلسطيني

الطريد، متى كنتُ في وضع يُطاق ومتى كان لي خيار أن أحتمل أو لا

أحتمل؟!.. أنتَ ستكمل دراستك وتحتمي بجاليك السودانية، وبالتأكيد ستلتحق بحزبك الذي تتواجد قيادته هناك! وعندما تتهيأ الظروف تعود إلى السودان، منتصراً! وكاظم سيحتمي هو الآخر بالجالية والمعارضة العراقية المتزايدة هناك! ويربط مصيره بمصيرهم! ومصباح الحامدي ستحميه بريطانيا ونفوذ المعارضة الليبية التي أنشأت له دار النشر والمجلة! وأنا؟ سأنتقل إلى منفى جديد وأعلم أولادي أبجدية جديدة، ولن يحميني أحد ولن يرضى عني أحد، ولن أستطيع ربط مصيري ومستقبلي بأحد!!..

وهمست:

- كاظم، نريد سهرة عراقية..

- فدوة لعيونك بوناصر.. أحلى سهرة وخوش وداع..

والتقينا.. تجمّع أكثر من عشرين شخصاً في بيت الطبيب العراقي ورّاد، بعيداً عن العيون! حيث كان البيت في مساكن محطة التحلية القريبة من أولاد عجيبة!.. بدأت السهرة ببعض الأغاني السودانية الخفيفة والمواويل المصرية، ثم انطلق مهندس فلسطيني من نابلس بموَال بغدادِي شجي:

أووف.. أووف.. أووف..

لي خلةٍ يا ناس في ساعة الشدّات باعوني

من بعد ما كنت عندهم معزوز باعوني

وأيش ذنبي اللّي جرى حتى هم اليوم باعوني

وانتفض كاظم عبد الجبّار، التفت إلى صاحبيه.. حنّ الكمان العراقي،

ونقر صاحب الطبلّة الصغيرة العجيبة بأصابع كالملاقط.. ورد كاظم
على موّال الفلسطيني:

آه.. آه.. آه.. يا يابه..

اللي مظيّع ذهب بسوق الذهب يلقاه
واللي مظيّع محب سنة واثنين ينساه
بس المظيّع وطن وين الوطن يلقاه
وهتفنا: وين.. وين.. وين.. ورشفنا من كووسنا ودموعنا.. وهبّ
بعضنا يؤدي رقصة المذبوح:

يا هويدا لك يا به يا هويدا ليّه

والعشق من الله من الله وأنا أيش بأيديه

ثم ناح كاظم مرة أخرى ليجهّز على من بقي منّا متماسكًا:

آه.. آه.. آه.. يا بو ناصر

وإنّ الذي بيني وبين بني أبي

وبين بني عمي لمختلف جدّا

فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم

وإن هدموا مجدي بنيت لهم جدّا

وصرخت: كفى.. كفى أيها المقتع الكندي! بنينا أوطانهم فضيّقوا

علينا وأذلّونا.. فضلّوا علينا جالبات الإيدز والبغايا والقوّادين.. كفى..

كفى!!.. وامتدت السهرة مشتعلة بالآهات والتنهيدات حتى منتصف
الليل..

وسألتني فؤاد رمضان عندما غادرنا منزل الطبيب العراقي:

- ما الفرق بين من ضيّع وطنه ومن ضيّعه الوطن؟
- هو الفرق بيننا وبينهم، لكننا اجتمعنا جميعاً على الضياع وفي الضياع.. كلنا ضائعون مضيعون يا فؤاد.. كلنا!!
- لابدّ أن أعترف الآن أن فرصة بريطانيا العظمى، كانت معلقة بفرصة أخرى للعمر! أمل، ظل معلقاً متأرجحاً ثلاث سنوات في خيط واهن، لكنه ظل يتأرجح مثل فانوس علاء الدين السحري أمام عيني! وعيون أولادي!!.
- عندما حضرت أمي مع وائل، ابن أختي، أقامت معنا شهراً كاملاً! كان شهراً مفعماً بالدفع والمودة ورائحة القرية والطابون وذكريات الكروم والأيام الزاهية الحلوة، التي لن تعود!!.. أسعدتنا أم إبراهيم وأعادتنا إلينا الروح شهراً كاملاً! أعادت إلينا الروح وزرعت فينا الأمل! قالت، وهي تعدّ "فطائر اللحم بالسبانخ" التي طلبها أصدقائي مرة ثانية، بعد أن تذوقوها:
- في ناس يا إبراهيم عملوا لم شمل لأولادهم، وروّحوا! أولادهم كانوا غاييين أكثر منك يمّه! ابن عطايا مش غاب أكثر منك؟ وابن سلمان، مش غاب أكثر منك؟
- آه يمّه، حمدان عطايا كرّاز وشاكر سلمان أبو كرش متغربين قبلي.. قبلي بحوالي ثلاث سنوات!
- طيب، يعني إذا عملنا لك لم شمل بتروّح يا إبراهيم؟!
- أيش؟ بروّح طبعاً، بروّح يمّه! بس ميكونش لم الشمل عن طريق العملا..

- لا يَمَّه! أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، إحنا مالنا ومال العمل، الله يكفيننا شرهم.. إحنا بنقدم حالات إنسانية! يعني الوالد متوفي والولد المطلوب لازم يكون عزّابي، براسه!.. اسمع يا إبراهيم حضّر أوراقك وصورك وبنقدم لك! إحنا مش خسرانين حاجة يَمَّه! بنقول إنك عزّابي، يعني همّه أيش بعرفهم.. معلش يا بنتي يا سميرة الضرورة إلها أحكام!

- هه.. أنا زُعالة يا عمتي؟ يا ريت إبراهيم يروح وبعدين بفرجها الله! يا ريت!!..

فجأة، بعد سبع سنوات من القطيعة، وصلتني رسالة من عبد الله الشريف وكانت من بريطانيا أيضاً!.. كان عبد الله قد تحوّل إلى داعية جهادي كبير.. تبادلنا الرسائل والأفكار، لكنه أصرّ على معتقده الجديدة، ودعاني إلى التوبة والعودة إلى الطريق المستقيم!.. وردد بعض العبارات عن "عبد الناصر الشيوعي الذي ذبح المسلمين وعلقهم في أعواد المشانق" وعن "القومية العربية التي أسسها الاستعمار وعملاؤه من الماسونيين والنصارى الحاقدين على الإسلام والمسلمين!.. و"إن عدونا الأول هم الروس والشيوعيون الملحدون والهندوس الكفار.. ومن الواجب الديني الجهاد ضدهم، لنظهر بلاد المسلمين منهم!".. لكنه لم يذكر شيئاً من ذلك في رسالته الجديدة! تحدّث برقة وشاعرية عن الصداقة وأيام الجامعة، ثم تحولت رسالته إلى دراما مرعبة "ما أقسى أن يكتشف الإنسان بعد سنوات طويلة أنه كان ضحية لكذبة كبيرة، خدعة

محبوكة متعددة الخيوط؟! وأنَّ من استخدموه واستغلوه لم يكونوا ملائكة - كما تصورهم! لم يكونوا أصحاب مبادئ، ولم يكونوا يدافعون عن الإسلام، بل كانوا يستثمرون الإسلام ويتاجرون به! سنوات مريرة من الخداع والزيف يا إبراهيم.. لم أكن أتصور أن أصحاب اللحى والابتهالات والشعارات هم فئة من التجار! نعم الذين أرسلوني إلى أفغانستان فئة من التجار تحت غطاء الدين والعقيدة، والذين استقبلوني كانوا تجارًا للأفيون والسلاح والأرواح! كلهم منتفعون ومشعوذون!.. في الحقيقة هناك عدد كبير من الشباب الطاهر النقي النظيف.. كثيرون.. من الأفغان والعرب والباكستانيين وغيرهم! كثيرون يحملون نفوسًا طاهرة وقلوبًا عامرة بالإيمان، لكنهم أصبحوا أسرى للجغرافيا والحرب! يخضعون لسطوة أولئك الأمراء المتاجرين! أنا أكره الروس الملحدين، وسعيد باندحارهم من أفغانستان، لكنني أتساءل الآن، هل كان الروس أعداءنا الوحيدين؟! وأتساءل: لماذا أبعدونا عن فلسطين؟! لماذا أبعدونا عن محاربة إسرائيل؟! هل تصدق إذا قلت لك أنني كنت مخدّرًا؟! نعم! وإلا كيف اقتنعت للحظة أن الجهاد في أفغانستان أهم من الجهاد في فلسطين؟ كيف جمعت الأموال وجازفت وقاتلت من أجل أفغانستان وليس من أجل فلسطين؟!.. والمصيبة أنني اكتشفت ذلك بعد قوات الأوان.. بعد أن أصبحت قعيدًا مثلولاً!.. بعد أن فقدت ساقِي ولازمت كرسيًا متحركًا!.. وها أنا أعزي نفسي بالدراسات العليا! هنا في مدينة الضباب والمعارضات.. والمضاربات! أنهيت رسالة الماجستير وأعدّ

لرسالة الدكتوراه!.. صديقك المقعد المشلول سيكون "دكتور" في الفيزياء!.. إبراهيم، يغمرني شوق إليك، وأعتذر لك عن قسوتي في خطاباتي السابقة!.."

فتحت رسالة عبد الله الشريف عليّ أبواب الحزن.. والذكريات! رابع الجوالين أصبح مقعداً! كان تائهاً بجسمه السليم، والآن صار مقعداً بصحته الجديدة! يا لسخرية الأقدار!.. نسي الدرويش نفسه، أسلمها لطوفان الأبخرة والتعاويذ والمسابح والخداع، فجرفه الطوفان ثم ألقاه كسيراً وحيداً! لم يتزوج الدرويش ولم ينجب أطفالاً، ولم يحقق نصراً.. ماذا يفعل بالنقود التي ادخرها والشهادة التي سيحصل عليها؟!.. كان عبد الله الشريف أظهرنا نفساً وبدناً.. وتمت:

- عبد الله الشريف لا يستحق هذه النهاية... هيبه أيها الجوالون، هذا مصيركم: شهيد وفاسد وقعيد وشاهد!!

وعندما طويت الرسالة انتبهت إلى ابنتي لُمى وهي تقترب مني:

- بابا.. بدّي أطلب منك طلب إذا كنت تحبني وتحبنا

- يا سلام! أحبكم؟ وهل تشكون في ذلك؟

- لا تسافر إلى بريطانيا بابا! بدّناش نروح على بريطانيا! بدنا نرجع بلدنا، نرجع لغزة.. خلينا نصبر شوية!

وسافر كاظم عبد الجبار وأمين تاج السر إلى لندن، وتركاني في بئر العريضة! وفي الصيف، عاد وائل ابن أختي من الأرض المحتلة، عاد من غزة، لكنه لم يحمل في جعبته أخباراً مفرحة، بل عاد وفي جعبته طرفة مريرة موجعة!

- لن تصدقوا ما حدث! بعد مراجعات كثيرة، طلبوا جدتي أم إبراهيم لمقابلة الضابط الإسرائيلي المختص وسألها:
- هل ابنك إبراهيم متزوج يا حاجة؟
- لا! ابني عازب، مش متزوج يا خواجه!
- انتي متأكدة يا حاجة أنه ابنك مش متزوج ولا عنده أولاد؟
- آه متأكدة، معندوش أولاد يا خواجه!
- طيب يا حاجة إحنا بدنا نجيب لك ابنك بدنا نوافق على طلبك بس بدنا منك تعملي حاجة بسيطة! تعالي قربي يا حاجة قربي، إحلفي على القرآن، هون على هذا المصحف.. احلفي أنه ابنك إبراهيم عوض الشاهد أعزب وغير متزوج وليس لديه أولاد! يا الله.. احلفي!
- مصحف وقرآن! لا! أحلف على المصحف لا!
- خلص! بدكيش تحلفي، طلبك مرفوض!
- وضحكنا، حتى دمعت عيوننا وغطت قلوبنا.. وقطع الحبل الواهن الذي علقنا به ثلاث سنوات، وضاعت فرصة أخرى!
- وفي المساء، جلسنا نشاهد أخبار الانتفاضة! كان هناك تقرير مصور، وفجأة صرخت سميرة:
- انظروا، إنها عزيزة الخيال، نعم هي عزيزة! أنظر يا إبراهيم كيف تقاومهم وتدفعهم في صدورهم! أليست هذه قريبتكم يا إبراهيم؟! إنهم يضربونها مسكينة! يغمرها الدخان..
- بعد التقرير ردد التلفزيون ما تسرب عن أخبار "المفاوضات السرية بين منظمة التحرير وإسرائيل"! علقت سميرة وسألت لى وتحديث

ناصر، لكنني بقيتُ صامتًا!. ثم همست: أوهاهم جديدة!!..

وعند منتصف الليل (كانت الليلة الخامسة عشرة من شهر آب - أغسطس) نام الجميع وسهرتُ في الحاكورة وحيدًا!.. واستدار القمر وطلَّ جميلًا باهرًا! ونظرتُ نحو الشرق، نحو العريزة، فجاءت..

جاءت ممشوقة تدبُّ في أخاديد الأرض، وقد ضُفرت شعرها في جديلة طويلة! وقفتُ قبالي وقلتُ بنبرة متحفزة:

- لماذا تأخرتَ يا إبراهيم.. أين كنت؟

- كنتُ أبحثُ عنك..

- تبحثُ عني أم عن العاشقة المجنونة؟ رأيتهُ عند العين.. كنتُ تنتظرها يا إبراهيم!

ومددتُ يدي أتمسكها وأسترضيها، لكنها جفلتُ وابتعدتُ! همستُ:

- عريزة تعالي.. هيا نعود إلى القرية قبل أن يكتشفوا غيابنا، قبل أن تصحو القبرصية ويصحو عوض الشاهد.. هيا!

أومأت برأسها رافضة ثم ابتعدتُ.. ابتعدتُ وصعدتُ.. ثم اختفتُ.. ولم تترك وراءها سوى جديلة من دخان..





د. علي عودة

- § من مواليد بلدة بيت حانون- شمال غزة - فلسطين، في عام ١٩٤٦.
- § أستاذ الأدب والنقد بجامعة القدس المفتوحة - غزة- فلسطين.
- § حاصل على شهادة الدكتوراه في الأدب والنقد.
- § شارك في عدد من المؤتمرات الأدبية والعلمية العربية.
- § كتب ثلاث مجموعات قصصية وثلاث مسرحيات وثلاث روايات، إضافة إلى عشرة مؤلفات في الأدب والنقد.
- § نُشر له عدد وافر من البحوث والدراسات في المجلات العلمية المحكمة كما نشر له عدد من القصص القصيرة والفصول المسرحية في المجلات الأدبية والثقافية المختلفة.

§ البريد الإلكتروني : a.ouda@live.com

§ الإصدارات :

- إيقاعات على الغربية : قصص قصيرة . ١٩٨١
- الهبوط عند تقاطع الجروح : قصص قصيرة . ١٩٨٣
- أضواء على الثقافة المقاومة : دراسة . ١٩٨٤
- الفن الروائي عند جبرا إبراهيم جبرا : دراسة . ط١: ١٩٨٤
ط٢: ٢٠٠٣
- الحكماء والسكران : مسرحية . ط١: ١٩٨٥ - ط٢: ٢٠٠٣
- الزمان والمكان في الرواية الفلسطينية : دراسة . ط١: ١٩٩٠
ط٢: ١٩٩٧
- مقاطع من سيرة زهراوي : قصص قصيرة . ١٩٩٨
- بكاء العزيزة : رواية - الجزء الأول. ٢٠٠١
- بكاء العزيزة : رواية - الجزء الثاني. ٢٠٠٢
- بكاء العزيزة : رواية - الجزء الثالث. ٢٠٠٤
- الشاطئ ناظر : مسرحية . ٢٠٠٤
- ثلاثية بكاء العزيزة : رواية . شمس للنشر والإعلام، ٢٠٠٩



(+2) 02 27270004 / (+2) 01288890065

www.shams-group.net